

مجالس النبوة

في ذكر القرن الكريم وتفسيره

بينهج عملي وتروي جديد

المجلد الثاني

الشيخ الدكتور

محمد عيسى الكبيسي

راجع ومحقق سائله وفرع إدارته

د. وليد الحسيني د. إبراهيم الأنصاري د. محمد المصالح



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مَجَالِسُ التَّوْحِيدِ

فِي تَذْوِيلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَفْسِيرِهِ

بِسَبْحِ عَمَلِي وَتَرْوِي خَلِيدٍ

لِلْمَجْلَدِ الثَّانِي

الْشَيْخُ الدَّكْتُورُ

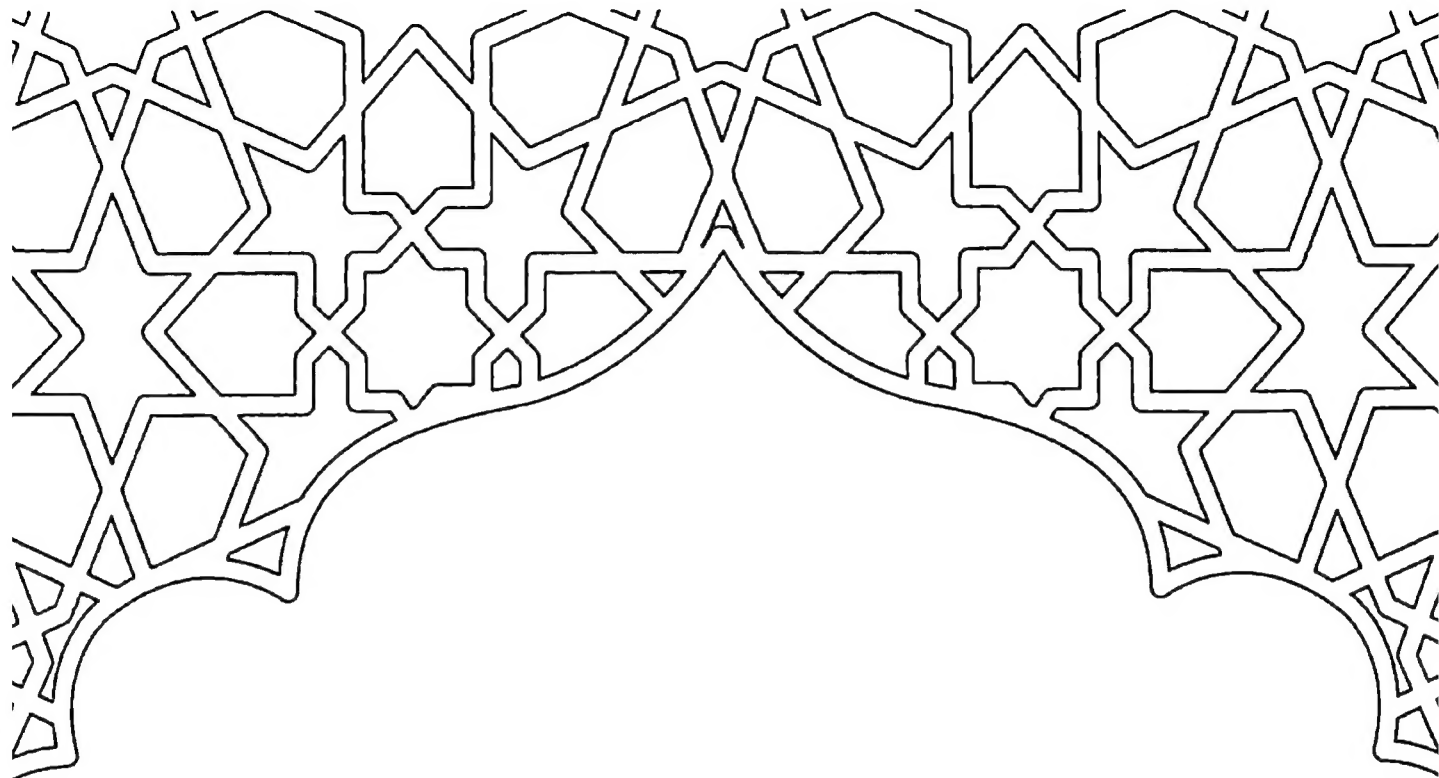
مُحَمَّدُ عَيْدُ الْكَبِيرِيِّ

رَاجِعُهُ وَمُفَقُّ سَانِلُهُ وَفَرَعُ أَهْلِيهِ

د. وَلِيدُ الْحُسَيْنِيِّ د. إِبْرَاهِيمُ الْأَنْصَارِيُّ د. مُحَمَّدُ الْمُصْلِحِ



دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press



المحتويات

المجلد الثاني

سورة التوبة

٥٣٠	بيان إنهاء العقود المبرمة مع المشركين	المجلس التاسع والسبعون
٥٣٨	الموقف من أهل الكتاب	المجلس الثمانون
٥٤٤	الموقف من المنافقين	المجلس الحادي والثمانون
٥٥٣	الموقف من المتخلفين عن المعركة	المجلس الثاني والثمانون
٥٥٨	أهل الإيمان	المجلس الثالث والثمانون

سورة يونس

٥٦٨	معالم الإيمان الحق	المجلس الرابع والثمانون
٥٧٣	حوار مع المشركين	المجلس الخامس والثمانون
٥٨٣	عاقبة الفريقين	المجلس السادس والثمانون
٥٨٩	الأنبياء السابقون في مواجهة الشرك والظلم	المجلس السابع والثمانون
٥٩٧	توجيهات ختامية	المجلس الثامن والثمانون

سورة هود

٦٠٢	الإيمان والإنسان	المجلس التاسع والثمانون
٦٠٩	نوح عليه السلام	المجلس التسعون
٦١٧	هود وصالح عليه السلام	المجلس الحادي والتسعون
٦٢٠	إبراهيم ولوط عليه السلام	المجلس الثاني والتسعون
٦٢٥	شعيب عليه السلام	المجلس الثالث والتسعون
٦٢٩	موسى عليه السلام وخاتمة القصص النبوي	المجلس الرابع والتسعون
٦٣٢	توجيهات ختامية	المجلس الخامس والتسعون

سُورَةُ يُوسُفَ

٦٣٦	المجلس السادس والتسعون	فتنة الحسد
٦٤٠	المجلس السابع والتسعون	فتنة النساء
٦٤٦	المجلس الثامن والتسعون	فتنة السجن
٦٥٤	المجلس التاسع والتسعون	فتنة الملك
٦٦٤	المجلس المائة	اللقاء بعد الفراق
٦٧١	المجلس الأول بعد المائة	توجيهات ختامية

سُورَةُ الرَّعْدِ

٦٧٥	المجلس الثاني بعد المائة	سبيل الهداية
٦٨٠	المجلس الثالث بعد المائة	التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل
٦٨٥	المجلس الرابع بعد المائة	خاتمة وتذكير بالحقائق الكبرى

سُورَةُ إِيزِ الْاِثْمِ

٦٨٩	المجلس الخامس بعد المائة	ومضات من سيرة النبيين ﷺ مع اقوامهم
٦٩٤	المجلس السادس بعد المائة	توجيهات إيمانية وتربوية

سُورَةُ الْحَجَرِ

٧٠١	المجلس السابع بعد المائة	معركة القرآن مع الكذابين
٧٠٤	المجلس الثامن بعد المائة	معركة الإنسان مع الشيطان
٧٠٧	المجلس التاسع بعد المائة	عاقبة الصراع
٧١٠	المجلس العاشر بعد المائة	توجيهات ختامية

سُورَةُ النَّحْلِ

٧١٣	المجلس الحادي عشر بعد المائة	دلائل التوحيد
٧١٨	المجلس الثاني عشر بعد المائة	عقيدة الجزاء
٧٢٢	المجلس الثالث عشر بعد المائة	اللبوة والرسالة

٧٢٥	المجلس الرابع عشر بعد المائة	حوار مع المشركين
٧٢٨	المجلس الخامس عشر بعد المائة	تتمة الحوار مع المشركين
٧٣٣	المجلس السادس عشر بعد المائة	بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم
٧٣٧	المجلس السابع عشر بعد المائة	تتمة بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم

سُورَةُ الْاِنْتِبَاحِ

٧٤٢	المجلس الثامن عشر بعد المائة	المسجد الأقصى
٧٤٦	المجلس التاسع عشر بعد المائة	المسؤولية الشخصية
٧٥٠	المجلس العشرون بعد المائة	بناء المجتمع المسلم
٧٥٥	المجلس الحادي والعشرون بعد المائة	حوار مع المشركين
٧٦٢	المجلس الثاني والعشرون بعد المائة	معركة الإنسان مع الشيطان
٧٦٦	المجلس الثالث والعشرون بعد المائة	معركة الحق والباطل

سُورَةُ الْكَافِى

٧٧٧	المجلس الرابع والعشرون بعد المائة	أصحاب الكهف
٧٨٦	المجلس الخامس والعشرون بعد المائة	قصة المؤمن مع صاحبه الكافر
٧٩٢	المجلس السادس والعشرون بعد المائة	قصة الصراع الطويل بين الحق والباطل
٧٩٦	المجلس السابع والعشرون بعد المائة	قصة النبي موسى مع الرجل الصالح ﷺ
٨٠٣	المجلس الثامن والعشرون بعد المائة	قصة ذي القرنين
٨٠٧	المجلس التاسع والعشرون بعد المائة	وقفات ختامية

سُورَةُ الْمُرْيسَمِ

٨١٢	المجلس الثلاثون بعد المائة	قصة زكريا ويحيى ﷺ
٨١٧	المجلس الحادي والثلاثون بعد المائة	قصة مريم وابنها المسيح ﷺ
٨٢٣	المجلس الثاني والثلاثون بعد المائة	شذرات من سيرة النبيين ﷺ
٨٢٧	المجلس الثالث والثلاثون بعد المائة	حال الخلفاء بعد أولئك النبيين

سُورَةُ طه

٨٣٤	المجلس الرابع والثلاثون بعد المائة	موسى عليه السلام : الإعداد والتهيئة الربانية
٨٤١	المجلس الخامس والثلاثون بعد المائة	موسى عليه السلام في مواجهة فرعون
٨٤٨	المجلس السادس والثلاثون بعد المائة	موسى عليه السلام مع بني إسرائيل
٨٥٥	المجلس السابع والثلاثون بعد المائة	يوم الحساب والجزاء
٨٥٩	المجلس الثامن والثلاثون بعد المائة	التذكير بالعهد الأول وتوجيهات ختامية

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٨٦٤	المجلس التاسع والثلاثون بعد المائة	تنبيه الغافلين
٨٧٠	المجلس الأربعون بعد المائة	حوار مع المشركين
٨٧٧	المجلس الحادي والأربعون بعد المائة	إبراهيم عليه السلام يقيم الحجة على بطلان الأوثان
٨٨٢	مجلس الثاني والأربعون بعد المائة	شذرات من قصص النبيين عليهم السلام
٨٨٧	المجلس الثالث والأربعون بعد المائة	العاقبة ونهاية الصراع

سُورَةُ الْحَجِّ

٨٩٣	المجلس الرابع والأربعون بعد المائة	عقيدة البعث والجزاء
٨٩٩	المجلس الخامس والأربعون بعد المائة	رسالة الحج
٩٠٥	المجلس السادس والأربعون بعد المائة	الصراع مع المشركين
٩١٢	المجلس السابع والأربعون بعد المائة	عقيدة التوحيد

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٩١٩	المجلس الثامن والأربعون بعد المائة	صفات المؤمنين
٩٢٣	المجلس التاسع والأربعون بعد المائة	دعوة النبيين السابقين
٩٢٨	المجلس الخمسون بعد المائة	دعوة النبي الخاتم ﷺ
٩٣٢	المجلس الحادي والخمسون بعد المائة	حوار مع المشركين
٩٣٦	المجلس الثاني والخمسون بعد المائة	عاقبة المكذابين

سُورَةُ النُّورِ

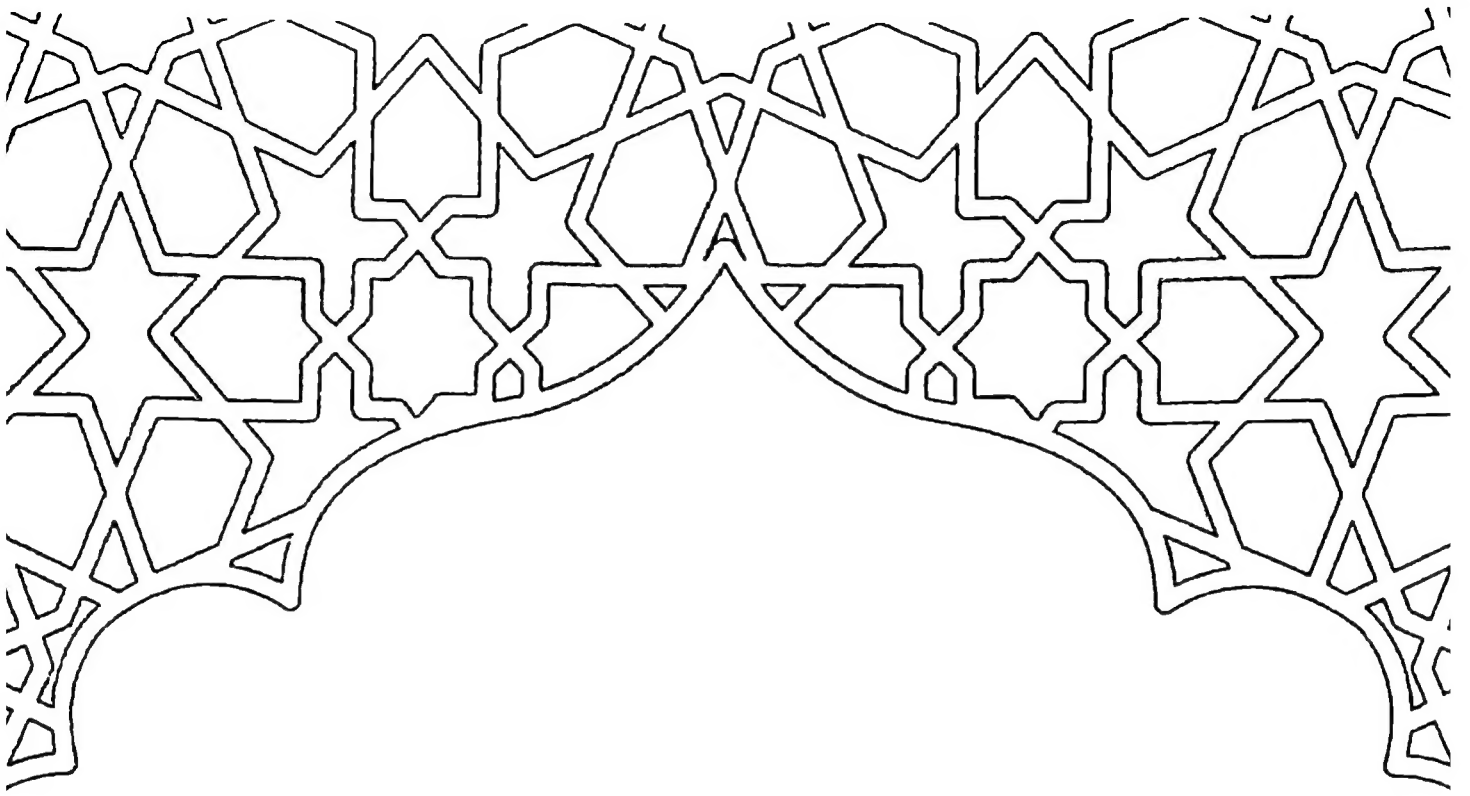
٩٤٠	حماية المجتمع من الرذيلة	المجلس الثالث والخمسون بعد المائة
٩٥٣	مجتمع النور	المجلس الرابع والخمسون بعد المائة
٩٦١	مجتمع الرحمة والأخلاق والانضباط	المجلس الخامس والخمسون بعد المائة

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

٩٦٨	الفرقان بين الحق والباطل	المجلس السادس والخمسون بعد المائة
٩٧٥	اسباب الغواية والضلال	المجلس السابع والخمسون بعد المائة
٩٨٠	دلائل الهدى المبثوثة في هذا الكون	المجلس الثامن والخمسون بعد المائة
٩٨٦	عباد الرحمن	المجلس التاسع والخمسون بعد المائة

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

٩٩١	مقدمة في دعوة نبينا ﷺ	المجلس الستون بعد المائة
٩٩٥	موسى وهارون ﷺ	المجلس الحادي والستون بعد المائة
١٠٠٣	إبراهيم ونوح ﷺ	المجلس الثاني والستون بعد المائة
١٠٠٩	هود وصالح ﷺ	المجلس الثالث والستون بعد المائة
١٠١٣	لوط وشعيب ﷺ	المجلس الرابع والستون بعد المائة
١٠١٧	دعوة نبينا محمد ﷺ	المجلس الخامس والستون بعد المائة



سُورَةُ التَّوْبَةِ

المجلس التاسع والسبعون: بيان إنهاء العقود المبرمة مع المشركين

المجلس الثمانون: الموقف من أهل الكتاب

المجلس الحادي والثمانون: الموقف من المنافقين

المجلس الثاني والثمانون: الموقف من المتخلفين عن المعركة

المجلس الثالث والثمانون: أهل الإيمان

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١ ﴿فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ٢ وَأَذِّنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْاْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ ٣ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَىٰ يَهْدِيهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ تَمَازُجِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٤ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا مِنْهُمْ وَاجْزَأُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْتَغِهِ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ٦ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَضَا لَكُمْ فَاسْتَقْبِلُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ٧ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأُقْرَبِهِمْ وَأَنَّىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ٨ أَشْرَوْا بِعَائِدَةِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ١٠ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتَفْصِيلُ الْأَمْرِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١١ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ١٢ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَفَّتْ بَنَازَتُهُمْ فَأَلَّاهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١٣ قَتِلُوهُمْ بِعَذَابِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ وَيَذْهَبُ عِظٌ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٦ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٧ إِنَّمَا يَقْرَأُ مُسْتَجِدُّ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَىٰ الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ١٨ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٩ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَقِيضٌ مُّقِيمٌ ٢١ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ٢٢ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ۚ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ٢٣ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَحْشَوْنَ كِسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٢٤ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ٢٥ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٧ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَاءَ فَسَوْفَ يَغْنِيْكُمْ اللَّهُ مِنْ فَسْلِهِ ۚ إِنْ شَاءَ إِلَهٌ ۖ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ٢٨ ﴿٢٨﴾

بيان إنهاء العقود المبرمة مع المشركين

البراءة من الشرك والمشركين نزلت مبكراً في مكة بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّابِعُهَا الْكَافِرُونَ﴾ (١)
 لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا
 أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿[الكافرون: ١-٦].

بل إن الدعوة إلى التوحيد من أساسها هي إعلان للبراءة من الشرك، ومقتضى (لا إله إلا الله)
 الكفر بالأصنام وبكل وثن يُعبد من دون الله، أما سورة التوبة هذه فموضوعها الأساس قطع
 العلاقات السياسية مع المشركين؛ ذاك لأن البراءة من الشرك التي نزلت في مكة لم تكن تستلزم
 قطع هذه العلاقات، بل العكس؛ إذ كان المسلمون يرفضون مبدأ المقاطعة.

وهذا ظاهرٌ من قصّة شعب أبي طالب؛ حيث كان إنهاء المقاطعة نصراً كبيراً للمسلمين، ثم
 بعد الهجرة وتكوين الدولة اتَّفَقَ الرسول ﷺ مع المشركين على الصلح لمدة عشر سنين وهو
 المعروف بصلح الحديبية، وهذه دلائل قاطعة على فك الارتباط والتلازم بين المفاصلة العقدية
 الدينية وبين المفاصلة السياسية والاجتماعية.

وعليه فإن سورة التوبة لم تأت لتأصيل مسائل العقيدة وما ينبني عليها تجاه الآخرين، بل
 جاءت لتأصيل فقه العلاقات في مرحلة النضج والقوة التي وصلت إليها الدولة المسلمة في
 أواخر العهد النبوي المبارك.

وقد استهلّت السورة بيان الموقف الشرعي من جبهة الشرك، وطريقة التعامل مع القبائل
 المشركة بعد كل ذلك التاريخ الطويل من الصراع والأخذ والرد، والسلم والحرب، وذلك كما
 يأتي:

أولاً: إنهاء العلاقات السياسية مع المشركين بشكلٍ كاملٍ وحاسمٍ ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى
 الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَأَذِّنْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ
 الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

ثانيًا: بيان أسباب البراءة والمفاصلة ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾، ﴿أَشْتَرُوا بِعَائِدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فهم لا يقفون بعهد ولا عقد، وقد استخدموا قوتهم لإكراه الناس على الكفر والصد عن سبيل الله، وهم من بدأ بالعدوان ﴿تَكَفَّوْا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَكَدْءُكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾.

ثالثًا: مقتضى هذه البراءة تحريم موالاتهم بأي صور الولاء، مهما كانت النوايا والأسباب ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

رابعًا: إخراج المشركين من المسجد الحرام ومنعهم منه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. وقد علل هذا بأن المشركين لا يؤمنون على رسالة المسجد؛ حيث أدخلوا فيه الأصنام، وإنما المسجد هو بيت الله وليس بيتًا للأصنام ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾.

وقد أبطل حُجَّتَهُم التي كانوا يتوسَّلون بها إلى أحقيتهم بالبيت، وهي الخدمات التي يُقدِّمونها للبيت وللحجيج الوافدين إليه ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وبهذا حسم الإسلام سيطرته على المركز الديني في الجزيرة العربية، ونزع من قريش أهم أسباب هيبتها وهيمنتها على الجزيرة.

خامسًا: إمهال المشركين أربعة أشهر من يوم إعلان البراءة ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ وقد تضمَّن هذا الإمهال ترغيبهم في التوبة ﴿فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

وهذا يعني: حرص الإسلام على إدماج هؤلاء في المجتمع المسلم، ومحو آثار الصراع والفتنة.
سادساً: إن أصرُّوا على شركهم والخروج بالقوة المسلحة عن سلطان الدولة المسلمة في جزيرة العرب، فإنه لا حلَّ معهم إلا القوة ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾، ﴿ وَإِنْ تَكْثَرُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ ﴾، ﴿ فَتِلْوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾.

سابعاً: استثنى القرآن من كلِّ هذه الأحكام حالتين من حالات المشركين:
الحالة الأولى: المشركون الذين لم ينقضوا العهود، ولم يُشارِكُوا بعدوان على المسلمين، فهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم، والاستقامة معهم ما استقاموا ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾.
الحالة الثانية: أفراد المشركين الذين ليس لهم شوكة، ويطلبون الحماية من المسلمين، فهؤلاء تجب حمايتهم ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثامناً: تنبيه المسلمين إلى خطورة الغرور بالقوة ونشوة النصر، وهذه آفة تُصيب كثيراً من حركات الإصلاح والتغيير؛ حيث تتكيس القيم، وتنتهك المبادئ التي انطلقت منها الحركة. وقد سجَّل القرآن هنا ما أصاب المسلمين بعد فتح مكة من هذه العوارض البشرية؛ ليكون الدرس البليغ للأمة على مدار أجيالها وأحوالها ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾.

ترك البسملة في هذه السورة جَارٍ على عادة العرب في صياغة خطابات الحرب، والإعلام بانتهاء الهدنة ومعاهدات الصلح، وهذا أقرب الوجوه، والله أعلم.

أما القول بأنها تكملة لسورة الأنفال، فيُثير أكثر من إشكال، من بينها: فتح المجال للقول بإمكانية الاجتهاد البشري في ترتيب السور، ثم إن خواتيم سورة الأنفال مختلفة في الصياغة والأسلوب عن أوائل التوبة، وسيكون الانقطاع واضحاً.

إضافةً إلى هذا، فإن سورة الأنفال تُعالج موضوعاً مختلفاً عن سورة التوبة، والفارق الزمني بين السورتين كبير؛ فالأنفال تتحدث عن معركة بدر، والتوبة تتحدث عن مرحلة ما بعد الحديبية ونهايات الصراع الطويل مع الوثنية.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هي من الله تشريعاً، ومن رسوله تبليغاً وتنفيذاً.

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ سيروا فيها آمين، وفيه إشارة للتفكير والنظر في العواقب، والأربعة أشهر هذه ليست هي الأشهر الحرم، بل هي مهلة متصلة منَحها الله للمشركين تبدأ من يوم إعلان البراءة، والمعلوم أن الأشهر الحرم ليست متصلة.

﴿غَيْرُ مُعْجِزٍ لِلَّهِ﴾ فالله قادرٌ عليكم أينما كنتم.

﴿وَأَذَنٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الأذان: الإعلام والإعلان.

﴿الْحَجَّ الْأَكْبَرِ﴾ وصف ملازم للحج لا على سبيل الاحتراز، فكل حج هو أكبر؛ إذ ليس هناك حج أصغر، وإن أُطلق على العمرة تجوزاً، ويوم الحج يحتمل وقفة الحجاج بعرفة، أو يوم النحر، ويحتمل أنه أيام الحج كلها، كما تقول: يوم القادسية، وهو ليس يوماً واحداً، والله أعلم.

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ورسوله بريء منهم أيضاً.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ إذا انتضت هذه المهلة، وهي المحددة بأربعة أشهر متصلة من يوم الإعلام بالبراءة، وهي ليست الأشهر الحرم المعروفة. وسميت حرماً؛ لأن الله حرّم فيها دماء

المشركين، ومنَحهم فيها الأمان والسياحة في الأرض.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ليست عامّة في كلّ المشركين؛ بدليل الاستثناءات الواردة بعدُ كما سيأتي.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ راقبوا تحركاتهم في كلّ مكانٍ وعلى كلّ طريق، ولا تسمحوا لهم بتجميع قواهم، أو التنقل كما يشاءون.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ استثناء من المقاتلة، وفيه دليلٌ أن المقاتلة إنما تكون للمشركين أصحاب الشوكة والقوة والمنعة، أما الأفراد فمقامهم مقام الرحمة والدعوة وحُسن الخلق، والأصل فيهم قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وأما أصحاب الشوكة فأولئك خارجون عن النظام، ومُتمردون فيجب إخضاعهم بالقوّة.

﴿فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: إذا استمروا على الوفاء بعهدهم فاستمروا معهم، وهو استثناء كذلك من حكم المقاتلة.

﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يظفروا بكم ويتغلّبوا عليكم.

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا يُراعون فيكم قرابةً، ولا رَحماً، ولا صلةً سابقةً، ولا عهداً مُبرّماً.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ منعوا الناس من الدخول في الإسلام.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ رغم كلّ ما فعلوه بكم، وهذا دليلٌ على أن باب الإيمان مفتوحٌ للجميع، ويتساوى الولاء فيه بين كلّ المؤمنين مهما كان أصلهم وفصلهم وتاريخهم، فالقتال في الإسلام له غاية إنسانيّة نبيلة، فهو ليس لتسلُّط شعبٍ على شعب، أو قبيلةٍ على قبيلة، وليس هو قتالاً ثأريّاً أو انتقاميّاً.

﴿فَقَاتِلُوا أَمَّةَ الْكُفْرِ﴾ لأنهم يحولون بين الناس وبين هداية الوحي، فلو أزيحوا عن الطريق لا هتدى الناس بلا مقاتلة ولا إكراه.

﴿لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ جمع يمين، وهو القسم، والمقصود به هنا: العهد، بمعنى: أن هؤلاء لا يحفظون عهودهم؛ ولذلك لا تقبل منهم.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ عِلْمُ اللَّهِ شاملٌ لا يحده زمان ولا مكان، والمقصود تحقيق ما يعلمه الله من أفعالكم؛ لأن هذا هو مناط الجزاء الذي تستحقونه.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ لأن عمارة المسجد بالحجارة لا قيمة لها إن كان فيها طمسٌ لرسالة المسجد، وإظهارٌ للشرك وعبادة الأصنام.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تأكيدٌ أن عمارة المسجد إنما تكون بالإيمان والعمل الصالح وحسن التعبُّد، فإن انتفت هذه فلا قيمة للمباهاة بالصرف على المساجد وتزيينها وزخرفتها، وإطعام الحجيج وسقايتهم، وهذا مُتَسَقٌّ مع أصلٍ كبيرٍ من أصول الإسلام؛ أن العمل الصالح ثمرةٌ للإيمان، فإن قطع عنه لا يسمَّى صالحًا، بل هو باطلٌ وذاهبٌ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ الولاء هنا ولواء النصر والتأييد حينما تتمايز الصفوف، أما صلة الرحم وحسن الخلق واللفظ في المعاملة فهي من شمائل الإسلام حتى مع الكافرين بل هي طريق الدعوة والإصلاح ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ﴿وَإِنْ

جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها وحصلتموها، وعبرٌ بالاقتراف إشارةٌ للكسب الحرام، وهو الذي يصدُّ صاحبه عن سبيل الحق والخير.

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ تهديد لكل من منعه التعصّب للقرابة، أو الطمع في متاع الدنيا عن اللحاق بركب المؤمنين وموالاتهم، والبذل معهم، والجهاد في صفوفهم، وتحت رايته.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ تذكير بمنّ الله وفضله، وتشجيع لهم على الثبات في الميدان بعد أن طلب منهم مُقاتلة الناكثين للعهد من المشركين.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي: ونصركم يوم حُنَيْنٍ أيضاً، وحُنَيْن واد بين مكة والطائف حصلت فيه معركة كبيرة، وجاء تذكيرهم به لما فيه من عبرة مناسبة؛ حيث إن المسلمين كانوا فيه كثرة كاثرة، على خلاف المعارك الأخرى؛ كبدر، وأُحُد، والأحزاب.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ فغرور القوّة أو الكثرة قد يكون سبباً لإهمال الأسباب، والتقليل من الحيطة والحذر، مع ضعف الشعور بالحاجة إلى الدعاء والسند الإلهي، وقد حصلت النكسة بالفعل بداية المعركة بسبب هذا، وهو قطعاً ليس عامّاً عند كلّ المؤمنين، لكنه شعورٌ غالبٌ على ما يبدو من ظاهر الآية، والله أعلم.

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ تعبيرٌ عن انسداد الأفق، وفقدان الحيلة والمخرج بسبب شدّة الصدمة، وهول المفاجأة.

﴿ثُمَّ أُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ ثبتَ ﷺ مع قلة من المؤمنين، ثم ثبتَ الله به الآخرين، وأرجع الفارين حتى عادت الصفوف كما كانت، فتحقق النصر بعد النكسة.

﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ نجاسة المعتقد لا نجاسة الأعيان؛ حيث يصرون على عبادة الأصنام وتقديم القرابين لها، وهذا مُنافٍ لطهارة المسجد الحرام ورسالته الإيمانية التوحيدية.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقرّاً بسبب انقطاع الأسواق، وقلة التجارة؛ وذلك بسبب منع القبائل المشركة من دخول مكة.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

من الآية

٢٩٨ ٢٩٩

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَقًّا يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢٩٨) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَتْ لَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤْفِكَهُنَّ ﴿٢٩٩﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠٠﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَهُ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٠١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٠٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْغِلْطِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٠٣﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنْزْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٠٤﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠٥﴾ إِنَّمَا السَّبْتُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ مَا مَا وَحُرِّمُونَهُ مَا مَا لِيُؤْطِفُوا عَذَابَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٠٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمْنَ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٠٧﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠٨﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَالِثَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٠٩﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣١٠﴾

بعد فتح مكة ثم الطائف ودخول القبائل العربية في دين الله دخلت العلاقات بين المسلمين والنصارى في مرحلة جديدة، أما اليهود فقد بادروا المسلمين بالعداء قبل هذا التاريخ.

لم تكن في الجزيرة تجمعات نصرانية ذات شوكة كما كان لليهود، لكن النذر جاءت من بلاد الشام التي كانت خاضعة للروم، وهذا أمر متوقع بعد أن شعر النصارى أن مُشاغلة العرب للدعوة الإسلامية قد تلاشت، وأن دولة عربية إسلامية قوية قد تشكلت بالفعل على حدودهم الجنوبية، ومن هنا بدأت بواكير الصراع، فكانت معركة مؤتة، ثم معركة تبوك، وبينهما عام واحد تقريباً، فكان نزول القرآن بهذه الآيات تهيئة للمسلمين لمثل هذه المواجهة، وكما يأتي:

أولاً: بيان انحرافاتهم العقديّة، وخروجهم عن الدين الذي أنزله الله على النبيّين السابقين ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَالَهُمْ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾.

ثانياً: نزع الشرعيّة عن قياداتهم ومرجعياتهم الدينيّة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ثالثاً: إنهم يُضمِّرون العداوة لهذا الدين، ويسعون لطمسه ومحوه من الأرض ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

رابعاً: الأمر بمقاتلتهم حتى يُدْعنوا للحقّ ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

خامسًا: الاستعداد الشامل والجاذ لهذه المعركة ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبَكُمُ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾.

سادسًا: إن الله ناصر نبيه، وحافظ لهذا الدين قلَّ الناصر أو كثر ﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا لَمَعَ اللَّهُ مَعَنَا﴾.

دقائق التفسير

﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ الجزية من الجزاء، وهي قدرٌ من المال تأخذه الدولة المسلمة من مواطنيها الكتابيين جزاء حمايتها لهم، وصيانتها لحقوقهم، بشرط خضوعهم لسلطانها، والتزامهم بقوانينها.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ المشهور أن هذا قول فرقة منهم، إلا أن عامة اليهود لم تُنكر عليهم، فكانوا شركاءهم بحكم الإقرار، والله أعلم.

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: ادعاء بلا دليل، وفيه إشارة إلى أنهم يقولونه غلوًا وعنادًا لا عن قناعة راسخة؛ لأنه قولٌ تُنكره العقول، وتأباه الفطرة.

﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ يُشابهون قول المشركين في شركهم.

﴿اتَّخَذُوا أَجْدَارَهُمْ وَرُءُوسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بيان لسبب الانحراف، والأخبار علماء اليهود، والرهبان أصحاب الصوامع المنقطعون للتعبُّد من النصارى، ومعنى اتخاذهم أربابًا: أنهم يطيعونهم في تحريمهم الحلال وتحليلهم الحرام بلا دليل.

وقد ورد هذا المعنى في حديث عدي بن حاتم المعروف، وفيه قوله ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لُهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ»^(١).

(١) رواه الترمذي وقال: (هذا حديث غريب)، ينظر: «جامع الترمذي» (٥/٢٧٨) دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ يريدون أن يطمسوا نور الإسلام.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ لِيُعْلِيَ الإسلام على كلِّ دين؛ لأنه الدين الحقُّ المحفوظ بحفظ الله، والمنصور بقوة الله، وليس هناك اليوم على وجه الأرض كتابٌ سماويٌّ محفوظٌ ومُنَزَّةٌ عن التحريف بزيادةٍ أو نقصانٍ غير القرآن الكريم، فلا توجد فيه نسخة تخالف نسخة، ولا رواية تخالف رواية، بخلاف كلِّ الكتب الدينيَّة السماويَّة منها وغير السماويَّة.

وأما الظهور بمعنى التمكين والقوة والسلطان فهذا ليس شرطاً في قيام الحجة، مع أنه مُتَحَقِّقٌ في أغلب التاريخ، فلم ينتكس المسلمون انتكاسةً عامةً إلا في هذه المرحلة الاستثنائيَّة من كلِّ تاريخهم.

﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن

سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ربط بين الصدَّ عن سبيل الله وأكل المال الحرام، وفيه إشارة إلى أن الذي يدفع هؤلاء الأخبار والرهبان للتمسُّك بالباطل ومحاربة الحقِّ إنما هو الخوف من قَوَاتٍ مكاسبهم وامتيازاتهم الماديَّة والمعنويَّة، كما هو حال كثيرٍ من رجال الدين ممن يُسمَّون بالمراجع، والذين يحيطون أنفسهم بهالةٍ من القداسة، فتُجَبِّي لهم الأموال من كلِّ فجٍ وصوبٍ، ودون حسيبٍ ولا رقيب.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ الكلام متصل بحال الأخبار والرهبان، وفيه

بيان لجشعهم وطمعهم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذا الذمُّ والوعيد يدخل فيهما كلُّ من شابههم في كَنزٍ للمال بلا وجه حقٍّ، ثم منعه عن مُستحقِّيه من الفقراء والمساكين ونحوهم.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

وهي عدَّةٌ قدريةٌ حاكمةٌ لحساب الزمن، مُتضمِّنة الأسابيع والأيام والساعات، سواء أكانت بحساب الشمس أم بحساب القمر، فكلُّ ذلك من تقدير الله في هذا الفلك العظيم، والناس خاضعون لهذا التقسيم ومُتوافقون عليه، وللحساب القمري خصوصيَّة متعلقة بالشعائر والمناسك، وبعض الأحكام التكليفيَّة لدى المسلمين، كما سيأتي.

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ وهذا تشريعٌ بصيغة الخبر، بمعنى: أن من الشهور الإثني عشر أربعة يحرم فيها القتال، وهذا التشريع جاء موافقاً لعُرفٍ عربيٍّ كان سائداً قبل الإسلام، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب الفرد، وربما كان هذا العُرف من بقايا الإبراهيمية، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا النَّبِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ والنسيء هنا تأخير الامتناع عن القتال إلى الأشهر الأخرى؛ حيث كان المشركون يتَهَكُّون حرمة هذه الأشهر ويستمرُّون بالقتال دون توقُّف، ثم يُعوِّضون الأيام التي تقاتلوا فيها بأيام أخرى من غير الأشهر الحرم، وهذا تلاعبٌ في الدين وانتهاكٌ للحرمات، ومن ثمَّ فهو زيادة متصلة بما عندهم من الكفر.

وهنا إشارة أن التحليل والتحريم من غير دليل مُؤدِّن بالكفر، والله أعلم.

﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ تأكيد لتلاعبهم بالدين، وكأنهم شابهوا الأحرار والرهبان في الجراءة على تحليل الحرام وتحريم الحلال.

﴿لِيُؤَاطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوا عددَ الأيام التي انتهكوها من الأشهر الحرم بأيام أخرى.

﴿أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اخرجوا بجمعكم للجهاد.

﴿أَتَأْتِلِزُوا إِلَى الْأَرْضِ﴾ تباطأتم كراهةً في القتال، ورغبةً في الحياة.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يُبَيِّ للجهاد ولحمل أمانة الدعوة أقواماً آخرين.

﴿ثَانِيكَ أَتَيْنِ﴾ هما رسولُ الله ﷺ وصاحبه الذي اختاره للهجرة معه من بين كلِّ أصحابه وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿إِذَا هُمَا فِي الْفَارِ﴾ مُتَحَبِّثَانِ في غارٍ بجبل ثور من جبال مكة.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا﴾ قال: لا تحزن، ولم يقل: لا تخف؛ لأن أبا

بكر رضي الله عنه كان يخشى على رسول الله ﷺ والدعوة التي يحملها أكثر من خشية نفسه.

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، ولم يقل: إن الله معي؛ لأن أبا بكر داخل في هذه المعية، وهي معية التأيد والحفظ والنصرة، فهو مع صاحبه في كل هذا ولم يُشاركه أحدٌ من الخلق، وهذه ميزة لأبي بكر لم تكن لغيره أبداً.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾
فاجعل مُسلطاً على كلمة الذين كفروا، أما كلمة الله فهي العليا أزلاً وأبداً لا تحتاج إلى جعل، ولا يعتريها تغيرٌ.

يَهْدِيكَ اللَّهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَلَكِنْ بَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّغَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِآلِهِ لَوْ اسْتَقْلَمْنَا لَمَجَّعًا مَعَكُمْ يُولُوكُنْ أَنْفُسُهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠﴾ عَمَّا آتَاكَ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَأْتِكَ حَقٌّ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمُ الْكَذِبِينَ ﴿١١﴾ لَا يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عِلْمُهُمْ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّمَا يَسْتَفِذُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَانَتْ قُلُوبُهُمْ فَبُذِلُوا فِي رِيضِهِمْ يَرْذَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ لِعِمَّتِهِمْ تَحْمِلُكُمْ وَيَقِيلُ أَمْسِدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿١٤﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا رُضْعًا عَلَيْكُمْ يَتَوَكَّلُ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَعْنُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عِلْمُهُ بِالْغَالِبِينَ ﴿١٥﴾ لَقَدْ أَسْعَوْا لِلْفِتْنَةِ مِنْ قَبْلُ وَكَانُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٤٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٥٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٨٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩١﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٢﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٣﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٥﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٦﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٩٩﴾ وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٠٠﴾

في غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وهي كذلك أبعد مسافة من كل الغزوات ظهر دور المنافقين كما هو دأبهم في تشييط الناس وتخويفهم من مشاق الطريق، وذهبوا يَلْتَمِسُونَ الأعذار لأنفسهم من رسول الله ﷺ.

وقد جاءت سورة التوبة فاضحة لهم، كاشفة لأساليبهم ولحقيقة أهدافهم وما يُضمِرونه من كراهية لهذا الدين وأهله؛ ولأن هذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن، فقد اقتضى الأمر تفصيلاً أكثر، وتحذيراً أشد، وكشفاً لهذا الجيب الفاسد في داخل الجسد الإسلامي:

أولاً: إنهم كافرون في حقيقة أنفسهم وإن ادَّعوا الإيمان ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْزِئُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَازْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

ثانياً: إنهم يعملون على إيذاء رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خُلِداً فِيهَا﴾، ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسْوَهُمْ﴾.

ثالثاً: إنهم يستهزئون بالدين ويحطون من شأنه ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾، ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾.

رابعاً: إنهم كتلة واحدة يُحْطَطُونَ ويتآمرون ويتعاونون على الباطل ومحاربة الحق ﴿الْمُتَفَقُّونَ وَالْمُتَّفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، وبهذا جعلوا أنفسهم في مواجهة الأمة المسلمة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

خامسًا: إنهم دعاة فتنة وشر ﴿لَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾، ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

سادسًا: إنهم يتظاهرون بمودة المؤمنين والحرص عليهم، وهذا من مكرهم وكيدهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

سابعًا: إنهم يخافون الجهاد ويتهربون منه ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ثامنًا: إنهم أهل جشع وطمع ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾، ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، ﴿وَلَا يَنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾.

وقد كان هذا الجشع سببًا مباشرًا في انحذارهم إلى درك النفاق ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

تاسعًا: إنهم يلمزون المتصدقين ويسخرون منهم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ فهم لم يكتفوا بالبخل ومسك اليد، بل راحوا يُثَبِّطُونَ الآخرين، ويُجْرِجُونَهُمْ، ويُفَرِّقُونَهُمْ عن الصدقة.

عاشرًا: إن مصيرهم في الآخرة النار كمصير الكافرين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، وهو المصير الذي يجمعهم بسلسلة الأقوام المكذبين لأنبيائهم ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ

وَعَادِرَ وَثَمُودَ وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

في خضم هذا الكشف والفضح وردت أربعة توجيهات عملية للمسلمين:
أولاً: التريث في قبول أعذار المعتذرين، وتأخير الإذن لهم بالتخلف؛ حتى يتميز الصادق عن الكاذب ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذِبِينَ﴾ ﴿١١﴾ وفي هذا تمييز للمنافق عن غيره من الضعفاء والمسلمين الجدد ممن لم يترسخ الإيمان في قلوبهم بعد، فالمؤمن الذي يرُدُّ الرسول ﷺ عُدْرَهُ سيخرج للقتال مهما كان ظرفه بخلاف المنافق.
ثانياً: صرف الصدقات لمستحقيها، وعدم الخضوع لمشاغبة المنافقين وإلحاحهم؛ ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ بعد قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

ثالثاً: الحذر من السماع لشبهاتهم والترويج لإشاعاتهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾.

رابعاً: العمل على منعهم من تحقيق غاياتهم بمراقبتهم، ومحاصرة تحركاتهم وعلاقاتهم، ومعاقتهم على كل خيانة يقترفونها، وهذا هو الجهاد المناسب في مواجهة مثل هذه الفئة، وهذا هو معنى مجاهدتهم كما بيَّنه عملياً رسول الله ﷺ؛ تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾.

أما من فسّر الجهاد هنا بقتال الفريقين؛ الكافرين والمنافقين على حدٍّ سواء فقد وهم؛ ذاك لأن الكافرين كانوا أهل شوكة وسلاح، فقاتلهم رسول الله ﷺ مقاتلة جيشٍ لجيش، أما المنافقون فلم يكونوا كذلك، فلم يدع الداعي لمقاتلتهم، فالجهاد له صور كثيرة، والجهاد الأمني "الاستخباراتي" قد يكون أشقَّ وأدقَّ من الجهاد العسكري، والله أعلم.

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ نفعا دنيوياً سهل المآخذ.

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ مريحاً ليس فيه مشقة.

﴿يُتْلِكُونُ أَنْفُسَهُمْ﴾ باليمين الكاذبة، وبتخلفهم عن الجهاد الحق.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ استهلالٌ ودودٌ قبل المعاتبة، ولا يلزم من العفو وجود الذنب؛ لأن الفعل السابق للتشريع لا يعدُّ ذنباً حتى لو كان مخالفاً له.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً﴾ تأكيدٌ للقاعدة الشرعية المعروفة (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)، وهذه قاعدةٌ ذهبيةٌ تدرج فيها آلاف المسائل والمستجدات العملية، مثل: استخراج جواز السفر وتأشيرة السفر لمن أراد الحج، فمن لم يعمل عليهما وفاته الحج فقد أثم.

﴿فَشَبَّطُوهُمْ﴾ خذلهم وأوهن عزيمتهم.

﴿خَبَالًا﴾ فساداً وفتنةً.

﴿وَلَا تَوَضَّعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أوقعوا بينكم بالنميمة والدسيسة.

﴿وَفِيكُمْ سَمْعَوْنَ لَهْمٌ﴾ مصدقون لهم.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ فهذا شأنهم وديدنهم، إشارة إلى إبطال عذرهم في هذه المعركة.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ دبُّوا الحيل.

﴿وَلَا تَقْنِي﴾ لا تُوقِني في الإثم، وردت في رجل اعتذر عن الخروج تخوفاً بزعمه من رؤية

نساء الروم والافتتان بهن، فردَّ عليه القرآن: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ فمخالفة الرسول ﷺ والتخلف عنه في هذه الغزوة أشدُّ إثماً مما كان قد اعتذر به.

﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾
 اللوم والتشكيك والشهامة بكل ما يصيب المسلمين من خسارة أو نكسة، وقوله: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ أي: احتطنا لأنفسنا وفُزنا؛ لأننا أهل نظر وحكمة، وهي محاولة للنيل من حسن إدارة الرسول ﷺ وكأنهم يطرَحون أنفسهم بديلاً عنه، وهذا لا يكون إلا من منافق.
 ﴿قُلْ هَلْ تَرَى صُوتَ بَنَاءٍ إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي: هل تنتظرون منّا إلا أن تكون لنا واحدة من اثنتين: النصر، أو الشهادة.

﴿وَنَحْنُ نَرَبِصُّ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا﴾ تهديد للمنافقين أن استخدام القوة معهم واردٌ في حالة خروجهم وتمردهم على سلطان الدولة.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ القبول الأخرى، أما في الدنيا فالمنافق مطالب أن يؤدي ما عليه من حقوق مالية كالمسلم لا فرق بينهما، إلا أن المسلم ينتظر الأجر من الله بخلاف المنافق.

وقوله: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ والمنافق لا يُنفق إلا مُكرهاً ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ فلعله أراد نفقة التقية والرياء المتضمنة لشيء من الخديعة والمكر، والله أعلم.

﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ تعليل لعدم القبول، والفسوق هنا الخروج عن الإيمان، وهو فسوق الكفر، وهو المفسر بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

﴿يَفْرُقُونَ﴾ يخافون.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا﴾ مكاناً محصناً.

﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ جمع مغارة، وهي المكان الصالح للتخفي بين الجبال والوهاد.

﴿أَوْ مَدَاجِلَ﴾ الطرق والمخارج الخفية.

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يُسرِعُون إليه بقوة وعزيمة.

﴿يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعيبك في توزيعها وطريقة صرفها.

﴿الْفُقَرَاءَ وَالْمَسْكِينِ﴾ الفارق بينهما: أن المسكين أدعى للرافة والرحمة؛ بسبب عجزه أو مرضه أو كبر سنّه، وهذا هو إيجاء كلمة (مسكين)، أما الفقير فقد يكون قويًا مُعافى لكنه لا يجد بابًا للرزق، وكلاهما مُستحقٌّ للصدقة، وإنما فرّق بينهما؛ تنبيهًا لطريقة التعامل معهما، فالمسكين قد لا يصلح للعمل أصلًا، فتكون النفقة عليه بالمباشر، ومنها تهية من يكفله أو يخدمه، وأما الفقير فالأولى توفير فرصة العمل له وإن كان ببال الصدقة؛ ليكون واحدًا من المنتجين والمساهمين في الإعمار والتنمية.

﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ الجبأة المُفرغون لجباية الزكاة وضبطها وتوزيعها، فهؤلاء مُوظَّفون يستحقُّون الأجر من مال الزكاة وإن كانوا أغنياء إلا أن يطوّعوا.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ﴾ هم كلُّ من يُرجى خيره للمسلمين بإسلامه أو بنصرته، أو بدفع شرّه أو شرٍّ من وراءه، وهذا بابٌ واسع للمصلحة العامة، ومبدأ من مبادئ السياسة الشرعية القائم على الشورى، والتقدير الدقيق للموقف؛ بحيث لا يكون مدخلًا للهوى، والأغراض الشخصية.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ لمساعدة العبيد على التحرُّر بالمكاتبه وغيرها.

﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ الذين ركبتهُم الديون؛ بحيث إن ما عندهم من المال لا يكفي لسدِّ ديونهم.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجهاد في سبيل الله وما يؤدِّي مؤداه من دعوة للحق، وتقوية للصف، والله أعلم.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن بلده؛ بحيث لا يقدر على التصرُّف في ماله، فيُعطى من الزكاة بقدر ما يسدُّ حاجته في طريقه حتى يصل إلى بلده.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ دلالة أن هذه الصدقات إنما هي الزكاة الواجبة؛ تمييزًا لها عن بقية الصدقات؛ كصدقة التطوع، والنذر، والنفقة الواجبة.

﴿وَيَتَوَلَّوْاْ هُوَ أَذْنٌ﴾ أي: يستمع لكل ما يقال له استماع المُصدِّق.

﴿وَيُؤْمِنُ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُصدِّقُهم، ويُسلِّمُ لهم، وهذه لطيفة التعديّة باللام، وفيه تزكية

للسحابة رضي الله تعالى عنهم، وإشارة إلى أن النبي ﷺ ما كان يُصدّق بكل ما يُقال له، وإنما يُصدّق أصحابه المعروفين بإيمانهم ومحبتهم له.

﴿يُحَادِدِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ يُنَاصِبُهَا الْعَدَاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أي: يكشف للمؤمنين خباياكم وما تخشون من كشفه وافتضاحه.

﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ العفو عن المنافقين فيما أضمره أصل، ومعاقبتهم على جرائمهم الظاهرة أصل كذلك، ومن هنا كان التفريق بين الطائفتين، وفي الآية تهديد للمنافقين أن يُحوّلوا كفرهم الباطن إلى جرائم ظاهرة ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿وَيَقِضُوكَ أَيْدِيَهُمْ﴾ فلا يتصدقون.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا أمر الله وهدّيه والتفكّر في الوصول إلى الحق، فحرّمهم الله من رحمته.

﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ كل هؤلاء المنافقين والكافرين ومن سبقهم من أهل الكفر في الأمم السابقة قد أخذوا نصيبهم من هذه الدنيا، وانشغلوا بها حتى نسوا أنفسهم، والغاية من خلقهم ووجودهم، فتخبّطوا في حمأة الغفلة والضلال حتى واجهوا مصيرهم المحتوم ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ هذا هو القانون الإلهي المحكم، فالظالم إنما يظلم نفسه، ومن نسب الظلم إلى الله على طريقة الإجبار والإكراه القدريّ فقد أعظم على الله الفرية، فحاشا لله أن يُجبر إنسانا على الكفر أو الذنب وينزع عنه حرية الاختيار، ثم يُعاقبه.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فالولاء مرتبط بالإيمان، وكل من لا تستطيع أن

تُخْرِجُهُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ فَلَا يَحِقُّ لَكَ أَنْ تَحْرِمَهُ مِنْ دَائِرَةِ الْوَلَاءِ، وَفِي هَذَا إِبْطَالٌ لِلْوَلَاءَاتِ الْقَاصِرَةِ الَّتِي يَلْتَقِي عَلَيْهَا النَّاسُ دُونَ الْإِيمَانِ؛ كَالنَّزَعَاتِ الْعَنْصَرِيَّةِ، أَوِ الْحَزْبِيَّةِ، أَوِ الْمَذْهَبِيَّةِ.

﴿وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾^١ لَأَنَّ الْغِلْظَةَ شَرْطٌ فِي مُجَاهَدَةِ الْأَعْدَاءِ عَسْكَرِيًّا، وَفِي مُلَاحَقَةِ الْمَجْرِمِينَ وَالْعَاصِينَ أَمْنِيًّا، وَرِقَّةُ الْقَلْبِ فِي الْحَالَتَيْنِ عَلَامَةُ الضَّعْفِ، وَمُدْعَاةٌ لِلْفَشْلِ.

﴿وَهُمُ أَيْمَانُ نَبَاؤِ﴾ أَي: هُمُ الْبَايِذَاءُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّبِيلُ مِنْهُ، فَوْقَاهُ اللَّهُ مِنْهُمْ.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَكُمْ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ وَحِلْمِهِ وَعَفْوِهِ.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْفِرُوا مِنْكُمْ لَقَدْ أَخَذْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ هِيَ صُورَةٌ لِلْمُتَشَبِّهِينَ بِالدُّنْيَا الَّذِينَ يَطْرُقُونَ كُلَّ الْأَبْوَابِ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَا يَهْمُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ التَّزَامُ وَلَا عَهْدٌ، وَلَا مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَ وَلَا فِيْمَ أَنْفَقَ، وَهَذِهِ مِنَ الْغَفْلَةِ الَّتِي تَحْكُمُ الْقَلْبَ فَتُعْمِيهِ عَنِ الْحَقِّ وَتَرْجُو بِهِ فِي طَرِيقِ الضَّالِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ التَّفْسِيرِيَّةِ عَنِ الصَّحَابِيِّ الْأَنْصَارِيِّ ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ ؓ وَقِصَّةَ تَحْوُلِهِ مِنَ الْفَقْرِ إِلَى الْغِنَى، وَمَنْعِهِ لِلزَّكَاةِ وَمَا شَابَهُ، فَهِيَ لَا تَصَحُّ سَنَدًا وَلَا مَتْنًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿الْمُطَوَّعِينَ﴾ الْمُتَطَوِّعِينَ بِالصَّدَقَةِ.

﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أَي: يَتَطَوَّعُونَ بِحَسَبِ طَاقَتِهِمْ.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فَلَا اسْتَغْفَارَ لِلْكَافِرِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ بِحَالٍ، وَذَكَرَ السَّبْعِينَ لَيْسَ حَدًّا، بَلْ هُوَ لِلْمُتَيْنِيسِ وَالْحَسَمِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ عِنْدَ الْعَرَبِ الْكَثْرَةُ الْمَطْلُوقَةُ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ وَعِيدِ اللَّهِ الْجَازِمِ وَالْحَاسِمِ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

وَفِي هَذَا التَّأَكِيدِ إِشَارَةٌ لِحَرَصِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ، مَهْمَا كَانَتْ أَذْيَتُهُمْ لَهُ

بِأَبِي هُرَيْرَةَ وَآمِي ﷺ.

(١) تَكَرَّرَ هَذَا النَّصُّ الْكَرِيمُ مَرَّتَيْنِ، كَلَامُهُمَا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ / ٤٨، ١١٦.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١) ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٢) ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ (٨٣) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (٨٤) ﴿ وَلَا تَقْعِيبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٨٥) ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَائِمِينَ ﴾ (٨٦) ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٨٧) ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٨٨) ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٨٩) ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٩٠) ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩١) ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ (٩٢) ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٣) ﴿ يَعْذِرُوكَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٤) ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٥) ﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٩٦) ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٩٧) ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٩٨) ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَةً لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩٩)

الموقف من المتخلفين عن المعركة

التخلف عن غزوة تبوك وهي الغزوة الأخيرة في سيرة النبي الكريم ﷺ حظي بمعالجة قرآنية دقيقة وشاملة؛ وربما كان ذلك لأنه الدرس الأخير الذي يمكن للوحي أن يواكبه،

بخلاف التخلُّف عن الغزوات السابقة، كما أن المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ﷺ سيكونون أجراً على التخلُّف مع خلفائه من بعده، ومن ثمَّ كان هذا الدرس وقائياً لحالات التخلُّف المتوقعة بعد رسول الله ﷺ أكثر مما هو معالجة للمشكلة الآتية.

ويمكن تلخيص ما جاء به القرآن بهذا الصدد في النقاط الآتية:

أولاً: تحديد الأصناف الذين يُقبل عذرهم في التخلُّف ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْهُمْ عَلَيْكَ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

ثانياً: في مقابل هؤلاء يُحدد القرآن الأصناف الذين لا يقبل لهم عذر وإن اعتذروا ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْنَزَكَ أَوَّلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦) ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وهؤلاء هم أصحاب القوة والمال.

ثالثاً: إن السبب الأساس لهذا التخلُّف إنما هو النفاق والكفر الخفي ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨٤) ﴿وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمُ فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

رابعاً: إن الجهل سبب آخر، وهو أصل في الضلال بكل أشكاله ومستوياته ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾، ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

خامساً: حب الدنيا والدعة والراحة فيها ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، ﴿وَلَا تُعْجِبَكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾، ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

سادساً: إنهم مع كل هذا يحاولون تحسين صورتهم بين المسلمين ولو بالأيان الكاذبة ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضَا عَنْهُمْ﴾.

سابعاً: التحذير من قبول عذرهم وتوفير الغطاء الأخلاقي لهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأَ اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، ﴿فَلِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

ثامناً: التوجيه باتخاذ إجراءات عملية لمحاصرة هذه الحالة الشاذة وعزلها عن جسد الأمة ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وهذا معناه: حرمانهم من المشاركة في المؤسسة العسكرية، ثم قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ وهذا إعلان صريح بكفرهم وخروجهم من ملة المسلمين.

تاسعاً: وقد اقتضى المقام تفصيل الأمر بالنسبة للأعراب، والذين كانوا أبعد عن الوعي الصحيح بالإسلام ومبادئه وأحكامه، فكانوا بذلك بيئة للتصرفات المختلفة والمتضادة فمنهم من يتأثر بشبهات المنافقين، ومنهم من يقترب من صفات الصالحين.

وقد فصل القرآن هذه الحالات تجنباً للتعميم الظالم وأخذ الكل بجريرة البعض ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَىٰ لَهُمْ سَيَدْخِلُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾، قال هذا بعد قوله فيهم: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السَّوَاءِ﴾.

وفي قضية التخلُّف كان موقف المتخلِّفين منهم مُخالفًا لموقف المنافقين: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهي إشارة إلى تمييزهم عن المنافقين، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ تهديد.

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ وعيد.

﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من المُخلفين، والمقصود بهم المنافقون؛ لأن الذين تخلَّفوا ليسوا كلُّهم منافقين.

﴿فَاسْتَعِذْ نَفْسَكَ لِلْخُرُوجِ﴾ في معركة أخرى.

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ من النساء والأطفال والضعفاء العاجزين.

﴿وَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ فالمال ليس دليلًا على الصلاح ولا على مقبولية أهله عند الله.

﴿أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ ربط الجهاد مع رسول الله بالإيمان بالله في إشارة إلى أن التخلُّف عنه بغير عُذر أمانة على النفاق.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ العِزُّ والكرامة في الدنيا والجنة في الآخرة.

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ أصحاب الأعذار، والظاهر أنهم صادقون في أعذارهم؛ لأنه ميَّزهم عَمَّنْ بعدهم من الذين كذبوا الله ورسوله.

﴿حَرْجٌ﴾ إثم.

﴿وَإِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أخلصوا لله ورسوله.

﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ من طريق للوم.

﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ صورة للعاطفة الدينية الصادقة، فهم مع عذرهم وصدق حالهم واعتذار رسول الله ﷺ لهم مع كل هذا تفيض أعينهم حزناً على اضطرابهم للتخلف.

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم.

﴿لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتعفوا عنهم.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ اتركوهم، فالعتاب لا ينفع معهم.

﴿وَأَنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ تعليل للإعراض عنهم.

﴿الْأَعْرَابُ﴾ البدو، وليس في هذا انتقاص لهذه الفئة من الناس، بل هو بيان لحال من لم تُتاح له فرصة التعلم، فهو لا يعرف الحق من غيره، فإن جمع إلى هذا الجهل جلافة وتكبراً كان أبعد عن الهدى.

﴿يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ يعدُّ الزكاة والصدقة نوعاً من العقوبة والغرامة المفروضة عليه بالقوة.

﴿وَيَتَرَبَّصُّ بَكُمْ دَائِرَةً الْدَوَائِرِ﴾ يتنظر دوران الزمان بكم وتحول القوة عنكم؛ لينقلب عليكم ويوالي غيركم.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أي: بتربصهم هذا يستحقون هم أن يدور عليهم السوء.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ هم صنف آخر من الأعراب، وهم المؤمنون الذين يتقربون إلى الله بنفقاتهم وصدقاتهم.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: يطلبون الدعاء من رسول الله ﷺ بصدق نية وحسن عقيدة.

﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَى لَهُمْ﴾ شهادة لهم بأنهم أهل لهذه القربات.

﴿وَالسَّيْفُكَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَوَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْغَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنتَفِعُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا يَلْمِزُكَ مِنْ تَلْمِزِهِمْ مَقْلَمَةٌ مِمَّنْ قُلْتُمْ سَمْعُيْهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوكَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ هُوَ اللَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّوكَ إِلَى عِلَّةِ الْقَبْلِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ إِنَّمَا يُعْذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَنْشَهُهُمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَلْعَسَى أَنْ يَكُونَ عَلَى الشَّقَوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْشَرُونَ أَنْ يَطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَتَسَسَّ بِبَيْتِهِ عَلَى نَفْسِي مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَسَسَّ بِبَيْتِهِ عَلَى شَقَا جُرْبٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ يُبَشِّرُهُمُ الَّذِي بَرَأَ رِبِّيَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُعَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبَلُونَ وَيُقْبَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِجْبِلِ وَالْقُسْرَانِ وَمَنْ أَرَادَ بِمَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبَشِّرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْغَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَنِيدُونَ الْمُخْبِتُونَ الْأَرْكَامُونَ السَّاجِدُونَ وَالْمَعْرُوفُونَ وَالْقَائِمُونَ عَنِ الْمَكْرِ وَالْمُنْظَرُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَرُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِهِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَوْا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا عَمَلَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْلُوتُ مَوْطِنًا يَعْصِطُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يَنْفَعُوكَ نَفَقَةٌ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُوكَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَانِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ زَادَ مِنْهُ هَؤُلَاءِ بَيِّنَاتٍ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَآذَنَهُمْ بِهَا فَمَنْ يَسْتَنْبِئُونَ مِنْهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَأَدْتَهُمْ إِلَى كَيْدِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٢٤﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَمْرٍ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٦﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٧﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَلِيِّ ﴿١٢٨﴾

بعد الحديث عن المشركين ثم أهل الكتاب ثم المنافقين والمتخلفين عن تبوك وما اقتضاه الأمر من تشريع وتوجيه وتنبيه جاء القسم الأخير من السورة ليتحدث عن أهل الإيمان؛ ليُعطي صورة تقويمية قريبة لهذه الأمة التي آمَنت بالله ورسوله، وتحملت أعباء هذه الدعوة بأمانة وصدق:

أولاً: ذكر الصفات العامة التي تُميز هذه الأمة عن غيرها ﴿التَّائِبُونَ الْعَمَدُونَ الْحَمْدُونَ السَّائِحُونَ الزَّكِيُّونَ السَّجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾، ﴿يُقَنِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنُلُونَ وَيُقْنَلُونَ﴾، ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

ثانياً: تصنيف هذه الأمة باعتبارات مختلفة؛ فالمهاجرون لهم السبق، ثم الأنصار، ثم يأتي بعدهم من أحبهم ومشى على طريقهم ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

وهناك صنف أدنى من هؤلاء ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ثم نبّه إلى أخطاء شخصية تقع من بعض المؤمنين على خلاف قواعد الإيمان والتقوى لكنها ضمن دائرة التقصير البشري المعهود ﴿مَنْ بَعْدَ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٧) وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظننوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

النَّوَابِ الرَّحِيمُ ﴿ وهؤلاء يُعَقِّبُونَ تَقْصِيرَهُم بالنَّدَم السَّريع والتَّوبَةُ النصَّوح.

ثالثًا: مَنَّ اللهُ في هذه الأُمَّة العِلْمَ وأَهْلَ العِلْمِ وحَمَلَهُم مَسْئُولِيَّةَ عَظِيمَةٍ ﴿ وَمَا كَانِ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿.

رابعًا: أَوْجَبَ اللهُ عَلَى أَغْنِيَاءِ هذه الأُمَّة الزَّكَاةَ وأَدَاءَ الحَقِّوقِ المَالِيَةِ لِمُسْتَحِقِّيِّهَا؛ لِمَا فِي هَذَا مِنْ تَقْوِيَةٍ لِأَوَاصِرِ الوَحْدَةِ والمَحَبَّةِ، وإِشَاعَةِ رُوحِ التَّعَاوُنِ والتَّكَافُلِ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴿.

خامسًا: أَوْجَبَ اللهُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ مَعَ هذه الأُمَّة بَانْتِمَائِهِ وولائِهِ ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿، ﴿لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿.

سادسًا: التَّمْيِيزُ بَيْنَ هذه الأُمَّة وَمَنْ سِوَاهَا مِنَ الكَافِرِينَ والمُنَافِقِينَ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ ﴿، ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿، ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُم مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿.

سابعًا: التَّحْذِيرُ مِنْ مَكَائِدِ المُنَافِقِينَ وَمُحَاوَلَاتِهِمْ لِبُتِّ الفُرْقَةِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَازًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿.

دقائق التفسير

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ رضاهم عنه حمدًا وشكرًا وتعظيمًا لنعمته عليهم.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ حول المدينة.

﴿مَرَدُّوْا عَلَى الْإِفْقِ﴾ تَمَرَّسُوا فِيهِ وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بِأَسْمَائِهِمْ كُلَّهُمْ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ، وَهَذَا النَّفْيُ لَا يُنَافِي مَعْرِفَتَهُ ﷺ بِهِمْ مِنْ خِلَالِ تَوْسِيمِهِ بِسُلُوكِهِمُ الْيَوْمِي وَأَمَارَاتِهِمُ الظَّاهِرَةَ.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ هُوَ لَاءُ فِتْنَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؛ بِدَلِيلِ شُمُولِهِمُ بِالتَّوْبَةِ، وَكَلِمَةِ (عَسَى) تَفِيدُ الرَّجَاءَ وَقُرْبَ تَحَقُّقِ مَا بَعْدَهَا، وَالآيَةُ تُمَهِّدُ لِبَيَانِ حَالِ الْمُتَخَلِّفِينَ كَسَلًا وَتَهَاوُنًا، لَا كُفْرًا وَنِفَاقًا.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَرْكَزِيَّةِ تَنْظِيمِ الزَّكَاةِ أَخْذًا وَصَرْفًا، فَلَا تُوَكَّلُ إِلَى اجْتِهَادَاتِ الْأَشْخَاصِ وَرَغَبَاتِهِمْ وَمَا يَصْحَبُهَا مِنْ مَنَّةٍ عَلَى الْفُقَرَاءِ، وَتَحْيِيزٍ لِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ، وَضِياعٍ لِمُنْهَجِيَّةِ مُحَارَبَةِ الْفَقْرِ وَمُعَالَجَةِ أَسْبَابِهِ فِي الْمَجْتَمَعِ.

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ تَطْهِيرٌ مِنْ لُوثِ الذُّنُوبِ وَالْمَالِ الْحَرَامِ، وَتَزْكِيَّةٌ لِلنَّفُوسِ مِنْ صِفَاتِ الْبَخْلِ وَالطَّمَعِ وَمَا أَشْبَهَ، وَفِيهَا أَيْضًا تَطْهِيرٌ لِلْمَجْتَمَعِ كُلِّهِ، وَتَزْكِيَّةٌ لَهُ مِنْ أَمْرَاضِ التَّحَاسُدِ، وَالتَّبَاغُضِ، وَسُوءِ الظَّنِّ.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ ادْعُ لَهُمْ، فَدَعَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مُسْتَجَابٌ، وَهُوَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ نَزُولِ الرَّحْمَاتِ الْإِلَهِيَّةِ، وَفِيهِ تَقْوِيَّةٌ لِإِيْمَانِهِمْ، وَطَمَآنَةٌ لِقُلُوبِهِمْ، وَتَثْبِيْتُ لِأَقْدَامِهِمْ.

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا﴾ خُطَابٌ عَامٌّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ، وَشَامِلٌ لِكُلِّ أَعْمَالٍ خَيْرٍ وَبَرٍّ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ أَنَّهُ شَرْطٌ لِلتَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ عَقِبَ قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ فَالتَّوْبَةُ تَعْنِي: التَّصْحِيحَ وَدَفْعَ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ، وَلَيْسَتْ بِمَجْرَدِ حَسْرَةٍ فِي الْقُلُوبِ، وَهَمِّمَةٍ فِي الْأَفْوَاهِ.

﴿فَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ فِي الْإِصْلَاحِ وَالِدَعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَهَذِهِ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، فَيَرَاهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَشْهَدُونَ لَهَا، وَيَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَإِنْ كَانَ أَصْلُ الْعَمَلِ الْقُرْبَى لِلَّهِ وَالِاتِّبَاعَ لِرَسُولِهِ ﷺ.

وَمِنْ ظَنٍّ أَنَّ شَهَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ لَيْسَتْ مَطْلُوبَةٌ - لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ بَابًا لِلرِّيَاءِ - فَقَدْ وَهَمَ، وَالتَّبَسُّ عَلَيْهِ الْأَمْرُ؛ فَالْعَمَلُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَاجِبٌ، وَالسُّمْعَةُ الطَّيِّبَةُ مَشْرُوعَةٌ، وَإِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ فِي السِّرِّ

والعلن واجب، والمؤمن الحصيف يجمع بين كل هذه المطالب ولا يفرّق.

﴿وَسَأَرْدُّوكَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فعلم الخلق وشهادتهم مهما بلغت فهي ناقصة؛ لأنها تدور في عالم الشهادة، أما النوايا وخفايا النفوس فلا يعلمها إلا الله.

﴿وَأَخْرُوكَ مُتَرْجَوًّا لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ مؤخّرون إلى أجل يعلمه الله، وهذه نزلت في الثلاثة الذين تخلفوا دون عذر، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وقد تاب الله عليهم فيما بعد رضي الله عنهم وأرضاهم، وقصّتهم معروفة في كتب السنّة^(١).

﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ بناء المنافقون بقصد الإضرار بالمسلمين.

﴿وَارْصَادًا﴾ تهيئة وإعدادًا للعدو المحارب لله ورسوله.

﴿لَا نَقُفُ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي لرسول الله ﷺ أن يصلي فيه، والأمة تابعة له في ذلك، وقد بعث النبي ﷺ من يقوم بهدمه وإزالته.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ هو مسجد قباء المبارك، وقد كان رسول الله ﷺ يزور هذا المسجد^(٢) ويرغب بزيارته^(٣).

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ مدح لأهل قباء، وقد أطلق التطهّر دون تحديد؛ ليشمل تطهّرهم الظاهر والباطن؛ تطهّر الأجساد، وتطهّر القلوب والنفوس،

(١) حديث الثلاثة الذين خُلّفوا فتاب الله عليهم، متفق عليه عن كعب بن مالك رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٤/١٦٠٣) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٨/١١١) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيًا وراكبًا)، زاد فيه ابن تيمية عن نافع: (فُصِّلَ فيه ركعتين) متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (١/٣٩٩) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٤/١٢٧) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٣) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ حَتَّى يَأْتِيَ هَذَا الْمَسْجِدَ - يعني: مَسْجِدَ قَبَاءَ - فُيْصَلِّي فِيهِ، كَانَ كَعِدْلِ عُمْرَةٍ»؛ رواه النسائي في «السنن الصغرى» (٢/٣٧) مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط. ٢، ١٤٠٦-١٩٨٦م، تح عبد الفتاح أبو غدة)، وأحمد في المسند (٢٥/٣٢٨) المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ تصحيح محمد الزهري الغمراوي)، وابن ماجه في «سننه» (١/٤٥٣) دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، ينظر: «المستدرک» مع تلخيص الذهبي (٣/١٣) دار المعرفة - مصور عن الطبعة الهندية، بإشراف د. يوسف المرعشي) كلهم عن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

وقرينة إرادة الباطن مع الظاهر سبق قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾، والله أعلم.

﴿عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ أي: بدافع التقوى، وقصد الرضوان.

﴿عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَاكِ﴾ طرف مشرف على السقوط؛ تشبيهاً لبطلان عمل المنافقين وإن كان ظاهره مسجداً يُتَقَرَّبُ به إلى الله.

﴿فَأَنهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ كانت هذه الأعمال سبباً في دخولهم النار؛ لأنها بُنِيَتْ على باطلٍ ونية سيئة.

﴿لَا يَزَالُ بُنِيَتْهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أعمالهم هذه متلبسة بالشك الدائم والمستمر بسبب مرضٍ في قلوبهم، وهذا المرض لن يزول عنهم حتى تقطع قلوبهم بالموت.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ هذا من عظيم كرم الله؛ أنه وهب لعباده حياتهم وأموالهم ثم اشتراها منهم بجنة فيها حياة أفضل من حياتهم، ونعيم أفضل من نعيمهم وأموالهم، والسلعة والثمن كلاهما من الله، فتبارك الله الكريم الرحيم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ﴾ قَدَّم التوبة على العبادة؛ لأن التخلية قبل التحلية، مع أن التوبة عبادة أيضاً.

﴿السَّائِحُونَ﴾ التاركون لمتاع الدنيا وشهواتها، والمنقطعون إلى العبادة التي تتطلب هذا الترك؛ كالصيام الذي يتطلب البعد عن الطعام والشراب والجماع، وكالجهاد الذي يتطلب البعد عن الديار، ومجافاة الراحة والدعة والنوم، والله أعلم.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُوتِ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المعروف: كلُّ مطلوبٍ شرعاً، والمنكر: كلُّ محظورٍ شرعاً، أما ما كان في دائرة الاجتهاد مما قد يحصل الخلاف فيه بين أهل العلم، فلا يدخل في هذا الباب؛ لأن الاجتهاد يدور بين الأجر والأجرين وليس في أحدهما إثم، وإنما المنكر الإثم، والله أعلم.

﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ ﴾ المقصود بهم من ماتوا على الكفر بعد أن بلغتهم الدعوة، وهذا من تمام المفاصلة والتمايز في الهوية، أما من لم تبلغهم الدعوة فليسوا مكلفين أصلاً.

﴿إِلَّا عَنْ مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ قبل نزول النهي.

﴿لَا وَهْ﴾ متضرع إلى الله بكثرة الدعاء والإنابة.

﴿سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ غزوة تبوك، والمقصود بالساعة: الوقت وليس الوحدة الزمانية المعروفة، وقد اجتمعت في هذه الغزوة المشاق كلها؛ شدة الحر، وبُعد المسافة، وقلة الزاد والراحلة.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ شكاً بوعده الله في إكمال الدين وإتمام النعمة؛ لشدة ما لاقوه في هذه الغزوة من عُسْر وجوع وظمأ، حتى إنَّ الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكانوا يعصرون فرث البعير بعد ذبحه ابتغاء الماء!

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ مثالٌ يُحْتَذَىٰ في صدق التوبة وحرارة الندم، وهكذا يكون الصحابة رضي الله عنهم مثلاً في كل خير حتى حينما يقعون في الذنب.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ اللام للتعليل، ومعناه: أن الله قَبِلَ توبتهم ليداوموا على حالة الصدق هذه وحسن التعبُّد، فالإنابة كانت منهم أولاً، ولم تنزل توبتهم إلا بعد خمسين يوماً وليلة، حتى ضاقت عليهم أنفسهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعد كل هذا الندم، ومن ظنَّ أن الله تاب عليهم ابتداء قبل أن يبدؤوا هم بالتوبة فقد وَهَمَ، والله أعلم.

﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ولا تعب.

﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ ولا مجاعة.

﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً ﴾ إلى الجهاد، فالنفي إلى الجهاد إنما يكون بقدر الحاجة؛ ليتفرغ الباقون إلى أعمال الحياة الأخرى؛ كالصناعة، والزراعة، والتجارة، ورعاية

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أمر بالتفكير إلى العلم، فهذا نفير وذاك نفير، وليساهما واحداً، وإنما سمي الخروج لطلب العلم نفيراً كما سمي الخروج للجهاد؛ تنبيهاً على خطر العلم، وأنه لا يقل أهمية عن الجهاد إن لم يتقدم عليه، وكما أن الخروج للجهاد لا يكون من كل الناس، فكذلك الخروج للعلم.

وفي الآية إشارة إلى أن كل حيٍّ أو قرية أو قبيلة من المسلمين عليهم أن ينتدبوا بعضاً منهم لطلب العلم، وحينما كان رسول الله ﷺ موجوداً فعلى طلبة العلم أن ينفروا إليه حيثما كان في المدينة أو الغزو، ثم يرجعوا إلى أقوامهم لينشروا فيهم ما تعلموه، وبعد موته ﷺ تكون النفرة إلى حيث العلم، ويكون معنى الآية الإجمالي: أن المؤمنين لا ينفرون كلهم إلى الجهاد، بل منهم من لا بد أن ينفر إلى العلم أينما كان مصدر هذا العلم، وهذا القول أولى ممن حصر العلم في الغزو، أو حصره في المدينة، والله أعلم.

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ المحاربين، وهؤلاء أشد خطراً على المسلمين بحكم قربهم من دار الإسلام، أما المعاهدون وأهل الذمة ومن ليس له شوكة فهؤلاء لهم أحكام أخرى، ولا يصح بدؤهم بقتال.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ هم المنافقون لا تزيدهم الآيات إلا كفراً وحسداً وعداوة للمؤمنين.

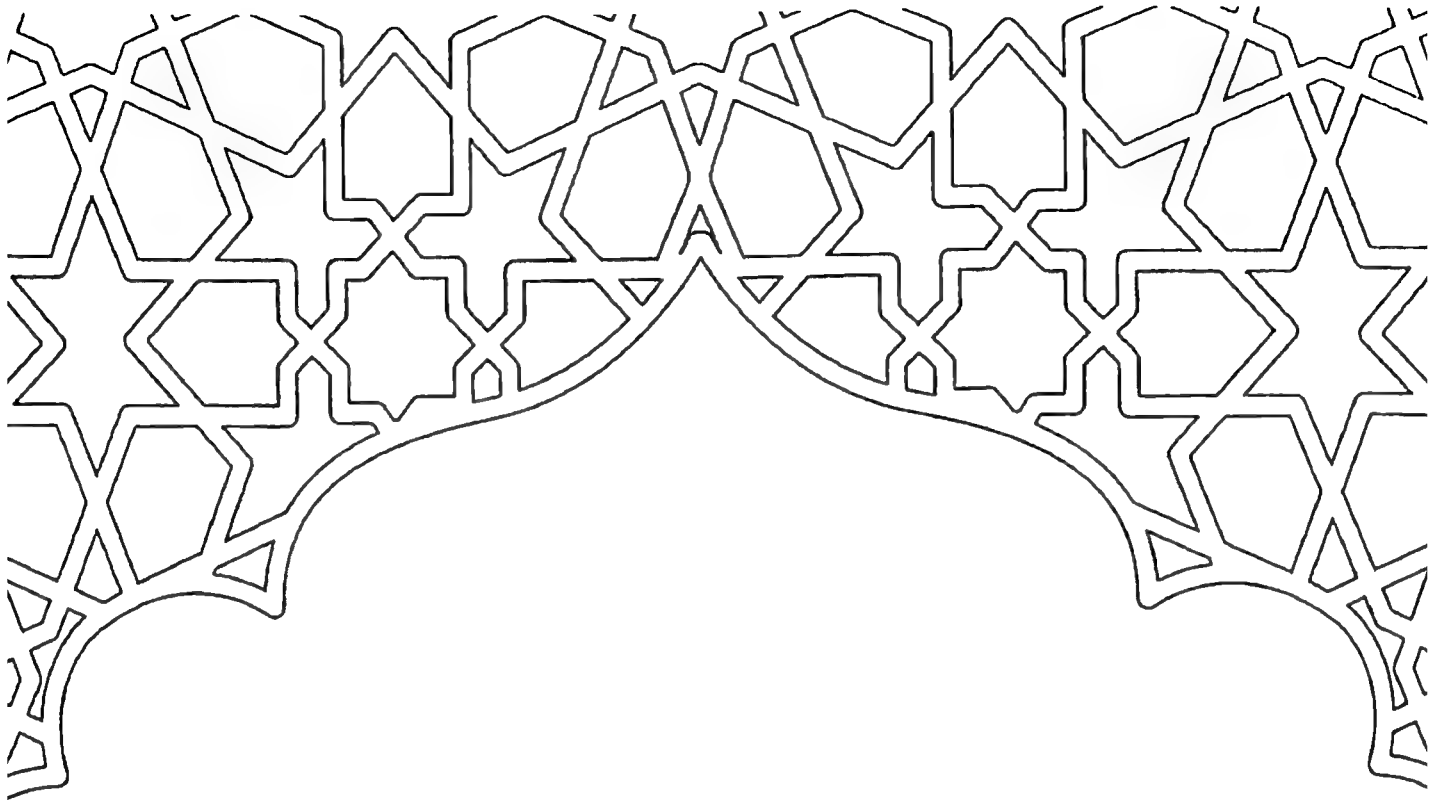
﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ لم يعرف أن المنافقين كانوا يُصابون بمرضٍ أو قحطٍ أو نكبة خاصة بهم، فتأويل الفتنة بهذه المصائب مُستبعد، والظاهر أنهم يفتنون في الغزوات والأحداث الكبيرة، فيفتضح أمرهم، ويتبين لهم الحق، وأن هذا الرسول مؤيدٌ بالوحي، لكنهم يُصرون على نفاقهم فلا يتوبون ولا يذكرون، والله أعلم.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ بَرْنِكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ صورة

عملية ومتكررة؛ فالمنافقون يحضرون مع المسلمين الصلاة والمواظ، فإذا نزلت آيات تمسّهم ولا تُعجبهم آثروا الانصراف خفية بحيث لا يشعر بهم أحد، أو هكذا يظنون.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يعزُّ عليه أن يراكم في شدّة ومشقّة، بل هو لرحمته بكم لا يريد لكم إلا الخير واليسر ﷺ.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ صفتان لرسول الله ﷺ ومعناها متقارب، ولا تشبهان بأسماء الله الحسنی؛ الرءوف والرحيم؛ لأن الله ليس كمثله شيء، وليس كصفته صفات، فإفّة رسول الله ورحمته صفتان بشريتان وإن كانتا بأعلى ما يمكن أن يتّصف بهما بشر.



سُورَةُ يُوسُفَ

المجلس الرابع والثمانون: معالم الإيمان الحق

المجلس الخامس والثمانون: حوار مع المشركين

المجلس السادس والثمانون: عاقبة الفريقين

المجلس السابع والثمانون: الأنبياء السابقون في مواجهة الشرك والظلم

المجلس الثامن والثمانون: توجيهات ختامية

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنَشِيرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّجْرُ مُبِينٌ ② إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يُؤْتِي ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ④ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ⑤ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِجَابُ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑥ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَشْقُونَ ⑦ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ⑧ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑩ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑪ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضَحْىَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ⑫ وَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ أَهْلِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّوهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرِّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلنَّاسِ مِنْ شَرِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑬ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ⑭ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ⑮﴾

معالم الإيمان الحق

سورة يونس سورة مكيّة، ومحورها الأساس الإيمان، والقرآن المكي في الأغلب يدور حول هذا المحور، مع اختلاف في مراحل المعالجة، وتنوع في أسلوب العرض والنقاش، وفي مقدمات هذه السورة يشرح القرآن بتركيز دقيق المبادئ الكلية لفهوم الإيمان:

أولاً: الإيمان بالله الخالق ﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ

السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إن القرآن هنا يطرح
قضيتين اثنتين: قضية الخلق، وقضية تدبير هذا الخلق؛ فالخلق هو: الإيجاد من العدم،
والإنسان لا يستطيع أن يدَّعي أنه هو الذي أوجد هذه الكائنات من العدم، ولا يستطيع أن
ينسب هذا الإيجاد لغيره مما هو مشاهد عنده، حتى الأصنام والآلهة المزيفة فهي أعجز من
الناس الذين يعبدونها.

أما الهروب إلى مقولة "قَدَمَ العالم" فهو هروب من منطق العقل وضرورات التفكير
الآدمي، فلا مناص من الاعتراف بنقطة بداية محدَّدة لهذا الإيجاد، وهذه النقطة لا بدَّ لها من
فعلٍ مؤثِّر، ولا فعل بلا فاعل.

أما القضية الثانية: فكأن القرآن يُجاري هؤلاء المنكرين والمُكابرين، وينزل إلى مستوى
عقولهم ونفوسهم؛ ليقيم عليهم الحجة، كأنه يقول لهم: هَبُوا أن هذه الكائنات كلّها قد
وُجدت من غير مُوجِد، فمن الذي يُدبِّرها كلّ هذا التدبير، ويضع هذه الموازين الدقيقة في
حركتها وانسيابيتها وتطوُّر حياتها وتلبية حاجياتها حتى تستمر في حياتها وعطائها؟
فالعلاقة بين الأرض والشمس علاقة حياة ووجود، لو ابتعدت الأرض عن مسارها هذا
أو اقتربت لانتهدت الحياة، وكذلك العلاقة بين الليل والنهار، وكلّ الأشياء المتعددة والمتنوعة
في هذا الكون، فمن الذي وضع هذه المقاييس، وضبط كلّ هذه العلاقات؟ وهذه قضية
مشاهدة وملموسة.

ثانيًا: استنطاق الفطرة، فبعد استنطاق العقل يتحوّل القرآن إلى عمق الفطرة الإنسانية
فيُخاطبها بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ
مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه ظاهرة بشرية عامة، فالناس وهم أقوياء أصحّاء غيرهم حينما يمرون بمراحل
الضعف وأوقات الشدّة، فالراقدون على أسرة المشافي لا تسمع منهم إلا كلمات الإيمان،

والأدعية الخالصة، والسلوك الهادئ اللطيف، إنهم يتجرّدون عن بهرج الغرور والكبرياء الذي كان يغطّي فطرتهم وطبيعة آدميتهم.

إن اللجوء إلى الخالق حينما تتعطل الأسباب هو عملية كشف لما هو مستور في أعماق الفطرة الإنسانيّة، وهذا المستور لا يتناقى مع العقل أو العلم، بل كلاهما يدعو للآخر ويعضّده ويكمّله.

ثالثاً: الإيمان المرتبط بالعمل، فالإيمان الذي يدعو له القرآن ليس هو ذلك الإيمان الفلسفي المجرّد الذي يلبي حاجة عقلية محضة تُحتملها أقيسة منطقية لا يستطيع العقل منها فكاً، وهو النمط الذي ساد عند كثير من فلاسفة اليونان؛ حيث أوصلتهم عقولهم إلى الإيمان بوجود الخالق باعتباره علّة لهذا الخلق؛ لأن هذا هو التفسير الوحيد لنشأته ووجوده، أما ماذا ينبنى على هذا الإيمان؟ فهذا لم يكن من اهتمامهم!

أما القرآن فإنه يرتّب على هذا الإيمان سلوكاً عملياً يبدأ بالخضوع التام لهذا الخالق العظيم، لأمره ونهيه، كما يخضع هذا الكون كلّهُ لنواميسه وسنته المقدّرة والمحكمة، ويلخص القرآن مسؤوليّة الإنسان هذه بجملة واحدة ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾.

رابعاً: لا عمل إلا بوحي، فالعمل المطلوب بعد الإيمان - والذي هو العبادة - لا يمكن أن يكون إلا وفق أمر الله ونهيه، وإلا لما سمّي عبادة، والبشر ليس عندهم القدرة لمعرفة أمر الله ونهيه إلا من خلال الوحي، ومن ثمّ كانت معركة القرآن الأولى مع المشركين إنما هي الإيمان بالوحي؛ ذاك لأن المشركين لم تكن عندهم مشكلة في أصل الإيمان، فهم يؤمنون بالله الخالق، لكنّهم يتنكرون لعبادته، ويأنفون من الخضوع لأمره ونهيه، وهذا هو الذي دعاهم لتكذيب النبي وإنكار الوحي ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ولأنهم يعرفون أنه ليس بسحرٍ بدأ القرآن يُحذّرهم من التماهي في هذا الجحود والمعاندة الباطلة.

خامسًا: الإيمان بيوم الجزاء؛ إذ هو القوة الدافعة لتحقيق الإيمان العملي المقترن بالخشية من الله وطلب الثواب منه ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايِنِنَا غَفْلُونَ﴾ (٧) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿

دقائق التفسير

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ المحكم الذي هو في غاية الإتيان، وفيه ردٌّ متقدِّمٌ على شبهة المشركين الآتية في أنه سحر.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ إنكار على تعجُّب المشركين من بعثة النبي ﷺ، وفيه إشارة إلى أن التعجُّب من الشيء لا يُسوِّغ إنكاره، فالإنسان يتعجَّب من كلِّ شيءٍ جديدٍ أو غير مألوف حتى لو كان واقعا بين يديه.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أمر الخلائق؛ صغيرها وكبيرها، بالنواميس التي قدَّرها الله ووضعها الله في هذا الكون، وهو دليلٌ مُّضافٌ إلى دليل الاختراع والإيجاد من العدم.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ردٌّ على ادِّعاء المشركين أنهم اتخذوا الأصنام شُفعاء لهم عند الله.

﴿إِنَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إخبارٌ واستدلالٌ على النشأة الثانية بالنشأة الأولى.

﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ ميّز بين الضياء والنور، والظاهر أن النور ما كان لطيفًا بلا حرارة بخلاف الضياء، وفيه إشارة إلى أن ضياء الشمس ذاتي؛ لأنه مندفع من مصدر الحرارة، فيكون مصاحبًا لها، بخلاف نور القمر، والله أعلم.

﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ مراحل الأهلّة ودورها المعروفة في كلّ شهر.

﴿لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ إشارة إلى أن المقصود حصول العلم بالأيام ومداخل الشهور ونهاياتها، وحساب التاريخ بكلّ وسيلة علميّة توصل إلى هذا العلم، وأما الرؤية فلم تكن سوى وسيلة متعيّنة في ذلك العصر؛ إذ لم تكن ثمة وسيلة أخرى، والله أعلم.

﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَاؤُهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لأنهم مُتَّقُونَ، فهم صادقون مع أنفسهم يفكّرون بجِدٍّ، وينتفعون بنتائج تفكيرهم، بخلاف الذين في قلوبهم كِبَرٌ ومرض، والذين يغمضون أعينهم عن كلّ حقيقة ودلالة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب إيمانهم؛ فالإيمان أصل لكلّ خير.

﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ﴾ وءَاخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿صورة للقاء المؤمنين في الجنة، فهم يُعَظِّمُونَ الله ويُمجّدونه أولاً، ثمّ يسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة أيضاً، فهم في سلامٍ دائمٍ ومتجدّدٍ، ثمّ يختمون كلّ لقاءٍ لهم بحمد الله الذي اصطفاهم وخصّهم بهذا النعيم.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ بمعنى: أن المشركين كانوا يتحدّون رسول الله ﷺ بأن ينزل فيهم ما يتوعّدهم به من العذاب تكبراً وعناداً، وكأنهم يطلبون الخير، ولو استجاب لهم الله لما بقي منهم أحد، ولكنه يُمهّلهم لعلمه سبحانه أن منهم من سيهتدي إلى الطريق الصحيح.

﴿دَعَانَا لِجَنَّةٍ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ فهو يدعو الله في كل أحواله.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: خلفاء في هذه الأرض من بعد أولئك الأقوام الذين أهلكهم الله بذنوبهم؛ كقوم هودٍ وصالح.

﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ اختباراً لكم، وليجزىكم بحسب نتائج أعمالكم.

حوار مع المشركين

في هذه الآيات يسجل القرآن طريقة تفكير المشركين وهم يناون عن هذا القرآن ويكذبون محمدًا ﷺ، والقرآن ما فتى يحاورهم ويخاطب عقولهم وقلوبهم، ويمكن تلخيص هذا الحوار بالنقاط الآتية:

أَوَّلًا: المشركون يريدون قرآنًا غير هذا القرآن ﴿وَإِذَا قُتِلَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَيْتِ بِشُرَّاءٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ ﴿فِيرُدُّ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ:﴾ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي﴾ إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِفَاتِنَتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۖ ﴿١٧﴾

ونلاحظ هنا أن القرآن يطيل معهم الحديث، ويعمل على إزالة الغَبْش عن عيونهم، مع أن مطلبهم هذا لا يخلو من سفاهةٍ ووقاحةٍ، فأَيُّ قرآن ذاك الذي سيؤمنون به إذا كان من مقترحاتهم وعلى وفق أهوائهم؟

لكن القرآن يُعَلِّمُنَا أَنْ لَا نُهْمِلَ قَوْلَ الْمُخَالَفِ مَا دَامَ أَنَّهُ رَضِيَ أَنْ يُكَلِّمَنَا وَنُكَلِّمَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثانيًا: المشركون يختارون شفعاءهم عند الله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فيرد عليهم القرآن: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَقَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالذي يتوسل إلى ذي سلطان يتوسل إليه بالمقربين منه وبمن هم محل الرضا عنده، ويكون التشفع بالصيغة التي يرضاها السلطان أيضًا، أما أن يختار هو الشفيع الذي يراه دون علم ولا إذن، ويختار

أيضاً صيغة التشفع التي قد تغضب السلطان، فهذه سفاهة مردودة، هذا في شفاعات البشر، فكيف بمن يريد التشفع إلى الله؟

ثالثاً: المشركون يطلبون المعجزات ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ كأن يكون معه ملك، أو تنزل عليه كنوز الذهب، أو يزيح عنهم جبال مكة، وهذه المطالب ليست جادة، وإنما هي ثماحكات، وفيها شيء من الاستهزاء والسخرية، وإلا فإن ما جاء به النبي ﷺ من القرآن الكريم ثم من الدلائل والمعجزات الحسية يكفيهم؛ ولذلك ردّ عليهم القرآن: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾، بمعنى: أنه يهددهم ويتوعددهم، ثم أردف: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ وهذا تأكيد لما تقدّم من وعيد وتهديد يتناسب مع صلافتهم وسفاهتهم.

رابعاً: القرآن يستنطق فطرتهم ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، واستنطاق الفطرة أسلوب قرآني متكرر، وهو يختار اللحظة التي يتجرّد فيها الإنسان عن حوله وقوته وجأه وسلطانه؛ بحيث يكون أمام قدره المحتوم وجهًا لوجه، هناك يظهر الإنسان على حقيقته بلا بهرج ولا قناع، وهناك تتكشف الفطرة التي أودعها الله في كينونة هذا الإنسان.

خامساً: القرآن يخاطب عقولهم ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ فهذه دلائل التدبير والتقدير والتنسيق بين ذرات هذا الكون ومفرداته الهائلة والمتنوعة كلها تُحتم على العقل أن يستسلم للقوة العظمى المهيمنة على كل هذا، وهذه القوة لا يمكن أن تكون في فراغ، وإنما هي الألوهية الحقّة ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصْرِفُونَ﴾.

سادساً: القرآن يتحدّاهم في الخلق ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهذا التحدي قائم إلى قيام الساعة، فلا الإنسان، ولا ما اتخذ من آلهة وشفعاء، ولا ما توصل إليه من صناعة وعلم وحيلة بقادر أن يدعي ولو مجرد دعوى أنه هو من بدأ هذا الخلق؛ إذ الإنسان مع كل ما توصل إليه ليفخر إذا تمكّن أن يحلّل بعض مفردات الخلق أو يكشف أسرارها، فكيف يدعي أن له يداً في خلقها واختراعها؟! أما الأصنام والأوثان على اختلافها فإنها أضعف وأضعف من الإنسان نفسه.

سابعاً: القرآن يتحدّاهم في الوحي والهدي ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾. ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) أم يقولون افتترناه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صدّيقين ﴿واقتران هذا التحدي بالهداية إلى الحق وتفصيل الكتاب فيه دعوة للنظر في خصائص القرآن العلميّة والعقدية والتشريعية؛ كونها تحمل دلائل يقينية على أن هذا الكتاب كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وهذه المعاني التي جاء بها القرآن مدركة للناس كافة، العرب وغير العرب، بخلاف الإعجاز البياني الذي لا يدركه إلا من يحسن العربية.

ثامناً: القرآن يحذّرهم العواقب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

تاسعاً: القرآن يكشف أسباب الزيغ والضلال:

- الغرور بالدنيا وغياب التفكير في الآخرة وما بعد الموت ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ﴾.

- الانغماس في الراحة والترف والغفلة عن حاجة المخلوق إلى خالقه ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَنَّهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾، ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾.

- تعطيل منافذ المعرفة ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾.

- الجهل، وهو نتيجة لازمة لما قبله ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ، وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾.

- التقليد الأعمى لأئمة الشرك والضلال ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيْلَانَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ فكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾، ﴿أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

عاشراً: القرآن يفتح لهم باباً للسلام والسعادة والخير ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فالقرآن لا يُعْجِب هؤلاء القوم الفاسدين؛ لأنه يحرمهم من مكاسبهم التي اكتسبوها ظلماً وعدواناً على عباد الله والمستضعفين من الخلق، وهذا هو ديدن أهل الباطل، لا يقبلون بأهل الحق إلا أن يتنازل أهل الحق عن حقهم.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ يَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ فالحق الذي نحمله وندعو إليه ليس آراء شخصية، ولا مشاريع حزبية، إنه دينٌ ووحى، فمن غير أو بدل فقد خان الأمانة، وتعدى على الحق ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لأهل العلم والفتوى ممن يتقربون إلى الناس بتزيين الباطل وتشويه الحق.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ بمعنى: أي بقيت معكم أربعين عامًا ولم أحدثكم بشيء، ولو شاء الله لحجب عني وعنكم هذا الوحي، فلا أنا أتلوه عليكم، ولا أنتم تدرؤن عنه شيئًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ وعيدٌ شديد للطرفين؛ من يكذب على الله بتغيير الحق وتزييف الدين والفتوى، ومن يكذب بالحق ويتنكر له بعدما قامت بينته وظهرت حجته.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَفَوْا﴾ بسبب بدعة الشرك، وإلا ففطرة الناس واحدة، ودلالة التوحيد قائمة، فالتوحيد أصل، والشرك طارئ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فسنة الله في خلقه إمهالهم إلى يوم الدين وهو يوم الجزاء، ولولا هذه السنة الثابتة لحكم الله اليوم بين المختلفين؛ الموحدين والمشركين.

﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ مَائِكَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ خارقة ظاهرة، كناقاة صالح، وعصا موسى، وهم إنما أرادوا آيةً على هوانهم، كإزاحة جبال مكة وتحويلها إلى جنان ونبابيع.

﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ للصد عنها، أي: عن القرآن، بمختلف الوسائل الظاهرة والباطنة.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ﴾ فالملائكة يحضون على ابن آدم كل عملٍ صغيرًا كان أو كبيرًا.

﴿يُسِرُّكُمْ فِي الْأَنْبَاءِ وَالْبَحْرِ﴾ خلق لكم ما يحملكم على البرّ وعلى البحر.

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ جاءهم الهلاك من كلّ صوب.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ يذكرون الله وحده وينسون أصنامهم.

﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فعاقبة البغي إنما ترجع على الباغي.

﴿مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ غاية ما ترجونه من البغي هو تمتعكم في هذه الدنيا الزائلة.

﴿كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من فوق، وقد وهم من فسّر السماء هنا بالفلك المعروف؛ لأن

الله قال في آية أخرى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ كثر النبات وتنوع حتى اختلط بعضه ببعض؛ بسبب كثرة الماء

النازل من السماء.

﴿حَتَّىٰ إِنَّا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَنَتْ﴾ تزيّنت بكثرة النبات واختلاف أشكاله وألوانه

حتى أصبحت كلوحة مزخرفة.

﴿فَقَدِرُوا عَلَيْهَا﴾ مُتَمَكِّنُونَ من تحصيل منافعهم فيها، وجني ثمارها وحصاد سنبليها.

﴿أَتَتْهَا أُمُرُنَا﴾ قضينا بهلاكها.

﴿حَصِيدًا﴾ كأنها محصودة، فليس فيها حب ولا ثمر.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنِ﴾ لم تكن ولم تعمّر، والمغاني: المنازل، والآية وإن كانت في الزرع إلا أنها

أعمّ من ذلك، فهيمنة البشر على الأرض بالصناعة والعلم لن تبقى إلى أبد الآباد، فيوم

الساعة آت، وهو قضاء الله الذي لا مردّ له مهما ظن الناس أنهم قادرون على أرضهم

ومتَمَكِّنُونَ من تسخيرها وتذليل صعابها.

﴿دَارِ السَّلَامِ﴾ الجنة.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ الذين أحسنوا العمل لهم الحسنى وهي الجنة، وأما الزيادة فتبدأ بمضاعفة الحسنات، وتنتهي بالقرب من المولى الجليل والنظر إلى وجهه الكريم، فذلك هو النعيم الأجل الذي يليق بالأكابر من الناس، وهو الذي لا يُدانيه نعيم الحور والقصور. ومن قاس الآخرة على الدنيا والخالق على المخلوق فقد زلت به قدمه، فالنظر هناك ليس كنظر المخلوق إلى المخلوق، بل هو بالكيفية التي تُناسب ذلك المقام، والله أعلم.

﴿وَلَا يَزْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَرَرٌ﴾ لا يغشاهم سواد الدخان، لا مادياً بدخان جهنم، ولا معنوياً بسواد الخيبة والحزى، بخلاف الآخرين ممن قال فيهم: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ والعياذ بالله.

﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم حتى يقضي الله فيكم، والشركاء هنا هم الآلهة المزيّفة التي اتخذها المشركون شركاء مع الله، وأضافها إليهم؛ لأنها من صنعتهم، فهم الذين اتخذوها آلهة وما هي بآلهة.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ فرّقنا بينهم، وقطعنا ما كان بينهم من تواصل.

﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِينَا تَعْبُدُونَ﴾ إذ العبادة الطاعة والخضوع لأمر المعبود، وهذه الآلهة لم يصدر منها أمر، فالمشركون إنما يعبدون أهواءهم على الحقيقة ولا يعبدون أصنامهم، وهذا شأن أكثر المشركين؛ كمن يعبد المسيح، أو يسجد لقبر الحسين، فهؤلاء الصالحون مبرّؤون من عبادة هؤلاء.

أما نطق الأصنام بهذه الحقيقة فلا يبعد أن يُودع الله فيها القدرة على النطق في ذلك اليوم الذي تتبدّل فيه النواميس، وتتغيّر فيه الأسباب، والله أعلم.

﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ فلا نسمع عبادتكم ولا نراها ولا نعقلها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ تعلم كل نفس ما قدمت، وأصل ﴿تَبْلَوْا﴾ الفحص

والاختبار والتمييز.

﴿وَمَنْ يُدْرِ الْأَمْرَ﴾ شأن الدنيا والآخرة.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأن المشركين لا ينسبون الخلق والتدبير لأصنامهم، بل دخل عليهم الشرك من باب الشفاعة والوساطة.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وفق سننه تعالى، فمن طلب الهداية هُدي، ومن طلب الضلالة ضلَّ.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فالذي لا يقدر على الخلق بداية لا يقدر عليه إعادة.

﴿لَا يَهْدِي﴾ لا يهتدي بنفسه، فالصنم لا يستطيع أن ينتقل بنفسه من مكانٍ إلى مكانٍ إلا أن يحمله أو يدفعه أتباعه، فكيف يقدر بعد ذلك أن يهديهم هو إلى الصراط المستقيم؟
﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مصدقاً للكتب التي قبله.
﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ أخباره وأمره ونهيه.

﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أعظم التحدي وأشدُّه على المشركين؛ إذ تحدَّاهم أن يأتوا بمقدار سورة من سور القرآن تُجاري القرآن في لغته وأسلوبه وبيانه، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، فعجزوا، وفائدة عجزهم دحض ادِّعائهم أن هذا القرآن من صنْع محمد ﷺ؛ إذ لو كان من صنعه ما عجزوا أن يأتوا بمثله.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ لم يروا بعدُ عاقبة تكذيبهم لهذا القرآن، وسIRON، والتأويل هنا المالك، وهذا القول أولى من قول من قال إنهم كذَّبوا به قبل أن يفهموا تفسيره، وقبل أن يسألوا عن معانيه؛ لأن المخاطبين به في ذلك الوقت كانوا في أعلى درجات البيان والفصاحة، فلا يحتاجون إلى تفسير ولا إلى ترجمان، والله أعلم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ جاء بصيغة الجمع على معنى اسم الموصول ﴿مَنْ﴾ إذ المقصود به هنا الجمع، وهذا الاستماع لا يوصل إلى الهداية؛ لأنه استماع بغرض الاطلاع لا الانتفاع،

على عادة المتكبرين والمُفسدين؛ ولذلك عَقَبَ بقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهو صمم الغفلة والتكبر والتعالي عن الحق.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ جاء بصيغة المفرد على لفظ اسم الموصول ﴿مَنْ﴾ إذ لفظه مفرد، وإن كان معناه جمعا، وعليه فالصلةُ يصحُّ أن تأتي هنا مفردة مراعاةً للفظ، أو تكون مجموعة مراعاةً للمعنى.

واختيارُ الإفراد للنظر بخلاف السمع فيه أكثر من إشارة؛ فالمُبْغِضُ لا يحبُّ أن يرى بغيضه، لا سيما إذا كان بحالة حسنة، وهيئة محترمة، لكنه في الوقت نفسه يحبُّ أن يسمع عنه كلُّ شيء، فالمشركون يستمعون إلى رسولِ الله ويتتبعون أقواله وأخباره ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إشارة للكثرة، لكنه إن حَضَرَ تغافلوا وأعرضوا عنه ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ إشارة للقلة.

ومنها: أن النظر محدد من جهة واحدة؛ فالذي ينظر ينبغي أن يكون قبالة المنظور، بخلاف السمع؛ إذ قد يكون من خلفه أو من جانبه أو من مكانٍ خفيٍّ بحيث لا يراه أصلاً، كما يفعل المتجسسون، والله أعلم.

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ والعُمى هنا هم أنفسهم الذين ينظرون إلى رسول الله ﷺ، فهم عُمى عن الحقيقة وإن كانوا يرون الشكل، وعمى البصيرة أشدُّ وأضرُّ من عمى البصر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تأكيدُ أن المسؤولية هي مسؤولية البشر، وأن قَدَرَ الله ليس معناه الإكراه، بل هي سُنن الله العادلة التي لا تتخلف، ولا تُحايي أحداً على أحد.

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَانَ أَرَأَيْسَهُمْ إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ
 الَّذِينَ نَعَدْتُمْ أَن تَرْفُتَهُمْ فَإِنَّمَا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ
 بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ
 أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ
 ﴿٥٠﴾ أُنْعَمَ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِهِ ءَالَئِن قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ
 تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَفْهِتُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ قَفْسٍ ظِلْمَةٌ مَّا فِي الْأَرْضِ
 لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ
 مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ آذَنَ لَكُمْ أُمِرَ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوكم ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
 اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ
 وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا
 أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرٌ ﴿٦٤﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ
 قَوْلَهُمْ قَوْلَهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
 وَمَا يَشِيعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّوكم إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 وَلَكِنْ سُبْحَنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ
 الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

بعد الحوار الطويل مع المشركين تأتي هذه الآيات لتعرض الجزاء الأخروي الذي ينتظر الناس كل الناس مؤمنهم وكافرهم، وهذا العرض يأتي لتثبيت المؤمنين من ناحية، ولتحذير المشركين من ناحية أخرى، فهو حوار متواصل، ولكنه بأسلوب آخر، أسلوب الترغيب والترهيب، وبيان النتائج والعواقب التي تنتظر كل عامل وكل مكلف على هذه الأرض، وقد تناولت هذه الآيات جوانب مختلفة ومتنوعة من عقيدة الجزاء:

أولاً: أن كل عمل يعمل الإنسان على هذه الأرض مهما كان صغيراً أو كبيراً فهو مدوّن ومحفوظ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ثانياً: أن الله بيده الليل والنهار، والحياة والموت، والسماء والأرض، يحكم ما يشاء، ويفعل ما يشاء ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ۖ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

فيوم الحساب ما هو إلا خلق من خلق الله ويوم من أيامه، واستغراب البشر من الخلق الثاني بعد أن رأوا الخلق الأول لا مسوغ له؛ فالخلق لله أوله وآخره ليس معه شريك ولا كفيل ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثالثاً: أن لكل حيّ أجله، ولكل قوم نهايتهم مهما بلغوا في قوتهم وطغيانهم، وهذا الأجل إنما يعلمه الله وحده ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٨) ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا

نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾

رابعًا: أن أهل الإيمان هم أهل السعادة الدائمة؛ سعادة الدنيا بمعرفة الله وعبادته والاطمئنان إليه، وسعادة الآخرة برضاه والجنة ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ذِكْرٌ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾، ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

خامسًا: أن الظالمين سينالون جزاءهم وسيندمون ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَكَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾، ﴿مَتَّعُ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

سادسًا: أن الحكم هناك إنما هو حكم العدل والقسط ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يوم الحشر يكتشف الناس أن حياتهم الدنيا لم تكن بشيء أمام سعة الآخرة وآمادها التي لا تنتهي عند حد، حتى كأن الدنيا كلها لم تكن غير ساعة لا تتسع لأكثر من التعارف!

﴿وَمَا تُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ من العذاب الدنيوي.

﴿أَوْ نُوَفِّيكَ﴾ يا محمد قبل تعذيبهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ العدل.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ متى يوم الساعة؟ يسألون سؤال المكذب المستهزئ.

﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لأنني لا أعلم الغيب، فمن باب أولى أني لا أعلم الساعة.

﴿فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لأن الأجل محسوم لا يقبل التقديم ولا التأخير.

﴿إِنْ أَتَيْتُمْ عَذَابَهُ، بَيْنَنَا﴾ وأنتم نائمون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مشغولون بأعمالكم ووظائفكم.

﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: فما الذي كنتم تستعجلونه منه؟ وهو استفهام على

سبيل التهكم؛ لأنهم كانوا يسألون الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب تكذيباً وتحدياً له ﴿أَنْتَ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنُتُمْ بِهِ﴾ عَالَمُونَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿

﴿وَيَسْتَنْشِئُونَ أَحَقُّ هُوَ﴾ يستخبرونك عن يوم القيامة.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لو كان الظالم هناك يملك قدر ما في

الدنيا كلها لافتدى به، ولكن هيهات فلا طريق هناك للتملك ولا للبقاء.

﴿قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ القرآن الكريم.

﴿قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ هو الفرح بالإسلام دين الرحمة والهدى والخير،

وفيه إشارة أن التدبُّن في الإسلام ليس تدبُّن الرهبة والعزلة والحزن، بل هو دين الحياة،

الدين الذي يعمل لإسعاد البشر في الدنيا والآخرة.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا؛ لأن سعادة الإنسان ذاتية داخلية وليست بما

يجمع من كنوز ومتاع.

﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ بأهوائكم، كما مرَّ في الأنعام وأسمائها وأصنافها عندهم.

﴿قُلْ ءَاَللّٰهُ اَذِنَ لَكُمْ﴾ دلالة أن التشريع من حقّ الله وحده، ومن شرّع خلاف ما أَراده الله فقد تعدّى وافترى.

﴿إِنّ اللّٰهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بما شرّع لهم من سبل الهداية والخير، إضافة إلى فضله في الخلق والرزق وما يتعلق بهما.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ فلا يخفى علينا شيءٌ من أعمالكم دَقَّها وجلَّها.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تباشرون أعمالكم وتنغمسون فيها.

﴿وَمَا يَصْرُفُ﴾ وما يغيب.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وزن ذرة.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أصغر من الذرّة، إشارة إلى ما تتكون منه الذرة، والله أعلم.

﴿أَوَلِيَاءَ اللّٰهِ﴾ جمع، مفردة وليّ، وهو كلّ مؤمنٍ تقيٍّ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا

يَتَّقُونَ﴾.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم في كنف الله ورحمته.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من حطام الدنيا ونحوه؛ لأن نعيم الجنة والقرب من

الله يُنسيهم كلّ ذلك.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ المؤيّدات الربّانيّة؛ كطمأنينة القلب، واستجابة الدعاء،

والرؤيا الصالحة، ونحو ذلك.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّٰهِ﴾ لسننه الثابتة ووعدته لعباده بالثواب والرضا والجنة.

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ قول المشركين من تكذيبٍ واستهزاءٍ.

﴿إِنّ الْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعًا﴾ مواساةً لرسول الله ﷺ على ما يلقى من تكذيبٍ واستهزاءٍ، كأنه

يقول له: أنت مع الله العزيز القوي فلا تلتفت لهؤلاء.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يقولون ما لا يعلمون.
﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ مع أزواجكم وأولادكم راحةً وأنساً وهدوءاً.
﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئاً، ترون فيه مصالحكم وأرزاقكم وشؤون حياتكم.
﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزهه عن قولهم.
﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ فلا يحتاج للولد ولا لغيره.
﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا﴾ ليس عندكم دليل على هذا القول.
﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ مدة يسيرة يُمهلهم الله فيها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿١﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَانَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنِ اجْتَرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيَانَتِنَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَقِيبَةُ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُفْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِبَيَانِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْقِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمِ إِنِ كُنتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنِ كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿٩٠﴾ وَجُوزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُمُ الْعُرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ءَالْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدُنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَابِنَا لَعَافُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُورًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْوَعْدُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٤﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَانْزِلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُسْتَدْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيَانَتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٨﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿٩٩﴾ ﴿

الأنبياء السابقون في مواجهة الشرك والظلم

في هذه الآيات ينتقل القرآن من أجواء مكة والمعركة المحتدمة بين التوحيد والشرك إلى أعماق التاريخ البشري ليعرض نماذج أخرى لهذا الصراع:

كان النموذج الأول نوحًا ﷺ الذي واجه أصنامًا شبيهة بأصنام مكة.

أما النموذج الثاني فكان موسى ﷺ الذي واجه أصنامًا من نوع آخر؛ فرعون وهامان وجنودهما، في تجربة طويلة وملئية بالأحداث والتطورات؛ مما يؤهلها لتكون المدرسة التاريخية الأكبر لكل مصلح وداعية.

أما النموذج الثالث فكان يونس ﷺ والذي سُميت السورة باسمه، وهي تجربة قصيرة في السياق القرآني، لكنها تفتح بابًا واسعًا للأمل والرجاء.

أما الدروس المستنبطة من هذه النماذج الدعوية الكبيرة فيمكن تلخيصها في الآتي:

أولاً: أن الشرك بكل ألوانه ظاهرة بشرية متكررة من فجر التاريخ، وهذه الظاهرة مدعومة بعناد نفسي شديد وصلابة مجتمعية متينة؛ بحيث إن دعوة الأنبياء مع ما فيها من معجزات حسية ومعنوية، وما فيها من قوة البيان وقوة الحجّة، وما يتّصف به الأنبياء من خلال حميدة، وصفات كريمة، ونور ظاهر في سلوكهم وحياتهم، إلا أنها في الغالب قد اصطدمت بهذا الجدار الصلد الذي لا يرى ولا يسمع ولا يفكر.

فهذا نوح ﷺ يقول: ﴿لَقَوْمٍ إِنْ كَانْ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ وبعد نوح لم يتغير الموقف مع كل الأنبياء اللاحقين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾، وفي موسى وأخيه ﷺ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ وهكذا حتى صارت كأنها

سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ.

ثانيًا: الحالة الوحيدة التي يذكرها القرآن استثناء من ذلك السياق هي حالة يونس عليه السلام مع قومه ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ومن هنا تكتسب هذه القصة أهميتها وتميزها؛ لأنها تفتح بابًا من الأمل، خاصة أن قوم يونس - وهم أهل الموصل شمال العراق - كانوا مجتمعًا كبيرًا قياسًا بذلك العصر ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿[الصفات: ١٤٧، ١٤٨].

ثالثًا: القرآن يكشف سرَّ ذلك العناد والمكابرة الباطلة ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِئَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ إنه الخوف على فوات المكاسب المادية والمعنوية التي يمتاز بها الطغاة وحواشيهم عن سائر الناس، نتيجةً للمعتقدات والخرافات التي تمنحهم مثل هذا التمييز، والتي تقوم بدورها في تخدير العامة والرضا بالفتات الذي يتركه لهم أولئك الطواغيت، إنهم يخافون أن تحرّمهم هذه الدعوة من كبريائهم، وأن تأتي بمن يُنافسهم عليها، وهذا هو ديدن الطواغيت في كلِّ عصر.

رابعًا: أن الباطل يستخدم كلَّ ما عنده لمواجهة الحق؛ المال، والقوة، والإعلام، والمكر وغيرها ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وهذا تشويه وتشويش، ثم راحوا يحاربون السحر - بزعمهم - بالسحر ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ فلما بطل سحرهم راحوا إلى المال والقوة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾، ﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾.

خامساً: أن المؤمنين الموحددين عليهم أن يتهيأوا لهذه الشدائد، وأن يثبتوا ويستعدوا لمواجهةها ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) فقالوا على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنَةً للقوم الظالمين ﴿

سادساً: أن العاقبة دائماً ليست في صالح الظالمين المكذبين ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾. ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠) ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً﴾.

وبخلاف فرعون وقومه كان حال أولئك المؤمنين الذين ثبتوا مع موسى في مواجهة فرعون ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهذه هي سنة الله الماضية مهما ارتفع الباطل وطغى ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

سابعاً: أن العلم والتثبت من المعارف والحقائق هو طريق الحق، وهو الذي يعصم أهله من الزلل والشطط ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿كَبَّرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ شق عليكم بقائي معكم ودعوتي لكم.

﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ احسبوا رأيكم، واستعينوا بأوثانكم، على سبيل التحدي والتهكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ لا تعملوا بالخفاء، بل صارحوني وواجهوني.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ نفذوا في تهديدكم ووعيدكم ولا تؤخرون.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ استمروا في تكذيبه.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً﴾ باقين في الأرض بعد أن أهلك الله الآخرين بالطوفان.

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ إشارة إلى أن الظلم والعدوان وإرادة الشر من أشد أسباب الضلال، والعياذ بالله.

﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِنَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ لتصرفنا عن عادات آبائنا وأجدادنا؟

﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ما تريدون إلقاءه من حبال وعصي، وفيه معنى التعجيل والتحدي.

﴿وَبِحَقِّ اللَّهِ الْحَقِّ﴾ يظهره ويقويه ويثبته.

﴿إِلَّا ذُرِّيَّةً مِنْ قَوْمِهِ﴾ أولاد من بني إسرائيل، وفيه إشارة إلى أن الشباب أجرأ على التغيير وأقوى على المواجهة.

﴿عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ خوفهم من فرعون ظاهر، وأما خوفهم من ملئهم فمعناه: أن آباءهم وكبار قومهم سيمنعونهم خوفاً عليهم من فرعون، وهذا معروف ومتكرر في كلِّ الدعوات الإصلاحية؛ حيث يستشري الخوف والرعب عند المظلومين، فينقلب الجميع إلى أدوات بيد الظالم لكبح حالات الخروج والعصيان ولو كانت من أولادهم.

ويحتمل أن يكون الملأ ملأ فرعون، وأضافهم إلى ضمير الجمع إشارة إلى قوة فرعون وجمعه لكلِّ السلطات.

﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ وكان السياق يقتضي أن يقول: أن يفتنوهم، لكنه أفرد الأمر لفرعون وحده، وفي هذا إشارة لا تخفى.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ موضعاً للفتنة، وهي هنا التعذيب والتنكيل وما يتبعهما.
﴿أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ يُونَا﴾ اتخذنا لكما ولبنى إسرائيل معكما مساكن خاصة بكم.
﴿وَجَعَلُوا يُونَتَكُمْ قَيْلَةً﴾ أماكن للعبادة والصلاة، بعد أن منعهم فرعون من بناء معابدهم وإظهار شعائره؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.
﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ امحها وامح آثارها.

﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ لأنهم في كل مرة كانوا يستجرون به لدفع العذاب ويعدونه بالإيمان كما في سورة الأعراف: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فعندما يرفعه الله عنهم ينكثون ويعودون إلى كفرهم وظلمهم، فهو إيمان زائفٌ مخادع، وهذا ما رغب فيه موسى إلى ربه أن لا يتكرر، أما لو علم أنهم سيؤمنون بالله حقاً وصدقاً، فلا شك أن هذا هو غاية الرسل ﷺ.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا﴾ إشارة إلى أن هارون كان شريكاً لموسى في هذا الدعاء وإن لم يذكره أولاً.

﴿وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ عبرنا بهم البحر، وكانت هذه آية من الله ومعجزة لموسى؛ لأن البحر قد انكشف لهم حتى عبروه إلى الضفة الأخرى بسلام.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ تعقبهم وطاردتهم ظلماً وعدواناً.

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ﴾ لأنه ظن أن انكشاف البحر ظاهرة لا علاقة لها بموسى ومن معه، فكان أن أغرقه الله بغروره الأخرق، وظنه الفاسد.

﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ لا يبعد أن يكون إيمانه هذا كالمرات السابقة، كأنه يُخَادِعُ الله، والله أعلم بالقلوب، لكن الذي يرجح هذا ردُّ الله عليه، وعدم قبوله منه: ﴿ءَأَفَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ومن يعرف سِيرَ الطواغيت لا يستغرب هذا، فهؤلاء تعلموا السياسة والمكر وتغيير المواقف بحسب ما تقتضيه مصلحتهم، ولما تكرر منه ادِّعاء الإيمان سابقاً لرفع الرجز، ظنَّ أن هذا ماضٍ مع الله سبحانه، وقد أثبت القرآن أن فرعون قبل هذه اللحظة كان يعلمُ صدق موسى وصدق الآيات التي جاء بها ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرِعَوْتُ مُشْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لكنه عنادُ القوة وكبرياء السُّلطة، والله أعلم.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾ وهذه آيةٌ خالدةٌ إلى يومنا هذا لا يُنكِرها إلا مُكابر.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ﴾ أنزلناهم منزلاً مباركاً، وهم الذين استقرُّوا في يثرب، وهي انتِقَالَةٌ سريعةٌ في التسلسل التاريخي، ويشهد لهذه الانتِقَالَةَ انتِقَالُ الخطاب بعدها مباشرةً إلى رسول الله ﷺ.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ القرآن.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ خطابٌ لكلِّ سائلٍ وشاكٍّ من خلال المبلِّغ ﷺ، وإلا فإن رسول الله لا يشكُّ فيما يُوحى إليه أبداً، ونحو هذا قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَآئِنَاتِ اللَّهِ﴾.

﴿فَنَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ استِشهادٌ على المُشركين بما عند أهل الكتاب من العلم، والظاهر: أنه في القصص القرآني المُوافق لما في الكتب السابقة، كقصة موسى ﷺ مع فرعون، والله أعلم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكِّينَ والمُرتابينَ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ثَبَّتَ عليهم سُنَّةَ الله في خلقه أنَّ من طلب الهداية هُدي، ومن طلب الضلالة ضلَّ، فكلُّ نفس تتحمل مسؤوليتها وعاقبة أمرها، وكلُّ ذلك بإرادة الله وعلمه السابق.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا﴾ فهلا آمَنَت تلك القرى قبل أن يأتيهم العذاب، والصيغة فيها معنى النفي، ثم استثنى من هذا النفي قومَ يونس ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا﴾ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿ وهذه ميزة شريفة وجليلة لأهل الموصل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٩) وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١١٠﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَنْ أَقِفَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفُّمُ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَخُفُّمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١١٩﴾

توجيهات ختامية

في خواتيم هذه السورة يقدم القرآن توجيهاته المناسبة لموضوع السورة وما ورد فيها من مواقف وأحداث وحوارات:

أولاً: إن المشيئة المطلقة لله وحده ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾، ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وهذه العقيدة الراسخة من شأنها أن تريح القلوب المؤمنة، وتبعث فيها الطمأنينة وهي ترى إصرار الكافرين على كفرهم، وتمادي الظالمين في ظلمهم، فالله تعالى قادرٌ - لا شك - على تغيير

هذه الأحوال، وتقلب هذه القلوب، لكن الذي يجري كله يجري وفق سُنن الله وإرادته وحكمته.

ثانيًا: إن الإنسان هو المسؤول عن توجهاته واختياراته، وهذه المسؤولية هي مناط التكليف والاختبار، ولو تدخلت الإرادة الإلهية في تسييره لانتفى مفهوم الاختبار من أساسه، ولما بقي فضل لتقيٍّ على شقيٍّ، ولا لمجاهدٍ على قاعدٍ ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ رَسُولٌ فَأَنِصُوا لِنَفْسِكُمْ وَلِمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثًا: التذكير بما حصل في التاريخ البشري كله من عواقب وخيمة للظالمين المعاندين، ونجاة للمظلومين الصالحين المصلحين ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ.

رابعًا: الوصية بالثبات والصبر، والمحافظة على الصفِّ المؤمن والجماعة المؤمنة رغم حملات التشكيك والإيذاء ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وتأصيلٌ عظيمٌ يربط بين الإيمان وحرية الاختيار؛ ذاك أن الإيمان عقيدة جازمة محلها القلب، والإكراه فيها غير مُتصوِّر؛ لأن المكره لو استجاب فإنه يستجيب بلسانه لا بقلبه، وهذا لا يسمى إيمانًا.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بعلمه وتوفيقه، ووفق سنته الثابتة في الابتلاء

والاختبار والتمييز.

﴿الرَّجَحُ﴾ العذاب.

﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ دعوة للنظر في هذا الكون الفسيح وما فيه من

دلائل باهرة وآثار جليلة تنطق بعظمة الخالق ورحمته وحكمته.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يريدون الإيمان، ولو استبانت لهم دلائله

بسبب مواقف مُسبقة مبنية على كِبَرٍ وحسدٍ وعداوةٍ للحقِّ وأهله، والنُّذُرُ جمع مفردها نَذِيرٌ،

وفي آيات القرآن وقصصه ما يكفي من النُّذُر حتى تقوم الحجة على كل منكرٍ معاندٍ.

﴿قُلْ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فيه تهديدٌ ووعدٌ، وثقةٌ مطمئنةٌ إلى وعد الله.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقٌّ أوجهه الله على نفسه فضلاً وتكرُّماً أن ينجي

الرسل ومن آمن معهم من كلِّ عذابٍ عامٍّ يقع على أقوامهم بسبب تكذيبهم للرسول

وصدَّهم عن سبيل الله، وهذه سنَّةٌ تحقَّقت في كلِّ القصص النبوي من نوح، وإبراهيم،

ولوط، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام.

أما في غير هذه الصورة فالمؤمنون موكَّلون إلى سنَّة التدافع، ومستوى الأخذ بالأسباب،

وإعداد العُدَّة، وحُسن الظن بالله غالبٌ أن ينصر عباده المظلومين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ خصَّ الوفاة هنا؛ تذكيراً بمصير الإنسان الذي تزول معه

كلُّ الشهوات والرغبات، وهذا أدعى لتجريد الفكر، وتمحيص النظر، وتصفية القلب

ليُدرك الحقيقة كما هي من غير لبسٍ، ولا غشاوة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل: لأكون مؤمناً، في إشارة لأهمية الكينونة مع الصف

المؤمن والأمة المؤمنة.

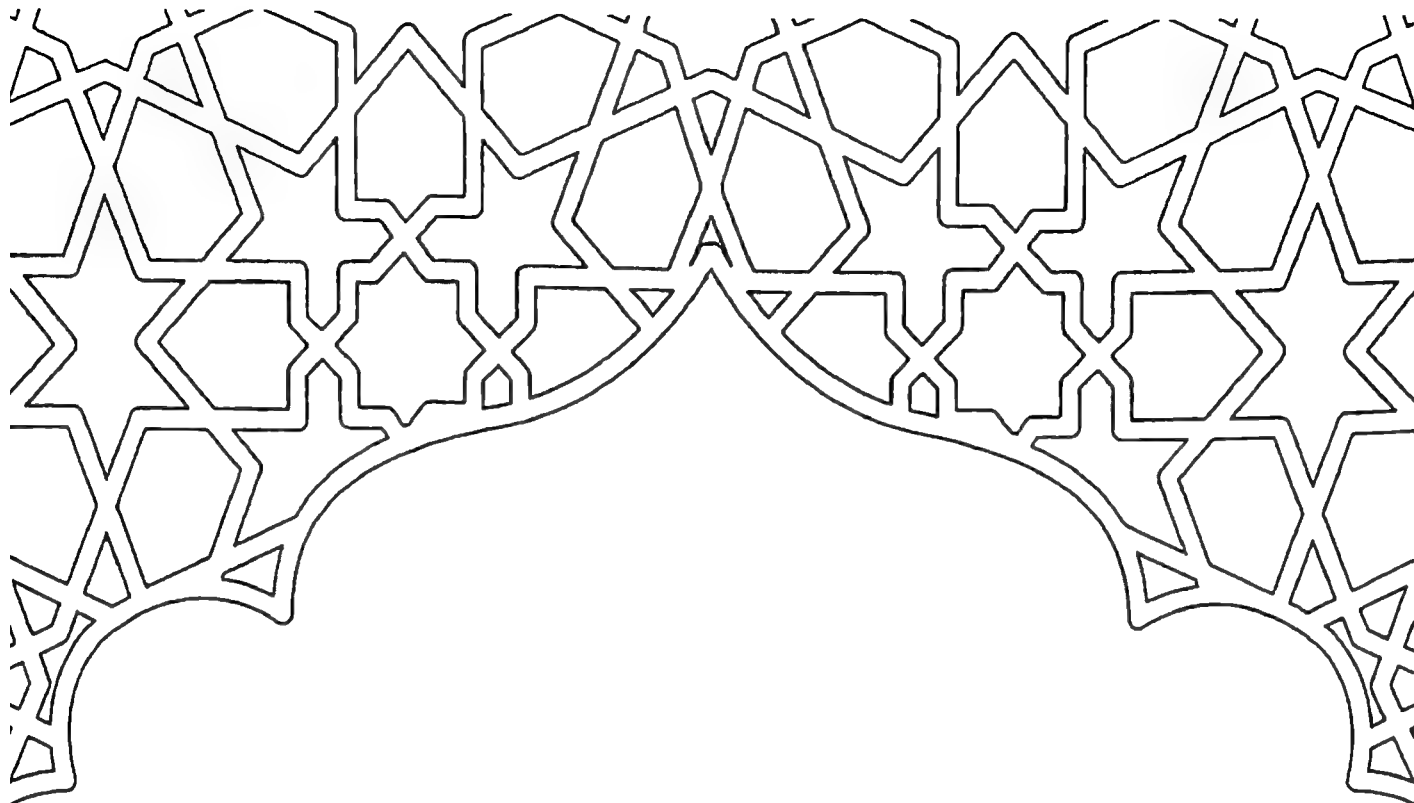
﴿حَنِيفًا﴾ مُخلصاً له ومائلاً إليه دون سواه.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فالله ﷻ لا يزيده إيماننا ولا هدايتنا، وإنما يدعونا إلى ذلك لمحض منفعتنا نحن، وكذاك لا ينقصه كفر الكافرين، ولا ضلال الضالين ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ وإنما نُحذِّرنا من ذلك لمحض منفعتنا أيضًا، وهذا من عظيم رحمته بخلقه ﷻ.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وما أنا بموكل على هدايتكم، فوظيفة الرسول التبليغ والبيان وإقامة الحجة، ثم الناس أحرار فيما يرون ويختارون، وهم بعد ذلك المسؤولون عن أنفسهم وما اختاروا لها.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾ إشارة إلى أن اتباع الحق يحتاج إلى الصبر؛ لكثرة دواعي الفتنة داخل النفس وخارجها.

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين هؤلاء الكافرين المكذبين ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.



سُورَةُ هُودٍ

المجلس التاسع والثمانون: الإيمان والإنسان

المجلس التسعون: نوح ﷺ

المجلس الحادي والتسعون: هود وصالح ﷺ

المجلس الثاني والتسعون: إبراهيم ولوط ﷺ

المجلس الثالث والتسعون: شعيب ﷺ

المجلس الرابع والتسعون: موسى ﷺ وخاتمة القصص النبوي

المجلس الخامس والتسعون: توجيهات ختامية

﴿الرَّكَنُ أَهْكَمْتُ إِلَهُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ①﴾ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرَّمُهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ② وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَلْعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتَوُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّةٌ يَسْتَعْمِلُونَ شِيَابَهُمْ لِيَتْلَمَّ مَا يَشْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَدَاتُ الصُّدُورِ ⑤

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ⑥﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑦ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ⑧ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑨ وَلَئِنْ أَدْنَا إِلَى الْإِنْسَانِ مَنَا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْكُمْ كَفُورٌ ⑩ وَلَئِنْ أَدْنَا نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّةٍ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ⑪ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑫ فَلَمَّا كَانَتْ نَارُكُ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ⑬ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ⑭ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑮ فَإِنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ⑯ مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ⑰ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑱ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسًىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي رَيْبٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ⑲ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ⑳ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ㉑ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ㉒ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ㉓ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ㉔ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ㉕ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْنَى وَالْأَصَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ㉖﴾

الإيمان والإنسان

لا يختلف موضوع هذه السورة عن سابقتها، وهذا شأن القرآن المكي بشكلٍ عام، إلا أن ما بين هاتين السورتين أقوى حتى كأن الثانية امتدادٌ للأولى وتكميلٌ لها، وقد لا يكون الفارق إلا التوسُّع في ذكر الشواهد وقصص النبيين السابقين، وتسليط الضوء على بعض الجوانب العملية التي تعزز الخبرة الميدانية للصفِّ المؤمن وهو يواجه في مكة ذات التحدي الذي واجهه كلُّ الأنبياء السابقين عليهم وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والتسليم.

في أوائل السورة يعرض القرآن لعالم الغيب وصلته بعالم الشهادة، وتردُّد البشريَّة واضطرابها في فهم هذه الصلة وكيفية استيعابها والتعامل معها، وهذا هو أساس التباين في مواقف الناس وولاءاتهم وصراعاتهم، حتى يكون الأب في خندقٍ وابنه في خندقٍ آخر، وحتى تنقسم الأسرة الواحدة، والقبيلة الواحدة، ومن هنا يعرض القرآن توجيهاته للبشريَّة عامة بغية هدايتهم وتوحيد وجهتهم، وللمؤمنين خاصة بغية تثبيتهم وتمكينهم وتعزيز موقفهم:

أولاً: إن هذا الخلق كله قد صدر عن إرادة واحدة، وهي إرادة الله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وأن هذا الخلق كله لا زال قائماً بإرادة الله وحكمته ورحمته ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ثانياً: إن الإنسان له وظيفته المتميزة في هذا الكون، وهي محور اختباره وغاية وجوده ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وميزان العمل إنما هو الخضوع لأمر الله ووحيه ﴿كَتَبَ أَحْكَمَتْ أَيْتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿فَإِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

ثالثاً: إن الناس قد انقسموا على فريقين؛ فريق تائه حائر لا يدري سرَّ وجوده ولا مبتدأه ولا منتهاه، وهم الغافلون السادرون في هذا المتاع بلا فكرٍ ولا تأملٍ ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١﴾ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونَ ضُورَهُمْ لِيَسْتَحْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وأما الفريق الثاني: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

والفارق بين الفريقين: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

رابعًا: إن الإنسان من طبعه التغير والتقلب بحسب ما يواجهه وما يحيط به، فهو يتأثر باللحظة التي يعيشها حتى أنه يغفل أو يتغافل عما كان عليه قبل ﴿وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾ وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نَعَمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، ثم استثنى فئة مؤمنة واعية ثابتة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

خامسًا: إن الجانب الإيجابي في هذه الطبيعة البشرية هو القدرة على التصحيح والرجوع عن الخطأ، ومن ثم فتح الله باب التوبة وحض الناس عليه ترغيبًا وترهيبًا ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمַغْفِرْكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾.

سادسًا: التذكير المستمر بيوم الجزاء، وأن هذه الحياة الدنيا كلها ما هي إلا مقدمة لذلك اليوم، وإذا كان الناس هنا يتمايزون بأنسابهم وأموالهم، فهناك التمايز إنما يكون على أساس العمل والسلوك الذي قدمه الإنسان على هذه الأرض ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وأما الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله فارادك ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ»، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ﴾.

سابعاً: توجيه الخطاب إلى المؤمنين من خلال النبي الكريم ﷺ أن اثبتوا على الحق وتمسكوا به مهما كان حجم الباطل والدائرين في فلكه ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿أُحْكِمْتَ آيَاتُهُ، ثُمَّ فَصَّلْتَ﴾ دلالة أن التفصيل متأخر عن الأحكام، وفيه معنى ردّ الفروع إلى أصولها، وهو أساس فهم القرآن والمنهجية الصحيحة لتدبره واستنباط الأحكام منه. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ترتيب مقصود؛ إذ المذنب عليه أن يستشعر الحياء أولاً فيطلب الستر وهو الاستغفار، ثم يطلب العفو بندمه وعزمه على التصحيح وهجر الذنب وأسبابه ومقدماته.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الفضل الأول: عمل الخير؛ وسماه فضلاً لأن الأصل أن الإنسان يتقدم بالخير الفاضل عن وقته وحاجته. والفضل الثاني: الثواب الذي هو كله فضل من الله بتمته وكرمه.

﴿وَمَنْ تَوَلَّوْا﴾ أصله: تتولّوا، وحذفت الأولى تخفيفاً.

﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هذا هو خلق النبيين حتى مع خصومهم؛ أنهم يخافون عليهم من سخط الله وعذابه.

﴿الْأَنَّهُمْ يَتَنَوَّنَ صُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ تفريع عن التولي، فهم يتولون عن الحق، وهم عالمون به، لكنهم يراوغون ويخادعون، فشبه حالهم هذه بمن ينطوي على نفسه كأنه يخفي شيئاً، لكنه يجهل أن الله عليم به مطلع على كامل أحواله ﴿الْأَجِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وما ورد من تفسيرات مختلفة عن السلف لمعنى الثني والاستخفاء كلها داخلية في مظلة هذه الحقيقة الكبيرة، فهي تنزيل وتطبيق على حالات الإنسان المختلفة التي يحاول فيها التخفي حياة أو مراوغة.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كل ما يدب في الأرض ويتحرك عليها.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ كلاهما بمعنى المكان الذي يوجد فيه الكائن الحي على ما هو عليه، لكن المستودع فيه إشارة إلى معنى الوديعة، فهذا الإنسان بعد انتهاء أجله ومفارقته لمستقره على هذه الأرض سيكون هو وما قدم وديعة عند الله، فالمستقر في الأرض، والمستودع في القبر وحياة البرزخ، والله أعلم.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ خبر غيبي يلزم التصديق به من غير كيف وتفصيل، وفيه إشارة إلى أن الماء أصل الحياة، كما قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والله أعلم.

﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى أجلٍ محدودٍ، لكن هذا الأجل متصلٌ بحركة الأمم والشعوب، فلا تنقرض أمة إلا وتعقبها أمة.

﴿مَا يَخِيسُهُ؟﴾ ما يؤخره؟ كأنهم يستعجلون عذابهم، ويتحدون نبيهم ﷺ.

﴿إِنَّا لَنُفِخُ فِي سُورٍ﴾ شديد اليأس.

﴿لَفِجْجٌ فُخُورٌ﴾ فريج بما نال من المتاع، وفخور ينسب هذا الخير إلى قوته وعقله وحسن تدبيره، وليس إلى الله الذي خلقه ورزقه.

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ ليس للنبي أن يترك بعض ما يُوحى إليه أبداً، وإنما هو خطاب للأمة في شخص نبيها، كما قال: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وفيه إشارة لحجم المِحْن والضغوط التي يُواجهها الأنبياء ﷺ من أقوامهم حتى احتاجوا إلى هذا التأكيد والتكرار المستمر بالثبات والصبر، والتمسك بما أُوحِيَ إليهم.

﴿ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ تنوع في التحدي؛ ليثبت عجزهم على كل وجه، وقوله: ﴿مُفْتَرِيَاتٍ﴾ فيه إغراء لهم، يعني: إذا كان محمدٌ قد افترى القرآن كله بزعمكم، فيمكنكم أن تفتروا أيضاً ولو بمقدار عشر سُوْر منه.

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ قانون إلهي عظيم، فمن يأخذ بأسباب الحياة يصل إلى ما يريد، مؤمناً كان أو كافراً، وهذا واقع الحياة، وحركة الناس في بناء أمجادهم وثرواتهم وحضاراتهم، وهو من العدل الإلهي المتسق مع سنة الابتلاء والاختبار.

﴿ وَحَبِطَ ﴾ بطل في الآخرة ﴿مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ لأنهم أرادوه للدنيا دون الآخرة فكان كذلك.

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ تفريع الضد عن الضد لغرض المقارنة، فهؤلاء الذين هم على بينة فريق، يقابلهم فريق المكذبين المعاندين ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ وإطلاق البينة دلالة تتسع لكل من كان على بصيرة وباحث عن الحق بفطرة سليمة، أو بمعلومية صحيحة، أو بتفكير صادق.

ولا شك أن أكثر من يصدق عليه هذا الوصف هو سيدنا محمد ﷺ الذي برّاه الله من الشرك، ورغبه في عبادته قبل بعثته، فالبينة هنا هي هذه البصيرة، ويبعد أن يكون المقصود بها الوحي لما سيأتي.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ الشاهد هنا القرآن، الذي جاء يشهد لأهل التوحيد والمصدقين بالرسول، ويُنكر على المشركين وعبدة الأصنام، ولا شك أن نزول القرآن جاء تالياً لهذه البصيرة

والتوجُّه الفطريُّ أو الإبراهيميُّ الذي كان يُصارغُ الشركَ والوثنيَّةَ في كلِّ الجزيرة العربية وغيرها.

﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبْتُ مُوسَى﴾ أي: التوراة، فهي كتابٌ متقدِّمٌ من حيث النزول على القرآن، وهو كذلك يشهد لهذه الفطرة ولهذه البصيرة كما يشهد القرآن.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ كلُّ مجموعةٍ بشريَّةٍ تتناصر فيما بينها فهي حزب، مثل: قريش، واليهود، والمنافقين، وهكذا.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ لا تكن في شكٍّ منه، والمخاطب كلُّ مكلفٍ عاقلٍ، وهذا نظير قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ جمع شاهد، وهو كلُّ من يؤذن له بالشهادة في ذلك من نبي وملك وغيرها.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ لكي تناسب أهواءهم وشهواتهم.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لا يستطيعون سماع الحقِّ لفرط تكبرهم وغرورهم.

﴿وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ البصر الذي يقودهم إلى الهداية.

﴿لَا جَرَمَ﴾ لا محالة، وهي تفيدُ تأكيد ما بعدها، كأنه قال: حقًّا إنهم في الآخرة هم الخاسرون.

﴿وَأَخْبَتُوا﴾ خضعوا.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ﴾ الذين عطَّلوا منافذ المعرفة ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾

الذين جاهدوا واجتهدوا في سبيل الوصول إلى الحقِّ والحقيقة، وهذا هو الفارق الأساس بين الفريقين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَنْتَ بَشَرٌ إِلَّا عَلَنٌ أَلْيَسَ اللَّهُ الَّذِي بَدَأَ رَأْسَكَ وَمَا نَرَىٰ لَكَ عَلَيْكَ إِلَهًا إِلَّا أَنْتَ تَتَكَبَّرُ فِي الْإِثْمِ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَهُ مِنْ رَبِّي وَمَا لِي بِرَحْمَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَعَمَيْتُ عَنْكُمْ أَنْزِلْكُمْ مَعَهُمْ وَأَنْتُمْ هُمْ أَكْثَرُ هُودُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا قَدَّمْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَصْحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحٌ قُلُوبُهُ قُلْ إِنْ أَفَرَرْتُمْ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَتَيْسَّرْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَاصْنَعِ الْفُلَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوَّيْتُ لَكُمْ أَيْدِي عَذَابٍ يُخْرِجُهُ وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلْنَا الْفُلَ مَوْجًا وَنُوحًا وَرَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ وَأَوَّاهِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ سَوَاهِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٢﴾ وَقِيلَ يَتَازَرُ آبَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَنَزَّلْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٦﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٧﴾ نَالِكٌ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ۞

نوح عليه السلام

تكررت قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم كثيراً، لكنها في هذه الآيات جاءت لتشرح جوانب أخرى من هذه التجربة المبكرة في عمر الدعوة، وبتفصيل يتناسب مع حاجة الدعوة المكية إلى فهم طبيعة الشرك وطريقة تفكير المشركين والمآلات المحتملة لهذا الصراع، ومن ناحية أخرى فالقصة كلها وكذلك القصص التالية لها جاءت تفريعاً لخاتمة المقطع السابق ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾.

أولاً: نوح عليه السلام يشرح قضيته، وهذا الشرح الذي نقرأه في هذه الآيات ربما استغرق قروناً، ولكنها طريقة القرآن في إيجاز الحدث وتقديم النموذج العملي الصالح للتأسي والاعتبار:

- أساس دعوته التوحيد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (١٥) ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

- أنه ناصح لقومه، يجب لهم الخير ويخاف عليهم العذاب ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَن أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ وقد تكرر منه خطابه لهم: ﴿يَقَوْمُ﴾ بمعنى يا قومي، وهو خطاب تودد وتقرّب.

- أن دعوته مبنية على علم وبصيرة وحجة ظاهرة ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّي وَمَآئِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ وقد أخذ وقتاً طويلاً معهم في المجادلة ﴿قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾.

- أن دعوته نظيفة اليد، نزيهة من كل غرض، لا يبتغي بها إلا وجه الله وإنقاذهم مما هم فيه ﴿وَيَقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

- أنه لا يفرق بين شريف ووضيع، ولا بين كبير وصغير في هذه الدعوة، فهي دعوة لهذا الإنسان كيفما كان، وعلى أي طبقة أو مستوى اجتماعي حسب، فحينما اشترطوا عليه أن يطرد

من قالوا عنهم: ﴿وَمَا نَزَّلَكَ آتِيبُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ رَدَّ عَلَيْهِمْ: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْمَعُونَ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ (٣٦) وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ وواضح من كل هذا أن هذه النقطة كانت بالغة الأهمية في الصراع بين الفريقين.

- أنه ﷺ لا يعد قومه بكنوز الأرض، ولا بخوارق العادات، ولا يدعي لنفسه ما يخرج عنه بشريته ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ وهذا تجريد لدعوة الحق من كل شائبة قد تستهوي اللاهئين وراء المال والجاه.

- أن هذه الدعوة دعوة دينية إيمانية، لا سبيل إلى الإكراه فيها ولا إلى التمني إن لم تلامس روح الإنسان من داخله في فكره وقلبه عن رضا وطمأنينة وعقيدة راسخة ﴿أَنْزَلْنَاهُ لَكُمْ وَآتَيْنَاهَا لَكُمْ كَرِهُونَ﴾، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ بسبب إصراركم أنتم على الغواية وتشبثكم بها وتكبركم على الحق وأهله.

ثانيًا: أما موقف قومه فيتلخّص في الآتي:

- التَّكْذِيبَ الْمُنْطَلِقَ مِنْ تَنْسِيَةِ الْمَلَأِ الْمُتَكَبِّرَةِ الْمُتَجَبِّرَةِ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِأَدْنَى الرَّاْيِ وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

- مجابهة العلم والحجة بالعناد والمكابرة ﴿ قَالُوا يَنْشُوعٌ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا نَعِدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

- الإصرار على الكفر حتى ختم الله على قلوبهم وأذن بهلاكهم ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَتَّبِعْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وهؤلاء الذين استثناهم القرآن كانوا قليلا في قومهم ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ثالثاً: الطوفان:

- أمر الله نوحاً ﷺ بصناعة السفينة استعداداً لذلك الهول القادم، وأخذاً بأسباب النجاة ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾.

- إلى هذه المرحلة والمشركون على ما هم عليه من غرور وحماقة وسخرية ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾.

- أمر الله نوحاً أن يحمل في سفينته كل المؤمنين، وأن يحمل معهم كذلك من كل كائن حي زوجين اثنين لضمان استمرار الحياة بعد الطوفان ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

- بدأ الطوفان متدفقا من الأرض ونازلاً من السماء حتى أحاط الموت بالناس إلا تلك السفينة المباركة ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١) وهي تجري بهم في موج كالجبال.

- مشهد يعرضه القرآن فيه مزيج من شدة الموقف وحنان الأبوة وميزان العدل الحاسم الذي لا مجال فيه للمحاباة ولو كان لأقرب الأقربين ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يَبْنِيْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٢) قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَى الْجُبْلِ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿وَيَتَذَكَّرُ نُوحُ ابْنَهُ ثَانِيَةً، وَرَبِّمَا لَمْ يَعْلَمْ عَنْهُ شَيْئًا بَعْدَ هَذَا الْحَوَارِ فَالتَجَأَ إِلَى اللَّهِ ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.

- أذن الله بعد ذلك بتوقف مصادر الطوفان ﴿وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ ثم رست السفينة بمن فيها على أحد المرتفعات ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ ثم هبط نوح

ومن معه على الأرض ليعيشوا حياة أخرى وفصلًا جديدًا من فصول التاريخ البشري ﴿قِيلَ
يَنْحُجُّ أَهْبَاطُ سَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿مَا نَزَّلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَزَّلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾ اعتراف
منهم بأن نوحا كان منهم ومن أوساطهم وأشرفهم، وهذا يؤكد فما من نبي إلا وهو من أوسط
قومه حسبًا ونسبًا وشرفًا، ثم انتقصوا من أتباعه على وفق ميزانهم الدنيوي المادي في التفاضل.
﴿بَادِىَ الرَّأْيِ﴾ أي: هؤلاء قد استعجلوا وأخذوا بظاهر الأمر فاتَّبِعُوكَ، وفيه اغترارٌ بما
عندهم من عقلٍ وخبرةٍ في الحياة تدعوهم إلى عدم التصديق والتسليم بكل ما يُقال، ولكنه في
الحقيقة اغترارٌ أجوف، كشفه المصير الأظلم الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ فليس للنبي ولا لأي داعٍ من بعده أن ينقب في نفوس الناس
ويبحث في نواياهم، فيكفي منهم الاستجابة الظاهرة والخضوع لأمر الله ونهيه، والله بعد ذلك
يتولى حسابهم.

﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وهي إرادة متصلة بعدل الله وعلمه وحكمته، ومُتَّسِقَةٌ مع سنن
الله في هذا الخلق، فَمَنْ طلب الهداية هُدي، ومن طلب الغواية غَوَى، تمامًا مثل بقية الأسباب في
التعلُّم والترزُّق والتطبُّب وغيرها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْحَرُمُونَ﴾ الخطاب هنا لسيدنا
ونبينا محمد ﷺ في التفاتة سريعة في وسط القصة، كأنه هناك من كان يسمع هذه القصة من
مشركي مكة، فيلتفت إليهم رسول الله منبهاً لهم ومخاطباً لهم في أنفسهم؛ أن هذا الذي أتلاه
عليكم هو الحق، وإني أتحمل مسؤوليتي أمام ربي كما أنكم تتحملون نتيجة أعمالكم وتكذيبكم،

وفي هذه الالتفاتة تنبيه إلى الاعتبار والقياس، والنظر إلى عواقب الأمور ونتائجها.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تحزن.

﴿وَأَصْنَعْ أَلْفُكَ﴾ إشارة إلى احترام نواميس الكون وقواعد الأخذ بالأسباب حتى في هذه المواضع الاستثنائية.

﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ قرن بين القدر والأمر، فالسفينة كانت محفوظة بقدر الله وعلمه ورعايته ونظره، ومصنوعة من قبل نوح ﷺ بأمر الله ووحيه، ومسؤولية البشر دائماً مع القدر الإيَّان والتصديق والرجاء والدعاء، ومسؤوليتهم مع الأمر العمل والتنفيذ.

﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لا تسألني، ولا تشفع عندي في نجاتهم.

﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ الظاهر أنه تنور الخبز، وخروج الماء منه كان علامة على بداية الطوفان، لكن الذي رأيته في بادية العراق - وهي منطقة لا زالت تحتفظ ببعض المفردات العربية الأصيلة - أنهم يطلقون التَّنُّور على بؤرة العين ومركزها الذي يتدفق بالماء، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى في الطوفان: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢].

وقد يكون المعنى صورة ذهنية عامة لبلوغ الأمر ونضجه كما يقال: بلغ السيل الزبى، ولا تعارض بين المعنيين فهذه الصورة لا بد لها من سبب معين ومناسبة محددة أخذت منه، والله أعلم.

﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: احمل من كل جنس اثنين؛ ذكراً وأنثى، والزوج واحد من اثنين متصلين، ونصّ على الزوجين لدلالته على الذكر والأنثى وهو مطلب بحدّ ذاته، ثم نصّ على الاثنين تحريزاً من الزيادة حتى تتمكن السفينة من استيعاب كل الأجناس، وهذا لغير البشر، أما البشر فقد نصّ على أنه يحمل منهم أهله وأتباعه المؤمنين جميعاً، ويذر الكافرين ولو كانوا قرابته.

﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ استثنى قرابته الذين لا زالوا على الكفر ممن سبق قضاؤه تعالى بهلاكهم.

﴿نَسِمِ اللَّهُ بَجَرَبِهَا وَمُرْسَهَا﴾ بمعنى أنها تجري على اسم الله وتتوقف على اسم الله.
﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أراد أن ينقذه من الكفر ومن الهلاك، وفيه أن الداعية لا ييأس من المدعو حتى آخر لحظة من عمره، وأخر فرصة في لقائه.
﴿وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي﴾ كُفِّي عن المطر.

﴿وَعِضَ الْمَاءِ﴾ نقص ونزل في الأرض.

﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ رست على جبل، ولم يحدد القرآن مكانه، لكن بعض المفسرين ذهب إلى أنه في الموصل شمال العراق، وقال آخرون هو الطور، ولا عبرة بتحديد المكان، والله أعلم به.
﴿إِنِّي أَنبِئُكَ بِمَا لَكَ بِأَهْلِكَ﴾ تبادر لنوح ﷺ أن وعد الله له بنجاة أهله يشمل ابنه ولو كان كافراً.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ تصويب ليس لمعنى الأهل، بل لمن يصدق فيهم الوعد من الأهل، كأنه يقول: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم، وفيه تأكيد عملي عميق لعقيدة الولاء والبراء.

﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿درس بليغ في تجنب أسباب الجهالة، ومنها اجتزاء النصوص، فالوعد بنجاة الأهل حق، لكن هنالك نصوص أخرى تقضي باستثناء الكافر ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ والنهي عن التشفع للظالمين ﴿وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ وهذا الاجتزاء يقع فيه اليوم كثير ممن لم يتزوّد بأدوات الاستنباط، فيقرأ الآية أو الحديث فيمضي به دون أن يستوعب الآيات والأحاديث ذات الصلة والتي قد تكون شارحة أو مخصصة أو مقيدة، ومن أسباب الجهالة أيضاً؛ الكيل بمكيالين، فيحكم على المتماثلين بحكمين مختلفين.

فَنُوحٌ ۖ دَعَا عَلَى الْكَافِرِينَ بِأَهْلَاكِهِ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وهذا الدعاء شامل لكل كافر ومنهم ابنه، فقله فيما بعد: ﴿رَبِّ إِنِّي أَنَا مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ۖ فِيهِ اسْتِثْنَاءٌ بَلَا مَسْوَغٍ إِلَّا مِنْ عَاطِفَةِ الْآبِ وَرَقَّةٍ قَلْبِهِ عَلَى وَلَدِهِ.

وهذا درس آخر لكل الباحثين والمجتهدين والقضاة وأولياء الأمور، والتوسع في استنباط هذه الدروس لا ينقص من مكانة النبيين ۖ فمقامهم محفوظ، وهم قدوة البشر جميعا وساداتهم، ومن تمام محبتهم وتعظيمهم والافتداء بهم الغوص في استنباط الدروس والعبر من حياتهم ودعوتهم، وهذه غاية القصص القرآني كله ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وفي هذه الآية أيضا تتجلى عظمة الله وكبريائه الحق، فنوح ۖ مع أنه رسول من أولي العزم لكنه أمام الله عبد، والله يفعل بعباده ما يشاء ويخاطبهم بما يشاء، وقد قال في عيسى ۖ أشد مما قاله في نوح: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال في محمد ۖ: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ④١ ﴿لَا خُدَانَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ④٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ④٦ ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]، أما نحن العبيد فواجبنا التأدب مع هؤلاء الصفوة المنتجبين دون أن يحول هذا الأدب بيننا وبين فهم كلام ربنا ۖ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

موقف بليغ ومؤثر إلى حد البكاء، فهذا الرسول الكريم لم يتذرع بتلك القرون الطويلة التي قضاها صابرا مصابرا على الدعوة والعبادة، ومقارعتة للكفر والظلم، لم يتذكر كل ذلك ولم يذكره، وإنما بدأ يستغفر ويعتذر ببالغ الاستغفار والاعتذار والتواضع عن كلمة قالها في لحظة ضعف بشرية، إنه درس في العبودية الحقة التي لا تليق إلا بذلك الصنف من العباد ۖ.

﴿وَأُمُّهُمْ سَخِمَ عَنْهُمْ﴾ بعدك يا نوح ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنْهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تمهيد للحديث عن الأمم التالية، عاد وثمود وفرعون وغيرهم.

﴿وَالْإِلَٰهَ أَخَاهُمُ هُودًا قَالَ يَنْقُورِمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝﴾ يَنْقُورِمُ لَا أَشْتَكُرُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾ وَيَنْقُورِمُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا الْجَحْرِمَ ۝﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۚ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝﴾ مِنْ دُونِهِ فَبِكَيْدٍ فِي جَمِيعَةٍ لَمْ لَا تُنْظَرُونَ ۝﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَخِطُفِي رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ۝﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝﴾ وَذَلِكَ عَادٌ جَعَلُوا بَنَاتِنَ رَبِّهِمْ وَعَصَوُا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝﴾ ﴿وَالْإِلَٰهَ أَخَاهُمُ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۝﴾ قَالُوا يَصْلِحْ فَمَا كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ۚ أَنَّهُمْ سَأَلُوا أَنْ تَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝﴾ قَالَ يَنْقُورِمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۚ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝﴾ وَيَنْقُورِمُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ۝﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودٍ ۝﴾

هود وصالح

هود وصالح هما النموذج الأقرب زماناً وموضوعاً لقصة نوح عليه السلام؛ حيث الحياة البدائية التي تعتمد على الولاء القبلي وتقليد الآباء والأجداد، مع بساطة في مفردات الحياة، والجوانب التي عاجلتها هذه الآيات في هذا النموذج تلخص في الآتي:

أولاً: موضوع الدعوتين واحد ﴿وَالْإِلَٰهَ أَخَاهُمُ هُودًا قَالَ يَنْقُورِمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ هُوَ أَخَاهُمُ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ﴾ فهي الدعوة إلى

التوحيد عند النبيين الكريمين وبصيغة واحدة للدلالة على شدة الشبه بين التجربتين.

ثانيًا: ترغيب النبيين لقومهما بالاستغفار والتوبة، قال هود: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾، وقال صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾.

ثالثًا: ردّت عاد على نبيها: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، كما ردّت ثمود: ﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

رابعًا: تشابهت عاقبة القبيلتين إلى حدّ كبير، ففي عاد: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨﴾ وتلك عادٌ جحدوا بآياتِ ربهم وعصوا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ٦٠، وفي ثمود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ٦١﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثَمِينَ ٦٢.

خامسًا: اختلفت قصة صالح عن قصة هود بإضافة مشهد الناقة، وهي آية أيد الله بها دعوة صالح ﴿وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ٦٣﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ٦٤، في حين أن قصة هود لم تقترن بآية خارقة، وربما هذا هو الذي جعل قومه يقولون له: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالِإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ إشارة إلى الاحتفاظ بوشائج القرى حتى مع اختلاف الدين، إلا أن الولاء يدور مع الدين لا مع القرابة.

﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أوجدني من العدم.

﴿مَذَرَارًا﴾ كثيرًا مُتتَابِعًا.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ يُشِيرُونَ إِلَى أَنْ آلِهَتِهِمْ قَدْ أَصَابَتْهُ بِالْجُنُونِ، فَأَخَذَ يَتَكَلَّمُ بِهَا يَتَكَلَّمُ بِهِ!

﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ لَا تَتَأَخَّرُوا فِي مُعَاقِبَتِي وَإِقَاعِ الضَّرَرِ بِي، فِيهِ تَحَدُّ وَاضِحٌ وَاسْتِعْدَادٌ لِلتَّضَحُّيَةِ.

﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ فَهُوَ تَحْتَ قَدَرِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ، وَأَخَذَ النَّاصِيَةَ عَادَةُ الْمَحَارِبِينَ فِي جَرِّ أَسْرَاهِمَ وَهُمْ بِمُنْتَهَى الْخُضُوعِ، فَذَهَبَتْ مَثَلًا.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَصْلُهَا: تَتَوَلَّوْا، وَحَذَفَتْ إِحْدَى التَّائِينَ تَخْفِيفًا.

﴿وَلَعَجَآءَ أَمْرُنَا﴾ بِالْعَذَابِ.

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ بِالْجَمْعِ، مَعَ أَنَّهُمْ كَذَبُوا رَسُولًا وَاحِدًا، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مِنْ كَذَّبَ رَسُولًا وَاحِدًا فَقَدْ كَذَّبَ بِالرُّسُلِ كُلِّهِمْ.

﴿أَلَا بَعْدَ الْعَادِ﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ مَكَّنَكُمْ مِنْهَا اسْتِقْرَارًا وَعِمَارَةً وَرِزْقًا، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى مَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ إِعْمَارُ الْأَرْضِ، وَهُوَ لَا زِمٌ مِنْ لَوَازِمِ الْإِسْتِخْلَافِ.

﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أَي: كُنَّا نَرْجُو أَنَّ يَكُونَ لَكَ بَيْنَنَا مَقَامٌ غَيْرُ هَذَا الَّذِي جِئْتَنَا بِهِ.

﴿تَخْسِيرٍ﴾ خَسَارَةٌ فَادِحَةٌ وَمَكْرُورَةٌ.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ تَعَدَّوْا عَلَيْهَا وَذَبَحُوهَا.

﴿الصَّيْحَةُ﴾ الْهَلَاكُ بِالصَّوْتِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى طَرِيقَةٍ مِنْ طَرُقِ التَّدْمِيرِ لَمْ يَتَوَصَّلْ لَهَا الْعِلْمُ إِلَّا حَدِيثًا.

﴿جَحِشِمِيتَ﴾ هَامِدِينَ مَكْبُوبِينَ عَلَى وُجُوهِهِمْ جُشْنًا لَا حَيَاةَ فِيهَا.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ كَأَنَّهُمْ لَمْ يُقِيمُوا فِيهَا.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يُفِيدُهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِيرُهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ بَنُو نَتْنَى ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى مُجْدِلًا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتَابَرِهِيُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبُهُمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ آيَلٍ وَلَا يَنْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلِيهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

إبراهيم ولوط

يعرض القرآن قصة إبراهيم وقصة لوط ﷺ في هذه الآيات وكأنها قصة واحدة، والحقيقة أن إبراهيم له أكثر من قصة، وليست كلها على صلة بقصة لوط، ويبدو من السياق أن محور القصة الرئيس هنا هو لوط ﷺ، وقصة إبراهيم ﷺ كأنها جاءت تقديمًا وتمهيدًا، لما بين النبيين الكريمين من قرْبَى في النسب وقرْب في المكان والزمان، وهذه أهم معالم القصة:

أولاً: إبراهيم يتلقى البشري بولده إسحاق، وهو الولد الأول من زوجته سارة ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾، ﴿وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ

يَعْقُوبُ ﴿ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبَشَارَةُ مُعْجِزَةً وَخَارِقَةً لِلْأَسْبَابِ ﴾ قَالَتْ يَنْوِلَتْنِي أَلَدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿.

ثانيًا: إبراهيم يتلقى من هؤلاء الملائكة الذين بشروه بإسحاق، يتلقى خبراً ثقيلاً ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ولما بدأ إبراهيم يجادلهم في هذا الخبر قالوا له: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾.

ثالثًا: انتقل المشهد مباشرة إلى بيت لوط ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ على خلاف ما وجدوه في بيت إبراهيم من حفاوة وترحيب ﴿ قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لِيَتْ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴾ إن لوطاً في وضع مختلف؛ فهو في قرية فاسدة لا تحترم ضيفانها، وليس عند لوط القوة الكافية لحمايتهم ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أُوَدِّعُ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾.

رابعًا: لقد وقع ما كان يخشاه؛ حيث دخل عليه قومه يراودونه عن ضيفه وهو يصرخ بهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ والقرآن هنا يقدم نموذجاً مختلفاً عن كل النماذج الأخرى، فالمجتمع هنا مجتمع متحلل وشاذ ومنسلخ من الفطرة، وهو النموذج الأسوأ لما يمكن أن تصل إليه البشرية بفقدانها للقيم الدينية والإنسانية.

خامسًا: حاول لوط أن يُقنِعَ قومه بخيار آخر هو أظهر وأنقى وأقرب إلى فطرة البشر، وهو الزواج ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ ﴾، ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾.

سادسًا: في هذه اللحظة الحرجة يتدخل الملائكة ليطمئنوا لوطاً ويحسموا الأمر ﴿ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾.

سابعًا: ثم كانت نهاية هؤلاء لا تختلف عن نهاية الأقسام السابقين؛ قوم نوح وهود وصالح ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ ﴾.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ الرسل هنا هم الملائكة، والبشرى كانت بإسحاق ثم يعقوب كما نصت الآية الآتية.

﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ جملة الملائكة فعلية تقديرها: نُسَلِّمُ سلامًا، وجملة إبراهيم اسمية تقديرها: سلام لكم، والجملة الاسمية أكد وأثبت، فيكون ﷺ قد ردّ التحية بأحسن منها.

﴿فَمَا لَبِثَ﴾ فما أبطأ، وهذا من إكرام الضيف، أن لا يتأخر قرّاه.

﴿وَرِعْبِلَ حَنِيذٍ﴾ مشوي.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ لم يمدّوا أيديهم إلى الطعام؛ لأن الملائكة لا شأن لها بالطعام.

﴿نَكَرَهُمْ﴾ استغرب من صنيعهم.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خاف منهم؛ لأن الضيف الذي لا يمدّ يده إلى الطعام قد ينوي شرا، أو أنه ارتاب في أمرهم.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ ليست بجالسة معهم لكنها قريبة منهم.

﴿قَالَتْ يَنْوِلْنِي﴾ كلمة تعجب.

﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ زوجي.

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ دلالة أن زوجة الرجل هي أهل بيته؛ إذ لم يكن معها

ثالث، وفي هذا ردّ على الشيعة في إخراجهم لنساء النبي ﷺ من مُسَمَّى أهل بيته، كما سيأتي في سورة الأحزاب.

﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد.

﴿مَجِيدٌ﴾ عظيم متصف بصفات الكمال كلها.

﴿الرَّوْعُ﴾ الخوف والفرع.

﴿يُجَادِلُ الْمَلَائِكَةَ حَرْصًا وَخَوْفًا عَلَى لُوطٍ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ كثير الدعاء وكثير الرجوع إلى الله.

﴿سَيِّءٌ بِهِمْ﴾ حَزَنَ لِمَجِيئِهِمْ.

﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق وسعه بهم، والمقصود شدة الانقباض، وليس ضيق المكان.

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يسرعون إليه.

﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ذكر الطُّهْر هنا تأكيداً أنه يقصد الزواج، والظاهر أنه أراد بناته

على الحقيقة؛ لأنه أشار إليهن بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾، ولقوهم له: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ ولا يبعد أيضاً أنه ذكر بناته على سبيل التمثيل، فيكون المقصود جنس البنات؛ وذلك لملاحظة أن عدد بناته لا يكفي لعدد هؤلاء الذين هجموا عليه وعلى ضيوفه، وربما كانت الغاية من عرضه هذا أن يصرفهم عن ضيوفه ليفكروا بخيار آخر، والله أعلم.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ تفسير الحق هنا بالرغبة وإن قال به جمعٌ من المفسرين

فهو على خلاف الظاهر، وهو مستبعد أيضاً؛ لأنهم إن قصدوا نساءهم أو نساء القرية عامة، فهو باطل؛ لأنهم كانوا يتناكحون ويتناسلون، وإلا لانقطعوا أصلاً، وإن قصدوا بناته خاصة فأنى له أن يعلم ذلك؟ والأقرب أنهم يشيرون إلى حائل بينهم وبينهنّ تقتضيه عاداتهم وتقاليدهم، التي لا نعلم عنها شيئاً، وصيغة خطابهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ كأنهم يقولون له: إن هذا العرض مجرد حيلة منك؛ لأنك تعلم أننا لا نقدم على ذلك، والله أعلم.

﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أخرج مع أهلك عندما يحلّ الظلام.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ نحو المكان الذي خرجوا منه، لإخلاص الهجرة لله وقطع

العلائق بالكلية عن أولئك القوم الفاسدين.

﴿إِلَّا أَمْرًا نَكَ﴾ لأنها كانت موالية لقومها، والأظهر أن استثناءها كان من الخروج أصلاً، بمعنى أنها لم تخرج معهم، وأما أنها خرجت ثم التفتت فهلكت بسبب التفاتها، فهو بعيد؛ لأنها استحققت العقوبة بولائها لهم وليس بالتفاتها، ثم إن سياق القصص القرآني لا يتسق مع هذا، فنوح ﷺ سأل ربه في ابنه فردّه الله ذلك الرد الشديد ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فهي إذاً تستحق ما استحقه ابن نوح، أما إذا كان القصد أن لوطاً أخرجها معه احتياطاً حتى لا تنصرف إلى قومها فتخبرهم بخروجه، فهذا وارد، ويكون لالتفاتها هنا معنى آخر بحيث إنها تكون قريبة من قومها فيصيبها ما أصابهم، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب.

﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ بانقلاب الأرض بهم على الحقيقة، فأصبح عاليها سافلها، وسافلها عاليها، وخصّ العالي بالذكر؛ لأنه أبلغ في الإهانة، وتصوير حالة الدمار.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ عذاب آخر غير الانقلاب، أو هو من آثاره، فالانقلاب قد يكون فجرً بركانا ضخماً، والبراكين تلقي بالحجارة على مسافات بعيدة كأنها المطر، و﴿سِجِّيلٍ﴾ نوع من الحجارة، و﴿مَّنْضُودٍ﴾ متراكم يسقط بعضه فوق بعض.

﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ معلّمة، لا تشبه بقية الأحجار.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ تهديد لكل كافر ظالم مكذب للرسول إلى يوم الدين.

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَيَّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحْشَطُونَ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُورِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَدَيَّ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنهَلَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقُورِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي رَجِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقُورِ ارْهَطِي أَعِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْهُمُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

شعيب عليه السلام

في قصة شعيب عليه السلام يعرض القرآن لنا نموذجاً آخر، وهو نموذج متكرر في الحياة البشرية، لا سيما تلك المجتمعات المدنية التي تستند في الغالب إلى القيم المادية، فيكون المال هو الغاية الأسمى ومعيار التفاضل، فينساب الناس في ساحة من المنافسة للجمع والاستحواذ مهما كانت الطرق والوسائل، وهنا تكون مهمة النبي الكريم مهمة مزدوجة، فهو عليه أن يقدم البديل الأصح لصناعة المجتمع الإنساني الكريم، ومن ناحية أخرى عليه أن يعالج أصل الداء، وهو

الكفر وغياب العقيدة الأخروية التي تحد من هذا الطمع والجشع، وتتلخص هذه التجربة الإصلاحية في الآتي:

أولاً: تقوم دعوة شعيب عليه السلام على ركنين اثنين: التوحيد، والعدل ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقَوْمِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ وهو يسوقهما سوقاً واحداً دون فصل أو تأخير في إشارة إلى أن إنقاذ الناس من الظلم لا يقل أهمية عن إنقاذهم من الكفر؛ إذ كلاهما مرتبط بالآخر ويصلح علة له، فالكفر يؤدي إلى الظلم، والظلم يؤدي إلى الكفر.

ثانياً: الظلم الاقتصادي مقدمة للظلم العام والفساد الأكبر والأوسع ﴿وَيَنْقَوْمِرَ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وهذه حقيقة مؤكدة ومجربة، فالرشوة مثلاً لا تعني أكل المال الحرام فقط، بل هي أداة لتخريب المؤسسات كلها بما فيها السياسية والتربوية والقضائية، وهكذا كل الجرائم الاقتصادية.

ثالثاً: لحساسية التدخل في الوضع المادي للناس، قدم شعيب نفسه بصورة مكشوفة لقومه من خلال النقاط الآتية:

- أنه واضح معهم يتكلم بالحجة والدليل ﴿قَالَ يَنْقَوْمِرَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾.
- أنه من الطبقة الغنية في المجتمع؛ حتى لا يكون دفاعه عن المظلومين كأنه دفاع عن نفسه، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾.
- أنه باستطاعته أن يفعل كما يفعل الأغنياء، لكنه ألزم نفسه بغير ذلك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ﴾.

- أنه يسعى للإصلاح العادل والشامل ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

رابعاً: حذر شعيب قومه أن يُصيبيهم مثل ما أصاب الأمم السالفة، مُنبِّهاً أن العداء الشخصي

قد يكون سبباً للمكابرة ومزيد من العناد ﴿وَيَقُولُ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾.

خامساً: رغبهم بالتوبة وتصحيح موقفهم ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

سادساً: في مقابل هذا الحلم وهذه الحكمة اتخذ قومه موقفاً آخر اتسم بالسخرية تارة ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ وتارة يجمعون إليها الوعيد والتهديد ﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾.

سابعاً: استمر شعيب بمحاورتهم حتى بعد التهديد ﴿قَالَ يَقُولُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذُوا مَوْهَ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿١٢﴾ وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ثامناً: أصر قومه على طريق الكفر والظلم والفساد فاستوجبوا ما استوجبته الأمم السالفة، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئْرِهِمْ جَثِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ﴾ ناحية بين الحجاز والشام.

﴿إِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ في سعة ورزق كثير.

﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل.

﴿بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ما أبقاه الله لكم من الحلال.

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ على سبيل الاستِغراب، كأنهم يقولون له: لقد عرفناك فينا حليماً رشيداً، فكيف تأتينا بهذا الدين المُستغرب؟ فهو اعترافٌ بمكانته عندهم؛ لأنه كان من أهل الغنى، وهذه مقاييسُ الاحترام في المجتمعات الطبقيّة، ولا يبعد أن يكون قولهم هذا على سبيل الاستهزاء والتهكُّم بعد أن خالفهم فيما هم عليه.

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ لا تدفعنكم مخالفتي ومعاداتي.

﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ تهكُّماً وأنفةً، كأنهم يقولون له: كُفَّ عنا.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ لولا عشيرتك.

﴿لَرَجَمَنَّكَ﴾ بالحجارة.

﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي﴾ جعلتموه وراء ظهوركم، كناية عن إهمال حقه والإيمان به.

﴿عَلَى مَكَانَتَيْكُمْ﴾ على طريقَتكم.

﴿جَنَّتَيْنِ﴾ جثثا هامدة، ومن الملاحظ هنا ورود هذا الوصف مع عذاب الصيحة، كأنها تزهق الأرواح دون تدمير، والله أعلم.

﴿كَأَن لَّزَيَعْنَ فِيهَا﴾ لم يُقيموا فيها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُئْسَ الزَّوْرُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَأْتِسُ الرِّقْدُ الْمَرْقُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَىٰ نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّورٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلَيْكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَّا يُؤْفِقْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

موسى عليه السلام وخاتمة القصص النبوي

في ختام هذه القصص المختلفة يعرض القرآن النتيجة الكلية لهذا الصراع الطويل والمتنوع بين معسكر الإيمان والعدل والفطرة وبين معسكر الكفر والظلم والشذوذ، مُذكِّراً بقصة موسى مع فرعون، القصة التي أخذت المساحة الأوسع من بين كل القصص القرآني، بينما اكتفت هذه السورة بالتذكير بها في نهاية المطاف مثلاً خاتماً لنهاية الظالمين:

أولاً: يقدم القرآن الكريم فرعون نموذجاً للطاغية الذي لا ينفع معه بيان، ولا حجة، ولا تذكير، الطاغية الذي يقود قومه للهلاك والدمار إرضاءً لغروره وعناده، واستهانةً بالبلاد

والعباد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيُنْسُ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿١٨﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ، لَعْنَةُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُنْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

والآيات تنصُّ على أنه كان سبباً في نزول اللعنتين: لعنة الدنيا بالهلاك والدمار، ولعنة الآخرة بالنار وغضب الجبار.

ثانياً: أن هذا الذي أصاب فرعون وقومه إنما كان بما كسبت أيديهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

ثالثاً: أن هذا الذي أصاب فرعون وقومه قد أصاب أقواماً سابقين، وفي هذا عبرة لللاحقين ﴿وكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿في إشارة أن النجاة من هذا المصير البائس لن تكون إلا بالإيمان بالله والاستعداد ليوم الحساب.

رابعاً: أن الناس الذين انقسموا في هذه الحياة الدنيا بين مؤمن ومكذّب، ومقسط وظالم، وطائع وفاسق، هناك أيضاً سينقسمون ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، ﴿وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ حجة، ودليل بين.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ يتقدمهم.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أدخلهم فيها؛ لأنه كان السبب في كفرهم وضلالهم، وفيه صورة تمثيلية

للمراعي الذي يتود قطيعه، إلى مورد الماء، لكن فرعون أوردهم النار ﴿وَيُنْسُ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ لعنة الدنيا: الهلاك والدمار، ولعنة الآخرة: النار، وقد أتبعت الثانية الأولى، فكانت رديفا لها أي تالية وتابعة.

﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قرى قائمة بجدرانها ومعالمها، وأخرى مندثرة، و﴿وَحَصِيدٌ﴾ من حصد الزرع، شبهها بالمكان المحصود.

﴿تَنْبِيءٌ﴾ تحسير، ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

﴿يَوْمَ مَشْهُودٌ﴾ يوم عظيم يحضره الملائكة كلهم، ويجتمع فيه الأنبياء والمرسلون، وتجتمع فيه الخلائق جنُّهم وإنسُّهم على مرَّ أجيالهم، واختلاف عصورهم.

﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي: يوم القيامة، فهو آت بموعده المحدد ووقته المحسوب.

﴿لَا تَكَلِّمْ نَفْسًا إِلَّا بِأَذْنِهِ﴾ لا تتكلم نفس إلا بإذن الله، وحذفت التاء الأولى تخفيفاً.

﴿زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ تردد النفس بصوت مرتفع لشدة الخوف والهول.

﴿غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ غير مقطوع.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ لا تكن في شك.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ما كثرين فيها

أبداً، واستثناء المشيئة لتقرير الحقيقة الكبرى أن كل شيء في هذا الوجود خاضع لمشيئة الله ولا يخرج عنها.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعجل لهم القضاء، ولكن قدره ماضٍ،

وكلمته سابقة بتحديد يوم القيامة وهو يوم الفصل، فلا يتقدم ولا يتأخر.

﴿وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: كل من ذكرهم الله من أهل القرى، ومن الخلائق

أجمعين سيوفيههم ربُّهم أعمالهم صغيرها وكبيرها.

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١١٢ ﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ ﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ١١٤ ﴾ وَأَصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ١١٥ ﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ١١٦ ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ١١٧ ﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١١٨ ﴾ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١١٩ ﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠ ﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ١٢١ ﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ ١٢٢ ﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣ ﴾

توجيهات ختامية

أولاً: الاستقامة على الحق والثبات عليه ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ثانياً: البعد عن الظلم والظالمين ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

ثالثاً: المحافظة على الصلاة ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾.

رابعاً: الدعوة إلى محاربة الفساد بكل أنواعه ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾.

خامسًا: إن الإصلاح سبب لدفع الهلاك والعذاب ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

سادسًا: إن الاختلاف باق بين الناس، وصراع الحق والباطل لن يتوقف، وهذه سنة الله في اختبار عباده ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

سابعًا: إن هذا القصص النبوي فيه العبرة والموعظة والتشيت على الحق المبين ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ۚ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثامنًا: إن المؤمن مطالب بالعمل مهما كان خصمه وعدوه، فكل مجزي بما يعمل ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تاسعًا: إن هذا كله يتطلب التدرُّع بالصبر واستحضار قيمة الإتقان في العمل والإحسان إلى الخلق ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ تنبيه إلى التواصل بين المؤمنين على طريق الصلة بالله والاستقامة على أمره.

﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ الطغيان: مجاوزة الحد، وهو مخالف لمعنى الاستقامة.

﴿وَلَا تَزْكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الركون هو: الميل إليهم تشبُّهًا بهم، أو رغبةً بها عندهم، أو معاونته لهم، أما الاختلاط بهم بُغية الإصلاح وتبليغ الدعوة، والتخفيف من الظلم فلا يدخل في هذا النهي قطعًا.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ﴾ أوقات الصلاة في أطراف النهار وساعات الليل، وذكر طرفي النهار؛ إشارة إلى أن النهار للعمل وكسب الرزق وليس للتعبُّد، والله أعلم.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ لأن الحسنات تتضمن الصلاة والذكر والاستغفار، وتتضمن التسامح، والتعاون والتكافل، وإرجاع الحقوق للناس، فهذه كلها ستمحو آثار السيئات.

غير أن بعض المتعبدين زلّت بهم القَدَم في فهم هذه الآية؛ فهم يأكلون حقوق الناس من ناحية، ويتوسعون في الغيبة والنميمة وما شاكل ذلك، ثم يجتهدون في العبادات؛ كالعمرة، وقيام رمضان، فأصبحت هذه العبادات الجليلة مدعاةً للاستمرار بالظلم والقطيعة، وهذا على خلاف مقصد الشرع قطعاً.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ هلا كان، أسلوب من أساليب الطلب.

﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ من علم وخير.

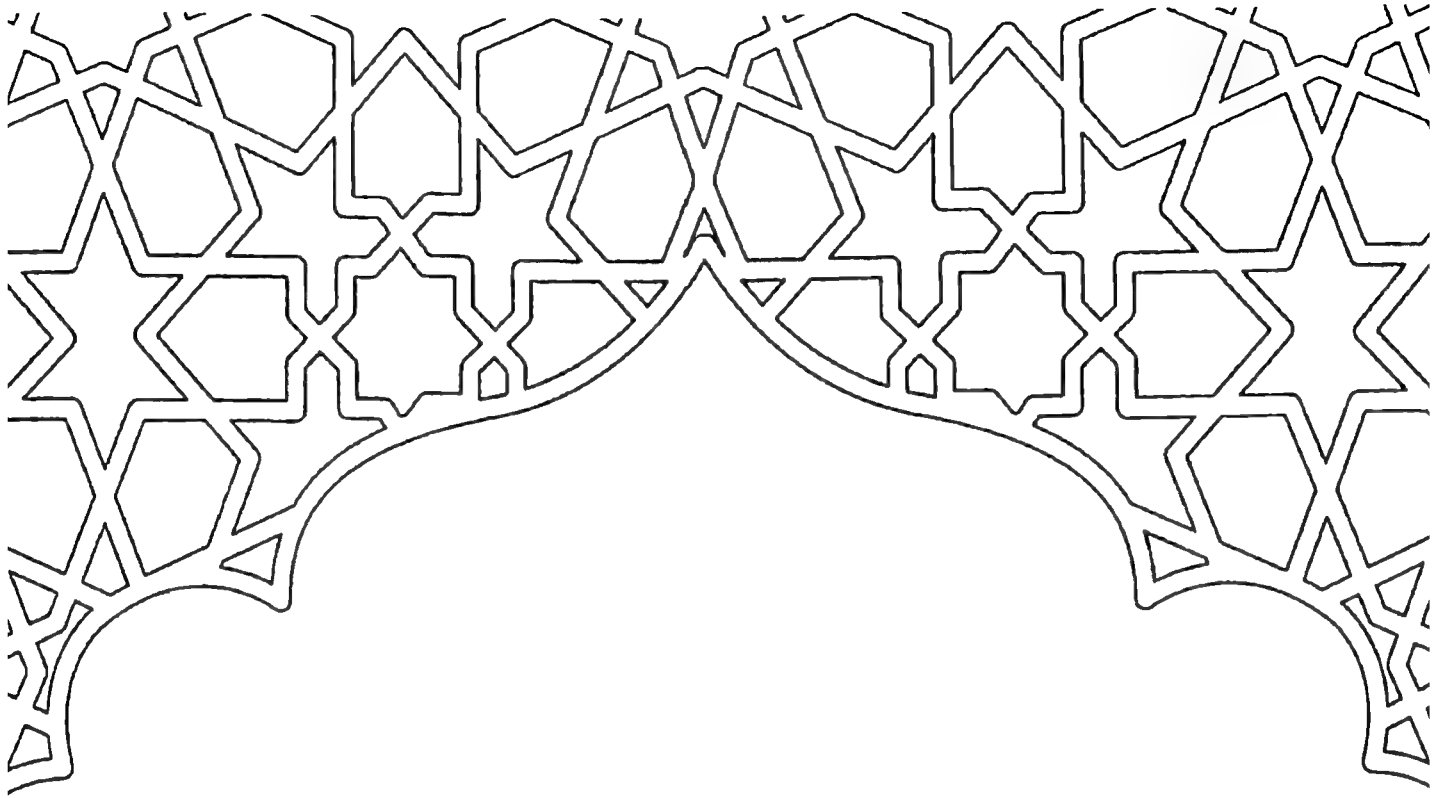
﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ربط بين الظلم والجريمة والترف، فالترف المحرم قرين التكبر، والمتكبر لا يرى للناس حقاً معه، فيهضم حقوقهم، فإذا وقفوا بوجهه أجرم بحقهم، هذه صورة متكررة، وهناك صور كثيرة تشهد لهذا الاقتران.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: بظلمٍ منه لهم - حاشا لله -، وإنما هي عاقبة أعمالهم التي اقترفوها باختيارهم وسبق إصرارهم.

﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ولم يقل: صالحون؛ لأن الإصلاح الذاتي مع عدم القدرة على الإصلاح يجعل الباطل ينتشر حتى يطوق الصالح ويذهب به.

﴿نُثِيتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ حين ترى ما جرى للأنبياء السابقين، وشدة ثباتهم وصبرهم على ما يلقونه من أقوامهم.

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم وفي مكانكم، يريد المفاصلة عنهم، وهي مفاصلة العقيدة والمنهج، لا العزلة والانكفاء على الذات.



سُورَةُ يُوسُفَ

المجلس السادس والتسعون: فتنة الحسد

المجلس السابع والتسعون: فتنة النساء

المجلس الثامن والتسعون: فتنة السجن

المجلس التاسع والتسعون: فتنة الملك

المجلس المائة: اللقاء بعد الفراق

المجلس الأول بعد المائة: توجيهات ختامية

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢ ﴿عَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِي ٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٤ ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْتَخَرْنَا رَبَّكَ عَلَيْكَ حَكِيمٌ ٦ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ ٧﴾ إِذْ قَالَُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ غَضَبُهُ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٨ ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيْكُمُ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي عَصِيَةِ الْجَنِّ يَلْقِظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ١٠ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمُرُنَا بِمَا نَكْفِي وَنَا لَهُ لَنَنْصَحُونَ ١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَا غَدَا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَنَا لَهُ لَحَافِظُونَ ١٢ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ١٣﴾ قَالُوا لَنْ أَكْلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَيْرُونَ ١٤ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ١٦ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَنَرْكَبُ يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَأَكْلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴿﴾

فتنة الحسد

سورة يوسف سورة مكية، إلا أن موضوعاتها أقرب إلى المدنية، فهي لا تتحدث عن العقيدة ومسائل الخلاف والصراع مع المشركين بقدر ما تتحدث عن مشاكل المجتمع المدني، ومسائل الدولة والسياسة والاقتصاد والحكم.

الموضوع الأول في هذه السورة هو الحسد، وقد عرضه القرآن من خلال ما تعرَّض له يوسف عليه السلام على يد إخوته، حتى حاولوا قتله؛ وبذلك يكون الحسد طريقاً لمعاصي وجرائم أخرى قد تكون أخطر من الحسد نفسه؛ فقد جرَّ الحسد هؤلاء إلى الكذب، وعقوق الأب، إضافة إلى محاولة القتل.

وفيما يلي عرض لهذه الفتنة كما جسدها القرآن في هذا النموذج:

أولاً: النعمة والموهبة والتميز من دواعي الحسد ومظانته ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ إِيَّيَ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (١) قَالَ يَبْنِي لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴿٢﴾، ويعقوب بما آتاه الله من حكمة وتجربة طويلة في الحياة أدرك هذه الحقيقة، وقدم نصيحته لابنه الحبيب يوسف بعد ما أدرك أنه يملك شيئاً سيكون مدعاة لإثارة الحسد في قلوب إخوته.

ثانياً: مع هذا الاحتياط إلا أن نزعة الحسد قد تحركت لما رأوه من حظوة ليوسف وأخيه الأصغر عند أبيهم، وهي حظوة العاطفة، لا حظوة الانحياز والتميز؛ لأن يوسف وأخاه كانا صغيرين، فهما أولى بالحنو والرعاية، لكن هذا لم يرق للإخوة الكبار ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٣)، والضلال الذي يرونه أن أباهم قد جانب الصواب فهم أولى بهذه الرعاية؛ لأنهم أقدر على النفع، ودفع الضرر بحكم كونهم عصبة كباراً.

ثالثاً: سرعان ما تحولت هذه النجوى إلى عزيمة أكيدة لارتكاب الجريمة بأبشع صورها ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ (٤)، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٥) مداولات وآراء مختلفة بين قتله، أو إبعاده إلى أرض أخرى، أو إلقائه في البئر!

رابعاً: وكما صنعوا لأنفسهم مسوغاً للفعل ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦) صنعوا أملاً لهم يتخلصون به من وطأة الضمير ومخافة الذنب والعقاب الإلهي ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (٧) إنه التدين المغشوش، الذي يسهم في صناعة الجريمة وتهوين فعلها، كما مر معنا قبل الفهم الخاطيء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

خامساً: بدأت الجريمة بمخادعة الأب ﴿قَالُوا يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ

لَنَصْحُونَهُ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾.

وهذا الحوار ينم عن مخاوف وشكوك كانت تراود الأب، لكنه القدر الذي لا مفر منه، فقد أخذوه معهم واتفقوا على تركه في البئر الذي لا يمكنه الخروج منه ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وكان هذا الوحي هو سلوة يوسف في هذا الجب.

سادسًا: بعد تنفيذ الجريمة عادوا إلى أبيهم بكذب مركب وخديعة لم تنطل عليه ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾. فردَّ يعقوب هذا الكذب ولم يصدقهم به ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا﴾ أي: بلغة العرب.

﴿وَأَن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ لم تكن تعلم شيئًا عن هذه القصص. ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ هي رؤيا رآها يوسف ﷺ في منامه، وعدد الكواكب مطابق لعدد إخوانه، وسجودهم له يعني خضوعهم لسلطانه، وهذا من شأنه أن يثير الغيرة عندهم، والظاهر أن الشمس والقمر رمز للأبوين، وجاء قوله: ﴿سَاجِدِينَ﴾ بجمع العقلاء، لمناسبة السجود، إذ السجود فعل العاقل، وهي إشارة ثانية أن المقصود بالكواكب إخوانه.

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ فيها إشارة لترك التظاهر بالنعمة أمام من يُظنّ فيهم

الحسد.

وفيه أن يعقوب كان راضياً بالرؤيا مع أنه معني بالخضوع أيضاً، لكنه النبي الكريم الذي يرضيه ما يرضي ربه.

﴿يَجْنِبُكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ويختارك.

﴿تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ﴾ الفهم، ومنه فهم الواقع، وفهم التدابير والسياسات، وفهم كلام الناس وما يقصدون، ومنه تعبير الرؤى، وقد تحقق كل هذا فيه ﷺ.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالوحي والرسالة.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة قوية، وفيه إشارة إلى أن أخويهم الآخرين لم يكونا منهم؛ لأنها من أم ثانية، والله أعلم.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ في تقديره للأمور؛ حيث يؤثر الطفلين الصغيرين علينا ونحن سنده وعزوته.

﴿أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أبعده إلى أرض أخرى.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يُقبل عليكم من دون أن يشغله أحد عنكم، وهذا تناقض غريب، فهم هنا كأنهم يتنافسون على محبة أبيهم والتقرب إليه، ومن ناحية أخرى يُدمون قلبه ويكذرون خاطره بهذا الفعل الشنيع، لكنه الحسد الذي يُعمي ويُصم.

﴿غِيَبَتِ الْجِبِّ﴾ ما يغيب عن النظر في قعر البئر.

﴿يَلْقَظُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ يأخذه بعض المازة والمسافرين.

﴿يَرْتَعِ﴾ يأنس بالخروج إلى البر.

﴿لَتَأْتِنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقد نبأهم فعلاً بعد أن وفدوا إليه في مصر فعرفهم وهم له منكرون.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ لَطَّخُوا قَيْصِيصَهُ بدمٍ غير دمه، يقال: إنه من جدي ونحوه.

﴿سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنَتْ لكم السوء.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوُهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ يَصْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَشَرَّوهُ بِشَرِّ
بَحْسٍ دَرَّهِمْ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَلِكَةُ وَهِيَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ
الْأَتُوبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا
بُرْهَنَ رَبَّهُ كَذَلِكَ تَصْرِفُ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ
وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ
شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّارَهُ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُم مِّنْ كَاذِبِينَ كَيْدُكَ إِن كَيْدُكَ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكَ
إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢١﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَجْدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ
أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢٣﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ
يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ
مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿٢٥﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

فتنة النساء

من الفتن التي تشب في مرحلة عمرية معينة فتنة الرجال على النساء وفتنة النساء على الرجال، وقد اختار الله ﷻ نموذجاً ومثالاً يُحتذى، وقدوةً صالحةً في قصة يوسف عليه السلام لكل الشباب الذين يتعرضون لهذه الفتنة ولهذا الاختبار على مر العصور والأجيال، وقد ذكر العلماء أن شرائط الفتنة قد اجتمعت في هذا النموذج، بحيث إنها باتت سقفاً لا تدانيه فتنة أخرى، ومن هذه الشرائط:

أولاً: أن يوسف عليه السلام قد حباه الله بأركان الحُسن مجتمعة؛ فهو جميلٌ في صورته حتى سلب عقول النسوة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وجميلٌ في خلقه وأدبه وإحسانه حتى بهرَ المسجونين في السجن فقالوا له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهو جميلٌ في ذكائه وقوة شخصيته، وحسن تدبيره ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ حتى قال فيه الملك: ﴿أَنْتَوْنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾، ومن كانت فيه واحدة من هذه كان أهلاً لأن يُحب، فكيف بمن اجتمعن فيه؟

ثانياً: أنه عليه السلام كان في أوج شبابه وقوته ﴿قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ وقد ترعرع هذا الغلام حتى بلغ مبلغ الرجال ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ في قصرٍ من قصور الأمراء، ومثله في هذا السن تدفع به غريزته كل مدفع.

ثالثاً: أنه عاش هذه الفتنة غريباً، لا يعرف في مصر قريباً ولا صديقاً، والغربة تكسر كثيراً من الحواجز، وتجعل الغريب أكثر جرأة على فعل ما يمتنع عن فعله في بلده وبين أهله وعشيرته.

رابعاً: أن لقاءه بامرأة العزيز لم يكن لقاءً عابراً في سوقٍ أو طريقٍ، بل كان يعيش معها في القصر من سنّ الصبا حتى بلغ عندهم ما بلغ، وهذه لوحدها تكفي لتصور شدة الفتنة التي يواجهها هذا النبي الكريم.

خامساً: أن امرأة العزيز هي من بادرت وطلبت منه بُغيتهَا ﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فهي التي كسرت حاجز الحياء وتجرات على المبادرة، وزادت بأن غلقت الأبواب، وأخلت المشهد من كل غريبٍ أو رقيبٍ.

سادساً: أنها كانت متنفذة في القصر، حتى إنها أصرت على رغبتها بعد انكشاف أمرها أمام زوجها، وشيوع الخبر بين أهل المدينة ونسائهم، فواجهتهن بقولها: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودَنَّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَةٍ لَسَجَنَ وَلَيْكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾.

سابعًا: أن زوجها لم يكن بالصفة التي يُخشى منه، فإنه اكتفى بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ مع أنه رأى القميص الذي قد من دبر، وسمع الشاهد يشهد ليوسف في قوله: ﴿هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

ثامنًا: أن يوسف أدرك أنه إن لم يستجب لها فإنه سيُحرَم من نعيم القصر، وسيُرمى في السجن، أو يكون عُرضَةً لانتقامها بأي وسيلة أخرى، وهو في بلد غريب ليس معه جاه، ولا مال، ولا أهل، ولا ملجأ، ومع كل هذا كان خياره واضحًا مُجَلِّلاً: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وبهذا يكون قد ضربَ المثل الأعلى الذي لا يُدانيه مثل في قصة نجاح لا تتكرر أبدًا بمثل هذه الشروط في أي جيلٍ من الأجيال.

دقائق التفسير

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ جماعة يسرون في الطريق الذي كانت فيه البئر.

﴿وَارِدَهُمْ﴾ الرجل المكلف بالسقاية وجلب الماء لهم.

﴿فَأَذَلَّى دَلْوُهُ﴾ في البئر ليملاه بالماء.

﴿قَالَ يَبْشُرَنِي هَذَا غُلْمٌ﴾ الذي يظهر أن يوسف ﷺ لما تدلَّى عليه الدلو تمسك به، فخرج

من البئر، واستبشر الوارد به؛ لأنه سيبيعه كما جرت العادة في ذلك الزمان.

﴿وَأَسْرَوْهُ بِضْعَةً﴾ الضمير يعود إلى السيارة، هذا هو ظاهر السياق ولا مُسَوِّغ للعدول

عنه، فقد اتفقوا على بيعه رقيقًا، وأنهم يكتمون أمره وكيف أنهم وجدوه في البئر؛ خوفًا من أن يكون ذلك دليلًا لأهله عليه فيستردوه منهم.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ باعوه بثمانٍ قليل، وأصل البخس: النقص.

﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أشكل على بعض المفسرين الجمع بين الاستبشار به

والزهادة فيه، فذهبوا إلى أن الضمير هنا يعود إلى إخوة يوسف، وهو خروج من السياق، مع

ما فيه من تكلف وإدخال قصة في قصة، والذي يطمئن إليه القلب أن الزهادة به إنما كانت

لجهلهم به وبنسبه وبما أعدّه الله له، فباعوه كما يبيعون أيّ غلامٍ آخر، ولا ريب أن هذا بخسّ ليس مثله بخس، وزهاده جاهلة ليس مثلها زهاده، والله أعلم.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ حيث وصل السيّارة بيوسف إلى سوق مصر، فاشتراه منهم عزيز مصر وهو بمثابة الوزير، فأوصى امرأته أن تُكرّمه لما رأى فيه من النباهة وملامح الخير، والمثوى: محل الإقامة.

﴿أَوْ نَخِذْهُ وَلَدًا﴾ نتبّاه؛ لأن العزيز كان لا ولد له.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أوج قوّته وشبابه.

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ لا تحتل هذه المراودة وبهذا السياق سوى ما تريده المرأة من الرجل، وهو متوقع منها فهي ليست نبيّاً ولا ملكاً، وقد عبّر القرآن عن هذا بقوله الآتي: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ تحتل معاني عدّة ومؤدّاها واحد؛ أنها تدعوه لنفسها بعد أن تهيّأت له، وأنه لا يسعه الرد، وليس أمامه مهرب.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ يطلب الحماية من الله، فذكر الله واستحضر معيّته دائماً هو مفتاح النجاة من كلّ فتنة.

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ يقصد بالربّ هنا: العزيز الذي أكرمه، كأنه يقول لها: ليس من الوفاء أن أجازي الرجل بهذا الفعل الخوّون، وبهذا يكون يوسف قد استحضر مرّة واحدة حقّ الخالق وحقّ الخلق، وهذا من تمام التدبّر، وحسن الخلق.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ المتعدّون على حقّ الله وحقّ الناس.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِوَيْءٍ﴾ مفسّر بالمراودة السابقة، أي: قصدت وعزمت.

﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ فيه خلافٌ شديد بين المفسّرين، والذي يطمئن إليه

القلب أنه مفسّر بقوله الآتي: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ فالنبيُّ بشرٌ فيه من

الغرائز ما في سائر البشر، غير أنه معصومٌ ومُنَزَّهٌ عن الوقوع في الإثم بالوحي وبحفظ الله له؛
لأنه القدوة والمثل الأعلى، والمبلغ عن الله بقوله وفعله، فإلهمُّ منه ليس كإلهمِّ منها بالضرورة؛
لمكان العصمة والوحي وهما المقصود بالبرهان، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا نَبَقَ الْبَابِ﴾ تسابقاً نحو الباب؛ هو يريد الخروج، وهي تريد منعه من الخروج.
﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ شَقَّتْ قَمِيصَهُ مِنَ الْخَلْفِ؛ لأنه كان هارباً منها، وهذه قرينةٌ
أخرى على جدِّيتها فيما عَزَمَتْ عليه من السوء.

﴿وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ وجداه وهما على هذه الحال من المسابقة.
﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ لاذت بالحيلة والمكر لتدفع عن نفسها ما وقعت فيه،
وَرَمَتْ بالتهمة على يوسف، وعبارتها تُشِيّ بحقيقة ما كانت تريده منه.

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ هنا يعلمنا يوسف ﷺ أن صاحب الحق لا بُدَّ له أن يجهر
بحقِّه، وأن التهمة مهما كانت باطلة أو باهتة فلا بُدَّ من كشفها والتصدي لها.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قريبٌ للمرأة كان بصحبة العزيز حين أَلْفِيَاهُ عند الباب،
وكان ينظر إليهما وينظر إلى القميص الممزق، وقد ألهمه الله القول الفصل.

﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأنه يكون هو الذي يطلبها
وهي تدفعه.

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأنه يكون هارباً عنها وهي التي
تطلبه، وقول الشاهد هذا مع ما فيه من حقٍّ وعدلٍ، فيه حكمة؛ إذ قدَّم الاحتمال الأنسب
لها، وهذا شبيهٌ من هذه الناحية فقط بما فعله يوسف مع إخوته فيما بعد ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ
قَبْلَ وِعَاءِ أَخِي﴾.

﴿إِنَّ كَيْدَكَ عَظِيمٌ﴾ يُخَاطَبُ امرأته، مُسْتَحْضِراً ما يعرفه عن النساء من اللجوء إلى الحيلة
عندما يخرج الأمر من أيديهنَّ.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ يوجه العزيز كلامه ليوسف أن ينسى الأمر ولا يتحدث به لأحد، ثم يؤنب امرأته على سوء صنيعها، وهو اعتراف ببراءة يوسف ﷺ.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ من المقرّبين للقصر، ولا يبعد أنها هي من أفشت سرّها لهنّ؛ لأنه في مثل هذه الحالات يحتاج المرء إلى من يشكو إليه همه، والمرأة في هذا أشدّ احتياجا.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ سمّت قولهنّ مكرًا؛ لأنها ربها أسرّتهن بما عندها، فلما تحدّثن به على سبيل الإنكار والملامة صار بمثابة المكر بها، ولا يبعد أنهنّ أردن أن يرين هذا الفتى، فألجأنها إلى ذلك بهذا المكر.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ من الإكبار وهو التعظيم المتضمن للإعجاب والاندعاش إلى حدّ أن جرحن أكفهنّ دون شعور؛ حيث كنّ يقطعن الفاكهة بالسكين كعادة أهل القصور في ذلك الزمان.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ كلمة تفيد التنزيه.

﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ليس في البشر مثله، وشبهوه بالملك لما استقرّ في أذهان الناس أن الملائكة أحسن الخلق صورة، وهو لجوء إلى التشبيه الغيبي، كأنهن لا يجدن في الحسّ صورة تصح له مثالًا.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ إشارة إلى أن الفتنة لم تعد فتنة امرأة العزيز فحسب، بل تعدتها إلى غيرها، ثم أكّد هذا بدعائه ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾. ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أمل إليهن، وفيه إظهار التذلل وحسن التعبّد لله تعالى.

﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُنتُهُ حَتَّى جِئَ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ (٣٦) إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) يَصْحَجِي السَّجَنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَتَيِّمُوها أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرَنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ بَنَاتُهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَثْتَ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلَّاهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ بَاقِيَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ (٤٨) وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَتَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٤٩) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْهُنَّ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلَّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ قَالَتْ أَمْرَاتُ الْمَرْيَمِ الْفَنَ حَصَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥٠) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْغَائِبِينَ (٥١) وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٢)﴾

فتنة السجن

تجربة أخرى يقدمها هذا النبي الكريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهي تجربة متكررة أيضاً مع أهل الحق حينما واجهوا باطلاً في دولته وزمان صولته وجولته، وفي هذه

التجربة النبوية نقف أمام مدرسة كبيرة وقدوة عظيمة، نتلمس معالمها وملاحمها في الآتي:
أولاً: أنه ﷺ كان قد اختار السجن على الوقوع في الإثم ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا
يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

وهذا مثال لكل داعٍ للحق، فالسجن خيرٌ له من التنازل عن دعوته، أو الانزلاق إلى ما
يريد الباطل حيث يتشوّه الحق، وتضيع القدوة، ويلتبس على الناس أمرهم.
ثانياً: أن الباطل لا يتورّع عن مخالفة القيم التي يؤمن بها، وانتهاك القوانين التي رضىها،
مادام أن ذلك يحقق له شهوته وسطوته ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتَهُ حَتَّى
حِينَ﴾ هكذا، مع أنهم شهدوا له بالبراءة على لسان شاهيدٍ من أهلها، ثم على لسان زوجها
العزیز: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ثم على لسانها هي: ﴿وَلَقَدْ رَوَدَتْهُ
عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾.

ثالثاً: رغم هذا الشعور بمرارة الظلم وهو ما يدفع المظلوم عادة لردة فعل غير مرغوبة
ولا محسوبة إلا أنه ﷺ قدّم المثال الأحسن لكل مظلوم، وأظهر من الإحسان ما اعترف له
به أهل السجن ﴿إِنَّا نَرَبُّكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ مع أنه لم يكن عنده من متاع الدنيا ما يُقدّمه لهم،
فهو الفقير الغريب السجين، ومع هذا كان من المحسنين، فأَيُّ خُلُقٍ بلغ إليه هذا النبيُّ
الكریم؟

رابعاً: لم ينقطع يوسف ﷺ عن نهجه الدعوي الإصلاحی حتى وهو في السجن، فكان
في حوارٍ مع شركائه في السجن، يعرض ما عنده أولاً عرضاً لطيفاً ﴿ذَلِكَ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ثم يتوجّه إليهم بالخطاب المباشر: ﴿يَصْحَبِ السِّجْنِ أَبَابُ مُتَفَرِّقُونَ

خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٤٠﴾

خامسًا: لقد جاء السياق يُشير إلى تدرُّج تربويٍّ دقيق، قد لا نتلمسه في غير هذا الدرس؛ حيث بادَرهم بالإحسان أولاً، حتى كسب ثقتهم العملية والوجدانية، ثم انتقل إلى العلم ليقنعهم أنه يملك فيه ما لا يملكون ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾.

وهاتان مقدمتان لكل داعيةٍ مُصلِح، ثم بدأ بعرض معتقده عرضاً دون أن يمس معتقداتهم أو يباشرهم بالدعوة، حتى إذا اطمأن إليهم واطمأنوا إليه راح يصارحهم ويواجههم بالحقيقة.

سادسًا: علاقة المسجونين بالرؤى والأحلام علاقة وثيقة، ومن جرَّب السجن عرف ذلك، فهي نافذتهم إلى الأمل خاصّة في بلاد يحكمها الظلم ويغيب عنها القانون، ويظهر هذا في تشبث صاحبيه في ما رآياه، وإصرارهما على سماع التأويل ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقد اغتنم يوسف ﷺ هذه الحاجة من أجل أن يعلمها طريق الخلاص الأكبر والأدوم، طريق التوحيد والإيمان بالله والتوكل عليه وحده، وهما يصغيان.

سابعًا: أن الأخذ بالأسباب المتيسرة مشروع للتخلص من هذا الظلم ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ لأنه كان خادماً للملك وقريباً منه، فأوصاه يوسف ﷺ بعد أن بشره بنجاته من السجن أن يذكر للملك قصته والظلم الذي وقع عليه من قصر العزيز، غير أن صاحبه نسيه بعد أن أفرج عنه ورجع إلى خدمة الملك ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

وهنا إشارةٌ لمظهرٍ من مظاهر الدولة الظالمة؛ حيث يعتمد بقاء السجين في السجن أو

خروجه منه على كلمة يتذكرها متذكر أو ينساها ناس.

ثامناً: يوسف يشخص الخطر القادم على مصر ويضع خطته للإنقاذ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ ﴿٤٩﴾.

وهذا التنبؤ وإن جاء تعبيراً لرؤيا الملك إلا أن نور الوحي ظاهر فيه، فهذا الجزم في التشخيص والعلاج من فتى مسجون لا يعرف مصر ولا طبيعتها ولا خصوصية أرضها وأهلها لا يمكن أن يكون مُستنداً إلى تعبير مجرد للرؤيا، والله أعلم.

تاسعاً: يوسف يطالب الملك بالتحقيق في قضيته والبحث في أسباب سجنه ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَيْكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكِدِّهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وهذا العلو لا يليق إلا بهذه الصفوة من الخلق، فالملك يرسل إلى سجين ليس له حول ولا قوة ولا قريب ولا نصير، والسجين يرفض أن يلبي دعوة الملك قبل أن يحقق في قضية سجنه حتى ينكشف الحق وتظهر للعالم براءته!

إنه درس آخر من الدروس الفريدة التي يقدمها هذا النبي الكريم، إن خروجه بعفو من الملك لن يُعفيه من التهمة؛ ولأنه صاحب رسالة ومكلف بإنقاذ الخلق وتعمير الأرض وإصلاح المجتمع فلا يمكنه أن يقوم بهذه المهام والتهمة تلاحقه.

عاشراً: الملك يتولى التحقيق استجابة لطلب يوسف ﴿وَقَالَ مَا خَطْبُكَ؟ إِذْ رَاوَدَتْهُ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ خَشِيَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَفَّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ نعم لقد حصّص الحق، وهذا هو مراد يوسف ﷺ، أما الخروج من السجن دون هذا فإنه سيدخله في سجن آخر؛ سجن التهمة والإشاعة والنظرة المريبة.

﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُنُنَّهُ﴾ بدا لهم رأي آخر؛ حيث اكتفى العزيز أولاً بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ثم لما تحدّث النسوة وشاع الخبر رأوا أن يسجنوه دفعاً للتهمة عن امرأة العزيز، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا﴾ أي: مع أنهم يعلمون براءته؛ لما رأوه من دلائل في القميص وغيره.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ﴾ غلامان كانا في خدمة الملك، أحدهما يصنع له طعامه، والثاني يصنع له شرابه.

﴿إِنِّي أُرِيكَ أَغْصِرُ خَمْراً﴾ رأيت نفسي في المنام أصنع الخمر.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ فكان يخبرهما بما يأتيهما من طعام قبل أن يصل إليهما، وفائدة هذا الإخبار تعزيز الثقة بما خصّه الله به من العلم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ وكلّ هذا تمهيد لدعوتهما إلى التوحيد ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

ولا يبعد أيضاً أنه قصد تأخير الجواب إلى وقت مجيء الطعام؛ ليجذب قلوبهما إليه في هذا الوقت وهو يدعوهم إلى التوحيد.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ فهي مجرد أسماء لا حقيقة لها، بمعنى أنهم يسمونها آلهة وما هي بآلهة، وفي الآية دلالة على أن أهل مصر في ذلك العصر كانوا على الشرك.

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ تسلسل مقصود، فإثبات حقّ الله في الحكم والتشريع أولاً، ثم يأتي أمر الله ونهيه وهما فرع الحكم، ثم تأتي العبادة وهي الخضوع لهذا الأمر والنهي.

﴿الَّذِينَ الْقَيْمُ﴾ العدل المستقيم والحق الذي لا عوج فيه.

﴿أَمَّا أَحَدُكُمْ فَاسْتَقَى رَبَّهُ خَمْرًا﴾ بشارة للساقى بالخروج من السجن، وأنه سيرجع إلى

خدمة الملك، وهذا تأويل رؤياه ﴿إِنِّي أَرْنِي أَغْصِرُ خَمْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُضْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ تأويل لرؤياه ﴿إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ

رَأْسِي حَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ قال للساقى: اذكر قصتي

للملك، المتضمنة لمظلمته، ولما ظهر للمسجونين من إحسانه وعلمه.

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أنسى الشيطان الساقى فلم يتذكر وصية يوسف

ﷺ؛ ولذلك قال الله عنه فيما بعد: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ العجاف جمع عجفاء،

وهي ذات الهزال والضعف الشديد، ورؤيا الملك التي عبرها يوسف ﷺ وكذلك رؤيا

المسجونين دليل على أن الرؤيا الصادقة ليس من شرطها الإيمان والإسلام، فهؤلاء لم يكونوا

مؤمنين ولا مسلمين، والله أعلم.

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ اعتذار من مستشاري الملك أنهم لا

يستطيعون تأويل رؤياه، وقولهم: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَامُهُ﴾ أصل الأضغاث بقايا النبات وأعواده

المختلطة، ويعنون به هنا أن الأحلام قد تختلط فيصعب تمييزها وتعبيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ هو الساقى الذي نجا من السجن، ونسي وصية

يوسف له، لكنه عاد بعد زمنٍ طويلٍ فتذكرها لما رآهم مشغولين برؤيا الملك.

﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ آتيكم بتأويله، يعني أنه سيذهب إلى السجن ويستفتي

فيها يوسف.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ الساقى يخاطب يوسف في السجن، والصدِّيق المتصف بكثرة الصدق.

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ تستمرون على الزراعة سبع سنين، في إشارة للبقرات السمان والسنبلات الخضر.

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ يرشدهم إلى وسيلة لحفظ الحبوب، فالحب في سنبله أطول عمراً وأكثر مقاومة، وفيه أيضاً توفير غذاء الأنعام، بخلاف ما لو خزنوا الحب وحده.
﴿إِلَّا لَاقِلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ استثناء يفيد الحرص والادخار، فلا يخرجون الحب إلا عند الحاجة إلى الأكل.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سبع سنين من القحط وانحباس المطر، وفيه إشارة للبقرات العجاف والسنبلات اليابسات.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ ينفد ما ادخرتموه من الحبوب، بسبب حاجة الناس المستمرة إلى الأكل مع انقطاع المورد إلا من المخزون، وفيه إشارة لأكل البقرات العجاف للسمان.
﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ الخمر، علامة على وفرة الطعام.

﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ الخطب هو الشأن المهم.

﴿إِذْ رَاوَدَتْهُنَّ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ نسب المراودة للجمع إشارة إلى وقوعه من غير امرأة العزيز أيضاً، ويُعَضَّد هذا دعاؤه المتقدم: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ وسؤال الملك للنسوة بهذه الصيغة مشعر أن الملك قال هذا بعد جمعه للمعلومات وتحققه من براءة يوسف.

﴿أَلَمْ نَخْصِصْكَ الْخُبْرَ﴾ ظهر وتأكد بعد لبس وخفاء.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ اختلف المفسرون في نسبة هذا القول، والظاهر من السياق

أنه كلامٌ مُتَّصِلٌ لامرأة العزيز، ومعناه أنها لم تَحْنُ يوسف في هذا الموضع، وهو موضعُ التحقيق في حضرة الملك؛ حيث شهدت بِصِدْقِهِ وبراءَتِهِ.

وفيه لمحة ظاهرة من الندم والحُزْنُ على يوسف الذي كان قد تعلَّق قلبُها به، وهذه لحظاتٌ مُعتادة بعد مُضيِّ سنواتٍ طوال من العناد والظلم والمكابرة.

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ كلامها المتصل، وفيه اعترافٌ بذنبها، واعتذارٌ وندمٌ على ما بدرَ منها، والله يغفر لنا ولها.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهُ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونِي بِأَجْرٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ الْآتَرُونَ أَتَى أُرْفَى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْفِظُهُمْ إِذَا انْفَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَنَحْفِظُوهٗ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفِظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَأَتُنْثِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمُّهُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِبرُ إِنَّكُمْ لَسُرُوقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَقْدُ صُوعٍ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ قَبَدَا بِأَوْعِيَّتِهِمَا قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا

لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

كما خرج يوسف عليه السلام من البئر إلى القصر، ها هو اليوم يخرج من السجن إلى العرش، في قصة فريدة في مشاهدتها وانتقالاتها وسرعة أحداثها، وفي كل مشهد يضرب يوسف المثل الأعلى لكل مقتدٍ ومتأسٍ مهما كان موقعه وظرفه الذي يمرّ به، وفي هذا المشهد عبرة لكل مشغولٍ في السياسة العامة والوظائف التي تتعلق بها مصائر العباد ومصالحهم:

أولاً: يوسف عليه السلام يطلب الولاية العامة ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ وقد أثارت هذه النقطة إشكالاً فقهياً كبيراً؛ حيث استقر في الأذهان أنه من طلب الإمارة لا يؤمّر، وهذه مسألة تحتاج إلى بحثٍ أوسع:

إن مجموع الأحاديث الواردة في هذه المسألة لا يوحى بالتحريم، والأقرب فيه التوجيه والإرشاد، وهذا هو المفهوم من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ! لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِن أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِن أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا»^(١).

والحديث فيه توجيهٌ دقيقٌ، وهو تقريرٌ أيضاً لواقعٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ معروفٍ، فالناس يتحملون مع أميرهم كامل المسؤولية إن كانوا هم الذين اختاروه، بخلاف ما إذا كان مفروضاً عليهم، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: قلتُ: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضربَ بيده على منكبي ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ»^(٢). فلم ينهه عن السؤال أصلاً، ولو كان محرماً لنهاه، بل بيّن له سببَ حجبهِ عن الولاية أنه ضعيف، وقد يشكل على هذا حديث: «إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُؤَيِّ عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ»^(٣).

(١) رواه الشيخان، ينظر: صحيح البخاري (٦/٢٤٧٢) دار ابن كثير، تح. د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (٥/٨٦) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» (٦/٦).

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، وينظر: صحيح البخاري (٦/٢٦١٤)، وصحيح مسلم (٦/٦).

وهذا بيانٌ صريحٌ لسياسته ﷺ في اختيار الولاية والأمر، وليس نهياً صريحاً عن الترشيح أو التقدم للولاية، لكنه من حيث النتيجة لن يكون في ظل هذه السياسة ترشيح ولا تقدم، والفيصل هنا في تحديد هذه السياسة إن كانت حكماً شرعياً عاماً بلغه رسول الله ﷺ باعتباره نبياً، أو أنها من الأمور الإدارية التي كان رسول الله ﷺ يمارسها باعتباره قائداً ورئيساً للدولة كممثل أعمال الجهاد والتحالفات والعلاقات السياسية، وهذه الأصل فيها تقدير الموقف زماناً ومكاناً وحالاً، ولا يمكن أن تُدار بتشريع ثابت؛ ولذلك اختلفت طبيعة المعارك النبوية وأسلوب إدارتها، واختلف أيضاً تعامله ﷺ مع المخالفين.

وعليه يمكن القول: إن طلب يوسف ﷺ للولاية لا يناقض هذا الحديث، بل كان ذلك متعيناً عليه في ذلك الظرف؛ فإنقاذ شعب مصر من الهلاك أولى من الزهد في طلب الولاية أو التورّع عن آثارها ولوازمها في طبائع البشر، كالمنافسة والمحاسدة والتطلع إلى الصدارة والوجاهة، والظرف الذي مرّ به يوسف ﷺ ظرف يتكرر.

وقد تحتاج الأمة من أصحاب الكفاءات أن يُظهروا ما عندهم وأن يبيّنوا أفكارهم ومشاريعهم للإنقاذ، وهذا هو الذي استقرّت عليه السياسات العالمية؛ إذ أصبح من العسير التعرّف على الكفاءات والوصول إليها حتى من قبل الحكومات وولاية الأمر، وتبقى للإسلام ميزة الجمع بين قيم الزهد والورع ومحاسبة النفس، وبين الشعور بالمسؤولية، والتصدي للشأن العام.

تجدّر الإشارة هنا أن يوسف ﷺ لم يطلب الولاية ابتداءً، بل اختارها بعد أن نال ثقة الملك حتى قال: ﴿أَتُوبُ بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾، ثم قال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وهذه حكمة يوسُفيّة: أن المتقدم للولاية عليه اختيار اللحظة المناسبة والظرف المناسب.

ثانياً: مكّن الله ليوسف في الأرض ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ تحقيقاً لبشارته الأولى ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ وقد استند هذا التمكين على منظومة من القيم: ﴿إِنِّي حَفِظْتُ عَلَىَّ﴾.

فالحفظ دليل التزكية والتربية الصالحة، والعلم دليل الإعداد المعرفي القادر على إدارة الدولة وشؤون الناس، وهما شرطا التمكين، وإنما يأتي الخلل في كل الوظائف العامة من نقص هذين الشرطين أو فقدهما.

إن أموال الدولة ومقدراتها تتطلب يدًا أمينة تحافظ عليها، وعقلًا سليمًا يحسن إدارتها والتصرف فيها، وهما شرطا التقدم لمثل هذه الوظائف، ثم تأتي القيم الأخرى مرتكزة عليهما مثل العدل ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا مُوتٌ﴾ والإحسان ﴿الْأَتْرَوْتَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ حتى اعترف له إخوته قبل أن يعرفوه ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وهذا خلق يوسف متكرر في هذه السورة، والحلم ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ وكان باستطاعته أن يبطش بهم لإساءتهم هذه ولموقفهم السابق منه.

ثالثًا: المشاركة السياسية، وهي المسألة الأهم والأكبر في هذه الآيات، والتي لم تعط حظها من البحث والدراسة في كل ما اطلعت عليه، وهي ركيزة السياسة الشرعية خاصة في الأزمان التي نعيشها والتي تكاد أن تخلو من نظام إسلامي صافٍ وشامل، فأصبح أهل العلم والفضل بين خيارين؛ مشاركة ملوثة بالظلم والسفَه، وربما بالكفر والخروج عن أحكام الشرع، أو اعتزال بائس، وانزواء عن حركة الحياة، وترك الدفة لكل جاهل وعابث وماكر.

إن يوسف ؑ قد شارك في حكومة "كافرة" لا تدينُ بدينه، وقد نصَّ القرآن على هذا بقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ فللملك دينٌ غير دين يوسف، وبهذا تنكسرُ عُقدة (الولاء والبراء) في هذه المسألة، والتي يستند إليها بعضهم في تحريم المشاركة، بمعنى أن مشاركة المسلمين لغيرهم في إدارة الدولة لا تقَدَحُ في عقيدة الولاء والبراء، ولا ينطبق عليها مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، ولا مثل

قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ومعلوم أن هذه من أبواب العقيدة، والعقائد لا يلحقها نسخ، ولا يجري فيها خلاف بين الرسائل السماوية مهما تباعدت أزمانها.

إذا خرجت هذه المسألة من دائرة العقيدة فإنها ستدخل في دائرة الفقه، وهي دائرة الاجتهاد الأوسع الذي يختلف زمانًا ومكانًا وحالًا، والذي يدخل فيه إلى جانب استقراء النصوص الواردة وتدبرها النظر في مصالح العباد والتقدير الدقيق للنتائج والعواقب، وهذه مساحة قابلة للاختلاف وتباين الآراء وليس أحد في هذا حُجّة على أحد.

إن يوسف عليه السلام يعلمنا في هذه المشاركة أن المسلم ليس مطلوبًا منه أن يبلغ الدعوة وأن يقيم الأحكام الشرعية فقط، بل هو مكلف بالمساهمة في إنقاذ الناس ومساعدتهم ولو كانوا غير مسلمين، فقد كان الجهد الأكبر ليوسف مركّزًا في إنقاذ شعب مصر من الجوع، ولو كان هذا بمسايرتهم وفق أنظمتهم وقوانينهم، مع التمايز الواضح في باب الإيمان ﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ ۚ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

أما الذين يظنون أننا ممنوعون من تقديم برامج الإنقاذ وخطط الإصلاح إلا في "حكومة إسلامية" ونظام إسلامي شامل، فهم واهمون؛ فمهمة إنقاذ الناس من الموت والفقر والظلم ينبغي أن لا تتأخر عن إنقاذهم من الكفر، وفي قصّة التمكين هذه بيان وافٍ وكافٍ.

إنّ المسلم إنسان يعيش مع بقية الناس، وهو مكلف بدعوتهم إلى الإيمان، فإن استجابوا خضعوا جميعًا لحكم الله، وإن لم يستجيبوا فلن يكون المسلم أداة في تخريب هذا المجتمع أو تدمير هذه الحياة.

ومثال ذلك: المسلمون الذين يعيشون في بلاد الغرب ونحوها، فهناك دول قائمة بأنظمة توفر قدرًا من العدل والحرية وحقوق الإنسان مع مخالفات صريحة ومتوقعة لأحكام الشرع، وليس هناك من فرصة لإقناعهم بتغيير هذه القوانين، فيكون المسلم من الناحية العملية بين خيارين؛ إما المحافظة على هذا النظام والعمل بما هو متاح ومستطاع، أو إعلان التمرد

وتشجيع الفوضى، والذي يقرأ رسالة الإسلام الحقّة وغاياتها الكبرى لا يمكن أن يمنح بحال إلى هذه الفوضى؛ حيث سيكون المسلم سبباً في الخراب وضياع الحقوق وتشويه الإسلام نفسه وصدّ الخلق عنه.

رابعاً: الكيد، وهذا سلوكٌ ظاهرٌ في أطراف هذه القصة، بدأ به إخوة يوسف ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فكادوا بيوسف حتى أخذوه من أبيه وألقوه في البئر، ثم كادوا بأبيهم وحاولوا خداعه ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، ثم جاء كيد النسوة ﴿إِنَّهُنَّ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾.

ولقد تعلّم يوسف ﷺ من كلّ هذا أن الذي يريد أن يسوس الناس لا بُدّ أن يكون خبيراً وعارفاً بهذه الأساليب، وإلا فإنه سيقع ضحية لهذا الكيد.

ثم إنّه ﷺ يعلمنا درساً آخر: أن التدبير الفطن الذكي لا بُدّ منه للوصول إلى الحلول المناسبة، بخلاف المواجهة والتصدي المباشر، وهذا هو الكيد المشروع ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ﴾ وقد سمى الله هذا النوع من الكيد علماً ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصاً لي ومقرّباً مني، وفيه انبهار الملك بصفات يوسف ﷺ وحكمته وحسن تدبيره، وفيه قاعدة جليّة في علاقة المسلم بغيره، فالثقة والمودة وما ينتج عنهما من تواصل وتعاون أصلٌ في العلاقات الإنسانية، وبابٌ واسعٌ للدعوة والإصلاح، ومن توهم أن هذا مناقض للولاء والبراء فقد ردّ منطوق الآية ومفهومها، كيف وقد ردّ يوسف ﷺ بالإيجاب فقال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ شرطاً للولاية والوظائف العامة؛ الأمانة والعلم.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ بداية تحقق الرؤيا التي رآها في صباه.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر.

﴿فَعَرَّفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لأنهم تركّوه في الجُبِّ صغيراً، والنمو يُغيّر بُنية الصغير وصورتَه أكثر مما يُغيّرهما في الكبير، مع التغيّر الذي طرأ على يوسف في قصر الملك وهيبة الحكم.

﴿جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أعطى لكل واحد منهم ما تحمل دابته من الطعام.

﴿قَالَ أَتَأْتُونِي بِأَنْعَامٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمُ﴾ إشارة إلى حديث سابق بينه وبينهم حول مجيئهم وحاجتهم للميرة وعدد من يعيلون، بمعنى أنه ﷺ قد استدرجهم دون أن يشعروا ليخبروه عن أبويه وشقيقه الأصغر، وهذا أمرٌ متوقع وإن لم يصرّح به القرآن، وفيه أنه جهّزهم أولاً بجهازهم وسدّ حاجتهم قبل أن يطلب منهم إحضار أخيه، ليطمئنهم ويرغبهم، والله أعلم.

﴿خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ النزول: الضيافة، كأنه يرغبهم بالمجيء مرة ثانية.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُونِ﴾ طلب غريب بالنسبة لهم، لماذا يحرص عزيز مصر على رؤية أخيه؟ لكن الغريب أيضاً أنهم لم يستغربوا! وغالب الظن أن هذا جارٍ في سياق لم يفصله القرآن، فربما كان يوسف ﷺ لما استدرجهم للحديث عن أهلهم وأخيه، أظهر لهم ما يستدعي التوثيق كعادة الحكّام والأجهزة التابعة لهم، فالسياق أنه يكلمهم باسم الدولة ونظامها وليس باسمه الشخصي، والطلب في هذا السياق يبدو طبيعياً، والله أعلم.

﴿اجْعَلُوا بَضْعَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: أئمان

ما أخذوه من طعام، لعل هذا يكون أدعى إلى رجوعهم مرة أخرى إلى مصر، لأنهم لا يستحلون هذه الأئمان بعد أن أخذوا بضاعتهم.

﴿مُنِيعٌ وَمِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي: يمنع عنا الكيل إذا لم نأخذ أخانا معنا، إشارة لقول يوسف

المتقدم: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فيه مشروعية الحذر وسوء الظن بأصحاب السوابق.

﴿وَجَدُوا بِضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: الأثمان التي وضعها فتيان يوسف مع الطعام.
﴿وَنَمِيرُ أَهْلِنَا﴾ نجلب لهم الميرة.

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ ربما خاف عليهم العين أو الحسد، لكنه لا يبعد أيضًا أن يكون هناك محاذير أخرى، فدخلوهم جميعًا على هيئة واحدة وهم غرباء قد يثير تساؤلات وإشكالات هم في غنى عنها، وهذه مجرد تفسيرات للحاجة التي قال الله فيها: ﴿مَا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ والله أعلم.

﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضمّه إليه، بعد طول غياب وفراق، ويا لها من لحظات.

﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لا تشعر بالבוّس، وأنّى له أن يتذكّر ذلك البوّس وهو الآن في كنف أخيه الحبيب.

﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهي صواع الملك الذي يكيلون به؛ حيث بدأت خطة يوسف ﷺ لاستبقاء أخيه، ووفادة أبيه، واستقرار الأسرة الكريمة كلها في أرض مصر.

﴿أَذِنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مُنَادٍ.

﴿الْعِيرُ﴾ القافلة.

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ كأن إخوة يوسف قد انصرفوا قليلًا بعد أن جُهِزوا بجهازهم، فلما سمعوا النداء انعطفوا عليه.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ضامن، أي: للمكافأة وهي حمل بعير من الطعام.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ استنطاق لحكم السارق عندهم، وهو غير حكمه عند المصريين.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ، فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أي: أن السارق يُسلَّم للمسروق منه، وقد صدَّقوا في قولهم، وهذا دليل على أنهم أهل دين، وما فعلوه بأخيهم إنما هو الحسد الذي يُعَمِّي ويُصِمُّ، والعياذ بالله.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لكي لا يُثير شكهم.

﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ وهو عارفٌ بها.

﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ﴾ علَّمناه الكيد المحمود، وهو هنا حسن التدبير، والتوصل للمقصود.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: في شريعته، وهذا دليل على أن يوسف ﷺ كان يقضي في كل ما يعرض عليه بحكم الملك، وهذا أصل في كل من يتولَّى ولايةً في دولة أخرى ليست على شريعتنا، وليس في هذا ثلَمٌ لعقيدة الولاء والبراء، ولا تعارض مع قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ فالحكم له صفاته وشروطه ومقدماته، فإذا تخلفت تخلف الحكم، كما في الحدود التفصيلية كحد السرقة الذي أوقفه الصحابة ﷺ في الحروب وفي عام المجاعة، والله أعلم.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى أن ذلك الكيد والتخطيط والتدبير داخل في مستى العلم، يؤكد قول يوسف ﷺ: ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ اتِّهَامٌ ليوسف، وكأن الحسد الذي في قلوبهم لم تُظفأ جمرته بعد، فيوسف على عهدهم كان غلامًا صغيرًا، وقد ألقوه في الجُبِّ وانقطع عنهم خبره، فقولهم هذا لا معنى له إلا إيغار صدر العزيز على أخيهم الثاني، والذي

هو شقيقُ يوسف.

أما ما يتردد من روايات أن يوسف كان في طفولته قد سرق، فهذه لا تصحُّ سندًا ولا متناً، ولا يصحُّ اعتمادها أصلاً، والله أعلم.

﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ الأقرب للسياق أنه لم يظهر تأثره وغضبه على اتهامهم هذا، فكأنه لم يسمعهم، وهذا من حلمه وفطنته.

﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ والظاهر أن هذا القول قاله في نفسه أيضاً، إذ لو صرح به لاقضى منه موقفاً ما تجاههم وهو صاحب الأمر، والسياق خلا من أي إشارة بهذا المعنى.

﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ أي: بدلاً عنه؛ لأن البدل يُوضع في العادة مكان المبدل عنه، وعرضهم هذا يُوجي بتيقظ عاطفتهم تجاه أبيهم واستعدادهم جميعاً للفداء، وربما يكون الكلام على معنى الاستعطاف، خاصة أنهم قدّموا له بحالة أبيهم الشيخ الكبير، وختّموه بقولهم: ﴿إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل: من سرق؛

لأنه لم يسرق وإنما وجدوا متاعهم عنده، وهكذا يكون الصدق حتى في مثل هذه الأحوال التي تتطلب التمويه والحيلة.

سُورَةُ يُوسُفَ

من الآية

٨٠ - ١٠١

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَى يُونُسَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُوا تَذْكُرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِضِغَعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَدْهَبُوا بِقِسْمِي هَذَا فَالْقَوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتَوْفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّيَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ۞

اللقاء بعد الفراق

في هذه الآيات مشاهد متسلسلة للحلقة الختامية في هذه القصة الفريدة:

المشهد الأول: مشاورات الإخوة للخروج بحلّ مرضي بعد فقدهم لأخيهم الثاني الذي كان عنده صراع الملك ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِيَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ ﴾.

الأخ الكبير - وهو الأقرب إلى سنّ أبيه - يشعر الآن بشعورٍ مختلفٍ؛ إذ المعتاد في الناس أن يقوم ببعض دور الأب في حالة غيابه، الأخ الكبير الذي تقدّم به السنُّ قياسًا بإخوته، وبهذا يكون قد انطقت عنده جمره الحسد، فهو أقرب إلى الندم، وأكثر استعدادًا للتضحية وتحمل المسؤولية.

ثم وجّه الكلام لإخوته: ﴿ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا ۖ ﴾ ثم أخذ يلقنهم الحجة ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ ﴾.

المشهد الثاني: حالة الأب المكلوم وهو يتلقى خبر حبيبه الثاني، فرد عليهم وفق طبيعته البشرية ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ ﴾ لأنهم أصحاب سابقة، فالتهمة تلبسهم لا محالة.

ثم راح بعيدًا عن الناس متألمًا حزينًا ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُونُسَفَ وَأَبْضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۖ ﴾، ثم تدرك الشفقة أبناءه فكأنهم يلحقونه لوعظه ومواساته والتسلية عنه: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُونُسَفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ۖ ﴾، فكان يردّ عليهم: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ۖ ﴾، ثم يفتح بابًا من الرجاء والأمل: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ ﴾، فيتحول الأمل إلى عمل ﴿ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ۖ ﴾.

المشهد الثالث: مصارحة وعتاب وصفح جميل؛ حيث استجاب الإخوة لأمر أبيهم وجاءوا إلى مصر ليتحسسوا وليطلبوا الميرة أيضا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَاذْكُرْ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ ﴿هنا رأى يوسف أنه قد حان الوقت لمصارحتهم﴾ ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ﴿ربما كانت كلمات يعقوب الأخيرة لهم قد هيأتهم لمثل هذا الخبر، فلم يتوانوا بالتفاعل السريع: ﴿قَالُوا أَيْ تَنَاكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ﴿فلم يبق أمام إخوته إلا الاعتراف بالخطأ﴾ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَازَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ ﴿وكان الرد المناسب لمقام الأنبياء وللخلق اليوسفي الجميل﴾ ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

الله الله يا يوسف! ما أسرع أن نسيت فعلتهم في الجُبِّ، وعذابات أبيك وأخيك، ومقولاتهم قبل أيام فقط: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿ينسى يوسف كل هذا وعينه على أبيه﴾ ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفِّي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

المشهد الرابع: وجاءت البشرى من بعيد تحملها ريح يوسف التي تركها على قميصه: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعَيْزُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ ﴿إنها إشارات المحبين وشعارات الصالحين التي تجتاز السدود والحدود، لكن أصحاب الغفلة لا يرون ما يرى، ولا يجادلون ما يجد: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وهو لاء ليسوا أولاده؛ لأن أولاده في الطريق إليه وهم أهل البشرى ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾؛ لأنه لم يكن قد عمي العمى المعروف، ولكنها غشاوة الحزن.

هنا في هذا الجو العاطفي تتحرك القلوب نحو فطرتها الأصلية: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا

ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ تسويف لا يحمل معنى الغل، وإنما هو تعبير عن انشغاله الآن بهذا الخبر السعيد الذي ملك عليه أحاسيسه ومشاعره، والله أعلم.

المشهد الخامس: اللقاء الحميم ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وكان هذا بداية هجرة بني إسرائيل إلى مصر، وقد جمع الله شمل هذه الأسرة النبوية الكريمة بعد فراقٍ طويلٍ وحوادث مؤلمة، وقد بدأ يوسف برفع أبويه على العرش وهو سرير الملك الذي أعدّه لهذا الغرض إجلالاً لمقام النبوة عند يعقوب ولمقام الأبوة لهما، ثم راح يشرح لهم قصته في جوٍّ من الأُنس والمودة والرحمة ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

ويلحظ هنا أنه لم يذكر الجُبَّ وهو أشدّ من السجن؛ لئلا ينجَل إخوته ويذكّرهم بشنيع فعلتهم، ولم يذكر لهم قصّته مع امرأة العزيز؛ لئلا يقع في عرضها وسُمعة أهلها، وهذا من سنّة التغافل، وتعليم لنا أن نستُر الزّلات، ونحفظ الخصوصيّات.

المشهد السادس: شكر ودعاء ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۚ ﴾
فنسب النعم إلى المنعم سبحانه، وهذا أصل الشكر كما قاله الجُنَيْد وغيره، وربط بين الملك والعلم؛ إذ الملك لا يصلح بغير العلم، ثم وقف في محراب العبودية يسأل الله النصر والولاية وحسن الخاتمة ورفقة الصالحين، اللهم فألحقنا بهم ولا تباعد بيننا وبينهم.

﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ ﴾ أي: يئسوا من إقناع يوسف بالعدول عن أخذ أخيه، فالضمير يعود على يوسف، وهذا أقرب للسياق لتقدم رجائهم واستعطافهم له، والله أعلم.

﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ انزعلوا عن الناس للتشاور.

﴿ فَلَن أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ لن أترك أرض مصر.

﴿ وَسَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ بمعنى: اسأل أهل مصر الذين كنا عندهم، واسأل رفقاءنا الذين حضروا معنا هناك وعادوا معنا الآن.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ سَوَّلَتْ: زَيَّنَتْ، وفيه جواز إساءة الظن بأهل السوابق.

﴿ يَتَأَسَّفُ عَلَى يُوسُفَ ﴾ الأسف: الحزن الشديد، كأن حزنه الجديد بفراق ولديه الأصغر والأكبر قد أحيا في نفسه حزنه الأول، وقد تمسك الشيعة بهذا مستنداً لما يقومون به من مواعب ومآتم وبدع مختلفة في ذكرى استشهاد الحسين (عليه السلام)، ولم يفرقوا بين الحزن الفطري الذي لا يمكن التحرر عنه ولو طال به الزمن، وبين الحداد وإعلان مظاهر الحزن التي يمكن التحكم بها، والتي قد حددها الشرع بثلاثة أيام إلا للمتوفى عنها زوجها فلها عدتها المعروفة عند الفقهاء.

﴿ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ يوسف وأخويه الأصغر والأكبر.

﴿ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ ﴾ غشيها البياض المعروف الذي يكون بالحزن وغيره، وهو غير العمى.

﴿ كَذَلِيلٍ ﴾ كاتم حزنه في قلبه.

﴿ تَفَنَّنُوا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ تبقى ملازماً للذكره.

﴿ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾ شيئاً بالياً، كناية عن الهزال والمرض.

﴿أَشْكُوا بَنِي﴾ البث مصدرٌ معنويٌّ للشكوى، ولو عكس فقال - في غير القرآن -: أبثُّ شكواي لصحَّ، والله أعلم.

﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ابْحَثُوا عنها بدقَّةٍ ورفقٍ، وهو مخالفٌ للتجسس الذي يكون في تبُّع الزَّلات والعورات.

﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ من رحمة الله.

﴿بِضْعَةٍ مُرْجَلَةٍ﴾ رديئة.

﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ التثرِب: اللوم والتوبيخ.

﴿فَصَلَّتِ الْعِيرُ﴾ فارقت أرض مصر.

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ رائحة يوسف، وهذه معجزة ليعقوب، أنه يشمُّ رائحة ابنه من قميصه على بُعد فراسخ.

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تكذبوني وتتهموني بالضلال، وقد حصل منهم هذا ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ

لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وهؤلاء ليسوا أبناءه قطعاً؛ إذ كان أبناءه في طريقهم إليه ولما يصلُّوا بعد.

﴿فَازْتَدَ بِصِيرًا﴾ زال البياض المانع من الإبصار، والأصل فيه أنه خارقة إلا إذا ثبت أن

الخبر السار يشفي في مثل هذه الحال، والله أعلم.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هو من تغليب لفظ الأب على الأم، وإطلاق وصف الأم على

زوجة الأب والتي ورد أنها خالة يوسف تزوجها يعقوب بعد وفاة أم يوسف، ويشهد لهذا غياب ذكر أمه عن هذه الأحداث الجسام، والأم أولى بالحزن والرقّة من الأب.

﴿وَاخْرُؤَالَهُ سُجَّدًا﴾ الظاهر أنهم الأبوان والإخوة تصديقاً لرؤياه ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ إلا أن ترتيب الآية هذه يوحي بأن أبويه لم يسجدا مع

إخوته؛ لأنه بدأ الكلام برفعهما على العرش ثم ثنى بالسجود، ومقام الأبوين هنا أدعى للتمييز، فقد يكون سجودهما سجودًا مناسبًا لمقامهما، فهو سجودٌ معنويٌّ بمعنى أنهما دخلا في ملكه وتحت سلطانه، بخلاف إخوته الذين سجدوا له سجودًا جسدًا بمعنى التحية للملوك والعظماء، وسجودًا معنويًا بمعنى الدخول في ملكه وسلطانه، أما تصوّر سجود يعقوب لابنه يوسف سجودًا جسدًا فهو مستبعد ولا يليق بمقام الأبوة حتى لو كان بمعنى التحية، وفي ترتيب الآية متسع لهذا الاجتهاد، والله أعلم.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ البادية.

﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ نَزَعَ: تدخل بالإفساد، وقد أشرك نفسه مع إخوته في هذا، بل بدأ بنفسه ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ تطيبًا لخاطرهم، وإسعادًا لأبويه حينما يرون هذا التسامح وهذه المودة بين الأبناء.

﴿ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ نسبة النعمة إلى المنعم، وهذا أصل الشكر، وربط بين الملك والعلم إذ لا يصلح الملك بغير العلم.

﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يطلب العون والتأييد من الله بصيغة الخبر المؤكّد ثقة بالله ولطفه ورحمته.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ دعاءٌ بحسن الخاتمة، وتأكيّد بأهميتها.

﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ تذكيرٌ بصحبة الصالحين ومكانتها في الدارين، اللهم فلا تحرمنا.

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠١) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا تَنْتَهِهُمْ عَلَيْهِ مِنْ جُرْأٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٣﴾ أَوْ كَانَتْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٤﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٥﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَانِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٦﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُونَ ﴿١٠٨﴾ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

توجيهات ختامية

تضمنت خواتيم هذه السورة تلخيصات وتوجيهات ختامية نُجْمِلُهَا فِي الْآتِي:

أولاً: أن هذه القصة بما ورد فيها من أحداث ومشاهد إنما هي وحي إلهي مقدس ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ والقصد ليس السرد التاريخي والازدياد المعرفي المجرد، بل هي خبرة يقينية وهدى ورحمة على طريق الحياة والحركة المتواصلة ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثانياً: أن اختلاف الناس بين مؤمن وكافر ومصديق ومكذب سيبقى ما بقي الإنسان، وهذا أساس التمحيص والاختبار ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

ثالثًا: أن سبب الضلال إنما هو الإعراض عن الآيات وتعطيل المدارك ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

رابعًا: أن المؤمن ماضٍ في دعوته وحرصه على هداية الآخرين بعلم وبصيرة ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ وأنه لا يبتغي بذلك منهم أجرًا ماديًا ولا معنويًا ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

خامسًا: أن دعوة المؤمنين متصلة جيلًا بعد جيل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ وأن العاقبة لسلسلة النور هذه معها طغى الباطل وتمدد ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُولُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَّشَاءٍ وَلَا يَرُدُّ بِأُسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أحكموا خطتهم، وهم إخوة يوسف؛ إذ مكروا بأخيهم حتى ألقوه بالجُبِّ.

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، إشارة إلى حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس معها آذوه وصدّوا عنه.

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتدبرونها ولا يفكرون فيها، حتى لو رأوها بأعينهم ولمسوها بأيديهم، وما أكثر الآيات الماثلة في هذا الكون الدالة على الهدى لو تدبرها الإنسان.

﴿غَشِيَّةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ عذاب يعمهم ويغشاهم.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ علم ودراية.

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ فالامة شريكة لنييها في وظيفة الدعوة وتابعة له، ولولا هذا لانقطعت

الدعوة بموت الرسل ﷺ.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ أي: ليسوا بملائكة ولا آلهة كما يزعمُ المبطلون ويدَّعونَه من شروط النبوة وصفات النبيين.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُولُ ﴾ من قومهم، فلا يرجون إيمانهم.

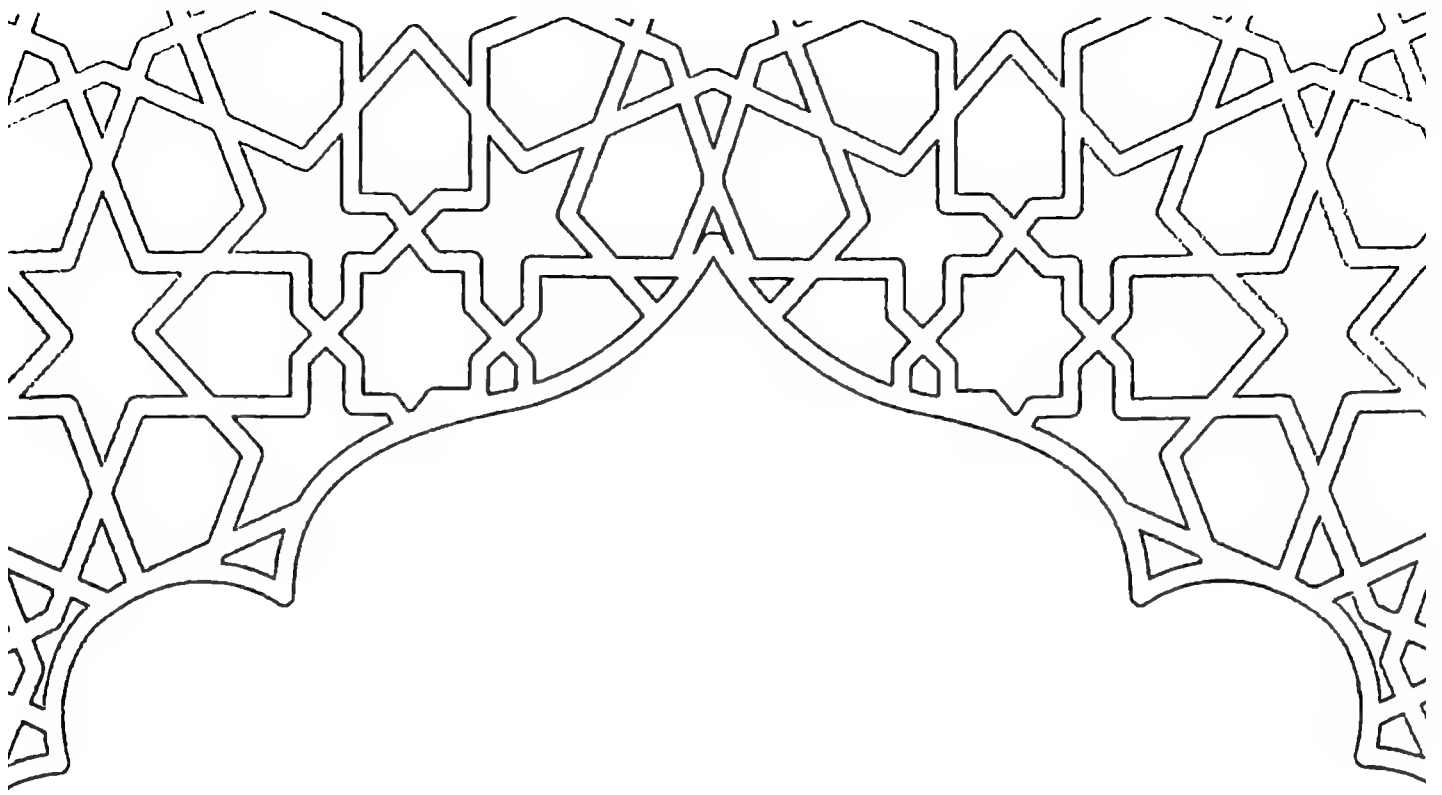
﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا ﴾ الظن هنا اليقين، كما قال عن المؤمنين: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ

مُلْقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦]، والمقصود أن الرسل ﷺ إذا يئسوا من استجابة قومهم، وتيقنوا أنهم باقون على تكذيبهم، ولا مطمع بإيمانهم جاءهم النصر الذي يُنجي الله به المؤمنين ويمحق الكافرين.

﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ التوراة، فقد ورد فيها من قصة يوسف ما يصدقه القرآن.

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ وصف للقصة، وإرشاد للمؤمنين أن يبحثوا فيها عن كل ما يعرض لهم

من النوازل المشابهة كفتنة الحسد والشهوة والسجن والمنصب، والعمل مع الموافقين، والعمل مع المخالفين، فقد حوت هذه السورة أجوبة تفصيلية وعملية للكثير من مسائل الحياة وتعقيداتها السياسية والاجتماعية والدعوية وغيرها.



سُورَةُ الشَّعَرِ

المجلس الثاني بعد المائة: سبيل الهداية

المجلس الثالث بعد المائة: التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل

المجلس الرابع بعد المائة: خاتمة وتذكير بالحقائق الكبرى

سُورَةُ الشُّرُعِ

﴿الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى الْبَيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَةٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِيدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْنَا لِمَنْ خَلَقَ جَدِيدٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٍ بِالنُّزُولِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيَسْخِرُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُوتُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبْسُطُ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) ﴿

سبيل الهداية

تعالجُ هذه السورة في آياتها الأول قضية الهداية، والأسباب الموصلة إلى الطريق الحق، وما يحول بين الإنسان وبين هذه الطريق ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

محور هذه الآيات يدور حول الكون، الذي هو مجال النظر الفسيح لكل باحث عن الحق ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ

مُسَمًّى ﴿١﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ ﴿٢﴾، ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَةٌ وَجَعَلْتُ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ ﴿٣﴾، ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ﴿٤﴾، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

في ثنايا هذا العرض لمُفردات الكون التي يمرُّ بها الإنسان ويتعامل معها كلُّ يوم يُنبِّه القرآن إلى ضرورة إعمال العقل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٥﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالحقائق المركونة على رفوف المعرفة مهما كانت لا يمكن أن تكون سبباً للهداية ما لم يتَّصل بها نظرُ الإنسان محاولاً استنباطها وباحثاً عمّا وراءها، وحينما يُعطِّل الإنسان هذه الوظيفة في داخله فإن تلك الحقائق ستكون مجرد مألوفات جامدة لا يتَّصل بها الإنسان إلا ابتغاء المتاع وسدَّ حاجة الجسد.

ثم يُعرج القرآن إلى قانونٍ مكملٍ لما سبق، فالحقيقة تحتاج إلى عقلٍ ينظر فيها، والعقل بحاجة إلى عزيمة وإرادة ذاتية تحمّله على الانصياع لمنطق الحق، ومن ثمَّ فالتغيير بأيِّ صورة جاء مسؤولية ذاتية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

فالإرادة هي التي تُحرِّك العقل وتدفعه للنظر الجاد، ثم تدفعه للالتزام بالحق الذي توصل إليه، أو تُحرِّكه باتجاه الشهوة والمصلحة الآنيّة المُجانبية للحق، وفي الحالتين تأتي السنّة الإلهية متوافقة مع مسؤولية التكليف هذه دون تحيُّز أو مُحاباة.

إن وجود هذه الحقائق في نسقٍ وظيفيٍّ واحدٍ؛ بحيث لو اختلَّت مفردة فيه عن سياقها لاختلَّت الحياة كلّها هو دليلٌ ساطعٌ على وجود حكمة لا تتسع لها الصدفة العشوائية.

فلو افترضنا مثلاً أن التراب الذي في الأرض لا يصلح للإنبات، أو أن الماء لم ينزل على

هذا النبات، أو أنه نزل ولم يكن صالحًا، أو أن الشمس خفت ضوؤها، وذهبت طاقتها، وهكذا في كل مفردة من هذه المفردات، فكيف ستستقيم الحياة؟ وكيف سيكون شكلها؟ فيا ترى من الذي وضع هذا النظام وخصص هذه الوظائف لكل مفردة من هذه المفردات؟ ثم لو نظر الإنسان في نفسه وهذا التوزيع الوظيفي بين الذكور والإناث والذي بدونه لا يمكن أن تستمر الحياة أو تتعاقب الأجيال، فهل مثل هذا التصنيف أو التوزيع تحتمله الصدفة؟ وإذا استحالت الصدفة فمن ذا الذي قرّر أن يخلق الرجل للمرأة أو يخلق المرأة للرجل؟ وأن يمدّ كل واحد منهما بما يكمل نقص الآخر؟

يُشير القرآن بعد هذا إلى حاجة المشركين وتنكّبهم للطريق السويّ الموصل للحقيقة، فهم بدل أن يُحاولوا الإجابة عن تلك الأسئلة راحوا يستعجلون السؤال عن خلق آخر ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وهم لو أجابوا عن الخلق الأول لتوصلوا إلى جواب الخلق الثاني بطريقة تلقائية، كما قال الله في سورة أخرى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. ولكي لا يُترك الإنسان لهواه تضمّن هذا المقطع آيات من الترغيب والترهيب؛ ليشعر الإنسان بمسؤوليّة اختياره وسلوكه النظري والعملية ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

دقائق التفسير

﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ تنبيه الأذهان إلى الناموس الكوني الذي يُمسك هذه الأجرام العلوية كلّ في نظامه وفلكه، وتعجيز للبشر أن يرفعوا سقفا فوقهم من غير عمَد مركوزة في الأرض.

﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ بَسَطَهَا لتكون صالحة للبناء والزرع والسكنى، وليس فيه نقض لكَرويتها؛ لأن بَسَطَهَا مُتَّسِعٌ لحركة الإنسان كما هو معلومٌ ومُشَاهَدٌ، والشكل الكلي للأرض غير محسوسٍ في مفردات الحياة، وإنما هو موزونٌ أيضًا لضبط الليل والنهار، كما قال في آية أخرى: ﴿يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

﴿رَوَّسَى﴾ صفة الجبال، وقد اكتفى بذكرها عن ذكر موصوفها.

﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ يُغْطِي النَّهَارَ بِاللَّيْلِ، ويحجب عنكم ضوء الشمس بحركة الأرض المعروفة.

﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ من الشجر ما يتفرع عن أصلٍ واحدٍ، ومنها غير ذلك بأن تنبت كلُّ شجرة بمفردها.

﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ إشارة إلى تنوع طعوم الثمرات وتنوع ألوانها مع أن غذاءها واحد.

﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعذاب.

﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ تذكير بما أصاب الأقوام السابقة، والمثلات جمع مثلة بمعنى: العظة والعبرة.

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ هَلَّا أَنْزِلَتْ عليه معجزة كإحياء الموتى، ونزول المائدة.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ قصر إضافي، كأنه قال: إن مهمتك الإنذار وليس صنع المعجزات، ثم عقب بقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فأنت لست بدعاً من الهداة والدعاة والنبين من قبلك، والندارة متضمنة في الهداية، والله أعلم.

﴿وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزِدَادُ﴾ عام في كل زيادة أو نقصان داخل الرحم؛ من نزول البويضات الأنثوية، ودخول النطف الذكورية، وما يتم تلقيحه وما لا يتم، وعدد الأجنة، وزيادة حجم الجنين ونقصانه، والسقط الذي يقع قبل اكتمال خلقه .. إلخ، فكلُّ هذا جارٍ على علم الله وكمال تقديره وتدبيره.

﴿الْمَتَعَالِ﴾ المتعالي والمنزّه عن صفات النقص.

﴿مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ يتخفى بظلام الليل.

﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ سالك طريقه في وضوح النهار، فالسارب والمستخفي في علم الله سواء.

﴿لَهُ، مُعَقَّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ملائكة مُوَكَّلُونَ بالعبد يتعاقبون عليه بأمر الله،

يُحْصُونَ عليه أقواله وأفعاله، فهذا معنى الحفظ هنا بمقتضى السياق، ولا يبعد أيضًا تناوله
لمعنى الصّون والحماية، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ فهذا مناط التكليف والاختبار والتمييز،

وتحمل المسؤولية على مستوى الفرد أو الجماعة أو الدولة.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا﴾ عذابًا وعقابًا على انحرافهم وتجنّبهم طريق الهداية.

﴿وَالِ﴾ يتولّاهم بالتأييد والنصرة.

﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ الخوف من الصواعق والرهبة من صوتها، والطمع

بما تحمله من خير للأرض والإنسان والأنعام.

﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ يشهد بعظمة الله.

﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾ شديد القوة والعقوبة.

﴿كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ كالظمآن الذي يُشير إلى الماء طمعًا في أن يصل الماء إلى

فمه، وهذا غاية العجز، والتمني الفاسد، والمثال بمُجمله دعوة لتحريك العقول وتحريك

الهِمَمَ لمعرفة الحقِّ والأخذ به.

﴿وَوَلَّلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ حركة الظل من شروق الشمس (وهو الغُدُوُّ)، إلى غروبها

(وهو الأصيلُ) محكومة أيضًا بناموس الكون الذي قدّره الله، وأخضع له خلقه راغِبِينَ أو

مُكَرِهِينَ.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَشْيِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) أُنزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَسَالَتْ
أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلرَّيْبِ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهٗ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا لَهُمُ الْعَذَابُ (١٨) أَفَمَنْ يَمْلِكُ أَنَّا نُنزِلَ
إِلَيْكَ مِنَ الرِّيحِ الْخَالِقُ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ الْوَلْوَاءُ الْأَلْبَسُ (١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بَعْدَ أَنَّهُمْ وَالَّذِينَ يُوَفُونَ بَعْدَ أَنَّهُمْ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢٠) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْدِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ
الَّتِي تَبَىٰ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢١) جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٢) سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٣) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ
لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٤) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۗ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٥) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْ لَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٦) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ
اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٧) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ (٢٨) كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا
أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ (٢٩) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۖ فَلَمَّا يَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا
وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ
مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)

التمايز بين أهل الحق وأهل الباطل

بعد أن شرحت الآيات الأولى من هذه السورة سبيل الهداية ومسؤولية الإنسان في
استكشاف هذه السبيل وتمييزها عن طرق الغواية، والدعوة لها، وإلزام النفس بها، شرع
القرآن في هذه الآيات في بيان مواقف الناس إزاء هذه المسؤولية:

أولاً: تأكيد حقيقة التمايز، وأنه سنة إلهية ماضية في هذا الخلق ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ
السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَةٍ أَوْ مَنَاجٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، ﴿فَأَمَّنْ
يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ﴾، ﴿قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِنُصْلٍ مَن يَشَاءُ
وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنْابَ﴾.

ثانياً: بيان صفات المؤمنين ومؤهلاتهم التي قادتهم إلى النجاح والفلاح:

- إعمال أدوات المعرفة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾،
﴿فَأَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾.

- الشعور بجديّة الأمر وعظم المسؤولية ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

- الوفاء بالعهد واستشعار قيمة الكلمة ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾.

- امتثال الواجبات والزام النفس بها ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾، ﴿وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُسِرُّوا وَعَلَانِيَةً﴾.

- الصبر على لأواء الطريق ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾.

- السكينة وطمأنينة القلب، والتعلق بذكره سبحانه ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ

اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

ثالثاً: بيان صفات الآخرين الجاحدين والمتنكرين للحق وأهله:

- غلق منافذ المعرفة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ﴾، ﴿

فَأَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾.

- نقض العهود ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

- الإفساد في الأرض ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

- اللجاجة والمجادلة بالباطل ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

- الاستهزاء والسخرية من الحق وأهله ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾.

رابعاً: النتيجة المحتومة لكل فريق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ

لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، لَافْتَدَوْا بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَيَنْسَوْنَ الْمِهَادُ ۖ، ومن حُسْنَى المؤمنين استبشار الملائكة بهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ

﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ بينما يُسْتَقْبَلُ الفريق الآخر باللعنة ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ

وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ينطلق

القرآن من حقيقة لا مراء فيها؛ أن كل الشركاء المزعومين ليس لهم شرك في هذا الخلق، ومن

ثمَّ فلا ينبغي أن يكون لهم نصيب من الربوبية أو الألوهية، فالله هو الواحد القهار المستحق

للعبادة وحده بحكم أنه الخالق وحده، فمن يخلق هو الذي يملك، ومن يملك هو الذي

يتصرَّف في ملكه كيف يشاء سبحانه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على كل شيء.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ فسال الماء في هذه الأودية، كل وادٍ بحسب طوله وعرضه،

وعدمته وما قدره الله فيه من السيل.

﴿زَبَدًا رَابِيًا﴾ رغوة الماء الطافية على ظهر السيل.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍ﴾ أي: كما أن هنالك فرقاً بين الماء المتدفق في الأودية وبين الزبد الطافي عليه، هنالك أيضاً فارق بين جوهر الحلية والنقود السليمة المتخذة من الذهب والفضة وبين ما تنفيه النار من صدأ وشوائب ونحو ذلك.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ رغبة السَّيل، وخبث المعادن.

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ الماء الصافي والمعادن النفيسة.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ فالصورة المركبة التي عرضها القرآن عن الماء وما يحمله من زبد، والمعادن وما تحمله من شوائب، إنما المقصود بها التقريب لحقيقة أكبر وأعمق، ألا وهي الصراع المديد والطويل بين الحق والباطل، فشبه الحق بالماء والمعادن النفيسة النافعة للناس، وشبه الباطل بالزبد والشوائب التي تطفو وتطغى، ثم تذهب كأن لم تكن.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ عام في كل صلة مطلوبة، ومنها صلة الرحم.

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بحسب مقتضى الحال، وقد تكون العلانية أفضل من السر في بعض الحالات إذا سلّمت النوايا؛ إذ بعض المشاريع تحتاج إلى من يُبادر ويكون المثل والقُدوة.

﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون الإساءة بالإحسان؛ لحلمهم ولطف أخلاقهم.

﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ مفسرة بما بعدها ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾ والعُقْبَى: العاقبة التي ليس بعدها شيء، وعدن: إقامة ومستقر.

﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ يعرف المرء أبويه أولاً فهما أصله، ثم يعرف زوجه وهي شريكة حياته، ثم يعرف ذريته وهم فروعه، ومن تمام نعمة الله عليه أن يجمع له هؤلاء جميعاً معه في الجنة، اللهم فلا تحرم مؤمناً من ذلك.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ إعلاء من شأن الصبر؛ الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على نكد الحياة ومشاق الدعوة.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فرحاً يُنسيهم الآخرة ويبعدهم عنها، أما المؤمن فهو يفرح بنعيم الدنيا، ويشكر الله عليها، ويستعملها في طاعته.

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ إنما يعنون الخوارق الحسية، وإلا فالقرآن يكفيهم لو صدقوا مع أنفسهم.

﴿طُوبَى لِهَؤُلَاءِ﴾ طيب العيش.

﴿وَرِإَيْتِهِ مَتَابٍ﴾ توبتي وإنابتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ لو كان هناك كتاب يحوّل الجبال من مكانها، إشارة إلى لجاجة قريش وطلبهم من الرسول ﷺ أن يُزيح عنهم جبال مكة.

﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي: شُقَّت فيها الأنهار، وهو مطلب ثانٍ لهم.

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أي: أُحْيِيَ به الموتى، وهذا مطلبهم الثالث، وجواب (لو) مفهوم من السياق، أي: لكان هذا القرآن، بمعنى: أن الرسول حامل رسالة، ومهمة الرسالة الهداية وليس إزاحة الجبال، وشقّ الأنهار، وإحياء الموتى، ولو كانت رسالة تفعل مثل هذا لكان القرآن؛ لأنه أفضل الرسالات وأشملها وأكملها.

﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِسْ﴾ أي: أفلم يتيقنوا ويقطعوا شكهم.

﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ سنّة الله أن يُمهّل أهل الباطل ويمدّهم بما يشاؤون من قوة ومتاع، ثم يأخذهم في الوقت الذي يُقدّره سبحانه.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٣﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَتَبَ بِفِرْحَتِهِ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْرَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَهُ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٥﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٧﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٣٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٠﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤١﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٢﴾ ﴾

خاتمة وتذكير بالحقائق الكبرى

اختتمت السورة ببيان الحقائق المتعلقة بهذا الصراع الطويل بين جبهة الحق وجبهة الباطل على اختلاف الزمان والمكان ومن أهمها:

أولاً: أن النظر الصحيح الموصل إلى العلم لا يمكن إلا أن يقود إلى التوحيد، بخلاف الشرك الذي يدحضه المنطق والفطرة السليمة ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ ﴾.

ثانياً: أن المشركين إنما يتبعون الهوى والمكر والخذاع ﴿ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾، ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾، ﴿ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ فأصل الشرك هوى، يدفع إليه الكبر والحسد

والخوف من فوات المصالح العاجلة، ثم يأتي المكر وتزيين الباطل لكسب الرعاع والاتباع.
 ثالثاً: أن المؤمنين يفرحون بالوحي مع ما فيه من أمانة ثقيلة وتكليف؛ لأنه طريق السعادة
 في دنياهم وأخراتهم، أما أحزاب الباطل فلا يقبلون منه إلا ما جاء على وفق ما يشتهون
 ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾.

رابعاً: أن الأنبياء ﷺ بشر، ومحكومون بالناموس الذي يحكم البشر جميعاً، فهم يحتاجون
 إلى الطعام والشراب والنكاح، ولا يملكون القدرات الخارقة إلا ما يُجْريه الله على أيديهم
 ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتٍ إِلَّا بِإِذْنِ
 اللَّهِ﴾.

خامساً: أن وظيفة الرسول البلاغ، وأما الحساب فله وحده، فهو الذي يحاسب عباده
 ثواباً، أو عقاباً، أو عفواً ومغفرة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

دقائق التفسير

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾ بالخلق والتدبير والإحاطة، وجواب السؤال مفهوم من
 السياق، أي: كمن هو ليس كذلك من أصنامكم التي لا تخلق ولا تدبر ولا تعلم شيئاً؟
 ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: اذكروا لنا آلهتكم هذه لنرى إن كان منها ما يقدر على الخلق والتدبير!
 وفي الخطاب تعجيز وتهكم لا يخفى.

﴿أَمْ يَظَاهِرُونَ الْقَوْلَ﴾ كلام فارغ بلا حقيقة ولا بينة.

﴿عُفِيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عاقبتهم ومصيرهم.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ظاهر في الثلة التي أسلمت من أهل

الكتاب.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ إشارة إلى أثر التعصب الحزبي في المعاندة ولو كانت على الباطل.

﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حكم إلهي جاء بلغة العرب، كما قال في سورة إبراهيم التالية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ من الأشياء والأحكام وكل ما يتعلق بهذا الخلق، فالكون كله محكوم بإرادة الله وقدرته، أما علم الله فهو الثابت الذي لا يتغير ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أصل الكتاب الذي قدر فيه المقادير على وفق علمه سبحانه الأزلي الأبدي، فطرُّ العلم بالنسبة لله محال، وكل ما يحصل في هذا الكون من تعاقب النبين بالشرائع المختلفة، أو تعاقب الحوادث، وتغير الأحوال فإنها هو محكوم بعلم الله الشامل الذي لا يغيب عنه شيء.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب.

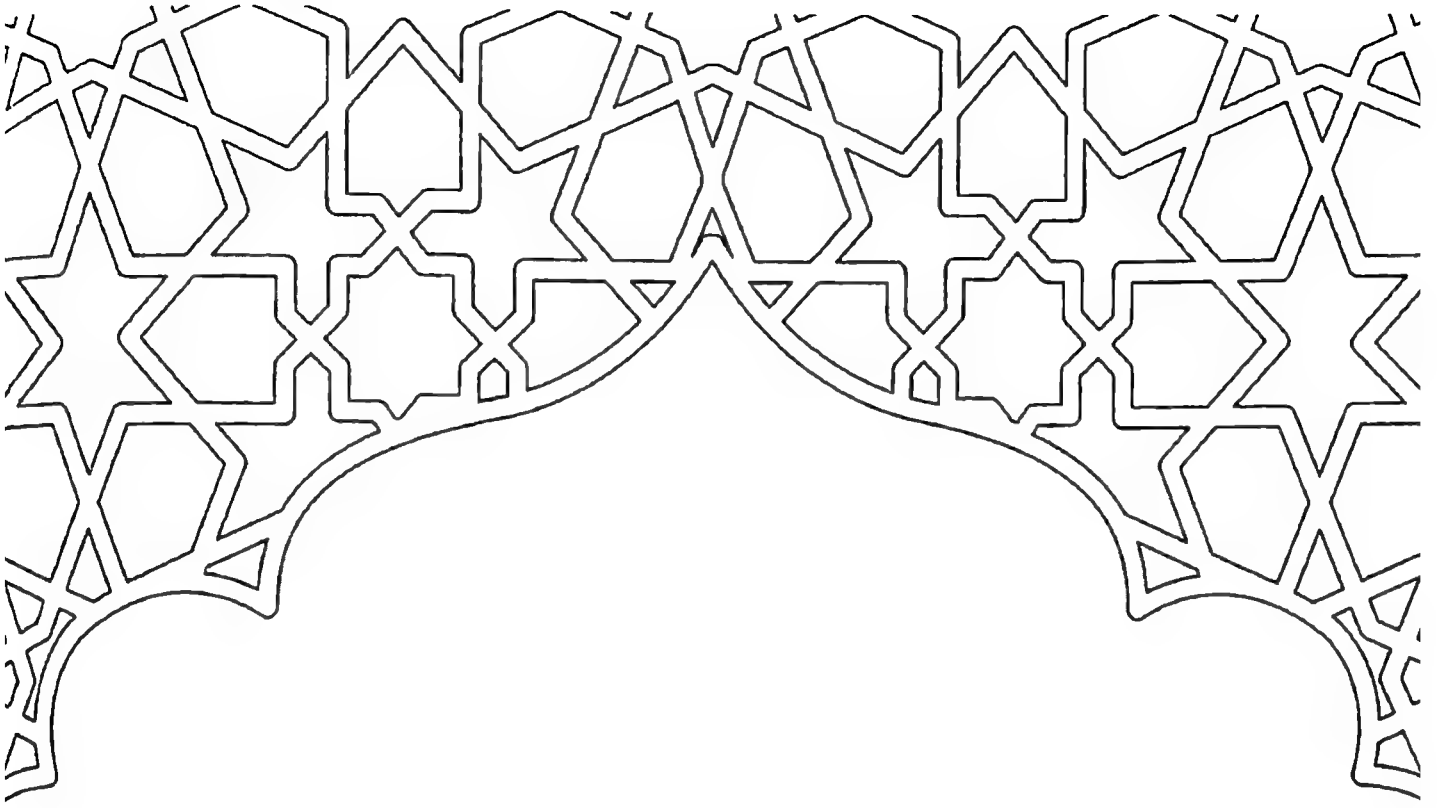
﴿أَوْ نَوَفِّئَنَّكَ﴾ قبل ذلك.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ إنذار للمشركين بأن كل سلطان آيل إلى النقصان ثم الزوال، وهذه سنة من سنن الله.

والمقصود بالأرض هنا: الدولة والسلطان الذي يقوم على أرض محددة، ثم تتآكل هذه الدولة وينكمش ذلك السلطان، وهذا أمر مُشاهد ومعلوم في كل أمم الأرض، وقرينة هذا التفسير قوله: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ سبحانه.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ لأن الله يعلم حقيقة مكرهم ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وسيجازيهم عليه بما يناسبه من الجزاء، فكأنهم لم يمكروا إلا بأنفسهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هم علماء أهل الكتاب الذين شهدوا لرسول الله ﷺ بحسب ما يعلمونه من أوصافه في كتبهم، والله أعلم.



سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

المجلس الخامس بعد المائة: ومضات من سيرة النبيين ﷺ مع أقوامهم

المجلس السادس بعد المائة: توجيهات إيمانية وتربوية

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَبِئْسَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَرَبُّهُمْ عَاجِبًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَجُبُكُمْ لِمَنْ شَكَّرْتُمْ لَا زَيْدٌ لَّكُمْ وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ ۚ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۚ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۚ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ۚ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ ۚ إِنَّكُمْ مِنْ دُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ عِبَادَتُ آبَائِنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنْصَبِرَ عَلَىٰ مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝١٣﴾ وَلَنَسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَنُفِئَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَفِّغُهُ ۚ وَيَأْتِيهِ الْعَمَلُ مِنْ كُلِّ مُكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَسْمُومٍ ۚ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۚ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَافُ الْبَعِيدُ ۝١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ۚ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ وَقَالَ السُّبُلُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۚ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۚ فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ۚ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحِبُّونَ فِيهَا سَلَامٌ ۝٢٣﴾

ومضات من سيرة النبيين ﷺ مع اقوامهم

أولاً: تستهل هذه السورة المباركة ببيان رسالة القرآن ومهمته الكبرى في هذه الحياة ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا الصراط هو الصراط المستقيم الذي أكدته سورة الفاتحة؛ صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، وأن رسالة القرآن هذه قد جاءت باللغة البينة التي يفهمها الناس ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وهذا من تمام الحجة عليهم.

ثانياً: ثنى القرآن بالتذكير بقصة موسى ﷺ مع قومه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ هذه إذن رسالة التوراة، وهي نفسها رسالة القرآن؛ إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وكان من بواكير هذا التحول المبارك: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ عَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، ثم رغبهم وأنذرهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجَّتُمْ لِيَنَّ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَنَّ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

ثالثاً: ثلث القرآن بذكر موقف مشترك لعدد من الأنبياء السابقين ممن واجهوا صدود أقوامهم وتكذيبهم لما جاءوا به ﴿الَّذِي يَأْتِيَكُمْ بُرْهَانٌ مِنَ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ تُوجُّ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾. وهنا يقوم الأنبياء بسببهم في محاوره هؤلاء وكشف شبهاتهم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٠﴾، وحينما تقول لهم أقوامهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يُجِيبُهُمْ أَنْبِيَآؤُهُمْ: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فنحن وإياكم في البشرية سواء، فلسنا من طينة أخرى، ولا من كوكبٍ آخر!

وهذا الجواب من شأنه أن يخفف من حدة العداوة والحسد، لكن المشركين اختاروا طريق العنف والتهديد ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وكان الرد الحاسم: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

وهكذا يعرض القرآن للتجربة المحمدية في الدعوة ومقاومة الشرك والوثنية بين تجربتين مختلفتين؛ تجربة موسى الذي استجاب له قومه، فنجاهم الله من فرعون وملئه، وتجربة نوح وهودٍ وصالح ونحوهم ممن تنكرت لهم أقوامهم بالعناد والمكابرة والإيذاء، فكان عاقبتهم الهلاك، وفي هذا تنبيهٌ لقريش وباقي الناس الذين تصلهم هذه الدعوة المباركة.

رابعًا: في الحِتام يُذكر القرآن بالنتيجة الحتمية التي تنتظر الجميع، إنها الوعد الحق الذي لا مفرٍّ منه، والذي سيتلقت فيه المكذبون إلى ما كانوا يملكونه من مالٍ وجاهٍ وقوةٍ وسلطان فلا يجدون سوى السراب والضياح ﴿أَعْمَلْتُمْ كُرْمًا شَدَدَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ ذلك هو الضلل البعيد ﴿ثُمَّ يَكُونُ التَّلَاوُمُ وَالتَّنَدُّمُ وَالتَّحَسُّرُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴿وَاسْتَكْمَلُوا لِهَذَا الْمَشْهَدِ الْبَيْسَ يَنْبِرِي الشَّيْطَانُ فَيَزِيدُهُمْ حَسْرَةً وَنَدَامَةً وَمَلَامَةً﴾ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿.

وفي مقابل هؤلاء البائسين يقف أولئك الأبرار الذين تحملوا مسؤوليتهم في هذه الحياة، وعرفوا وظيفتهم وغاية خلقهم ﴿وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

﴿لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ عام في كل الظلمات؛ ظلمات الأفكار، والثقافات، والسياسات المؤدية إلى الكفر، والظلم، ونكد الحياة.

﴿إِلَى النُّورِ﴾ الرحمة الشاملة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ ينسون الآخرة ويخالفون الطريق المستقيم؛ تغليباً لمصالحهم وشهواتهم الدنيوية القاصرة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ يرد هنا سؤال: إذا كان محمد ﷺ مبعوثاً لكل العالمين وليس للعرب خاصة، فلماذا جاء بلسان العرب فقط؟

والجواب: نعم، رسالة الإسلام رسالة عالمية، هذا لا ريب فيه، لكنه ﷺ بُعث في مكة، فكان عليه أن يُخاطَبَ مَنْ حوله بلسانهم، حتى إذا اشتدَّت الدعوة بهم وأقبل الناس إليها من كل صوب، كان نُقلها إلى الأقوام الأخرى أيسر وأسهل، وهذا الذي حصل، أما أن يكون هناك لسان عالمي واحد فهذا مُتَعَذِّر.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ بقوله وعمله وسيرته العطرة، وهذا كله من البيان، وقد ثبَّت حجَّته بهذه الآية وغيرها.

﴿وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ سنن الله الماضية وما أصاب الأقوام السابقين.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ يتركوهن أحياء، وهذه لوحدها قد تكون نعمة لولا اقترانها بذبح الأبناء، فيكون إبقاؤهن على قيد الحياة لإذلالهن واسترقاقهن.

﴿وَإِذَا تَأَذَّتْ﴾ من الأذان، وهو الإعلام والإبلاغ المعلن.

﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للثناء والحمد.

﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: وضعوا أكفَّهم على أفواههم كأنهم يكتُمون

ضججتهم، وهي صورة معروفة للتهكُّم والاستهزاء.

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأن دلالة الخلق على الخالق كدلالة الأثر على المؤثر، والنتيجة على السبب، دلالة عقلية بديهية لا تحتل الشك والخلاف، وفاطر السموات والأرض يعني: مُوجدها من العدم على غير مثالٍ سبق.

﴿وَلَنْتُكَنَّكُمْ الْأَرْضَ﴾ المعهودة وهي التي هددوا بالإخراج منها.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ سألوا الله الفتح، وهو هنا النصر.

﴿مَاءٍ صَكِيدٍ﴾ القَيْح الخارج من القروح والجروح.

﴿يَتَجَرَّعُهُ، وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ يقترب منه قسراً واضطراً فيكره شربه ولا

يستسيغه.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ تأتيه أسباب الموت فلا يموت.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بصعب أو ممتنع، بل هو سهل ويسير.

﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ الله لم يهديهم؛ لأنهم هم الذين لم يطلبوا الهداية، فكان

مثلهم كالأحمق الذي لا يمدُّ يده إلى الدواء القريب منه، ثم يقول: الله لم يشفني، فكان الحق أن يلوموا أنفسهم ولا يتذرعوا بأقدار الله.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فيه دليل على أن الشيطان لا

يملك إلا الوسوسة وتزيين الباطل، أما ما يتوهمه بعض الناس من قدرات خارقة للشيطان، وأنه يتحكم في عقل الإنسان أو جسده، فهذا كله مردود بهذه الآية، وبقوله تعالى أيضاً:

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتَ بِمُصْرِخِي﴾ ما أنا بمُغِيثكم وما أنتم بمُغِيثي.

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ

﴿ اَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي اُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِاِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الْاَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ (٢٥) وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْاَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا بِالْقَوْلِ الَّذِيْ اُنْزِلَ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَفِي الْاٰخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّٰهُ الظّٰلِمِيْنَ (٢٧) يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تَتَّبِعُوْا اَمْرَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ اِلَى الْكُفْرِ وَآخَلُوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْاَقْرَارَ (٢٩) وَجَعَلُوْا لِلّٰهِ اُنْدَادًا لِّيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيْلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوْا فَاِنَّ مَصِيْرَكُمْ اِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا يُقِيْمُوا الصَّلٰوةَ وَيُنْفِقُوْا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ اَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيْهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللّٰهُ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَاَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَاَخْرَجَ بِهٖ مِنَ الشَّجَرِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِاَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْاَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَءَاْتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوْهُ وَاِنْ تَعْدُوْا نِعْمَتَ اللّٰهِ لَا تُحْصَوْهَا اِنَّ الْاِنْسَانَ لَظَلُوْمٌ كَفَّارٌ (٣٤) وَاِذْ قَالَ اِبْرٰهِيْمُ رَبِّ اجْعَلْ هٰذَا الْبَلَدَ اٰمِنًا وَاَجْنُبْنِيْ وَبَنِيَّ اَنْ نَّعْبُدَ الْاَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ اِنَّهُمْ اَضَلُّنَّ كَثِيْرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَّعْنِيْ فَاِنَّهٗ مِنِّيْ وَمَنْ عَصَانِيْ فَاِنَّكَ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ (٣٦) رَبَّنَا اِنِّىْ اَسْكَنْتُ مِنْ دُوْرَتِيْ بُوَادٍ غَيْرِ ذٰى ذَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيْمُوا الصَّلٰوةَ فَاجْعَلْ اَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوٰى اِلَيْهِمْ وَاَرْزُقْهُمْ مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُوْنَ (٣٧) رَبَّنَا اِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِيْ وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يُخْفِيْ عَلَى اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْاَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ اِسْمَاعِيْلَ وَاِسْحٰقَ اِنَّ رَبِّيْ لَسَمِيْعُ الدُّعَا (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِيْ مُقِيْمَ الصَّلٰوةِ وَمِنْ دُوْرَتِيْ رَبَّنَا وَقَبَّلْ دُعَا (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِيْ وَلِلْمُؤْمِنِيْنَ يَوْمَ يَقُوْمُ الْحِسَابُ (٤١) وَلَا تَحْسَبَنَّ اللّٰهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظّٰلِمُوْنَ اِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيْهِ الْاَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِيْنَ مُقْنِيْنَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ اِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَاَفْعِدْتُهُمْ هَوًى (٤٣) وَاَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُوْلُ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا رَبَّنَا اَخْرَنَا اِلَىْ اَجَلٍ قَرِيْبٍ نَّحِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ اَوَلَمْ تَكُوْنُوْا اَفْسَحْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسٰكِنِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا اَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْاَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللّٰهِ مَكْرُهُمْ وَلَئِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزُوْلًا مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللّٰهُ مُخْلَفًا وَعِدِهٖ رُسُلُهٗ اِنَّ اللّٰهَ عَزِيْزٌ ذُوْ اَنْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ يُبَدِّلُ الْاَرْضَ غَيْرَ الْاَرْضِ وَالسَّمٰوٰتِ وَيَبْرَزُوْا اِلَى الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرٰى الْمُجْرِمِيْنَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِيْنَ فِي الْاَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِلُهُمْ مِنْ فِلَازٍ وَتَمَنّٰى وُجُوْهُهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ اِنَّ اللّٰهَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ (٥١) هٰذَا بَلٰغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوْا بِهٖ وَلِيَعْلَمُوْا اَنَّمَا هُوَ اِلٰهٌ وَحِيْدٌ وَلِيَذَّكَّرُوْا اَلَّا يُشْرِكُوْا (٥٢) ﴿

توجيهات إيمانية وتربوية

بعد هذه الومضات السريعة من قصص النبيين واختلاف الناس عليهم بين مصدق ومكذب وما كتبه الله لهؤلاء وهؤلاء من نتائج محتومة ومحكومة بسنن الله العادلة، تأتي هذه التوجيهات الكريمة والودودة لهذه الأمة، وكأنها خلاصة لما ينبغي أن تستفيده من دروس وعبر من تلك التجارب الماضية:

أولاً: الكلمة الطيبة النابعة من القلوب الطيبة، والتي يتقبلها الله عنده، ويعمُّ خيرها وينتشر بين الناس، هي كلمة الإيثار والإحسان، وكلمة الحق والصدق ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

وهذا التشبيه الجميل مدعاة لكل عاقل أن يطيب كلامه، وأول الكلام الطيب كلمة (لا إله إلا الله)، والتي يقرُّ فيها هذا المخلوق بفضل خالقه عليه، وتعهد له بالشكر والطاعة، وأداء الحقوق.

وفي مقابل هذا التوجيه يأتي التحذير من الكلمة الخبيثة، التي لا تنبعث إلا من قلب خبيث لا يقرُّ بالحق لأحد، ولا يرى في هذا الكون إلا نفسه وشهوته ومصالحته العاجلة، فيكفر بحق الله، ويكفر بحق الناس ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

ثم وعد الله عباده المؤمنين أن يثبتهم على الحق ويذكّرهم بكلمة الحق التي يتشوقون إليها، خاصة في مرحلة الانتقال من هذه الدار إلى تلك الدار ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بخلاف أولئك الذين ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾.

ثانياً: بعد الكلام الطيب يأتي العمل الطيب ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، مع التذكير أن هذا الإنفاق إنما هو مما سخره الله لهذا

الإنسان ويسره له ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَرَ ﴿، وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾.

فحريٌّ بالعاقل أن ينسب هذه النعمة إلى مصدرها، وأن يكون شاكرًا ووفيا للمُنعم الذي تفضل عليه بهذه النعم، وأن لا يستعملها بخلاف ما يُرضيه سبحانه.

ثالثًا: تقديم النموذج الأمثل للكلم الطيب والعمل الطيب، وهو هنا إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

والنموذج الإبراهيمي في هذه السورة يتسق تمامًا مع التوجيهين السابقين؛ فيبدأ بالقول الطيب إيمانًا وإحسانًا ومحبة للخير ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، ثم ثنى بالعمل الطيب ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾، ثم الشعور الدائم بالتقصير والحاجة إلى المغفرة ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

رابعًا: تثبيت قلوب المؤمنين ومدّهم بمقومات الثقة وهم يواجهون صولة الباطل وانتفاش ريشه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ثم يلتفت بالخطاب إلى هؤلاء الظالمين أنفسهم: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾، ثم يرجع بالخطاب إلى المؤمنين مؤكّدًا ومطمئنًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ شَبَّهَ الكلمة الطيبة بالنخلة الباسقة الثابتة في الأرض والدائمة العطاء، وهو تشبيه قريب من البيئة التي نزل فيها القرآن، ولا يمنع إطلاق المثل على كل شجرة فيها مثل هذه الصفات في أي بيئة أخرى.

﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ لأن التمر قابلٌ للادخار على مدار السنة، وهو قوت لا يكاد يخلو منه بيت في جزيرة العرب.

﴿كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ قيل: هي الحنظل لمرارتها، والظاهر أنها النباتات الطفيلية التي ليس لها جذور في الأرض ولكنها تستبك مع أغصان الأشجار الأخرى، وتطغى عليها، وتمصُّ ماءها وغذاءها، وهي ضعيفةٌ في نفسها لا تقوى على البقاء والاستغناء، وهي المثلُّ المناسبُ للباطل الذي يزهو ويتمدّد في المظاهر والسقوف الخاوية، ويؤدي بتمدّده الأشجار الطيبة لكنه إلى زوال.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ تثبت المؤمن بقول الحق في حياته الدنيا دون نفاق ولا تردّد مؤذّنٌ بحسن الخاتمة وحسن العاقبة، والقول الثابت يبدأ بكلمة التوحيد، ثم ما يُبنى عليها من عقائد وتصوّرات في عالمي الغيب والشهادة.

﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ كفروا بنعمة الله وجحدوها، وكان الأجدرُ بهم أن يشكروا الله ويُقرُّوا له سبحانه بالفضل والمنّة.

﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ الهلاك.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ الأمر هنا للتهديد، يقول لهم: تمتّعوا في هذه الدنيا كما تستهون فإن مصيركم النار.

﴿ خَلَّلْ ﴾ صداقة تنفع أو تقي من عذاب الله.

﴿ دَائِبِينَ ﴾ في حركة دائبة ومستمرة لا تنقطع، ومن هذه الحركة يتولّد الليل والنهار، وفي هذا إشارة علمية واضحة.

﴿ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ حاجات الإنسان كلها متوفّرة في هذه الدنيا، حتى قيل: حاجة الإنسان لشيء ما دليل على وجوده، وهذا ظاهر في المطعومات والمشروبات والملبوسات والأدوية والضوء والهواء وأسباب السكن والعمران والوقود مما لا يحصى، إضافة إلى الحاجات العقلية والمعنوية والعاطفية والاجتماعية وغيرها.

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ قدّم الأمن على الإيمان، إشارة إلى أن الاستقرار والسكينة والطمأنينة تُعينُ الناسَ على التفكير السليم الموصِل إلى الإيمان والمعارف الكونية الصحيحة، بخلاف حالة الفوضى والفتنة والاضطراب، والله أعلم.

﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي قلبٍ رحيمٍ تملكه يا إبراهيم؟ إنه يدعو لمن خالفه وعصاه في هذا الأمر العظيم بالمغفرة والرحمة!

﴿ فَأَجْعَلْ آفِيئَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ فكلُّ ما يجده المسلم في قلبه من حنينٍ إلى تلك البقاع، فإنها هو أثرُ هذه الدعوة الخالدة.

﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ تتوقّف بانجاءٍ واحدٍ لا تتحرّك أو تغمض من شدة الهول والترقب، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾.

﴿ مُتَهَلِّعِينَ ﴾ مُسرّعين.

﴿ مُتَنَبِّئِينَ رُؤُسِهِمْ ﴾ يرفعون رؤوسهم مترقبين، وهي الصورة المكملة لشخص الأَبصار.

﴿وَأَفِيدَتْهُمْ مَوَاءٌ﴾ قلوبهم خالية من السكينة والطمأنينة كما كانت خالية من الإيمان.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ عنها، أي: الدنيا، خطاب للمشركين الذين كانوا يُنكرون الحياة الآخرة، ويُقسمون أنهم ليس لهم انتقال وتحول عن هذه الدار.

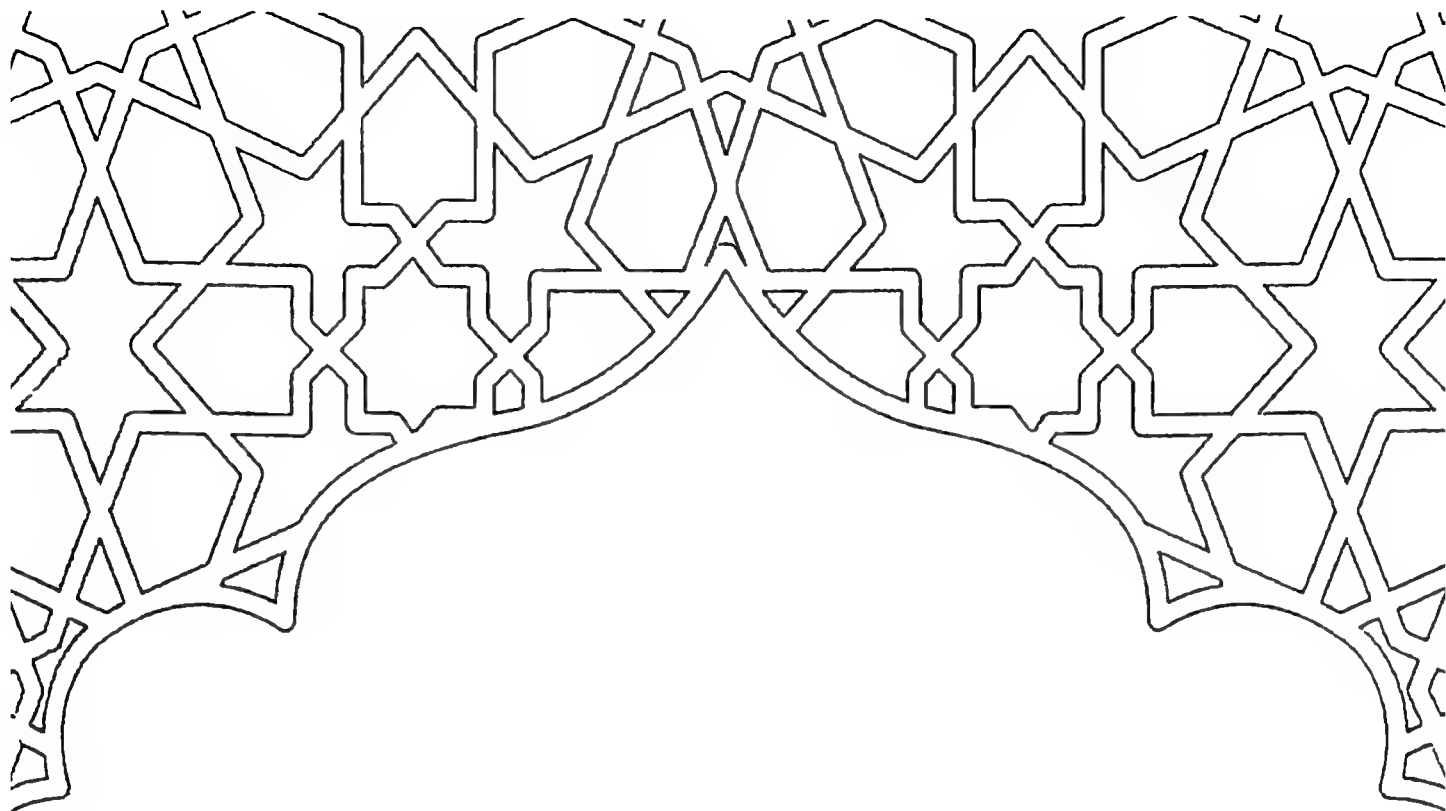
﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ من الأمم السابقة؛ كقوم هود، وقوم صالح، فقد حللتم في هذه الأرض التي كانوا يسكنونها قبلكم.

﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: محفوظ ومسجل ليُجازيهم عليه.

﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ مِنْهُ الْجِبَالِ﴾ أي: ما كان مكرهم ليُزيل الجبال عن أماكنها، وفيه إشارة إلى أنه مهما بلغ مكرهم فلن يضر هذا الدين الراسخ رسوخ الجبال.

﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ مقرونين ومقيدين بعضهم مع بعض.

﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قِطْرَانٍ﴾ طلاء أسود كريحه الرائحة، قابل للاشتعال.



سُورَةُ الْحَجُّرِ

المجلس السابع بعد المائة: معركة القرآن مع المُكذِّبين

المجلس الثامن بعد المائة: معركة الإنسان مع الشيطان

المجلس التاسع بعد المائة: عاقبة الصراع

المجلس العاشر بعد المائة: توجيهات ختامية

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ (١) رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ (٢) ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝ (٤) مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ۝ (٥) وَقَالُوا بِنَاتِنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ (٦) لَوْ مَا نَاتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ (٧) مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ ۝ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ۝ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ (١١) كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۝ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝ (١٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْصُرُنَا بَلْ نَحْنُ مَسْحُورُونَ ۝ (١٥) وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ۝ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝ (١٧) إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ فَنُفِثَ فِيهَا شِهَابٌ مُبِينٌ ۝ (١٨) وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيًّا وَانْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُورِزِينَ ۝ (١٩) وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِئَةٍ مَعِيْشَ وَمَنْ أَسْمَلُ لَهُ يُرْزَقِينَ ۝ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَا تَزْلُنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَكُمْوهُ وَمَا أَنْشَرْنَاهُ بِحَزَنِينَ ۝ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ۝ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ (٢٥)﴾

معركة القرآن مع الكذابين

في معركته مع المُكذِّبين يبدأ القرآن بتقرير المقدمات والحقائق التي تكشف طبيعة هذه

المعركة ودوافعها ومآلاتها:

أولاً: إن القرآن يُحقِّق مصلحة الإنسان، وأن المُكذِّبين سيكتشفون هذه الحقيقة بأنفسهم

وسيدعون لها، وسيتمنون لو أنهم قد استجابوا لها ﴿رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا

مُسْلِمِينَ﴾.

ثانياً: إن التكذيب لم يصدر عن رأي وفكرٍ وشعورٍ بالمسؤولية، وإنما جاء عناداً وحسداً

ومكابرة ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۝ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝ (١٣)﴾

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٢﴾

ثالثًا: إن طبع المكذِّبين هؤلاء الاستهزاء والشتيمة، والتناؤز بالألقاب الوضيعة ﴿١٢﴾ وقالوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٣﴾، ﴿١٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٥﴾. رابعًا: إن هذا القرآن تعهَّد الله بحفظه، فلا تعترضه زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل ﴿١٦﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٧﴾ وهذا الواقع الذي لا يقبل الريب، فبعد أربعة عشر قرنًا من الزمان بما احتوته من فتن وملاحم، وصعود وهبوط، بقي القرآن كما هو يتلوه ابنُ المشرق كما يتلوه ابنُ المغرب بسوره وآياته وحروفه.

خامسًا: إن الله سبحانه هو الذي بيده مقادير هذا الكون، وليس من حركة ولا سكونه إلا بعلمه سبحانه ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٢﴾

دقائق التفسير

﴿٢٣﴾ زُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢٤﴾ ذلك يوم الندامة، وربما وإن كانت تفيد التقليل إلا أنها هنا جاءت للتهكُّم والتهديد، كقول الملك لواحدٍ من رعيته محذِّراً ومهدِّداً: ربما ستندم إذا فعلت كذا وكذا، وهو أسلوب معروف.

﴿٢٥﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا ﴿٢٦﴾ أسلوب طلب مثل هلاً.

﴿٢٧﴾ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٢٨﴾ جوابٌ لشرطٍ مُّقْدَرٍ معناه: لو أنزلنا عليهم الملائكة كما طلبوا لما تأخر عنهم العذاب.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ندخل الكفر في قلوبهم بسبب جرائمهم على وفق سنن الله أن من يطلب الإيمان آمن، ومن يطلب الكفر كفر؛ ولذلك عقب بذكر السنن ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾.

﴿بُرُوجًا﴾ المنازل التي تدور فيها الأفلاك.

﴿وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ فالذين تُطعمونهم إنما تُطعمونهم من رزق الله وما خلق من الطيبات، فالرازق الحق إنما هو الله.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ من جملة وظيفة الرياح في هذه الأرض أنها تجمع الغيوم بعضها على بعض حتى تتراكم فينزل المطر، وتجمع ذرات النباتات فحُوها بإنائها حتى يتكوّن الثمر. ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون بعد هلاك الخلائق.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ فلا يغيب عن علمه سبحانه حال الأولين ولا حال الآخرين، فالماضي والحاضر والمستقبل كلها عند الله سواء.

سُورَةُ الْحَجَرِ

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَبْنَطُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَغُيُوبٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْرَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

معركة الإنسان مع الشيطان

تناول هذا المقطع قصة الخلق الأولى؛ خلق الإنسان، وهي القصة التي تكررت في القرآن كثيراً، وهنا يعرضها القرآن مؤكداً طبيعة الصراع الأزلي بين الخير والشر وضمن المفاهيم والمعاني الآتية:

أولاً: أن طبيعة الإنسان طبيعة مختلفة عن المخلوقين الآخرين؛ الجن والملائكة، وإن اجتمعوا في صفة العقل، ومؤهلات التكليف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ والآيات تؤكد أيضاً أن خلق الإنسان متأخر من حيث الزمن عن نظيريه.

ثانياً: أن الله أمر الملائكة ومعهم إبليس - وكان من الجن - بالسجود لآدم، فسجدت

الملائكة ورفض إبليس، فطبيعة خلقه قابلة للزلل والوقوع في المعصية بخلاف الملائكة.

ثالثًا: أن رفض السجود لم يكن في الحقيقة إلا مظهرًا لمعصية خفية، وهي التكبر المزوج بالحسد ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وهذا درسٌ بليغٌ لبني آدم ليحذروا الآثام الباطنة التي هي أخطر من الآثام الظاهرة.

رابعًا: أن تزيين الباطل هو الأسلوب الذي انتهجه الشيطان لإغواء بني آدم ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

خامسًا: أن الإنسان كلما اقترب من عبادة الله ابتعد عن تأثير وساوس الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

سادسًا: أن نتيجة هذا الصراع ستقسم الناس إلى فريقين: فريق الغاوين ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ٤٢ وإن جهنم لم وعدهم أجمعين ﴿، وفريق المتقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ٤٥ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾.

سابعًا: أن باب التوبة والمغفرة مفتوح لهذا الإنسان المعرض بحكم طبيعة خلقه للنسيان والغفلة والشطط ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ المادة التي صنع منها جسد آدم ﷺ، وهي الطين اليابس الناعم، أو الأملس الصقيل.

﴿مِنْ رُّوحِي﴾ الروح التي خلقها الله، والإضافة هنا للتشريف، كما نقول: بيت الله، وسما الله.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ نسب الغواية إلى خالقه سبحانه، وهذا من سوء أدبه، وهو نوعٌ

من الاحتجاج القدرى الباطل، فالقدر لا يظلم أحداً، وإنما هو سنن الله الماضية بعلمه وعدله وحكمته، والمخلوق هو من يختار الهداية أو الضلالة فيهتدي أو يضلُّ، وحاشا لله أن يُكرِه أحداً على شيءٍ ثم يعاقبه عليه.

وقد ردَّ إبليس على نفسه حينما قال بعد هذا: ﴿وَلَاغْوِيَنَّهُمْ﴾ فنسب القدرة على الإغواء لنفسه، وهذا هو ديدنُ أهل الباطل؛ فإنهم يُفَاحِرُونَ بقوَّتِهِمْ وسُلْطَانِهِمْ ويتعَالَوْنَ بهما على الضعفاء، فإذا تَغَيَّرَتِ الأحوال ووقَّعُوا في المَلَامَةِ احتجُّوا بالقَدَر، وقالوا: لو شاء الله ما فعلنا ذلك!

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ﴾ ردَّ الله تعالى على إبليس أن جميع الخلق محكومون بنظام واحد، ويُجَاسَبُونَ بميزانٍ واحدٍ، وهو مُقتَضَى الصراط المستقيم الذي اختاره الله معياراً لسلوك المكلفين، وفيصلاً للتمايز فيما بينهم.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ تأكيد مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وأن الله لم يسلب حقَّ الاختيار من عباده المكلفين، ولم يسلِّط عليهم من ينزع عنهم هذا الحقَّ، فالإنسان هو من يختارُ الخضوعَ لله، أو الخضوعَ للشيطان.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ إتمام لنعمة الله عليهم، وفيه أن الاختلاف من طبع البشر حتى الصالحين منهم، وقد يُجَرُّ هذا الاختلاف شيئاً من العداوة والبغضاء، لكن العبرة بغلبة الطاعات، فإذا دخلوا الجنة تكفلَّ الله بنزع ما يُعَكِّرُ صفوَ الوداد فيما بينهم، وفيه ترغيبٌ خفيٌّ للتغافر، فالمؤمنون الذين يرجون الجنة، عليهم أن يعلموا أن الجنة ليس فيها شحناء ولا بغضاء، فليبادِرُوا بتطهير قلوبهم من هذه الكدورات قبل مواجهتها هناك على باب الجنة!

﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا أَمْرَانَهُ، قَدَرْنَا لَهَا لِلْعَنِيِّينَ ۝٦٠ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝٦٢ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝٦٤ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْبَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۝٦٥ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ۝٦٦ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُون ۝٦٨ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُون ۝٦٩ قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝٧١ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥ وَإِنَّا لِبَسِيلٍ مُّقِيمِينَ ۝٧٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ۝٧٨ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَلِأَنَّهُمَا لِيَأْمَارَ مُبِينٍ ۝٧٩ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِحِينَ ۝٨٣ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾

عاقبة الصراع

بعد أن عرض القرآن قصة الخلق الأولى، والصراع المبكر بين الإنسان والشیطان، بدأ القرآن بعرض الانقسام البشري وفق هذا الصراع ومن خلال النموذجين الآتیین:

النموذج الأول: الذين كانوا مع الله بیقین الإیمان وحسن التعلُّد واللجوء إلیه سبحانه، فكان الله معهم كما وعدهم، ومن صفوة هؤلاء: إبراهیم ؑ الذي عجل الله له البشارة في الدنيا ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿﴾، ومنهم: لوط ؑ ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ثم صالح ؑ الذي كذبه أصحاب الحجر ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهؤلاء جميعًا حلقات

مباركة من سلسلة النور في تاريخ هذه الإنسانية، أولئك الذين رفضوا طريق الشيطان، وقاوموه وحذروا منه.

النموذج الثاني: الذين اختاروا طريق الشيطان، واتبعوه في خطواته وانضوا تحت سلطانه، ومن هؤلاء: قوم لوط، وقوم شعيب، وقوم صالح: قوم لوط الذين كذبوه واتبعوا أمر الشيطان؛ فملاهم بكل منحرف من الفكر وشاذ من السلوك ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ لم يستثن الله من هؤلاء حتى امرأة لوط ﴿إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَا﴾ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٧٥﴾ في تأكيد مطلق على العدل الإلهي الذي لا يحابي قريباً ولا نسياً.

وقوم شعيب هم أصحاب الأيكة ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (٧٨) فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٧٩﴾ وقوم صالح هم أصحاب الحجر الذين جاءت هذه السورة على اسمهم ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾. تجدر الإشارة هنا إلى توافق طريقة العذاب ووقته بين أصحاب لوط وأصحاب الحجر، فكلاهما هلك بالصيحة، وفي وقت الصبح، كما هلك قوم شعيب بالصيحة أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤].

دقائق التفسير

﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ لأنه قدّم لهم الطعام فلم تصل إليه أيديهم، ولم يكن يدري أنهم ملائكة، ونحوه قول لوط لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: لا يعرفهم، وفيه أن الأنبياء لا يعلمون الغيب إلا بتعليم الله لهم.

﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ بجانب من الليل، وهو وقت خروج لوطٍ ومن معه من قريتهم قبل نزول العذاب.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أن نهايتهم محسومة عند الصباح.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يعرض عليهم بناته للزواج، وليس في العرض تنازُل عن شرائط الزواج، وذكر بناته تمثيلاً، وإلا فالمقصود بنات القرية أو المدينة؛ لأنه من المقطوع أن عدد بناته لا يكفي لعدد هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقد تقدّم تفصيل ذلك.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ قسمٌ بحياة نبيِّنا محمد ﷺ، وهذا غاية التشريف.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتخبّطون تخبُّط الأعمى.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ دلائل وعبر للمتأملين.

﴿وَلِإِنَّا لَنَسْبِلَ مُقِيمٍ﴾ قرى قوم لوطٍ لا زالت آثارها شاخِصة على الطريق الذي يسلكه الناس صباحاً ومساءً.

﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب ؑ.

﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ ثمود قوم صالح ؑ.

﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وأصحاب الحجر إنما كذبوا صالحاً، وهنا إشارة إلى أن تكذيب النبيّ الواحد هو تكذيبٌ لكلّ النبيين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨٦ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ٨٧﴾ لَا تَتَدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ٨٨ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ٩٠ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٩٣﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ٩٤ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٩٦ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ٩٨ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٩٩﴾

توجيهات ختامية

حملت هذه السورة توجيهات ختامية مركزة لها صلة بحالة الصراع المستمر بين الحق والباطل، والتي شكلت الموضوع الأساس في السورة:

أولاً: التذكير بحكمة الله في هذا الخلق، وأنه ليس هناك مجال للعبث أو الفوضى ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا الحق مُتَضَمِّنٌ للجزاء كل بحسب ما يقدم ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ﴾، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

ثانياً: أن الذي خلق الخلق هو الذي أنزل القرآن، فلا يصلح هذا الخلق إلا بهذا القرآن ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ وأن هذا القرآن لا يقبل القسمة؛ فَمَنْ آمَنَ بِهِ آمَنَ بِهِ كُلُّهُ، وَمَنْ كَفَرَ بِهِ كَفَرَ بِهِ كُلُّهُ، أما ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ فما وافق هواهم أخذوه، وما خالفه نبذوه، فهو لاء ما كانوا مؤمنين.

ثالثاً: أن هذا الحق لا يسير لوحده بين الناس، بل لا بد من الدعوة إليه والجهار به ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

رابعًا: أن هذه الدعوة تحتاج إلى القلب الموصل بالله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وتحتاج أيضًا إلى الصبر والحلم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.

خامسًا: أن هذه الدعوة تحتاج أيضًا إلى التواضع والقناعة والرضا بما قسمه الله، والزهد بما في أيدي الناس ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ خُلِقَ من أخلاق الداعية، فما دام هو في مقام الدعوة فعليه أن يتحمل إساءات المدعويين، وأن يتسع صدره لهم لعله يكون سببًا في إنقاذهم.

﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ سبع آيات تتكرر في كل صلاة، وهي سورة الفاتحة، وخصَّها لبيان فضلها وعظيم شأنها.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تتطلَّع ولا تتمنَّ ما عند الآخرين من متاع، فنعمة القرآن لا تعدُّها نعمة، ولا يُدانيها متاع.

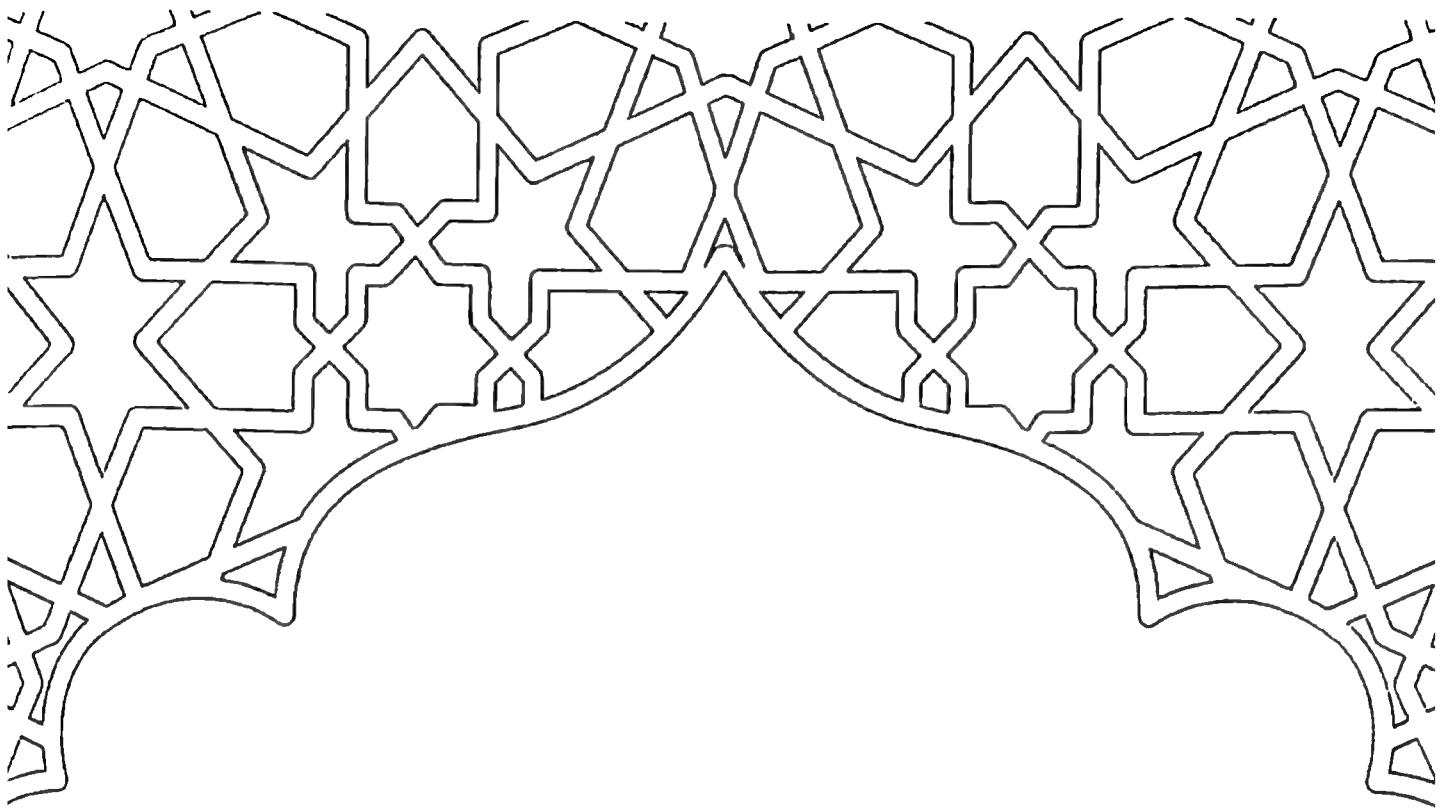
﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ الذين يحلفون على الباطل وأنهم لن يستجيبوا لدعوة الحق.

﴿عِضِينَ﴾ أجزاء مختلفة يتعاملون معها بحسب الهوى والمصلحة العاجلة.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ هؤلاء صنفٌ هانت عليهم عقولهم ونفوسهم فلا يفكرون بمنطق، ولا يعتبرون بعاقبة، لا يسألون ولا يجادلون، واختاروا طريق السخرية والاستهزاء

للتشويش على الدعوة؛ ولذلك تعهَّد الله بكفِّهم وإزالتهم عن الطريق؛ حتى يتمكن رسول الله ﷺ من إيصال دعوته للناس وإقامة الحجة عليهم.

وفيه إشارة أن الداعية عليه أن يتجنَّب هذا الصنف ولا ينشغل بهم.



سُورَةُ الْحَجِّ

المجلس الحادي عشر بعد المائة: دلائل التوحيد

المجلس الثاني عشر بعد المائة: عقيدة الجزاء

المجلس الثالث عشر بعد المائة: النبوة والرسالة

المجلس الرابع عشر بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس الخامس عشر بعد المائة: تتمة الحوار مع المشركين

المجلس السادس عشر بعد المائة: بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم

المجلس السابع عشر بعد المائة: تتمة بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿أَن أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ٤﴾ وَالْأَنفَعُ خَلْقُهَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تُنْزَوْنَ ٦﴾ وَتَعْمَلُ الْآفَالِكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ الْكَبِيرَ مُوَخَّرٍ فِيهِ وَلِتَلْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٤﴾ وَالْقَنَاقِيرَ فِي الْأَرْضِ رَواسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥﴾ وَعَلَمَنَّا بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِيبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾

دلائل التوحيد

تستهل السورة بإنذارٍ شديدٍ يقرع الأسماع ويخلع القلوب ﴿أَن أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ والغاية جذب انتباه الناس إلى الحقيقة الكبرى التي عليها مدار الدين ﴿أَن أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾، ثم تشرع السورة بالتقاط الدلائل المبثوثة في هذا الكون والتي لا يمكن إلا أن تكون قد انبثقت من تلكم الحقيقة:

أولاً: خَلَقَ الإنسان ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ وقد بدأ بخلق الإنسان؛ لأنه أعقل المخلوقات في هذا العالم المنظور عالم الشهادة، فإذا كان الإنسان لا يقوم بنفسه ويحتاج في وجوده إلى مُوجدٍ فسائر الموجودات من باب أولى، والإنسان مُقرٌّ بهذه الحقيقة؛ فلم يظهر من البشر من يدّعي أنه خلق نفسه، أو أن وجوده ليس مسبوقاً بالعدم، فضلاً عن أن يكون هو خالق السماوات والأرض.

وإقرار الإنسان بهذه الحقيقة يدفعه بالاضطرار لوجود خالقٍ أعلم منه وأقدر، وليس من بين عالم المحسوسات من هو كذلك، ولم يبق أمام الإنسان إذن إلا أن يهبط ليعبد من هو دونه؛ كالشجر والحجر، أو يسمو نحو العلوّ متجهاً بقلبه وعقله إلى العليم الخبير الذي تشهد له آياته في كلّ زاوية من زوايا هذا الخلق.

ثانياً: خلق الأنعام ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهي مسخرة لهذا الإنسان وهو لا يستغني عنها بحال، وإذا كان الإنسان لا يدّعي أنه هو الذي خلق لنفسه هذه الأنعام رغم حاجته إليها فلم يبق إلا اعترافه بوجود خالقٍ حكيم أوجد الإنسان وأوجد له مقومات وجوده قبل أن يوجد!

ثالثاً: خلق الماء ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ فالحياة كلها متوقفة على الماء، والماء قطعاً ليس من صنعة الإنسان، فالذي خلق الإنسان هو الذي خلق له الماء، وهو أعلم به وبحاجته منه.

رابعاً: خلق النبات ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فانظر لهذا النسق الوظيفي بين الماء والنبات والأنعام والإنسان! هذا النسق الذي لا يمكن أن تستوعبه الصدفة العمياء، إن التنسيق بين هذه المفردات ووزنها بالقدر الذي تؤدي فيه كلّ مفردة وظيفتها حتى تتكامل الحياة وتستمر لا بُدَّ أن يكون وراءه إرادةً عالمةً

وحكيمة، وعزو كل هذا إلى عشوائية الصدفة نوع من المكابرة أو الحماقة.

خامسًا: خلق الأفلاك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جانب آخر من النسق، جانب الفلك العلوي الذي يؤثر في حياة الناس من حيث الضوء والظلمة، والحرارة والبرودة، وأنواع الإشعاع والطاقة، وكل هذه يراها الإنسان ويستشعر أهميتها وضرورتها في حياته، وهو غير قادر على التحكم بها، بل تهبط عليه من عل، وهذه آية أخرى تشهد بوجود الخالق العظيم الذي أتقن كل شيء خلقه.

سادسًا: خلق البحار ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ﴾ بعد أن لفت القرآن نظر الإنسان إلى ذلك العالم العلوي، هبط به إلى أعماق البحر لينظر في آياته، فالبحر مخزنٌ للثروة بأنواعها المعروفة، وهو واسطةٌ للتنقل أيسر وأسرع مما هو على الأرض.

سابعًا: بعد هذه السياحة الكونية الواسعة، جاء القرآن ليخاطب هذا العقل خطابًا سريعًا ومباشرًا وكأنه يهزه من داخله ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ثم يلتفت إلى هذه الآلهة المزيفة ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكل هذه الأصنام والأوثان مهما اختلفت ألوانها وأشكالها لا يمكن أن تكون هي العلة في إنتاج هذا الكون وتصميمه على هذا النسق البديع.

ثامنًا: من الملاحظ هنا اهتمام القرآن بآيات الجمال والزينة، وهو ارتفاعٌ بمستوى الذوق والسلوك الإنساني في تعامله مع مفردات هذا الكون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحْنَ﴾، ﴿لِتَرْكَبُوهَا زِينَةً﴾، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

﴿أَنَّى أَمْرُ اللَّهِ﴾ عذابه الذي كان يستعجل به المشركون عنادًا وتحديًا، ولا يبعد أن يكون الساعة، وهي متضمنة المعنى الأول أيضًا، وقد كان المشركون يستعجلونها كذلك.
﴿خَصِيمٌ﴾ مجادل.

﴿دِفْءٌ﴾ ما يتخذه الناس من جلود الأنعام وأشعارها وأصوافها وأوبارها من ملابس وأخبية، ومساكن قابلة للنقل.

﴿حِينَ تَرْجُونَ﴾ وقت رجوعكم بها بعد الرعي إلى حيث المبيت والمأوى.

﴿وَحِينَ تَتَرَحُّونَ﴾ وقت الرعي.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وعلى الله بيان طريق الحق؛ رحمة بعباده، وليقيم به الحجة على من ضل وأنكر.

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي: من السبيل (جنس السبيل) سُبُلٌ وطرق مسدودة لا تصل إلى الله؛ لأنها ضالة عن طريق الحق، ولا يسلكها إلا الضالون؛ ولذلك عَقَبَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿تُسَيِّمُونَ﴾ ترعون أنعامكم.

﴿يُنَبِّتُ لَكُمْ﴾، وكذا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾، و﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾ ونحوها إشارات للدور الوظيفي لهذه المخلوقات، فكلُّها موجودةٌ لغايات محددة تُلبِّي حاجة الإنسان، وتسير بنسقٍ واحدٍ لخدمة الحياة واستمرارها.

﴿ذَرَأَ﴾ خلق.

﴿لَحْمًا مَلَرِيًّا﴾ السمك ونحوه من المأكولات البحرية، وقد جاء بصيغة المدح تنبيهاً لغيراته الصالحة.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ وضع الجبال للحفاظ على توازن الأرض وصيانتها من الاضطراب.

﴿وَعَلَّمَكُمُ﴾ معالم الطرق.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعرفون الاتجاهات إذا كانوا في الليل، أما في النهار فمن خلال حركة الشمس مشرقها ومغربها.

﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى: الحق الذي لا بُدَّ منه.

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٢٤٦﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُّونَ ٢٤٧﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنَّ اللَّهَ بَنَيْنَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ٢٤٨﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخَذِّبُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ شُرَكَاءِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَى الْيَوْمَ وَالسَّوَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ٢٤٩﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٥٠﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَوْجُودُ الْمُتَكَبِّرِينَ ٢٥١﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ٢٥٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ٢٥٣﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٥٤﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٢٥٥﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٢٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٢٥٧﴾

عقيدة الجزاء

بعد هذا الاستدلال المفصل لردِّ شبهة الشرك وإثبات عقيدة التوحيد، انتقل القرآن إلى بيان العقيدة المكملّة لعقيدة التوحيد وهي عقيدة الجزاء، وهي العقيدة الدافعة للالتزام بمقتضيات التوحيد؛ إذ التوحيد مسؤوليّة وليس فلسفة نظريّة لحل عقدة الخلق على طريقة الفلاسفة عند ربط العلة بالمعلول، دون الخوض في مسؤوليّة الإنسان تجاه هذا الاستنتاج.

ومن معاني عقيدة الجزاء التي تناولتها هذه الآيات:

أولاً: أن الإنسان يتحمّل مسؤوليّاته كاملة عن كلّ معتقّد مألٍ إليه، أو عملٍ قام به، وأن

الله لا يظلم في هذا أحداً ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٢٥٥﴾ فأصابهم

سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٧﴾

أما احتجاجهم بالقدر وسلب الإرادة منهم على طريقة الجبرية، فهو مردودٌ عليهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

ثانيًا: أن الناس وفق هذه العقيدة سينقسمون على قسمين: فريق الموحدين المحسنين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾، وفريق المشركين الظالمين ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

ثالثًا: أن الجزاء في الإسلام جزاء أخروي لا شك، وهو الناموس الذي لا يفلت منه أحد، أما في الدنيا فقد يعجل الله بهلاك قوم، وقد يؤخر آخرين، وقد يموت الظالم ظالمًا ويموت المظلوم مظلومًا.

ومن صور العذاب الدنيوي: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِجُهُمْ﴾، ومن صور الثواب الدنيوي: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾.

رابعًا: أن الإنسان كما يُحاسب على أعماله يُحاسب أيضًا على أعمال من يضلون بسببه ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وإذا كان هذا في ميزان الضلال والإضلال فهو كذلك في ميزان الهداية لازماً ومتعدياً، فداعية الخير يضاعف له بقدر ما انتشر خيره بين الناس، كما جاء في الحديث: «الدَّالُّ عَلَى

دقائق التفسير

﴿يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حجة ولا دليل.

﴿فَأَقَىٰ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ﴾ قصده بالخراب، وهو عامٌ في الأمم الهالكة، الذين استحقوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقد ذهب بعض المفسرين إلى تخصيصه في النمروذ أو غيره ولا دليل عليه.

﴿مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ من الأسس.

﴿تَشَقُّوتٌ فِيهِمْ﴾ تخاصمون فيهم وتدافعون عنهم.

﴿فَالْقَوَا أَلَمَ﴾ استسلموا وألقوا قيادهم.

﴿فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إشارة إلى أن التكبر أصل في الضلال والانحراف عن جادة الحق.

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ هم المؤمنون الذين يعتقدون أن الخير كل الخير في هذا الدين، فانشرحت له صدورهم ودانت له أركانهم، وعلى هذا يخشى على كل من تبرم من حكم شرعي قاطع أن يكون على خلاف هذه الآية وإن صام وصلى.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ما يجده المؤمن في هذه الدنيا من سكينَةٍ وتأيدٍ

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذي عن أنس، وقال: غريب، يُنظر: «جامع الترمذي» (٥/٤١) دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر، ورواه أحمد عن بُريدة، وصحَّح إسناده الشيخ شعيب الأرناؤوط، يُنظر: «مسند أحمد» (٥/٣٥٧) المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٢ هـ تصحيح محمد الزهري الغمراوي، وورد بلفظ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» رواه أبو داود عن أبي مسعود الأنصاري، يُنظر: «سنن أبي داود» (٤/٤٩٦) دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٧) دار البشائر الإسلامية، ط. ١٤٠٩ - ١٩٨٩ م، تح محمد فؤاد عبد الباقي) عنه أيضًا.

رباني، وألفة ومحبة بين إخوانه.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لمعنى العدل الإلهي ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

﴿أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم.

﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بقيام الساعة أو الهلاك الذي يعمهم كما كان في الأمم السابقة.

﴿فَأَصَابَهُمْ مَيِّتَاتٌ مَّا عَمِلُوا﴾ تأكيدٌ متكرر لمبدأ العدل الإلهي.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحَرَّضَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْتَوِفَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَنَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْفَى اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

النبوة والرسالة

بعد بيان عقيدة التوحيد ثم عقيدة الجزاء شرع القرآن في بيان الركن الثالث وهو الإيمان بالرسول وبيان أهميته وموقعه في منظومة الإيمان هذه:

أولاً: أن الله بعث في كل أمة رسولا؛ إذ الحجة لا تقوم إلا بالرسول الذي يبلغ الناس رسالة الله، ويبين لهم طريق الحق من طريق الضلال ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾.

ثانياً: أن الرسل من جنس البشر، ومحكومون بالناموس الذي يحكم الطبيعة البشرية، وإنما يمتازون بالوحي ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾.

ثالثاً: أن وظيفة الرسول تبليغ الرسالة وشرحها وتبيينها بالقول والعمل والقدوة الصالحة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

رابعًا: أن الرسول لا يتحكم بقلوب الناس ولا يملك هدايتهم، إذ الهداية بيد الله وحده، وهي جارية وفق سننه ونواميسه العادلة والحاكمة ﴿إِنْ تَحَرَّضْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

خامسًا: أن أساس الرسالة إنما هو توحيد الله ومحاربة الشرك بأصنافه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

سادسًا: أن الناس منقسمون في هذه الدعوة على فريقين ﴿فَعِثُّهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؛ فالأولون يستحقون ثواب الله وكرمه ﴿لَنُبَوِّثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وأما الآخرون فلهم العذاب ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿الطَّاغُوتُ﴾ كل معبود من دون الله.

﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ بسعيه لها وإصراره عليها.

﴿لُبِّينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في الآخرة؛ حيث سيبين الجميع من الذي كان على الحق ومن الذي كان على الباطل، وهذا التبيين لا ينفع المكذبين، بخلاف تبيين الرسل الذي كان في دار التكليف.

﴿لَنُبَوِّثَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ المكان الآمن الطيب وهو هنا مدينة الرسول ﷺ.

﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أهل الكتب المتقدمة؛ فهم يشهدون أن الرسل إنما كانوا رجالاً من جنس البشر، بمعنى أنهم لم يكونوا ملائكة كما يطلب المشركون.

﴿لَتُجِيبَنَّ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ﴾ بالسَّنةِ القَوْلِيَّةِ والفعلِيَّةِ وبسيرته العطرة ﷺ.

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في ذهابهم وإيابهم وترددهم في معاشهم وأماكن هوهم، بمعنى أنهم يكونون في حال أمنهم.

﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ بمعجزين الله، فهو القادر على إهلاكهم في الوقت الذي يشاء.

﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ وهم على حالة من الخوف وترقب العذاب، بخلاف الحالة الأولى.

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَيَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ، عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهِبُونَ ﴿٢١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَسْعُوا اللَّهَ تُعْزَفُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۖ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤْخِرُهم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخْرِجُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٣٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَعُوًّا وَلِلَّهِمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾﴾

حوار مع المشركين

بعد بيان العقيدة بأركانها الأساس: التوحيد، والمعاد، والنبوة؛ شرع القرآن بمحاورة

المشركين ودعوتهم لمراجعة موقفهم من هذه الدعوة المباركة:

أولاً: بدأ القرآن بالتذكير أن هذا الكون كله خاضعٌ لله بحكم ربوبيته تعالى المطلقة،

ويشهد لهذا النظام الموحد الذي ينتظم مفردات هذا الكون كلها، كما مرّ في بداية السورة،

يقول القرآن هنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَيَنْفَعِيوْا ظِلَالَهُ، عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ

وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ﴾

ثانياً: ثم شرع يؤكد ويُقرّر عقيدة التوحيد بطريقة حاسمة وقاطعة: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا

نَخَذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴿٥٦﴾

ثالثًا: ثم ذكّرهم بنعم الله عليهم: ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَعَمُّقٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أجمل هنا النعمة ثم فصلها فيما بعد كما سيأتي في المجلس التالي.

رابعًا: نبّههم إلى فطرتهم الناطقة بالتوحيد ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾﴾

خامسًا: عرض عليهم نماذج من السلوك الخاطئ المعبر عن جهلهم وتخطئهم وضلالهم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۖ تَاللَّهِ لَتُشْلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ حيث كانوا يُقدّمون الذنور والقرايين للأصنام التي صنعوها بأيديهم! ثم قالوا في الملائكة أنهم بنات الله، تعالى الله عن شركهم وجهلهم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مع أنهم كانوا يتبرمون بالبنات ويعلنون سخطهم إذا بُشّر أحدهم بالأنثى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾.

والقرآن هنا كأنه يقول لهم: إذا كانت البنت بهذا السوء، فكيف تنسبونها إلى الله، وهو الذي على كلّ شيء قدير، وبكلّ شيء عليم؟! والقصد هنا بيان أثر عقيدة الشرك الفاسدة في تصوّراتهم وسلوكياتهم.

سادسًا: نبّههم إلى أنهم أمام طريقين وهم يتحملون مسؤولية اختيارهم، طريق الحق والرحمة والصراط المستقيم المنسجم مع فطرة الإنسان وعقله، وهو المبين في الكتاب والسنة ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وأما الطريق الآخر فهو طريق الشيطان ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سابعًا: حدّزهم من عقاب الله، وأنه آت لا محالة في الأجل المسمّى عنده إن هم أصرّوا

على كفرهم وظلمهم ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ فهذا الأجل من رحمة الله بهم لعلهم يتذكرون ويرجعون.

دقائق التفسير

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ بحسب حركة ضوء الشمس.

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ خاضعون لسنن الله الحاكمة في هذا الكون.

﴿دَابَّةٌ﴾ كل كائن حي يتحرك على الأرض، عاقل أو غير عاقل.

﴿وَاصِبًا﴾ دائماً.

﴿وَجْهَهُ مُسْوَدًّا﴾ كناية عن شدة الحزن والانقباض.

﴿كَبِيمٌ﴾ يكظم حزنه ولا يتحدث به.

﴿يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ﴾ يستخفي عنهم خجلاً مما أصابه!

﴿أَيْمِسْكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يُبْقِي بنته حية مع الشعور الدائم بالذل والهوان!

﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يدفنها!

﴿أَنْ لَّهُمُ الْحَسَنُ﴾ المكانة الحسنة عند الله، بمعنى أنهم يقولون حتى لو كانت هناك

آخرة فلا بُدَّ أن لهم الجنة فيها؛ لأنهم السادات والأشراف، بخلاف الفقراء والعبيد؛ ولذلك

رد الله عليهم: ﴿لَا جِزْمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ﴾.

﴿مُفْرَطُونَ﴾ مُقَدَّمُونَ إليها، أي: النار، والعياذ بالله.

﴿تَاللَّهِ﴾ أسلوب قسم مثل: والله.

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِطَوْلِيهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمِرِ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَرْحَى رَبُّكَ إِلَى الْخَلِّ أَنْ أَخْذِيَ مِنَ اللَّبَالِ يُونَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْفُقْكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُزِدْهُ إِلَى أَنْزَلِ الْعُمُرِ لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِي كُفِرْتُمْ بِهِ بِرَأْيِهِ يَرْفُقُكُمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَكُنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ نِسَاءٌ وَحَفَدةٌ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَيَنْفَعُكُمْ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَحْزَنْ بِنُفْثِ اللَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقِنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرْوُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتْنَا وَمَتَعْنَا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَذَابُ النَّارِ الَّذِي أَنْتُمْ بِمِثْقَالٍ يُعَذِّبُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ تُدْرِكُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُذْنِبُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٥﴾ وَالْقَوْمُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَهِ السَّلَامِ وَمَنْ تَوَلَّى مِنْهُمْ فَأَنزَلْنَا عَنْهُمُ الْوَيْلَ وَكَفَرُوا وَكَفَرُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَذُنُّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٦﴾

كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٧﴾

تتمة الحوار مع المشركين

يستمر القرآن في هذا المقطع بمحاورة المشركين مُفَصَّلًا ومُتَمِّمًا لما بدأ به في المقطع السابق: ثامناً: فصل القرآن في هذا المقطع ما أجمله من النعم هناك، مذكراً بنعمة الماء وما تستتبعه من إحياء الأرض ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ثم ذكر بالأنعام وما فيها من منافع ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ، مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾، ثم النباتات بأنواعها ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

ثم وفي التفاتة عزيزة ودقيقة، ذكر النحل وما يُنتِجه من شفاء للناس ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، ثم ذكر الطيور المسخرات في جو السماء ﴿الْمَّيْرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ثم ذكر المساكن بأنواعها وما فيها من متاع وأثاث ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۚ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، ثم ذكر الملابس والدروع ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ﴾، وختم كل هذا بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ بمعنى أن الذي يفكر بهذا النسق من النعم المنظومة والمتكاملة لا بُدَّ أن يقوده تفكيره إلى الاستسلام والإذعان بوجود خالقٍ قادرٍ وعليمٍ وحكيمٍ سبحانه وجلَّ شأنه.

تاسعاً: أضاف في هذه الآيات معاني جديدة متصلة بخلق الإنسان وحياته الاجتماعية ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤَفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَعْمَالٍ لِكُنِيَ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ وهذه آية أخرى على وجود

الخالق ﷻ، فالتكامل بين الذكر والأنثى لاستقرار العيش واستمرار الحياة لا يمكن أن يكون وليد الصدفة العابثة، فأثر القصد ظاهر في هذا التنوع، وقطعاً ليس الذكر هو من صنع لنفسه الأنثى، وليست الأنثى هي من صنعت لنفسها الذكر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

عاشراً: ربط القرآن كل هذه النعم بنعمة العقل والنظر والتفكير؛ ولذلك تكرر في ثنايا هذه النعم قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فدلائل التوحيد قائمة وشاحصة في كل نعمة من هذه النعم، ولكنها بحاجة إلى الإنسان الذي يعمل عقله ويفتح منافذ المعرفة عنده، وقد زود الله هذا الإنسان بأدوات المعرفة المتكاملة فلا عذر لمعتذر ﴿وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

حادي عشر: أكد لهم أن أصنامهم التي يعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تخلق كهذا الخلق، ولا أن تقدم لهم شيئاً ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

وقد استعمل القرآن لتجلية هذه الحقيقة أسلوب التمثيل بما هو معهودٌ عندهم، فقارن أولاً بين العبد المملوك الذي لا يملك شيئاً وبين الحر الذي يملك وينفق مما يملك، ثم قارن بين رجل أبكم لا يقدر على الكلام وبين آخر متكلم عالم يأمر بالعدل والمعروف، ولا يخفى أن هذا تقريب للصورة، فأصنامهم مخلوقة مملوكة وهي بكاء صماء عمياء لا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكراً، فكيف تكون هذه ندأ الله العليم الحليم الكريم السميع البصير؟!

وسياق الآيات يدلُّ على أن التمثيل جاء في سياق بيان بطلان عقيدة الشرك، وأن هذه الأصنام عاجزة وجاهلة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا﴾ وأما قول من قال: إن التمثيل جاء لبيان الفارق بين المؤمن والكافر، فظاهر السياق لا يسعفه، والله أعلم.

ثاني عشر: أكد لهم أن عنادهم هذا سينتهي إلى لحظة ندم قاسية، ولات ساعة مندم ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا ندْعُوا مِن دُونِكَ﴾.

﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ إشارة إلى العملية المعقدة التي يتحوّل فيها جزء من علف الحيوان إلى لبنٍ سائغٍ وخالٍ من الشوائب، والفرث: بقايا العلف الموجود في الجهاز الهضمي للحيوان.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ خمرًا، وليس في هذا إقرارًا بإباحة تناولها؛ إذ المقام مقام تعداد الدلائل على وحدانية الخالق وليس مقام تشريع، خاصة أن سورة النحل سورة مكية، كأنه يقول لهم: هذه الخمرة التي تتمتعون بها إنما تتخذونها من النخيل والأعشاب التي أخرجها الله لكم، وهناك إشارة يلتقطها النبيه أن هذه الخمرة ليست شيئًا حسنًا؛ لأنه عطّف عليها الرزق الحسن ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فهذا تمييزٌ للحسن عن غيره، والله أعلم.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ إحياء خلقًا فطريًا؛ أي: أنه سبحانه جعل في فطرتها وطبيعتها هذا التوجّه.

﴿إِنِ اتَّخَذَىٰ مِنَ الْجِبَالِ يُوْتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ قد تكون فيه إشارة أن أفضل العسل ما كان على الجبال، ثم ما كان على الأشجار، ثم ما كان في المناحل التي يصنعها الناس، وهذا كلامٌ شائعٌ عند أهل الصنعة، والله أعلم.

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ الطرق التي يهتدي بها النحل إلى غذائه ثم العودة إلى مساكنه، وفي هذا من الآيات ما لا يخفى، وقد اكتشف العلم الحديث قُدْرَاتٍ عجيبة للنحل لا يتسع المجال لذكرها.

﴿تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هو العسل، والذي لا زال التداوي به يشهد اتساعًا، وصار يدخل في كثير من الأدوية الحديثة المصنّعة على أعلى مقاييس الجودة والإتقان العلمي.

﴿إِنِّي لَا يَتَذَكَّرُ فِيكُمْ مِثْلُ آبٍ يَدْفَعُ عَنْ شَيْءٍ﴾ النسيان وفقدان الذاكرة، وهو عرضٌ من أعراض الشيخوخة.

﴿فَمَا الَّذِي قُضِلُوا بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ يعني: أن أغنياءكم لا يرضون أن يتساووا مع عبيدهم فيردوا عليهم فضل رزقهم، فكيف إذن تساوون بين الله الذي خلق الخلق ورزقهم وبين هذه المخلوقات التي لا تقوم بنفسها ولا ترزق غيرها؟

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ لا تساووه بخلقه.

﴿يَوْمَ ظَعَنِكُمْ﴾ رحيلكم.

﴿أَصَوَافِهَا﴾ أصواف الضأن.

﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أوبار الإبل.

﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أشعار الماعز.

﴿أَكْنَنَّا﴾ ما يستكن به مثل الكهوف وغيرها، أو ما يؤخذ من الجبال من صخور ومعادن تستعمل اليوم في البناء، والله أعلم.

﴿سَرَبِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ﴾ أي: والبرد؛ لتلازمه مع الحر في الدهن، والسراويل الثياب.

﴿وَسَرَبِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ الدروع التي تلبس في الحروب.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ هو نبيهم الذي سيشهد لهم أو عليهم في ذلك اليوم المشهود.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يطلب منهم الاعتذار في مقابل الرضا والعفو عنهم.

﴿فَالْقَوَا إِلَيْهِمُ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي: أن آهتهم المزيقة ترد عليهم وتقول

لهم: كذبتُم ما نحن دعوناكم لعبادتنا.

سُورَةُ الْحَٰكِمِ

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبْنَا تَخْذُوتُ أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلِيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٩٢ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَتَنَبَّلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤ وَلَا تَتَشَرُّوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۝٩٦ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٧ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩٨ إِِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَاتٍ ءَايَةً ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَكِّي ۚ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلِمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ۚ إِنَّهُ أَعْجَمِيٌّ ۚ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۝١٠٣ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٠٥﴾

بناء المنظومة القيمية للمجتمع المسلم

المنظومة القيمية هي مجموعة المعايير الحاكمة على سلوك الأفراد والجماعات، والتي تشكل الرأي العام في المجتمع؛ بحيث نستطيع دون اللجوء إلى المختصين من قضاة ومفتين وخبراء أن نميز المقبول من غيره في تصرفات الناس وعاداتهم وعلاقاتهم، والسورة التي

وضعت الأسس الكبرى لمنظومة القيم الإسلامية هي سورة الفاتحة، وكلّ سورة تناولت القيم إنما هي تبني على تلك الأسس وتُفَصِّل وتبيّن، وفي هذا الدرس وما بعده سنستخلص أبرز القيم التي تناولتها هذه الآيات وبحسب ترتيبها القرآني:

١ - الشمولية ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فالإسلام يغطي أحوال المكلفين واحتياجاتهم النظرية والعملية ولا يُجَوِّههم إلى غيره.

٢ - الهدى ﴿وَهْدَى﴾ وهو تأكيد لقوله في الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

٣ - الرحمة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وهي القيمة التي تكررت في الفاتحة أربع مرات بتكرار اسمي الله؛ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣].

٤ - البشارة ﴿وَبَشِّرِ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فالإسلام دين التبشير لا التنفير.

٥ - العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وهو من لوازم ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي ليس فيه اعوجاج أو ظلم.

٦ - الإحسان ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ وهو متضمن معنى الإتيان ودقة العمل لمحل المراقبة الذاتية «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(٢).

٧ - صلة الرحم ﴿وَابْتَأِ ذِي الْقُرْبَى﴾.

٨ - النهي عن المنكر بأنواعه ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.

٩ - الوفاء بالعهد ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

(٢) جزء من حديث جبريل المعروف، وهو حديث مُتَّفَقٌ عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٧٩٣) / دار ابن كثير، تح د. مصطفى البنا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وصحيح مسلم (١/ ٣٠) / دار الجيل - مصورة من الطبعة التركبة المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين)، وانفرد مسلم (١/ ٢٨، ٢٩) بروايته من حديث عُمر بن الخطاب رضي الله عنه.

- ١٠ - أمانة الدين والعلم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.
- ١١ - الصبر ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
- ١٢ - العمل ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾.
- ١٣ - تجنب طريق الشيطان ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.
- ١٤ - التوكل المقررون بالعمل ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.
- ١٥ - الثبات ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ١٦ - البيان والوضوح ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.
- ١٧ - الصدق ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾.

دقائق التفسير

- ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الناس من عقائد وشرائع.
- ﴿وَإِنَّا يٰ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ صلة الرحم.
- ﴿وَالْبَغْيِ﴾ العدوان.
- ﴿الْأَيْمَنَ﴾ جمع يمين، وهو الحلف بالله.
- ﴿أَنكَرْنَا﴾ جمع نكث، وهو النقض.
- ﴿دَخَلَا بَيْنَكُمْ﴾ خيانة بعضكم بعضًا.
- ﴿أَن تَكُونُ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِّنْ أُمَّةٍ﴾ ذكر سببًا من أسباب نقض العهود، وهو أن يُبرم جُلُف وميثاق جديد مع جماعة أكثر عددًا وأقوى شوكة من صاحبة الميثاق الأول فتشترط الثانية إبطال الأول، وهذا شائع في الأعمال السياسيّة والتحالفات التجاريّة.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ اتِّهَامُ الْمُشْرِكِينَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ - حَاشَاهُ - حِينَمَا يَنْزِلُ تَشْرِيعٌ جَدِيدٌ فِيهِ إِضَافَةٌ أَوْ تَعْدِيلٌ أَوْ تَدْرُجٌ بِهَا تَقْتَضِيهِ حَرَكَةُ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ إِبَّانَ التَّشْرِيعِ.

﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جَبْرِيلُ ﷺ.

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أَنْ قَرِيشًا كَانَتْ تَتَّهَمُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُ أَخَذَ الْقُرْآنَ عَنْ رَجُلٍ مَعْرُوفٍ عِنْدَهُمْ وَهُوَ مِنَ الْعَجَمِ، أَي: لَمْ يَكُنْ عَرَبِيًّا، وَ﴿يُلْحِدُونَ﴾ هُنَا مَعْنَاهَا: يَمِيلُونَ بِالتَّهْمَةِ إِلَيْهِ.

سُورَةُ النِّحْلِ

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمَلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُّوا مِنْمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أُمِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقُولُحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا لِنَقُفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَقُولُحُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ حَرَمِنَا مَا فَضَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجَبْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٥﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِّ لَهُمْ بِالْقِيَمَةِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِينَ ﴿١٢٦﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

تُخَيِّشُونَ ﴿١٢٨﴾

تَمَّةُ بِنَاءِ الْمُنْظُومَةِ الْقِيَمِيَّةِ لِلْمَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ

وهذا الدرس تَمَّةٌ لما قبله:

١٨ - الطَّمَانِينَةُ ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

١٩- إِيَّاهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٠- الْيَقِظَةُ وَعَدَمُ الْغَفْلَةِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

٢١- الْهَجْرَةُ، مَتَى دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا لِحِفْظِ الدِّينِ وَمَقَاصِدِهِ الْكُبْرَى.

٢٢- الْجِهَادُ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٢٣- تَحْمِيلُ الْمَسْئُولِيَّةِ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

٢٤- شُكْرُ النِّعْمَةِ وَعَدَمُ الْكُفْرِ بِهَا ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ عِبَادُونَ﴾.

٢٥- الْكُفَايَةُ وَسَدُّ الْحَاجَاتِ الْمَخْتَلِفَةِ ﴿فَكُلُوا مِنْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾.

٢٦- الْأَمْنُ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْجُوعَ وَالْخَوْفَ عِقَابًا لِلظَّالِمِينَ ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾.

٢٧- التَّوْبَةُ وَالْمَرَاجَعَةُ وَالْإِصْلَاحُ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٢٨- الْمَهْمَةُ الْعَالِيَةُ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً﴾.

٢٩- التَّوْحِيدُ وَنَهْيُ الشِّرْكِ ﴿فَإِنِّي نَالِلٌ مِنْهُ خَائِفًا لَعَلِّي كُنْ مِنَ الْمُنِزِّلِينَ﴾.

٣٠- الحكمة ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾.

٣١- الموعظة الحسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾.

٣٢- الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

٣٣- التمايز عن الضالين والمنحرفين ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهو تأكيد لما ورد في الفاتحة.

٣٤- القصاص العادل ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ والصبر والعفو

أفضل من القصاص في كثير من الحالات ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

٣٥- انشراح الصدر وتنقيته من الحزن والضيق ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي ضَيْقٍ

مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

٣٦- التقوى ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ والتقوى هي الخوف من

الله، والحذر من عقوبته، إنها الرقابة الذاتية التي يصنعها الإيمان.

دقائق التفسير

﴿إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ رخصة في التلفظ بكلمة الكفر بشرطين:

وجود إكراه بالقتل أو الضرر الشديد الذي لا يمكن تحمله أو دفعه، ووجود طمأنينة إيمانية

راسخة في القلب، وبهذين الشرطين امتازت هذه الرخصة عن مسمى التقية عند الشيعة،

التي هي أقرب للنفاق والمجاملة المفتوحة لأدنى غرض أو مصلحة، ومعلوم أن هذه

الرخصة نزلت بحق سيدنا عمار بن ياسر رضي الله عنه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها بظلمهم وسفهم فلا تكاد تفقه شيئاً.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَاتَلُوا﴾ فتنهم المشركون عن دينهم.

﴿لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ كناية عن الجوع العام الذي يكسو البلدة كلها.

﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أكل الميتة، ويلحق به كل استعمالٍ محرّمٍ على خلافٍ معروفٍ في كتب الفقه.

﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ ذكر الجزء وأراد الكل؛ إذ ليس في الخنزير شيء يؤكل لا لحمه ولا شحمه، ويلحق بالأكل كل استعمالٍ محرّمٍ، ومحل هذه المسألة الفقهية كتب الفقه.

﴿وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ القرايين والندور التي تقدم لغير الله كالأوثان والقبور وغيرها.

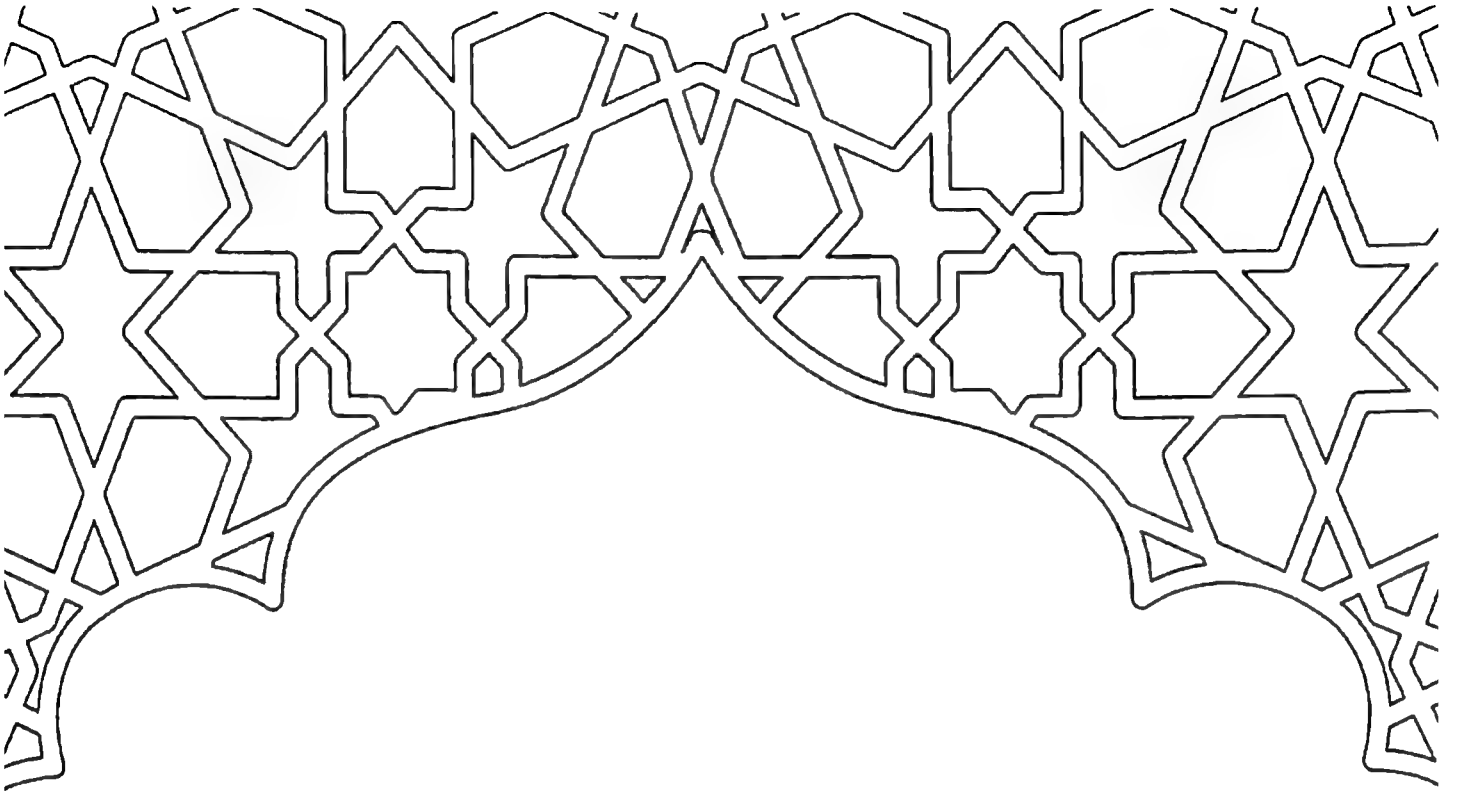
﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ اضطراراً لشدة الجوع من غير قصدٍ للمعصية ولا إسرافٍ فيها فوق ما يدفع الضرر.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ بهيمته، وحرصه على هداية الأمة، وانتشالها من مستنقعات الجهل والشرك والظلم، وهو بهذا إمامٌ وقدوةٌ للناس عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ تنويه بأهمية التمايز عن اليهود، فنحن لنا الجمعة، وقد جعل الله لليهود السبت، وشدد عليهم فيه بسبب اختلافهم على نبيهم موسى ﷺ، وقد جاء هذا التنويه بعد قوله: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ لكي لا يظنّ ظانٌّ أن تعظيم السبت كان من ملة إبراهيم ﷺ.

﴿صَبَّيْ﴾ الغم والكرب.

يمكن القول في ختام هذه القراءة أن هذه السورة المباركة هي سورة النعم والقيم، وأنها صورة مركزة لما ينبغي أن تكون عليه حياة المسلمين.



سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

المجلس الثامن عشر بعد المائة: المسجد الأقصى

المجلس التاسع عشر بعد المائة: المسؤولية الشخصية

المجلس العشرون بعد المائة: بناء المجتمع المسلم

المجلس الحادي والعشرون بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس الثاني والعشرون بعد المائة: معركة الإنسان مع الشيطان

المجلس الثالث والعشرون بعد المائة: معركة الحق والباطل

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ، لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ، لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
 ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقَ كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِيكٍ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

المسجد الأقصى

تستهل هذه السورة بقصة الإسرائ التي كانت لرسولنا ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، ثم يأتي التركيز على المسجد الأقصى؛ إعلاءً لشأنه، وتبييناً لما يتعرض له على مرّ الأيام، وكما يأتي:

أولاً: الربط القرآني بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ وأن عقدة الربط: نبينا الكريم ﷺ، وهذا إعلان قطعيّ بإسلاميّة المسجد الأقصى، ومسؤوليّة الأمة كلّها في إعمارهِ وصيانته وحمايته، تجلّز الإشارة إلى أن هذا الربط جاء مُبكراً قبل الهجرة، بمعنى أن صلة الأقصى بالمسجد الحرام أودّه من صلاته بالمسجد النبوي.

ثانياً: أن الأرض التي فيها المسجد أرض مُباركة ﴿الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾، وهذا تأكيد آخر لأهمية هذا المسجد ومسؤولية الأمة تجاهه.

ثالثاً: مع أن اليهود لم يكن لهم شأن أيام البعثة النبوية في المسجد الأقصى - حيث كانت فلسطين والشام كلها تخضع لحكم النصارى البيزنطيين -، إلا أن القرآن أغفل ذكر البيزنطيين

هؤلاء تمامًا، وركز القول في بني إسرائيل؛ حيث جاءت الآيات عن تاريخ بني إسرائيل مباشرة بعد ذكر الأقصى! وهذا تنبيه لما يُستقبل، وأثر الإعجاز الغيبي فيه واضح.

رابعًا: أن بني إسرائيل كتب الله لهم العلو في هذه الأرض مرتين ﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، أما المرة الأولى فتنتهي بأن يُسلط الله عليهم عبادًا له أولي بأسٍ شديد: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فإذا عاد بنو إسرائيل في كرتهم الثانية إلى علوهم وفسادهم، سلط الله عليهم عبادَه أولئك مرة ثانية: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وفي هذا بيان أن المسجد هو محور الصراع بين الفريقين، وأن القوم الذين دخلوه في المرة الأولى سيدخلونه في المرة الثانية، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ نسب الفعل إلى الله، ووصف النبي ﷺ بالعبد؛ إذ ليس في هذا الإسرائ سبب من أسباب المادة التي هي بمقدور البشر.

وأعجب ممن يروم تأويله على غير حقيقته، مع أن في القرآن ما هو أعجب؛ كنقل عرش بلقيس من سبأ إلى بيت المقدس، مع أن الذي عنده علم الكتاب نسب الفعل لنفسه، فقال: ﴿أَنَا إِلَٰهِيكُمْ﴾ [النمل: ٤٠]، والمسافة أيضًا أبعد، والمنقول أثقل وأعسر في النقل.

فالصحيح: أن الإسرائ كان بالروح والجسد، وهو أمرٌ خارقٌ للعادة - دون ريب -، وأسرى من سرى، والسرى: السير ليلًا.

﴿الْأَقْصَا﴾ الأبعد مسافةً عن المسجد الحرام، وهو المسجد الثاني الذي بناه سيدنا إبراهيم ﷺ بعد الكعبة، وقد جاء في «البخاري» وغيره عن أبي ذر: قلت: يا رسول الله! أيُّ مسجدٍ وُفِّعَ في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم

بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»^(١).

﴿لَنُرِيَهُ مِنْ أَيْنَأْتَنَّا﴾ عِلَّةُ الإسراء: أن يرى محمد ﷺ آياتِ الله التي هي في عالم الغيب بالنسبة لنا، وقد جاء ذِكْرُ هذه الآيات في أحاديث الإسراء والمعراج مع إشارات سريعة في مواضع أخرى من القرآن، كما في سورة النجم، أما وجه كونها عِلَّةً، فلا يبدو للناظر سِوَى التثبيت، لكن الجزمُ به والقصرُ عليه بحاجة إلى دليلٍ من الغيب، وعلاقةُ الرُّسُلِ ﷺ بالسَّما أَوْسَعُ من أن يُحَدِّثَها نظرٌ، والله أعلم.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نداءٌ فيه شيءٌ من اللوم والعتب؛ لأن الذين نجَّاهم الله مع نوح ﷺ كانوا من المؤمنين، فلا ينبغي لهم النكوص والنكران.

﴿لَنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنٍ﴾ الظاهرُ من الأخبار أنها قد حَصَلَتَا بالفعل، إما أن تكون كلاهما على يد البابليين بقيادة سنحاريب، ثم بُخْتَنَصَّر، وهذا الأَوْفَقُ للسياق، وإما أن تكون الأولى على يد بُخْتَنَصَّر وما عُرِفَ بالسَّبي البابلي، والثانية بعد أن أَرْجَعَهُمْ كُورْش ملك فارس، وأعادَ لهم مُلْكَهُمْ، فسَلَطَ الله عليهم الرومان.

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ هم أهل بابل، والإضافة لِيَسَتْ للتشريف، وإنما للاختصاص، بقرينة قوله: ﴿بَعَثْنَا﴾.

﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ طافوا بها بأمان دون مقاومة منكم.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ بمُعاونة الفرس الذين هَدُّوا مملكةَ بابل، وأعادوا مُلْكَ بني إسرائيل.

﴿أَكْثَرَنَفِيرًا﴾ حشدًا للقتال.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ المرَّة الثانية من الإفساد.

(١) الحاشية متفق عليها من أبي ذر الغفاري رضى الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٣/١٢٣١) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البقا، ط.

٣، ١٤٠١ - ١٤٠٨ م)، وصحيح مسلم (٢/٦٣) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من

المحققين).

﴿لَيْسَتْ أُوْجُوْهُكُمْ﴾ يَغْزُونَكُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً فَيَحْصُلُ لَكُمْ السُّوءُ وَالْمَهَانَةُ.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْبَابِلِيِّينَ دَخَلُوا الْمَسْجِدَ مِنْ قَبْلِ.

﴿وَلِيَسْتَبْرُوا مَا عَلَوْا تَبْيَرًا﴾ يُدْمَرُونَ كُلَّ شَيْءٍ ظَهَرُوا عَلَيْهِ وَتَمَكَّنُوا مِنْهُ.

وهنا إشكال؛ فالمعروف أن البابليين هم من دمر مملكة إسرائيل أولاً، وفي المرة الثانية كان التدمير على يد الرومان، والآية تُشير إلى أن التدمير في المرّتين كان من جهة واحدة، ومن قومٍ مُعيّنين، وليسا من قومين مُختلفين؛ فإما أن تكون المرّة الأولى على يد سنحاريب، والثانية على يد بُختنصر أو (نبوخذنصر)، وكلاهما من أرض بابل، فينتظم الكلام، وإما أن يكون عود الضمير على الاسم دون المسمّى، كما تقول: عِنْدِي دِرْهَمٌ وَنِصْفُهُ، أَي: نِصْفُ دِرْهَمٍ آخَرٍ؛ إِذْ تَسْلِيْطُ الرُّومَانِ عَلَيْهِمْ هُوَ كَتَسْلِيْطِ الْبَابِلِيِّينَ، فَكِلَاهُمَا مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ لِتَأْدِيبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالتَّخْرِيجُ الْأَوَّلُ أَوْفَقٌ لِلْمِيقَاتِ، وَعَلَيْهِ يَكُونُ غَزْوُ الرُّومَانِ وَمَا بَعْدَهُ لَا صِلَاةَ لَهُ بِالْمَرَّتَيْنِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِمَا فِي الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا كُلُّ هَذَا يَدْخُلُ فِي الْإِنْذَارِ الْمُسْتَمِرِّ وَالْمُتَكَرِّرِ: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝١ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝٣ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ
 وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ۝٤ وَكُلُّ إِنْسَانٍ
 أَلْرَمَتْهُ طَائِفَةٌ فِي عُنُقِهِ ۚ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝٥ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝٦ مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا
 يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزِرَةٌ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝٧ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَوْمًا
 مِّنْهُمْ فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝٨ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝٩
 كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٠ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا
 سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ۝١١ كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُولَاءَ ۚ وَهَتُولَاءَ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝١٢
 أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا ۝١٣ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝١٤

﴿ ١٢ ﴾

المسؤولية الشخصية

كلُّ امرئ مسؤولٌ عن أفعاله وتصرفاته، هذه القاعدة التي يؤكدها القرآن في مواضع كثيرة، من شأنها أن تُنمي في النفس حسَّ المسؤولية والمراقبة الذاتية، وفي هذه المجموعة من الآيات ترسيخٌ لهذه القاعدة، وشرحٌ للمعاني والأبعاد المتعلقة بها:

أولاً: يؤكِّد القرآن أولاً أن طريق الحق واضح، وأنه لا عُذر للإنسان في جهله أو الابتعاد عنه ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾، ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾، وأن الله لا يُحاسب أحداً لم تبأغه هذه الدعوة: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.

ثانياً: أن الإنسان إنما يعمل لنفسه خيراً أو شراً، هدايةً أو ضلالاً ﴿ مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾، وأن كلَّ أعماله هذه تُحصى عليه صغيرها وكبيرها ﴿ وَكُلُّ

إِنْسَنِ الزَّمَنَةِ طَافِرُهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُجِّجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

ثالثًا: أَنَّ الْمُهْتَدِيَّ يَنْتَظِرُ ثَوَابَ مَا بُشِّرَ بِهِ، وَالضَّالُّ يَنْتَظِرُ عِقَابَ مَا أُنْذِرَ بِهِ ﴿وَبُشِّرُوا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ① وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾. رابعًا: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَحَمَّلُ ذَنْبَ غَيْرِهِ مَهْمَا كَانَتْ صِلَةُ الْقَرَابَةِ أَوْ الصَّدَاقَةُ ﴿وَلَا نَزْرُ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾ ③ فَكُلُّ إِنْسَانٍ مَسْئُولٌ عَمَّا قَدَّمَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا.

خامسًا: أَنَّ اللَّهَ وَضَعَ السُّنَنَ الْعَادِلَةَ الَّتِي تُيسِّرُ لِلْإِنْسَانِ الْوَصُولَ إِلَى مَا يُرِيدُ، وَهَذَا مِنْ مُتَطَلِّبَاتِ الْإِخْتِبَارِ الْحَقِّ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ غَبْنٌ وَلَا مُحَابَاةٌ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ④ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١١﴾ كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٢﴾.

سادسًا: أَنَّ هَذِهِ الْمَسْئُولِيَّةَ الدِّينِيَّةَ لَا تَسْلُبُ الْإِنْسَانَ مِنْ حَيَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَحَاجَاتِهِ الْجَسَدِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ⑤.

دقائق التفسير

﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ للطريقة الأحسن والأعدل.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ يدعو على نفسه عند غضبه وفوات بعض مصالحه بالشَّرِّ كما كان يدعو لنفسه بالخير؛ وذلك لأنه قليل الصبر.

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ المحو هنا بمعنى: الطمس، أي: طمسنا الليل بظلمته، فلا تظهر فيه الأشياء.

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ بضياء الشمس، فتتكشف الأشياء أمام البصر، حتى يتمكن الناس من العمل وطلب الرزق ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَددَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ أي: بتعاقب الليل والنهار، وفيه إشارة إلى أن الأخذ بالحساب الفلكي مطلوب شرعاً، ومُرغَّب فيه؛ لما في التعليل بعمومه من المنَّة الظاهرة، والله أعلم.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ الطائر هنا مُفسَّر بما بعده: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾، وهو كتاب الأعمال الذي يُحصي على المُكَلَّف كلَّ حسنة وكلَّ سيئة.

وقال: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ مع أن الكتب تُؤخذ بالأيمان أو الشمائل؛ تأكيداً لمعنى تعلق الذمة والمسؤولية، على عادة العرب في قولهم: في رقبتني، أي: في ذمتي وعهدي.

وإطلاق الطائر على كتاب الأعمال؛ لأن العرب كانت تتيامن أو تتشاءم بحركة الطير يميناً أو شمالاً، فكأنه يقول لهم: إنَّ يُمْنَكُمْ الحَقُّ وشُؤْمُكُمْ الحَقُّ ليس في ذلك الطائر، وإنما في ما تُقدِّمون من عملٍ، وهو نظير قوله ﷺ في الحديث: «لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(١).

فالدَّهْرُ ليس هو الذي يُقدَّرُ آجالكم وأرزاقكم التي تتبرَّمون بها، وإنما هو الله خالق الدهر، والدَّهْرُ ليس اسماً لله.

﴿وَلَا نَزِرٌ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخَرِيٌّ﴾ ولا تحمل نفس آثمة إثر نفسٍ أخرى.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ بحيث تصل دعوته إلى المُكَلَّف، فإن لم تصل إليه لتباعد الأصناف، وتباعد الأزمان، فهو كحال من عدت فيهم الرسالة، والله أعلم.

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه بهذا اللفظ، ينظر: صحيح مسلم (٧/٤٥) / دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٥، تح: مجموعة من المحققين)، وهو عند البخاري بمعناه، وقد بَوَّبَ باباً سَمَّاهُ (لاتسبوا الدهر) وساق حديثاً قُدسياً بهذا المعنى، وهو عن أبي هريرة أيضاً، ولفظه: «قَالَ اللَّهُ: يَسْبُ بَنُو آدَمَ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»، ينظر: صحيح البخاري (٥/٢٢٨٦) / دار ابن كثير، تح: د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧-١٩٨٧ م).

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ الْمُنْعَمِينَ فِيهَا أَهْلُ التَّرَفِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِمْ هُنَا: ذَوُو الْجَاهِ وَالتَّأْثِيرِ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَإِلَّا فَأَمَرَ اللَّهُ وَاحِدٌ لَجَمِيعِ عِبَادِهِ بِأَمْرِهِمْ بِالطَّاعَةِ، لَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتْرَفِينَ يَأْبُونَ ذَلِكَ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ، وَفِي حَقِّ أَتْبَاعِهِمْ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ أَي: مَنْ كَانَ هُمُّهُ الدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَفْقِ جَهْدِهِ وَكَدِّهِ لَا يُظْلَمُ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ سُنَنِهِ تَعَالَى وَمَشِئَتِهِ الْعَادِلَةِ، وَبِهَذَا نَرَى الْكَافِرَ الَّذِي يَأْخُذُ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ وَالْعِلْمِ وَالرِّزْقِ يَصِلُ إِلَى مَا يُرِيدُ، بِخِلَافِ الْجَاهِلِ الْعَاجِزِ وَلَوْ كَانَ مُسْلِمًا.

﴿مَذْخُورًا﴾ مَطْرُودًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

﴿كَلَّا نُمَدِّ هَتُولَاءَ وَهَتُولَاءَ﴾ الطَّائِعِينَ وَالْعَاصِينَ، ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ مِنْ رِزْقِهِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَى وَفْقِ سُنَنِهِ تَعَالَى الْحَاكِمَةِ وَالْعَادِلَةِ.

﴿فَنَقَعَدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ كَأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُوَحَّدَ يَرْتَقِي بِإِيْمَانِهِ، وَالْمُشْرِكَ يَقْعُدُ وَيَلْتَصِقُ بِالْأَرْضِ مَذْمُومًا وَمَخْذُولًا بِلَا نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ، أَوْ مُعِينٍ يُعِينُهُ.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣ ۝ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ٢٤ ۝ زُكْرًا أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ٢٥ ۝ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ٢٦ ۝ إِنَّ الْبَذِيرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ٢٧ ۝ وَإِنَّمَا تَعْرِضَنَّ عَنْهُمْ اتِّعَافَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُومُهُمْ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ٢٨ ۝ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩ ۝ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ٣٠ ۝ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُونُ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كُنَّا لَهُمْ كَافًّا ٣١ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ قَاتِلًا ۚ فَخِشَّةً وَسَاءَ سَبِيلًا ٣٢ ۝ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ٣٣ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ كَاتِبٌ مَّشْهُورًا ٣٤ ۝ وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ ۖ إِذَا كَلَّمْتُم بِالْقِسْطِ أَمَّا الْمُسْتَقِيمُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥ ۝ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ٣٦ ۝ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ٣٧ ۝ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨ ۝ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۚ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ٣٩ ۝ ﴾

بناء المجتمع المسلم

في هذه المجموعة من الآيات يعرض القرآن لمنظومة من القيم والأخلاق التي تُؤسِّس لمجتمع نظيف ومُتماسك، يجد الفرد فيه أمنه وسكينته وألفته:

أولاً: بر الوالدين ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ﴿ قَرْنَ الْبِرَّ بِالْوَحِيدِ، بل جعل التوحيد مدخلاً للحديث عنه، والتنويه بشأنه وخطره، ثم ذكَّرَ بما يستدِرُّ العاطفة ﴿ إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ ﴾، فكبير السن مهما كان مُستحقاً للتوقير والرعاية، فكيف إذا كان والدًا؟ ثم فصل ﴿ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾، واحتاط غاية الحيلة بقوله: ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا ﴾ وهي مثال لأدنى العُتُوق؛ كي يتنزَّه الناس عما هو فوقه، ثم أمر بالتدلل لهما: ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ

الرَّحْمَةِ ﴿ وَالِدَعَاءِ الْمُسْتَمِرِّ حُبًّا وَوَفَاءَ لَهَا ﴾ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَّبَّنِي صَغِيرًا ﴿ .

ثانيًا: صلة الرحم ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ .

ثالثًا: رعاية المسكين وإعانة المحتاج ﴿ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

رابعًا: الابتعاد عن التبذير ﴿ وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا ﴾ (٢٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿ ، وليس بعد الترهيب من ترهيبٍ، فاعجب بعد هذا لمن يُبذّر أموال الأمة وثرواتها فيما لا فائدة فيه، أو يُسرف في الولائم والمناسبات غاية الإسراف، ثم يدّعي أن هذا من الكرم، والكرم إنما هو البذل دون تحرج أو تردد في وجوه الخير، أما أكوام الطعام التي يدعى لها الأغنياء والمترفون، ويُحرم منها الفقراء والمُعْدَمُونَ، فهذا هو الإسراف والتبذير الذي حرّمه الله .

خامسًا: الاقتصاد في النفقة ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

نَحْسُورًا ﴾ ، وهذه النقطة تتمّة وتفصيل لما قبلها .

سادسًا: القول اللين ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ .

سابعًا: الحفاظ على الأولاد وعدم تعريضهم للهلاك مهما كانت الأسباب ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ

خَشِيَ إِمْلَاقٌ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ .

ثامنًا: البعد عن الزنا وكل ما يُقرب منه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ .

تاسعًا: الحفاظ على حياة الناس وتحريم القتل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

عاشرًا: الحفاظ على أموال اليتامى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ .

حادي عشر: الوفاء بالعهد ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ .

ثاني عشر: العدل في الميزان وتجنب أكل أموال الناس بالباطل ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا

بِالْقِسْطِ أَسْرَارَ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

ثالث عشر: التثبت والتأكد من المعلومة قبل نشرها أو الأخذ بها ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عَلِمُوا أَنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿١٠﴾

رابع عشر: التواضع وعدم التكبر على خلق الله ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿١١﴾

خامس عشر: التوحيد في البدء والختام، ففي البدء قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وفي الختام قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿١٢﴾

تجدد الإشارة هنا إلى أن هذه الوصايا قد وردت بالفاظ متقاربة في الوصايا العشر الواردة في سورة الأنعام، مع بعض التوسُّع هنا والتفصيل، وإذا عُلِمَ أن السورتين نزلتا بمكة، أدركنا مدى اهتمام القرآن المبكر بمنظومة القيم والأخلاق، وبهذا التفصيل والتأكيد، على خلاف ما كان يظنه بعض الباحثين في القرآن من أن القرآن المكي لم يتعرَّض إلا لمسائل التوحيد والعقيدة! نعم إن إلزامية التشريع وتنفيذه على الناس يحتاج إلى الدولة، لكن منظومة القيم والأخلاق مُتعلِّقة ببناء المجتمع قبل بناء الدولة؛ وإنما الدولة تنبثق من المجتمع، وتعيكس صورته الذاتية وبنائه الداخلي.

دقائق التفسير

﴿مَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ﴾ إشارة إلى كفالته لهما.

﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُنْزِلَ﴾ النهي عن أدنى الإيذاء ليدخل ما فوقه من باب أولى.

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ غاية في التواضع والتذلل، ونسبة الذل إلى الجناح نسبة مجازية على عادة العرب في ذلك، وقد نزل القرآن بلغتهم.

﴿لَا وَبَيْتِ﴾ التائبين العائدين إلى الله.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي انقطعت به الطريق، وحيل بينه وبين ما يملكه في بلده، أما إذا كان

يتمكّن من التواصل مع ماله بالطرق الحديثة؛ كالبطاقات الائتمانية ونحوها فلا يدخل في ذلك.
﴿وَلَا بُذِيرَ تَبْذِيرًا﴾ لا تُنفق مالك في غير حاجة وبغير وجه حقّ، فالمال مال الله، وأنت مُستخلف فيه.

﴿إِخْوَانُ الشَّيْطَانِ﴾ قُرَنَاءُهم وأشباههم في عمل الفساد، والتبذير: فساد المال، وهو من كفر النعمة؛ ولذلك عقب ببيان وجه الشبه هذا ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.

﴿وَمَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ إذا أعرضت عن المساكين وذوي القربى؛ لأنه ليس عندك ما تُنفقه عليهم، وكنت تنتظر رزقًا، فتلطّف لهم بالقول حتى يأتبك ما تنتظر.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ كناية عن غاية الحرص والبخل، والخوف من نقص المال.
﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ كناية عن الإسراف واللامبالاة.

﴿فَتَقَعْدُ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ فتقعّد عاجزًا بعد تضييع مالك يلومك الناس، وتتحسّر أنك لا تجد ما تُنفقه على نفسك وأهل بيتك.

وهذا التوجيه الربانيّ يحسم تلك المفاهيم الخاطئة لعقيدة التوكل، والتي تجعل المسلم يتعامل مع الحياة بلا حساب، ولا تخطيط، ولا نظير في العواقب.

﴿وَلَا تَقْلُوبُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ الإملاق: الجوع والفاقة، وهذا دليل على أن بعض الجاهلية كانوا يقتلون بناتهم خشية النفقة!

﴿خِطَاءًا﴾ بمعنى: خطأ.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ نهى عن الزنا وعن ما يقرب إليه؛ كالنظرة القاصدة، والخلوة، والتبرّج.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ بحكم الشرع وقوّة القانون، وليس السلطان القدري الذي يتوقّده بعض الناس، فالقاتل يقتصّ منه القضاء العادل، فإن لم يكن هناك دولة ولا قضاء فلربما يفلت القاتل من العقوبة الدنيوية لتلقاه العقوبة الأخروية، وهذا واقع؛ فكم من ظالم قاتل مات

من غير عقوبة ولا قصاص.

﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ كان يقتل أخا القاتل أو قريبه، أو يقتل أكثر من واحد بقتيله، أو يتعدى حدَّ القتل المعروف فيحرق أو يُمَثَّل، ومن الإسراف أيضًا: الاستعجال قبل التبين وقبل قضاء القاضي؛ إذ الأصل أن هذا الحكم يثبت عند القاضي بشرائطه المعروفة، وليس لأحد الناس البتُّ في مثل هذه الجنايات، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أي: بقوة القضاء.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ مزيدًا من الاحتياط؛ لحاجة اليتامى إلى حماية أموالهم أكثر من غيرهم.

﴿وَلَا يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ كأن يتجر بها لمصلحة اليتيم.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمَسْتَقِيمِ﴾ بالميزان العدل الذي ليس فيه ميلان.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا تتبع.

﴿مَرَحًا﴾ خيلاء.

﴿وَإِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ تمثيل لعجز الإنسان، ودعوة له أن يعرف قدره فلا يتكبر على عباد الله.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ كلُّ ما تقدَّم من الوصايا والأحكام والمحظورات، ثم احتَرَزَ بقوله: ﴿سَيِّئُهُ﴾؛ لأنه ليس كلُّ ما تقدَّم سيئًا.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ وصف لما تقدَّم من الوصايا والقيم، بمعنى: أنها جاءت في غاية الإتيان، من حيث معناها ومبناها وموقعها المناسب في خارطة البناء الإسلامي الشامل والمتكامل.

﴿تَأْوَمًا﴾ تستحق الملامة.

﴿مَذْخُورًا﴾ خاسرًا ومطروودًا من رحمة الله.

﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا إِنَّكَ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ١٠ ﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ١١ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَنْفَعُوا إِلَيْنَا إِلَّا فِي سَبْحَةٍ وَسَبْحَتُهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ١٢ ﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ١٣ ﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ١٤ ﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَعْيُنِهِمْ نُفُورًا ١٥ ﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ تَجَوَّزُونَ بِقَوْلِ الظَّالِمِينَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ١٦ ﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ١٧ ﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا عَظَمَاءَ وَرُفُنَا أَوْ نَا لَسَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ١٨ ﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ١٩ ﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٢٠ ﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْمُودِهِمْ وَتَنْظُنُّونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ٢١ ﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٢٢ ﴾ وَتُكْذَّبُ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحِمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٢٣ ﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٢٤ ﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٢٥ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٢٦ ﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٢٧ ﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا الْفَاةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٢٨ ﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرَّيَّا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٢٩ ﴾

حوار مع المشركين

بعد بناء المجتمع المسلم وفق هذه الأسس والمبادئ الربانية، شرع القرآن في فتح حوار مع الآخر الذي كان يُناصبُ هذا المجتمع العداء، ويُقابل عقيدة التوحيد الصافية بعقيدة شركية وثنية لا تستند إلى فطرة ولا منطق، ولا بقية من حجة أو دليل:

أولاً: بدأ بمسألة جزئية لكنها خطيرة، وتعدُّ نموذجاً صارخاً للانحراف في طريقة التفكير

ونظرة الإنسان للإله ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَقُلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

ثانيًا: انتقل من هذه الجزئية إلى أصل الداء عندهم ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لنازعته هذه الآلهة المزعومة في سلطانه، كما يفعل ملوك الأرض، ولظهر أثر هذا الاضطراب في ملك الله سبحانه، لكن الكون لا زال كما كان في غاية الإتقان والاتساق، والخضوع للناموس الكوني الذي وضعه خالق هذا الكون ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾.

ثالثًا: أن هؤلاء قد حيل بينهم وبين فهم القرآن؛ بسبب عنادهم وتكبرهم، وما ملأ صدورهم ونفوسهم من غل وحسد، فصمت آذانهم، وعميت أبصارهم ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٥) وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقْرًا، وهذا الجعل الإلهي جعل سُني مُستند إلى عالم الأسباب، وليس فيه معنى الجبر والإكراه؛ إذ إن الله لا يظلم أحداً من خلقه.

رابعًا: أنهم كانوا يستمعون القرآن، لكن ليس من أجل الفهم والتفكير، بل لمحاربته والسخرية منه ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾، وهذا الموقف يتسق مع ما قبله، ويزيده تفسيراً ووضوحاً.

خامسًا: أنهم كانوا يشتمون رسول الله ﷺ، ويضربون له الأمثال والتشبيهات الباطلة؛ فمرةً بالساحر، ومرةً بالشاعر، ومرةً بالكاذب، وكل هذا تعبير عن نار الحسد التي تكاد تأكل قلوبهم ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، فهذا الحسد لا يمكن أن يؤدي إلى خير وإلى حكم عادل ومنصف، ومن هنا كانت فتنتهم وضلالهم.

سادسًا: بعد موقفهم من التوحيد ومن الوحي، عرّض القرآن لمسألة أخرى ربما تكون السبب الأساس لضلالهم، وعدم شعورهم بالحاجة إلى النظر الجاد وتحمل المسؤولية، ألا وهي: مسألة الجزاء، وعقيدة البعث والحساب ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفُنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾،

وقد ردَّ القرآن تساؤلهم هذا الذي يحمل معنى الإنكار والاستهزاء: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

سابعًا: ردَّ القرآن أيضًا دعواهم وجود آلهة مع الله ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾.

ثامنًا: وأما طلبهم المتكرَّر بإنزال المعجزات الماديَّة، فقد ردَّه القرآن بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاثِنَا ثُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؛ إذ مشكلة الحاسد ليست في نوعيَّة الدليل وطريقة الاستدلال، وإنما هي مشكلة ذاتيَّة نفسيَّة، وربما لا تزيدها المعجزات القاهرة إلا حسدًا مضافًا؛ ولذا كانت المعجزة القرآنيَّة تُخاطبُ العقولَ والنفوسَ والقلوبَ، وتدعو لتغيير الداخل، وليس لإقامة الحجَّة المجردة.

تاسعًا: يذكر القرآن أيضًا مسألة لها صلة بالمعجزات المادية، وهي: إخبارُ النبي ﷺ لأهل مكة بما حصل له ليلة الإسراء والمعراج، وما رآه من آيات ربه، فكان ذلك فتنة مضافة لهم؛ حيث ازدادوا عنادًا وتكذيبًا، مع أن النبي ﷺ أثبت لهم صدق دعواه هذه ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

عاشرًا: وفي كلِّ جولة من جولات الحوار يُذكر القرآن دائمًا بالعاقبة التي تنتظرُ الجميع ﴿وَأَن مِّن قَرِيْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هذا بالنسبة للمُعاندين المكذِّبين، أما الذين يرجون رحمة الله بصدق، فلهم شأن آخر وعاقبة أخرى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

حادي عشر: وفي ثنايا هذه المجادلة يُذكر القرآن عباد الله المؤمنين بأهمية القول الحسن، خاصَّةً وهم يدعون إلى الله ويُحاولون الإصلاح ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا ﴾ تسفيهٌ لزعمهم أن الملائكة بنات الله، وبيان لتخبُّطهم وقولهم في الغيب بلا علمٍ ولا دليلٍ، ونظرتهم الدونية عن الأنثى، ثم نسبة هذا الدُّون إلى الله! وكأنهم بهذا يرون حالهم أفضل من حال خالقهم؛ إذ هم لهم الأولاد البنون والبنات، بينما ينسبون له سبحانه البنات خاصّة! إنه نموذجٌ للانحراف والشَّطَط.

﴿ صَرَفْنَا ﴾ نوَّعنا أساليب الخطاب.

﴿ إِذَا لَا تَأْتُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ أي: لو كان مع الله آلهة، لسَلَكْتَ هذه الآلهة طريقًا لمُنَارَعَةِ الله في مُلْكِهِ، ولظَهَرَ هذا في اضطراب نظام الكون.

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ تسبيح الفطرة الشاهدة بوحدانية الخالق، وفيه ردٌّ على شناعتهم بنسبة الولد إلى الله.

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ تأكيدٌ شامل لكل مخلوقات الله، ودفعٌ لتوهم أن العقلاء وحدهم هم الذين يسبحونه، والباء للمصاحبة، بمعنى أنهم يُسَبِّحُونَ الله مُسْتَصْحِبِينَ حمده تعالى.

﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لأنه تسبيح الحال وليس تسبيح المقال، بمعنى أن كل الأشياء دالةٌ بوجودها ونظام خلقها على كمال الخالق ووحدانيته وتنزيهه عن النقص، لكن المشركين لا يعقلون هذه المعاني، ولا يتدبرون هذه الأحوال الملموسة والمحسوسة، ومن ثمَّ كان التعقيب بـ ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾؛ فالسياق يُوجي بأنَّ الخطاب مُوجَّهٌ للمشركين والغافلين؛ ولذا اقتضى الحلم والمغفرة.

﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ أي: حجابًا ساترًا بينهم وبين تدبر آيات القرآن، وهو حجاب الغرور والتكبر، كما كان حجابهم عن تدبر آيات الكون حجاب الجهل والغفلة، وكلها من نوع الحجاب المعنوي المتعلق بالصفات التكليفية، وليس الحجاب الحسي من صَمَمٍ ونحوه.

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أَعْطِيَةَ تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَهْمِ وَالتَّدْبِيرِ، وَهُوَ جَعَلَ بِمُقْتَضَى السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ الْعَادِلَةِ، وَهَذَا شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ الْبَقَرَةِ: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧] أَي: بِمَا كَسَبُوا وَظَلَمُوا.

﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وَفِي التَّكْبُرِ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْحَقِّ.

﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ قَوْلُهُ الْمَشْرُكِينَ بَعْدَ أَنْ ضَاقُوا ذَرْعًا بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَلَمْ يَجِدُوا أَبْرَعَ مِنْ هَذِهِ التَّهْمَةِ لِتَنْفِيرِ النَّاسِ عَنْهُ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ أَيْضًا لِإِعْجَابِهِمْ الْخَفِيِّ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِهِ، وَفِي الْآيَةِ أَيْضًا تَنْزِيهٌُ لِمَقَامِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ عَنِ السَّحَرِ.

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾، تَأْكِيدٌ لَتَنْزِيهِهِ ﷺ، وَتَشْنِيعٌ شَدِيدٌ عَلَى مَنْ يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْأَدَبِ مَعَهُ، بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي.

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ سَوَالٌ اسْتِنكَارِي مَلِيءٌ بِالْجَهْلِ وَقَلَّةُ الْمُلَاحَظَةِ، وَقَدْ أَكْثَرَهُ وَكَرَّرَهُ ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ﴾.

﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ جَوَابٌ عَلَى سُؤَالِهِمُ الْمَكْرَرِ الْمَمْلُولِ، لِيَقِيمَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ، فَمَنْ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنَ الْعَدَمِ، كَانَ أَقْدَرَ عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ ﴿ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ ٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴿ بِمَعْنَى أَنْكُمْ لَنْ تُعْجِزُوهُ سُبْحَانَهُ فِي أَيِّ صُورَةٍ أَوْ طَوْرِ كُنْتُمْ.

﴿ فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ يَتَسَاءَلُونَ مَعَ تَحْرِيكِ رُءُوسِهِمْ نَحْوَكَ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَغْرِبُ أَوِ الْمُسْتَهْزِئُ.

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ يَنَادِيكُمْ لِلخُرُوجِ مِنْ قُبُورِكُمْ، وَالنِّدَاءُ هُنَا بِمَعْنَى: الْأَمْرُ التَّكْوِينِيُّ الَّذِي لَا يَمْلِكُ مَعَهُ الْخَلْقُ إِلَّا الْاسْتِجَابَةَ، وَأَنْذَاكَ يُقَرَّرُ الْجَمِيعُ لِلَّهِ وَحْدَهُ بِالْحَمْدِ؛ لِأَنَّهُ وَحْدَهُ الْإِلَهَ الْحَقُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ وَالتَّعْظِيمَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بِإِطْلَاقٍ، مَعَ كُلِّ خَلْقِ اللَّهِ، فَهَذَا الْأَلِيقُ بِعِبَادِ اللَّهِ.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ يُثير الفتن والشحناء.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ للإنسان بإطلاق أيضًا؛ مؤمنهم وكافرهم، وفيه دعوة لطيفة للمؤمنين أن يُنقذوا إخوانهم في الإنسانية ممن وقع في شباك الشيطان.

﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمُ﴾ مشيئة مرتبطة بأسمائه الحسنی ولا تنفك عنها، فهو الرحيمُ الحكيمُ الملكُ الحقُّ الذي لا يظلم أحدًا من خلقه، فلا يُعَذِّبُ إلا مَنْ استحقَّ العذاب فعلًا، وأما رحمته فهي الأصل الذي سبق غضبه.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حقيقة كلية جاء بها تمهيدًا للرد على اعتراض المشركين على نبوته ﷺ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، والله أعلم بالنبين أيضًا ودرجاتهم ومن يصلح منهم لهذا الزمان أو ذاك ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾.

﴿وَوَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ مثالٌ على التفضيل، وكأنه يقول للمشركين: لستم أنتم الذين تختارون الأنبياء على هواكم، ولستم أنتم الذين تعلمون من يصلح منهم لكم أو لغيركم.

﴿فَلَا يَمْلِكُوتْ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمُ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ يتحدّى القرآن تلك الأوثان المعبودة من دون الله أن تكشف الضّر عن أصحابها أو تُحوّله عنهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يتضرّعون إلى الله وهم الأنبياء الذين تقدّم ذكرهم، والسياق جاء للمقارنة والمقابلة، كأنه يقول للمشركين: هؤلاء الأنبياء هم الذين يدعون فيستجيب الله لهم، بخلاف أصنامكم التي تدعونها فلا تقدر على جوابكم.

﴿يَدْعُونَكَ إِلَىٰ رَيْبِهِمُ الْمَوْسِلَةَ﴾ يطلبون كلّ ما يُقرّبهم إلى الله.

﴿أَتَيْتُهُمْ أَقْرَبُ﴾ إشارة إلى التنافس المحمود في الطاعات.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ يحذّره المؤمنون؛ لأنهم يعلمون أنه الحقُّ، وفيه تخويفٌ للمشركين ورتيبة.

﴿وَلَنْ يَمُنَ قَرِيبٌ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ قرية مشركة وظالمة مثل قريبتكم، والخطاب لأهل

مكة، وعموم القرية مخصوص بالسياق الظاهر في تمييز المؤمنين عن المشركين، ومخصوص أيضا بمثل قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ في علم الله الأزلي.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وما صرّفنا عن إنزال المعجزات وخوارق العادات الحسية إلا تكذيب الأقوام السابقة بها، فكانت سببًا في هلاكهم، ثم ذكر مثالا لذلك: ﴿وَأَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: آية بيّنة، وفيه إشارة أن القوم الذين بُعث فيهم محمد ﷺ لن يستأصلهم الله بعذاب؛ لأن رسالته ﷺ باقية ما بقي الليل والنهار.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ الناس هنا هم المشركون، والمقصود تطمين النبي ﷺ وتسليته لما يلقاه منهم من المكر والصدود والإيذاء، كأنه يقول له: لا تبتئس؛ فكل حركاتهم وسكناتهم تحت علمنا وقدرتنا، ولكن لكل أجل كتاب.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ اختبارًا لهم، ولتمييز المؤمن الصادق عن غيره، والأقرب من سياق السورة أنها: ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء، وهي رؤية حسية وليست منامية؛ إذ المنام لا يكون فتنة.

﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ معطوفة على الرؤية، بمعنى: أنها فتنة للناس كذلك؛ لأنها من الأخبار الغيبية، فلا يؤمن بها إلا المؤمن الصادق. وقد ورد أن بعض المشركين كان يسأل مُشَكِّكًا: كيف لشجرة تبقى في جهنم ولا تأكلها النار؟ وما علم أن بقاءه حيًّا في النار أغرب من بقاء الشجرة، لكن الآخرة لها نواميسها التي لا تُشبهها نواميس الدنيا.

والشجرة هذه قد ذكرها القرآن في أكثر من موضع؛ منها قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٥].

﴿وَرَدَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَأَيَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفِيزُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بَصُوتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَنَاسٍ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّهُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّيْنَا آلَ الْبَرِّ أَعْرَضُوا وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَيِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيَرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا يَوْمًا يُبْعَاثُ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِرِسْنِهِ فَأُولَئِكَ يَفْرَحُونَ بِكِتَابِهِمْ وَلَا يَظْلَمُونَ قَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

معركة الإنسان مع الشيطان

يُكرِّر القرآن الكريم قصة المعركة الأولى بين الإنسان والشيطان التي دارت قبل نزول آدم على هذه الأرض، وفي كل مرة يضيف القرآن صورةً جديدةً، أو بُعدًا آخر للمعركة، ولنقف مع هذا المقطع مُتدبِّرين ومُتَعِظِينَ:

أولاً: أمر الله الملائكة - ومعهم إبليس - بالسجود لآدم، فسجد الملائكة وأبى إبليس ﴿وَرَدَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وهذا هو محور القصة الذي يتكرر معها حيناً ورددت.

ثانياً: تأكيد على تكريم الله لهذا الإنسان وبيان فضله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، وهو تكريم مُتَّصِلٌ بالمسؤولية الكبرى التي يتحملها الإنسان بإدارة هذه الأرض وبرّها وبحريها، وقد زوّده الله بكلِّ

ما يلزمه من أدوات مادية ومعنوية من رزق متنوع متعدد، وتسخير المخلوقات وتذليلها له.

ثالثاً: كان هذا التكريم سبباً لإيقاد جمره الحسد المزوج بالتكبر، والتي دفعت إبليس إلى المجاهرة بالتمرد على أمر الله ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ الْآيَةَ.

وفي هذا درسٌ بليغٌ: أنَّ أساس الشر قد لا يكون عن غفلة أو جهل، ولا عن عجز أو كسل، وإنما الحسد الذي يدفع الإنسان دفعاً للهاوية، والتكبر الذي يُعمي القلب والبصر عن حقائق الأمور وعواقبها.

رابعاً: العناد، وهي الصفة الملازمة للحسد والتكبر، والتي تعني: الاستمرار في طريق الغواية ومحاربة الحق وأهله ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهذا إعلانٌ رسميٌ لبداية المعركة المستمرة بين الإنسان والشیطان.

خامساً: أدوات الشيطان التي استعملها في معركته هذه مع الإنسان إنما كانت في تحريك غرائز الإنسان في الأموال والأولاد، والوعود الكاذبة، والتزيين الباطل، كما قال في موضع آخر: ﴿قَالَ يَتَدَأْمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ خُلْدٍ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، لكنه هنا أضاف صورة أكثر جلباً وضجيجاً ﴿وَأَسْتَفْرِزُّ مَنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

سادساً: أنَّ هذه المعركة ستقسم الناس على فريقين: الأول هم الناجون الفائزون، وهم الموصولون بالله، والمتوكلون عليه وحده ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾، والثاني هم حزب الشيطان وجنده ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾.

سابعاً: أنَّ عاقبة المعركة ستظهر جلية في ذلك اليوم الموعود ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمِيمِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ، يَمِيزْهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١) وَمَنْ كَانَتْ فِي

هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٦٥﴾

ثامناً: وفي ثانيا هذه المعركة تأتي التوجيهات الربانية والتذكير بالحقائق الكبرى التي تُثبِت المؤمنين وتحميهم، وتعدّهم بأسباب الصمود والمنعة ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَأَن يَكُم رَجِيماً﴾ (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴿٦٩﴾

فإذا كان الله وحده هو من يفعل ذلك - وهو القادر سبحانه على كل شيء -، ففي أي طريق يتيه أولئك الناس الذين يبتغون سعادتهم في خطوات الشيطان؟!

دقائق التفسير

﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ أي: خلقتَه من طين، والطين طورٌ من أطوار خلق آدم ﷺ، والسؤال فيه معنى التهكم بآدم والسخرية منه تكبراً وغروراً. ﴿لَا حَتَمَ لَكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ تهديدٌ وقحٌ باستئصال ذرية آدم، وحملهم على معصية الله الواحد الأحد سبحانه.

﴿جَزَاءُ مَوْفُورًا﴾ كافياً لكم ولمن تبعكم.

﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ استخِفَّ واسترلَّ من تقدر عليهم بوسوستك، وسمى الوسوسة هنا صوتاً؛ تشبيهاً له بقائد الجيش الذي يُصدرُ أوامره بقوة، والتشبيه هنا مُناسبٌ للمسياق والصورة الكلية للمشهد.

﴿وَأَتَجَلَّبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْالِكَ وَرَجُلِكَ﴾ اجمع عليهم كلَّ راكبٍ وكلَّ ماشٍ من جُنْدِكَ وأتباعك، وفيه تأكيدٌ لمشهد المعركة.

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ تقريرٌ لمداخل الشيطان الكبيرة التي ينفذُ من خلالها لإفساد

الحياة، المال كسبًا واحتكارًا، وتبذيرًا وإنفاقًا له في وجوه الباطل والعُدوان والمآثم المختلفة، والأولاد بتنشئتهم على الضلال والرذيلة والمنكر، وقد تبدأ هذه التنشئة الفاسدة بالعلاقات الجنسية المحرّمة، واختيار الزوجة التي لا تتحمّل مسؤولية بيتها وأولادها، وهكذا.

﴿وَعَدَهُمْ﴾ اخدعهم بالوعود الباطلة من التمكين في الدنيا والتكذيب بالآخرة.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ ليس لك قوّة على إغوائهم، وهم الموصولون بي ذكرًا ومعرفةً وعبادةً.

﴿يُزْجَى﴾ يسوق.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ الخوف من التّيه والغرق.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ للنّعمة ناسيًا لها، غافلاً عن شكرها، وهذا ظاهرٌ في طبع الإنسان وسجيّته العامة، وليس على سبيل الاستغراق لكلّ فردٍ فيه.

﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا عاصفةً ترميكم بالحصباء، وهي الحصى.

﴿فَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ ريحًا تقصفُ سفنكم وتقلبها في البحر.

﴿يَبِيعًا﴾ من يُناصركم ويثأر لكم.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ذلّلنا لهم البرّ والبحر.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ تفضيلًا تقتضيه وظيفتهم على هذه الأرض،

وهي: الاستخلاف وإدارة الأرض بحكم الله وشرعه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْعَانٍ﴾ هو يوم يقومُ الناس للحساب، ويكون التمايز بالأعمال

المدوّنة في كتاب كلّ واحدٍ منهم، فيتميّز هناك أتباع الأنبياء عن أتباع الشياطين.

﴿فَتِيلًا﴾ الشيء التافه، وأصله القشر المفتول في شقّ النواة.

﴿وَمَن كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ عن الحقّ، والمجاز ظاهر فيه ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن الجنة

وكلّ خيرٍ فيها، وهو مجازٌ ظاهرٌ كذلك.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوحِیْنَا إِلَیْكَ لَتَفْتَرِی عَلَیْنَا غَیْرَهُ وَإِذَا لَا تَعْدُوكَ خَیْلًا ۖ (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرَ لَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرَكُنْ إِلَیْهِمْ شَیْنًا قَلِيلًا ۖ (٧٤) إِذَا لَا ذِفْنَكَ ضِعْفَ الْحَیْوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَعْدُ لَكَ عَلَیْنَا نَصِيرًا ۖ (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَیَسْتَفْزِرُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لَیُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا یَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَعْدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۖ (٧٧) أَفَمِنَ الصَّلَوةِ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّیْلِ وَفَرَمَانَ الْفَجْرِ إِنْ قُرَأَ الْفَجْرُ كَانَتْ مَشْهُودًا ۖ (٧٨) وَمِنَ اللَّیْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ یَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ۖ (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ۖ (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۖ (٨١) وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا یُزِیدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۖ (٨٢) وَإِذَا أَنْفَسْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ یَئُوسًا ۖ (٨٣) قُلْ كُلٌّ یَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ۖ (٨٤) وَیَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی وَمَا أُوتِیْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۖ (٨٥) وَلَیْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أُوحِیْنَا إِلَیْكَ ثُمَّ لَا تَعْدُ لَكَ بِهِ عَلَیْنَا وَكَبِيلًا ۖ (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَتْ عَلَیْكَ كَیْفًا ۖ (٨٧) قُلْ لَیْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیرًا ۖ (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۖ (٨٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ بَنُوعًا ۖ (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجْمٍ وَغَضِبَ فَتَقْجِرَ الْأَنْهَارُ خِلْفَهَا تَقْجِیرًا ۖ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَیْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنَارٍ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ۖ (٩٢) أَوْ یَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَیْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّی هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ یُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ (٩٤) قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا یَسْأَلُكَ بِشُؤكَ مَطْمَئِنِّنٍ لَنَزَّلْنَا عَلَیْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِیدًا بَیْنِي وَبَیْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِمَا یَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۖ (٩٦) وَمَنْ یَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ یَضِلَّ فَلَنْ یَجِدَ لَهُمْ أَوْلَیَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ یَوْمَ الْقِیَمَةِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ عُمَیًا وَنُكَمَا وَصُنَا مَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ۖ (٩٧) ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآیَاتِنَا وَقَالُوا أَهَذَا كُنَّا عِظَمًا وَرُفْقًا أَوْ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۖ (٩٨) أَوَلَمْ یَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ یَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَیْبَ فِیهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ۖ (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّی إِذَا لَا أَنْتُمْ كُفُورًا ۖ (١٠٠) وَكَانَ الْإِنْفَاقُ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَفُورًا ۖ (١٠١) وَلَقَدْ مَالَآ مِائَتَا مِائَتٍ یَنْتَظِرُ فَسَخَّرَ بِنَبِّیِّ إِسْرَءِیلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ یَمُوسَى مَسْحُورًا ۖ (١٠٢) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَیْرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَشْبُورًا ۖ (١٠٣) فَأَرَادَ أَنْ یُسْتَفْزِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِیعًا ۖ (١٠٤) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِّی إِسْرَءِیلَ أَنْكَبُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِیفًا ۖ (١٠٥) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ (١٠٦) وَفَرَمْنَا أَنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكَبٍّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِیلًا ۖ (١٠٧) قُلْ مَا یُؤْمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا یُسْأَلُونَ عَنْهُ یُخْبِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سَجْدًا ۖ (١٠٨) وَیَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ (١٠٩) وَیُخْبِرُونَ لِلْأَذْقَانِ یَسْكُوتُ وَیَزِیدُهمْ خُشُوعًا ۖ (١١٠) قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ إِنَّا مَا نَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَمْنُرْ بَصْلَايَا وَلَا تُخَالِفْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۖ (١١١) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَمْ یَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ یَكُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْكِ وَلَمْ یَكُنْ لَهُ وَلِیٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرًا

تَكْبِيرًا ۖ (١١٢)

معركة الحق والباطل

استمراراً لمعركة الشيطان مع الإنسان، يعرض القرآن الكريم في هذه الآيات صورة أخرى لهذه المعركة الطويلة العميقة، صورة أولئك الذين احتنكتهم أحابيل الشيطان فابتعدوا عن نهج الفطرة، وناصبوا الحقَّ العداء، صورة مُتكررة في مواجهة كل دعوة كريمة، وهنا يقفُ مُشركو مكة مُجندين أنفسهم للشيطان في معركة مفتوحة مع النبي الخاتم ﷺ والثلة التي آمنت معه، وهذه معالم تلك المعركة بحسب ما أوردته هذه الآيات:

أولاً: محاولة تشويه هذه الدعوة المباركة وحرفها عن مسارها المستقيم ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُكَ خَلِيلًا﴾.

ثانياً: العمل على إخراج الرسول ﷺ من أرضه التي نشأ فيها، والمجتمع الذي تربى فيه ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

ثالثاً: المجادلة بالباطل، وإثارة الشبهات، وطلب الخوارق والمعجزات في سلسلة مُترامية وغير متناهية، دون النظر في مضمون الدعوة وأهدافها وغاياتها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ ۝١٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝١١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝١٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

رابعاً: التكذيب بالآخرة، والتشكيك بيوم الحساب الذي هو الدافع الأقوى للالتزام بمنهج الحق والثبات عليه ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا آءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

ثم بعد كل ذلك يأتي الردُّ القرآني بالمنهجية التي تجمع بين العلم والرحمة والقوة، في منظومة بنائية هادفة بعيدة عن ردود الأفعال، وبنقاط محددة وواضحة:

أولاً: تثبيت الصفِّ المؤمن ومدِّهم بعوامل الصمود والثقة والاستقرار ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْنَتَكَ

لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ﴿١٠٧﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٩﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١١٠﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١١١﴾

ثانيًا: ترسيخ معاني الإيمان والتدين العملي الموصول بالله ذكرًا وعبادةً وتجرُّدًا وخشوعًا ﴿١٠٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿٨١﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٨٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرَةٌ كَبِيرًا ﴿٨٣﴾

ثالثًا: تأكيد المعجزة القرآنية الخالدة، وأنه الحجة الظاهرة والفيصل الثابت بين الحق والباطل ﴿٨٤﴾ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٥﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٦﴾ ﴿٨٧﴾ وَيَالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨٨﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿٨٩﴾

رابعًا: تأكيد التمايز بين الفريقين، وأنه جارٍ على سنن الله التي لا تتخلف وتحت حكمته وإرادته المطلقة ﴿٩٠﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٩١﴾ ﴿٩٢﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٣﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴿٩٤﴾

خامسًا: مجادلة أهل الباطل بما يُقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، واختيار الميدان النافع والمثير بعيدًا عن المباحكات والمراء الفلسفي العقيم، ففي بشرية الرسول نرى كيف يردُّ

عليهم القرآن ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ ﴿٩١﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ۖ ﴿٩٢﴾ وفي إنكارهم للبعث يقول: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَّتًا ءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۖ ﴾، وفي نظرهم للرزق والتعامل المادي يقول: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ۖ ﴾.

سادسًا: التذكير بالتجارب السابقة، لربط سلسلة الصراع بعمقها التاريخي؛ إذ لا يخلو زمن ما من صورة من صور هذا الصراع ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَبَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۖ ﴾ ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَزَلَّ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَشْجُورًا ۖ ﴾ ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا ۖ ﴾ ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۖ ﴿١٠٤﴾

وهنا إشارة للمستقبل أيضًا، وربما هو الذي نراه اليوم واقعًا في فلسطين ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۖ ﴾، وسياق السورة يُعْضِدُ هذا الفهم؛ إذ كانت السورة قد بدأت بالحديث عن المسجد الأقصى ودخول بني إسرائيل فيه كَرَّةً بعد كَرَّةٍ، والله أعلم.

سابعًا: بيان العاقبة الحاسمة والنهائية لهذا الصراع ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۖ ﴾، أما في الآخرة فسيرى أهل الباطل مصيرهم الأسود الذي لا مفرٍّ منه ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبِكُمَا وَصَمَّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ۖ ﴾ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ۖ ﴿١٨﴾

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ هذا مطعمهم وغاية مكرهم، لكن هذا لا سبيل لهم إليه؛ للعهد الإلهي الذي لا يتخلف بحفظ القرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ومن لوازم هذا الحفظ: حفظ الرسول المبلّغ عن الله، وهذا هو المحكم الذي لا ينبغي أن يُعارض بالمتشابهات، وبالروايات المضطربات والمختلفات.

﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ تأكيد لعصمته ﷺ؛ إذ هي من الثبوت الإلهي الذي لا يتطرق إليه الشك أو الخرق.

أما الميل القليل فهو: رغبته - بأبي هو وأمي - أن يهدي الله قومه، والتي ربما دفعته للتفكير بما يتوعد به إليهم لعله يكسر فيهم حاجز العناد، وهذا التوعد إنما هو في باب السياسات والموازنات، كما حصل معه ﷺ في قصة الأعمى، أما أن يتنازل لهم عن حرف واحد مما أوحى إليه، فهذا المحال الذي ما بعده محال.

﴿ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أي: عذاباً مضاعفاً في الحياة بالشقاء والمصائب ونحوها، وعذاباً مضاعفاً في الآخرة، وهو تهديد لمن يُحرّف الدين إرضاءً لهذا الطرف أو ذاك، وهو تقرير للحكم العام الذي ينطبق على كل مُتلاعب في الدين، وإن جاء هذا التهديد تفرّيعاً وجواباً لقوله: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ الآية؛ إذ إنه ﷺ قد نزهه الله في هذه الآية نفسها وأثبت العصمة له، فيبقى الحكم على غيره قائماً، ويكون المعنى في النهاية كما تقول العرب: إِيَّاكَ أعني واسمعي يا جارة.

وشدة الوعيد ظاهرة في هذا الخطاب، كأنه يقول لهم: إذا كان هذا جزاء الرسول ﷺ لو مَالَ عن الحق الذي أوحاه الله إليه وثبته عليه، فكيف بغيره؟

﴿ لَيْسَتَفِرُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ يؤذونك بأصناف الأذى؛ حتى تخرج من مكة على عجل، وقبل الوقت المناسب للهجرة.

﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْقَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لمن يُؤذون رسولَ الله ويخرجونه من أرضه، بأنهم لا يمكنون في مكة بعده إلا قليلاً، وقد تحقق هذا بعد هجرته ﷺ؛ حيث خرج أبو جهل وكبراء القوم معه فقتلهم الله في بدر، ثم أراح الله سلطانهم عن مكة بالكامل بيوم الفتح. وقد وهم من ظنَّ أنَّ المقصود بهذا الخطاب هم يهود المدينة؛ لمخالفته لظاهر السياق، وكذلك لأن هذه السورة مكيَّة وليست مدنيَّة.

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أنَّ الله يهلك القوم الذين يخرجون رسولهم؛ إذ لا ينزل عذاب الله الشامل على قوم وفيهم رسولهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ بيان لأوقات الصلوات الخمس، فذلوك الشمس زوالها عن خط الاستواء، وهو وقت صلاة الظهر، وهي أول الصلوات، ثم قال: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي: إلى اكتمال ظلمته بغياب الشفق؛ ليشمل صلاة العصر والمغرب والعشاء، فهذا وقتٌ ممتدٌ من الزوال إلى الغسق، وليس معناه وقتين مُحدَّدين، كما يتوهم بعضهم؛ لأنه قال: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ولم يقل: وغسق الليل، أما صلاة الفجر فأفردت؛ لانفرادها في الوقت، وللتذكير بخصوصيتها ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: تشهد الملائكة، والله أعلم.

﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ زيادة في الحسنات والقربات.

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي لا تكون لغيره، كما ورد في الأخبار الصحيحة؛ حيث يلتجئ الخلق جميعهم إليه ليشفع لهم عند ربهم في ذلك اليوم العصيب، وهي شفاعة تُعظم من شأن رسول الله، وتُظهر منزلته عند الله، وهي سببٌ من أسباب رحمة الله.

أرأيت دعاء الأخ لأخيه، والولد لأبيه؟! إنها أسبابٌ كذلك، إلا أنَّ الشفاعة أعظم وأشمل

وأقرب، جعلنا الله ممن يحظى بها وبمجاورته ﷺ في تلك الجنان الباقيات.

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ أمر بالتضرع إلى المولى الجليل أن يجعله صادقاً مصداً في دخوله وخروجه، وحله وترحاله - في إشارة إلى الهجرة -، لكنه دعاء عام لكل زمانٍ ومكانٍ، ولكل حركةٍ وسكنةٍ.

فالمؤمن يخرج من مكانٍ إلى مكانٍ، ومن وقتٍ إلى وقتٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ، وختامها خروجه من دار الممر والاختبار ودخوله في دار الجزاء والقرار، وهو في كل هذا ينبغي أن يستشعر حاجته إلى هذا الدعاء الصادق الودود، فالعبرة دائماً بعموم اللفظ لا بخصوص السبب أو المناسبة.

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ إشارة إلى أن الباطل يزهد عند ورود الحق عليه ومزاحمته له، وهي مسؤولية تكليفية لا تخفى.

﴿ وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ لعل الحياة وأدوائها، و﴿ مِنْ ﴾ للتبويض؛ لأن القرآن ينزل مُنَجِّماً بحسب الحاجة والسؤال، وقد أكدت هذا المعنى خواتيم السورة ﴿ وَفُورًا ﴾ فرقتُهُ لِقُرْآنِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴿.

﴿ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ على طريقته.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ الروح كائن لطيفٌ حالٌ في جسد الإنسان، وله آثاره المعروفة في وعي الإنسان وشعوره وسلوكه، لكن هذا الكائن ليس من جنس الكائنات المادية التي تُدرك بالحواس، ولا يُقدَّر بمقادير الأحجام والأوزان والأشكال والألوان، ومن ثمَّ فإنَّ السؤال عن ماهية هذا الكائن قد يُقصدُ به التعجيز، أو هو على الأقل نوعٌ من التكلف الذي لا يُناسب حاجة البشر ولا قدراتهم الإدراكية، ولو أنبأنا الله بهمايته فرضاً، فإنَّ لُغَتَنَا الأدمية غير قادرة على فهم هذا التعريف؛ إذ إن اللغة لو حداها مهبها كانت فدية، فإِنَّهَا لا تنقل الصورة ما لم يسبقها تصوُّر سابق مبني على الحس.

فلو سمعتَ مثلاً كلمة أسد، فإن هذه الكلمة لا تنقل لك صورة الأسد وحقيقته ما لم تكن قد رأيتَ صورةً للأسد من قبل، بمعنى أنك حينما تسمع أي كلمة، فإن العقل يستدعي الصورة المقترنة بهذه الكلمة والمخزونة في الذاكرة، وهذه مشكلة الإدراك البشري في كلّ المفردات التي تأتيها من بيئة أخرى، فما بالك بعالم الغيب؟

وقد اضطربت الروايات في تحديد السائل، والظاهر من سياق السورة ووقت نزولها أنهم المشركون من أهل مكة، ولا يبعد أن يكون اليهود هم من لقن المشركين هذا السؤال، ولا مانع أيضاً أنهم - أي: اليهود - قد كرّروا هذا السؤال في المدينة بعد الهجرة، ولا مانع أيضاً أن المشركين بادروا بهذا السؤال من أنفسهم؛ لأنه سؤال إنسانيّ عامّ ومتكرّر في كلّ جيل، ومهما كان مصدر السؤال فإن المغزى من الآية في بيان عجز الخلق عن إدراك مثل هذه الحقائق الغيبية واحد ولا يختلف.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ تأكيد لإرادة الله المطلقة، لكن الله بإرادته سبحانه قد تعهّد بحفظ هذا القرآن، وبإكمال الدين وإتمام النعمة.

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ إعلان للتحدي العام الذي يشمل كلّ الإنس وكلّ الجن ولو كانوا مجتمعين عليه ومتعاونين، وقد مضى على هذا الإعلان أربعة عشر قرناً دون أن يستجيب أحد منهم لهذا التحدي، وهذا هو الإعجاز الحقّ.

أما وجه الإعجاز فهو عامّ أيضاً في كلّ آيات القرآن بأسلوبه وبيانه ومعانيه وأخباره وأحكامه، ولا دليل على تخصيص وجهٍ دون وجهٍ.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ فصلنا كلّ المعاني التي تنفع الناس، وتُلبي حاجاتهم، وتوضح لهم طريق الحقّ من طريق الباطل.

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ بعد أن عجزوا عن مجازاة القرآن،

ذهبوا للطريق التي لا تجديهم نفعًا، فراحوا يقدّمون طلباتهم وشروطهم للاستجابة، وكأنهم هم المتفضّلون على الله إن هم آمنوا به وبرسوله.

﴿كَسَفًا﴾ قطعًا.

﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ لأن الرسول إنما يكون من جنس قومه.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: مكبوين عليها من الذلّ والصغار.

﴿تَسَعَ آيَاتٍ﴾ المعجزات التي أيد الله بها نبيّه ورسوله موسى ﷺ، كالعصا والطوفان وانفلاق البحر وغيرها.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إثبات العلم لفرعون بحقيقة هذه الآيات ومصدرها دليل على أن فرعون لم يكن جاهلاً برسالة موسى، وإنّما هو العناد والكبر.

﴿مُتَجَبِّرًا﴾ هالكا.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أراد أن يحملهم على التعجّل بالخروج.

﴿فَاغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ فيه تهديدٌ ضمنيّ لأهل مكة الذين كانوا يمكّرون برسول الله ﷺ ليحملوه على ترك مكة.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ الظاهر من سياق السورة كلها أن القرآن يتكلم عن تجميع اليهود في فلسطين من كل أصقاع العالم، والواقع يصدّق هذا الفهم، وهذه الآخرة سيُسلطُ الله عليهم من يسومهم كما في المرّات السابقة؛ تحقيقاً لوعده الحقّ: ﴿وَلَإِنْ عُدْتُمْ عَدَاً﴾.

﴿وَالْحَقُّ أَنْزَلَنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا﴾ صفتان للقرآن الكريم بلفظين مُتقارِبين، فالصفة الأولى تعني: أنّه ثابتٌ ومنتقنٌ أنّه مُنزّلٌ من الله بلا شك ولا ريب، والثانية: أنّه نزل بين الناس ليقيم الحقّ الذي هو ضدّ الباطل ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: أنزلناه مفرقًا بحسب النوازل وتجدد الحاجات.
﴿يَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون عليها سجدة الله، والذقن: مجمع اللحيين أسفل الوجه، وفي الآية تنويه بمكانة العلماء الربانيين الذين يتدبرون القرآن عن علم وبصيرة، جعلنا الله تعالى منهم.

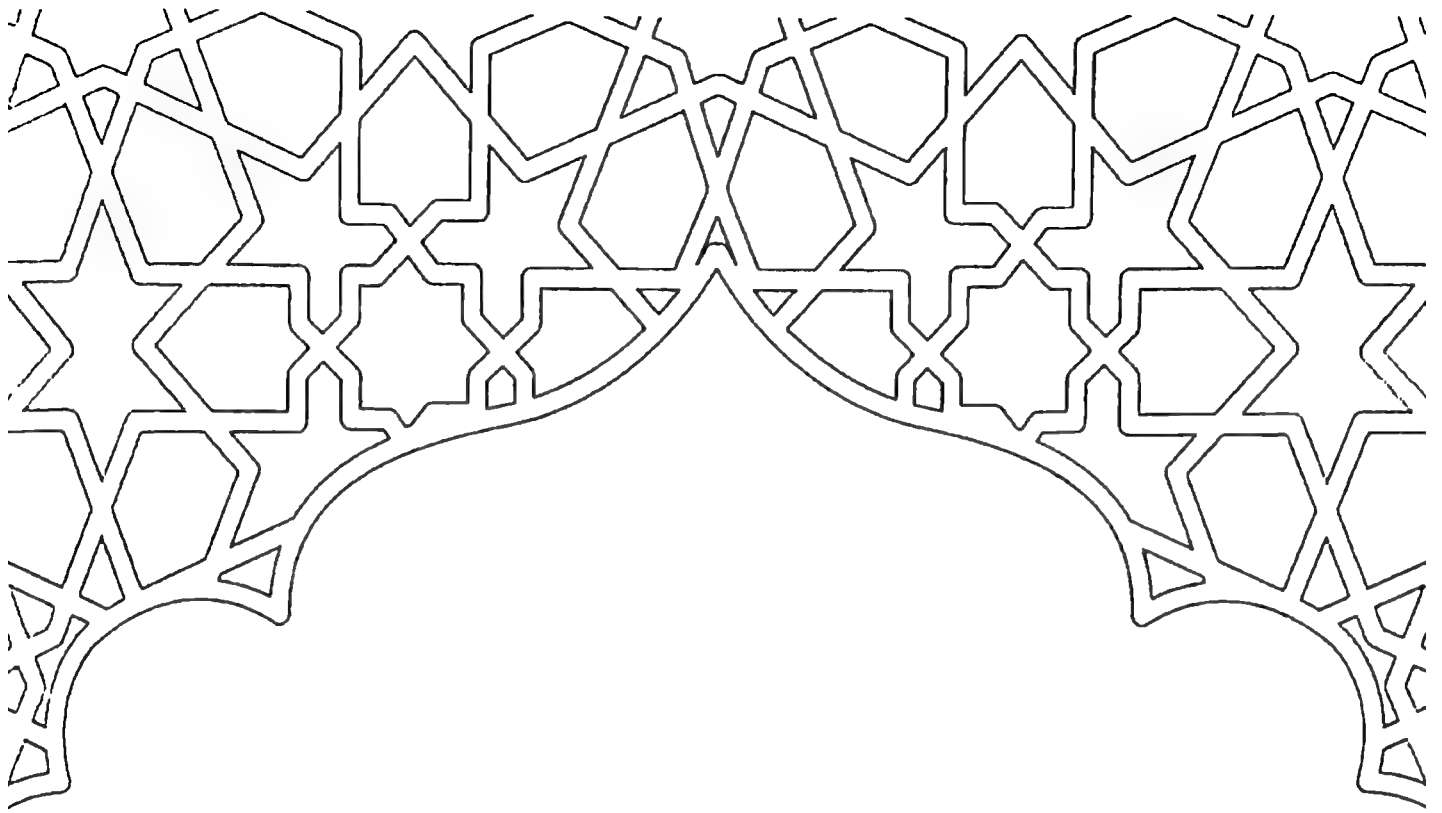
﴿وَيَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ تأكيد لتأثير نور القرآن في تلك النفوس الزكية، فالقرآن ليس كتاب معلومات ومعارف مجردة، إنه النور الذي يُخَالِطُ القلوب والأرواح، ويسقيها من فيضه النقي؛ لتُثَمِّرَ السلوك الأجل والأكمل في هذه الحياة.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ تذكير بعظمة أسمائه سبحانه، فلكل اسم معنى لطيف يُسهم في بناء هذا الإنسان من داخله، ويُقرِّبه من خالقه.
وقد خصَّ هنا اسمه (الرحمن) بالذكر؛ تنبيهًا على صفة الرحمة الغالبة على أسمائه وصفاته تبارك وتعالى، ولتلقني في النفوس المتعبة معنى جميلًا، وظلًا ظليلًا.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ تعليم وتدريب على الاعتدال في كل شيء، فلا ترفع الصوت بالمستوى الذي يُشوش على غير المصلين، ولا تُخَافِتْ به فلا يسمعه المصلون، فرفع الصوت إنما يكون بقدر الحاجة، وهكذا يكون كل سلوك المؤمن في حركته وسكنته، ومأكله ومشربه، ونومته ويقظته.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ تأكيد لتوحيده تعالى في الملك؛ إذ لا مالك لهذا الكون سواه، بحكم أنه لا خالق له غيره.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي: لم يتخذ نصيرًا له بسبب ذلِّ أصابه أو يتخوفه - تعالى عن ذلك -، فهو العزيز الغني عن خلقه، وكلُّ خلقه مفتقرٌ إليه، والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.



سُورَةُ الْكَافِي

المجلس الرابع والعشرون بعد المائة: أصحاب الكهف

المجلس الخامس والعشرون بعد المائة: قصة المؤمن مع صاحبه الكافر

المجلس السادس والعشرون بعد المائة: قصة الصراع الطويل بين الحق والباطل

المجلس السابع والعشرون بعد المائة: قصة النبي موسى مع الرجل الصالح عليه السلام

المجلس الثامن والعشرون بعد المائة: قصة ذي القرنين

المجلس التاسع والعشرون بعد المائة: وقفات ختامية

سُورَةُ الْكَهْفِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ (١) فَيَسَاوِي لِنُذْرٍ رَسُولًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُنَبِّئُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَعَمَّلُونَ
 الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَنَّكَتِ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَنُذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ
 كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَمَّا كُنْتُمْ تَفْسِكُمْ عَلَى مَا نُهُتُمْ عَنْهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَصْفًا (٦)
 إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ
 الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)
 فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْسَنُ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ
 بِالْحَقِّ إِنْهُمْ فِيهِمْ فَنَبِّئُهُمْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوهُ مِنْ
 دُونِهِ إِنَّا هُمْ قُلُوبًا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِنْ
 أَفْرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِزْقًا
 (١٦) وَرَأَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوَرُّ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
 مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ
 وَكُلُّهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعُهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبِّئَهُمْ
 قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ
 فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنْهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ
 يُعَبِّدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ
 يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ
 ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ
 إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 وَذَكَرَ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ
 أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ، وَأَسْمِعُ مَا لَمْ يَحْضُرْ مِنْ دُونِهِ، مِنْ وَلِيِّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ
 إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقَدْوَةِ وَالشَّيْءِ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)

أصحاب الكهف

بدأت سورة الكهف بالتذكير بالأسس الإيمانية والدعوية التي تمثل المدخل المأمون لقراءة القصص الجديدة والفريدة التي تميزت بها هذه السورة، ومن هذه الأسس:

أولاً: تأكيد موثوقية القرآن في كل أخباره وأحكامه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾.

ثانياً: تأكيد رسالة القرآن، وأنه كتاب نذارة وبشارة ﴿فِيمَا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

ثالثاً: نفي الموثوقية عن كل مصدر يُناقض أصل التوحيد والفطرة والعقل السليم ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

رابعاً: إن فلسفة الخلق الكبرى إنما تقوم على الاختبار، وتميز المصلح عن المفسد، وأهل الحق عن أهل الباطل ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

خامساً: إن مهمة الداعي أن يدعو الناس كل الناس لهذا الهدى المستقيم، ثم يكمل الأمور إلى الله مهما أصر أهل الباطل على باطلهم ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَائِثِهِمْ إِنَّ لَكَ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

سادساً: إن حياة الناس لها أمدٌ محدودٌ، وأجلٌ موقوتٌ، ثم يُفْضِي كُلُّ عَامِلٍ إِلَى مَا عَمِلَ ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

بعد هذه المقدمات يدخل القرآن في القصة الأولى، وهي قصة أصحاب الكهف، ويمكن تحديد عناصرها في الآتي:

أولاً: يلخص القرآن هوية أصحاب الكهف بقوله: ﴿لَحْنُ نَفْسٍ عَلَيْكَ نَبَاهُهم بِالْحَقِّ إِنَّهم فِتْنَةُ ءَامَنُوا بِرَبِّهم وَزِدْنهم هُدًى﴾.

ثانيًا: إنهم كانوا في قومٍ مشركين ﴿ هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُوا عَلَيْهِمُ سُلْطَانٌ بَيِّنٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ ﴾.

ثالثًا: إنهم كانوا يخشون سطوة قومهم وأن يُكرهوهم على الردّة وعبادة الأوثان ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۖ ﴾.

رابعًا: ولذلك قرّروا اعتزال قومهم والبعد عنهم ﴿ وَإِذْ أَعَزَّلْنَاهُمْ وَلَمَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ فَاوْرَأُ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۖ ﴾.

خامسًا: أجرى الله عليهم آياته؛ حيث مكثوا في كهفهم رقودًا زمنا لا يستطيعه حيٌّ في العادة ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ ﴾.

سادسًا: أنهم كانوا في كهفهم بحالٍ مختلفٍ عما اعتاده الناس في نومهم ويقظتهم ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آتِقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۖ ﴾.

سابعًا: ثم إن الله بعثهم ليكونوا آيةً على إرادة الله المطلقة، وقدرته الظاهرة على البعث والنشور ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ۖ ﴾.

ثامنًا: إنهم ظنّوا أنهم لم يلبثوا في رقادهم كلّ هذا الزمن الذي تعاقبت فيه الأجيال ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ ﴾؛ ولذلك كانوا خائفين حذرين ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۖ ﴾.

تاسعًا: يتّضح أن قومهم بعد مرور هذه الأجيال قد تغيّروا من الكفر إلى الإيمان، وقد جاء هذا في إشارة قرآنيّة سريعة: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ ﴾؛ إذ لا يمكن أن يفكّر ببناء المسجد إلا المؤمنون، والراجح أنه مثل قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ

إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴿البقرة: ١٢٥﴾، وليس هنا محل بسط الخلاف في هذه المسألة.

عاشراً: أعرض القرآن وفق منهجيته العملية الهادفة عن كلِّ مرأٍ وجدالٍ حول بعض التفاصيل التي لا تنفع العامل المتدبِّر ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُحَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْراً وَلَا تُسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

حادي عشر: ختم الله هذه القصة بالوصية العملية المستنبطة من روح القصة وغاياتها: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ فكما كان فتية الكهف عصبة واحدة على قلبٍ واحدٍ صابرين محتسبين - وإن وقف بوجههم الباطل كله -، فكذلك الواجب على أهل الإيثار في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، مهما اختلفت أنسابهم وأحسابهم ومستوياتهم.

دقائق التفسير

﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ عِوَجًا﴾ العوج ضد الاستقامة.

﴿قِيَمًا﴾ من الفعل قَوَّمَ، وأصله الاعتدال والاستقامة، والقيام على الشيء بمعنى: رعايته والمحافظة عليه، ومنه القيمة بمعنى: المعيار الذي تُقاس به الأشياء، وكلُّ هذه المعاني من خصائص القرآن الكريم.

﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ يُنذِر الكافرين العذاب الشديد الذي ينتظرهم من الله.

﴿فَلَمَّا كَانَ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَاجِغُونَ فَعَلَّمَ لَدُنْ رَبِّهِمْ كُلَّ سُورَةٍ مِّنَ الْكِتَابِ وَآيَاتٍ مُّزِينَةٍ وَأَنَّا كَانَتْ تُوقِعُ النَّفْسَ الْكَافِرَةَ فِي الْيَأْسِ فَكَانَ يُنْذِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْيَأْسِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ قلب رسول الله ﷺ من الحزن على قومه؛ حيث يتولَّون عنه بعد سماعهم الذكر وهم مُبْغِضُونَ على كفرهم وضلالهم، وباخِعٌ نفسك: مُهلِكها، عبارة عن شدة الحزن.

﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ذاك يوم الساعة؛ حيث تتحول الأرض إلى خراب

وتراب قاحل لا يمسك ماءً، ولا ينبت زرعًا.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي: هل ظننت أن ما جرى لأصحاب الكهف من الخوارق كان شيئًا عجيبًا في آيات الله؟ فأيات الله أكبر وأوسع من هذه القصة.

والتنبيه هنا على قدرة الله ومشيبته المطلقة سبحانه، خاصة أن سورة الكهف قد ضمت من الآيات الباهرات في كل قصة من قصصها، أو مشهد من مشاهدتها.

﴿وَالرَّقِيمِ﴾ بمعنى: المرقوم، وهو الشيء الذي يُدَوَّن عليه، ولعله لوح من صخر أو نحوه دَوَّن عليه الناس أسماء أصحاب الكهف لما عثروا عليهم، ولا يبعد أيضًا أن يكون الرقيم الجبل الذي كان فيه الكهف؛ إذ الرقيم أيضًا: المكان المرتفع والبارز للدلالة، والله أعلم.

ثم إنَّ الناس قد اختلفوا في مكان الكهف والرقيم على أقوال كثيرة، والباب مفتوح للتنقيب والبحث العلمي، وليس في ذلك حرج، لكن تحديد المكان مهما كان لا تنبغي عليه مسألة دينية.

﴿وَإِذْ أَوْىٰ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ تنبيهٌ إلى دور الشباب في الخروج عن خيمة التقليد الفاسد، وقدرتهم على تحمل أعباء هذا الخروج.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ كناية عن النوم العميق؛ لأن الأذن السليمة لا يحجبها عن سماع الأصوات إلا النوم.

﴿لِنَعْلَمَ أَى الْحَزِينَيْنِ﴾ الفريقين، والظاهر أنَّهما من أهل القرية الذين عثروا على أصحاب الكهف، واختلاف الناس في مثل هذا معروف ومعهود.

﴿أَخَصَىٰ لِمَا لَبِثُوا﴾ من الإحصاء، وهو العدُّ، والمقصود القول الأصوب في تقدير المدة التي لبثوها.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ثَبَّتْنَاهُمْ وَصَبَّرْنَاهُمْ، وهذا من جزاء الحسنة بالحسنة.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَهًا﴾ الأقرب أن القيام

هنا معناه: القيام بالأمر، وتحمل المسؤولية بغض النظر إن كانوا قد قالوا ذلك قيامًا أو جلوسًا، فالمدح في الثبات على الحق وإعلانه ومواجهة الباطل به.

﴿شَطَطًا﴾ القول البعيد عن الصواب، وأصل الشَّطَط: البُعد.

﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ يُؤَنِّبُونَ قومهم ويلومونهم أنهم عبدوا آلهة أخرى

من دون الله بلا حجة بيّنة ولا دليل.

﴿فَأَوْرَأَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ عَرَّفَ الكهف بالآلف واللام، وكأنه كان معهودًا فيما بينهم، ولربما

كانوا بالفعل قد وضعوه في حسابهم واختاروه مكانًا للاختباء عند الحاجة.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ييسط رحمته عليكم.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ وصف لحالهم أثناء رقودهم في الكهف، فهم في المكان الأوسع أو

الأوسط من الكهف، وليسوا في طرفٍ أو زاويةٍ منه، وكان مدخل كهفهم نحو الشمال؛

بحيث تدخل أشعة الشمس عند شروقها في جهته اليسرى فقط، ويبقى الظل في الجهة

اليمنى، فإذا مالت نحو الغروب تحوّل الظل إلى جهته اليسرى، وعلى هذا يكون الكهف في

حالة اعتدال طيلة النهار، ويبقى للشمس مكان في زوايا الكهف من شروقها إلى غروبها،

ومعنى تزاوَر: تميل، ومعنى تقرضهم: تتركهم، والله أعلم.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ مَنْ يراهم يظنُّهم أَيْقَاظًا، ربما بفتح عيونهم، أو بحركة

أجسادهم؛ لأنه قال عقب هذا: ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، وربما يكون كلُّ هذا

من الأسباب التي لا نعرفها، لكن الله جعلها وسيلة لحفظ هذه الأجساد من البلى، وهو

سبحانه الأعلم والأحكم.

﴿وَكَلَّبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ والوصيد مدخل الكهف، وهنا تكتمل الصورة الدقيقة للكهف ومن بداخله وحركة الشمس من حوله.

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ بنقودكم، والظاهر أنها من الفضة.

﴿فَلْيَنْظُرْ آيَاهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أطيب وأطهر وأبعد عن الشبهة.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ في ذهابه وإيابه ومعاملته في السوق.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ لا يجعل أحداً من أهل القرية يشعر بكم وبمكانكم، وفيه

تأكيد وجوب الحيلة والحذر، والأخذ بكل الأسباب المتيسرة؛ فإن احترام الأسباب التي وضعها الله في هذا الكون لا يقل أهمية عن احترام أمره ونهيه وتطبيق شريعته سبحانه.

﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: جعلنا الناس يعثرون عليهم.

﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا﴾ ليحفظ هذه القصة، ويكون شاهداً

للأجيال، فردّ آخرون وهم أصحاب الغلبة والسلطة: ﴿لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾.

والمسجد مكان للعبادة، وهو بُنيان أيضاً، ويؤدّي غرض البُنيان مع إضافة معنى الإيمان والشكر، والأصل في المسجد أنه مكان لعبادة الله وحده، ويبعد أن يكون هذا بقصد عبادتهم؛ إذ لو كان كذلك لأنكره القرآن لمحلّ الإيهام، وتأخير البيان عن وقت حاجته ليس في حكمته ورحمته بخلقه سبحانه، كما أن الآية ليست صريحة في أن البناء كان على أجسامهم أو أجدانهم، والله أعلم.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ هكذا

عقب القرآن على هذين القولين إشارة إلى بطلانها، ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ

كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ إشارة إلى أن هذا القول هو الأصوب، والله

أعلم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا﴾ إلا بقدر أخذ العبرة الظاهرة دون تعمق في الأسماء والأعداد التي لا تؤثر في العبرة، ولا تزيد فيها ولا تنقص، ثم أكد هذا بقوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، فما جاء في القرآن يكفيك عن السؤال.

﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ذكر الغد، والمقصود كل ما يستقبل من الأوقات ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تأديب لعباد الله في شخص النبي القدوة - بأبي هو وأمي - أنهم محتاطون فيما يعزمون عليه بذكر مشيئة الله؛ لأنه وحده الذي يعلم الغيب، ويعلم قابل الأيام والساعات.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت قول: (إِنْ شَاءَ اللَّهُ) عند العزم على أمرٍ مستقبلي، فقلها متى تذكّرت.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ الظاهر من الآية أنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة، ثم مدّ الله في عمرهم تسع سنين أخرى، فهذا معنى الزيادة الأظهر والأبسط، لكننا بحاجة لإثبات أنهم عاشوا كل هذه السنوات التسع بعد صحتهم، وهذا الإشكال حتى إن لم نجد له جواباً، فهو لا ينهض لوحده قرينة على صرف الزيادة عن معناها الظاهر. ولا يبعد أن يكون المقصود: أنهم لبثوا في كهفهم تسع سنين وثلاثمائة، وإنما سمّاها زيادة، على عادة العرب في قولهم مثلاً: أعطيتُه ألفاً وفوقها مائة، أي: أي لم أكتفِ بالآلف، بل زدته عليها.

ولما كانت الثلاثمائة كثيرة فيما اعتاده الخلق، اكتفى بذكرها القرآن أولاً، ثم عقب بإضافة الزيادة؛ ليكتمل العدد الصحيح الذي لا يعلمه إلا الله.

أما القول بأن التسع قصيد بها الفارق بين السنين القمرية والشمسية، فهذا من حيث الحساب الفلكي صحيح ودقيق، لكنه يشكل من حيث تسميته زيادة؛ إذ الفارق بين التوقيتين لا يعمل زيادة، ويشكل من ناحية أخرى: أن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لم

يكن لهم علم بهذا الفارق في الحساب، فكيف فهموا هذه الآية؟

نعم، لا بأس أن يقال: إنهم لبثوا في الحساب القمري تسع سنين وثلاثمائة، وأنه ظهر بالمقارنة أنه يساوي ثلاثمائة فقط من الحساب الشمسي، لا أن القرآن قصّد الحسابين معاً، وبمستوى واحد من الدلالة، فهذا تكلف لا يحتمله المنهج القرآني، والله أعلم.

﴿أَبْصِرْ بِهِ، وَاسْمِعْ﴾ إثبات السمع والبصر لله تعالى بالكيفية التي لا يُضاهيه فيها أحد من خلقه.

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ﴾ في بداية النهوض للعمل اليومي؛ استعداداً للإتيان والأداء الأفضل، وطلباً للبركة والتوفيق الإلهي، وبعد العودة منه استغفاراً ومراجعة ومحاسبة.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ لا تجاوزهم بنظرك واهتمامك إلى غيرهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ شتاتاً لا يجمعه جامع، وذاك أمر أصحاب الهوى المتقلب بحب المصالح الآنية.

سُورَةُ الْكَهْفِ

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِي آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢١﴾ * وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢٢﴾ كِلَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٢٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٢٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٣٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٣١﴾ وَأُحِيطَ بِشَعْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفْتِهِ عَلَى مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا ﴿٣٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٣٤﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٣٥﴾ الْأَمْالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٣٦﴾ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٣٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٣٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ فِيهِ وَيَقُولُونَ بَوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاشِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾

قصة المؤمن مع صاحبه الكافر

بعد الصورة التي عرضها القرآن الكريم لنموذج من الصراع بين فريقَي الحق والباطل، يعرض القرآن هنا صورة لنموذج آخر يلامس خوارج النفوس، والنظرة المختلفة لهذا الكون والحياة، ومعايير السعادة والشقاء، في حوار ثنائي هادئ إلى حد كبير، فلا يظهر فيه ذلك

الصخب، وتلك الحركة المليئة بالحياة والمفاجآت مما رأيناه في قصة الكهف، ويمكن رسم معالم القصة الجديدة كما يأتي:

أولاً: قدّم القرآن لهذه القصة بتأكيد قواعد المفاصلة بين الحقّ والباطل وبما يشبه حلقة الوصل بين القصة الأولى والقصة الثانية ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ فهنا طريق للحقّ وآخر للباطل، والإنسان مخيرٌ بينهما بلا إجبارٍ ولا إكراه، وهو يتحمل مسؤوليته الكاملة في هذا الخيار ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ هذه هي عاقبة الكافرين الظالمين.

أما عاقبة أهل الإيمان والصلاح فقد جاءت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

ثانياً: تدور القصة كلّها حول رجلين، أحدهما: غنيٌّ لكنه كافر، والثاني: فقيرٌ لكنه مؤمن ﴿وَأَضْرَبَ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

ثالثاً: كان الرجل الكافر مزهواً بهاله، مغروراً بقوّته ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾، وكان يتعالى على صاحبه الفقير ويقول له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

رابعاً: أما صاحبه الفقير فكان متمسكاً بإيمانه ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، وكان حريصاً على دعوة صاحبه لهذا الإيمان ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾.

إنه يُذكّره بتاريخ خلقه ونموّه من طورٍ إلى طورٍ حتى بلغ هذا الأشدّ، وأنه ليس له في قصّة خلقه شأن، فالله هو الذي خلقه من العدم، ومن ثمّ فهو الأعلّم به وبما يُصلحه، وكان يُذكّره أيضاً بنعمة الله عليه لعله يشكرها ولا يكفرها، ويستعملها بالخير بدل أن تشطّ به

نحو التكبر على عباد الله، وسوء الخلق معهم ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾.

وكان يُحذِّره من عاقبة هذا السلوك المُشين بحق الله وبحق عباد الله ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤١ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾، إنه يُذكِّره بأن السموات والأرض بيد الله وحده، وأنه سبحانه الذي سخر له كل هذه النعم قادر على أن يقلبها عليه بما يشاء، وكيفما يشاء.

خامسًا: ثم يعرض القرآن عاقبة هذا العناد والمكابرة الباطلة ﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ۖ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾.

سادسًا: وفي ختام هذه القصة عاد القرآن ليؤكد تلك الحقائق الكبرى التي هي أكبر من هذه الحياة وما فيها من تفاوت بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، وأن ما أصاب حديقة هذا المعاند المتكبر سيُصيب الحياة كلها؛ لأن الله لم يكتب لها الخلود ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴾.

وأما الذي يبقى حقيقة فإنما هو العمل الصالح والذكر الطيب ﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾، ووفق هذا المعيار العادل سيواجه الناس مصيرهم المحتوم الذي هو آتٍ آتٍ، طال الزمان أم قصر ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ تُرَابًا وَطَرًا ۖ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧ وَعَرِضْنَا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ رَعِمْتُمْ أَلَّا نَجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ۝٤٨ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَالٌ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

وهكذا تكون القصة بين المؤمن وصاحبه الكافر كأنها مدخل للوصول إلى هذه الحقائق وتأكيدا لها.

دقائق التفسير

﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ سُورُهَا، وما يحيط بها، في إشارة إلى أَنَّ مَنْ فِيهَا لا يمكنهم الهرب منها، وأصل السرادق: ما يقيمه المترفون وكبار القوم حول قصورهم ومجالسهم، من أبنية وأقواس للأبهة والزينة، وكأنَّ القرآن أراد أن يُذكِّرهم بذلك؛ تبيكيتاً لهم، وتهكُّماً بهم.

﴿يَمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كالمعدن المذاب.

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ منزلاً، وأصل المرتفق ما يُعدُّ للراحة والمقيل والسمر ونحو ذلك.

﴿مَنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ثياب منوعة فيها الرقيق ﴿سُنْدُسٍ﴾، وفيها السميك ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وكلها من الحرير والديباج.

﴿الْأَرَايِكُ﴾ جمع أريكة، وهي السرير.

﴿ءَأْتَتْ أَكْثَرَهَا﴾ أثمرت.

﴿وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص من الثمر شيئاً، بمعنى: أنها أثمرت ثمراً كاملاً بلا عيب ولا نقص.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ شققنا بينهما نهراً، والتفجير يوحى بقوة تدفق الماء من باطن الأرض، والظاهر أن فيها عيناً جارية.

﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أكثر أولاداً، بدلالة قول صاحبه المؤمن له: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ تعبير عن طول أمل ابن آدم ونسيانه لحقائق الدنيا ونوائب الدهر.

﴿وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ يعني أنه على فرض وجود الآخرة، فإن الله سوف يكرمني فيها كما أكرمني في الدنيا، كأنه يرى نفسه أهلاً للإكرام لخصوصية في نفسه، وهذا غاية العُجب الباطل، والغرور الكاذب.

﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ عذاباً مُقَدَّرًا من السماء، كالصواعق ونحوها.
﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ تراباً أو طيناً تزلق عليه الأقدام؛ لأنه لم يبق فيه شجر ولا زرع.
﴿غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ أحاط الدمارُ بثمره.

﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ تعبيراً عن الحسرة والندم.

﴿خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا﴾ صورة من صور الدمار ذهبت كالمثل في شدة الخراب: أن تسقط العروش أولاً - وهي السقوف -، ثم تتهاوى الجدران على السقوف، فيصير أعلاها أسفلها.

﴿وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ظاهر في ندمه، ولا مانع من توبته وأوبته للحق، والله أعلم به وأرحم.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ثوابه تعالى أفضل الثواب، والعاقبة التي وعد بها المؤمنين أفضل العواقب.

﴿هَشِيمًا نَذْرُهُ الرَّيْحُ﴾ يابساً محطماً تُشَتِّته الرياح.

﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ﴾ الأعمال الصالحات، ومنها: الإيمان والذكر والعبادة، وحُسن الخلق.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فالعمل الصالح هو الذي يفتح باب الأمل، وحسن الظن بالخالق الكريم تبارك وتعالى.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ نَحَرَّكُهَا وَنَزِيلُهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَهَذِهِ صُورَةٌ مِنْ صُورِ الْخَرَابِ الْعَامِ
الَّذِي يَعُمُّ الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظَاهِرَةً، لَيْسَ فِيهَا شَجَرٌ وَلَا بَنِيَانٌ، وَتَرَى: خُطَابٌ لَغَيْرِ مَعَيَّنٍ، كَأَنَّهُ
يَقُولُ: لَوْ كَانَ هُنَاكَ أَحَدٌ لَرَأَاهَا هَكَذَا.

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ جَمَعْنَا النَّاسَ جَمِيعًا لِلْحِسَابِ وَلَمْ نَتْرِكْ أَحَدًا مِنْهُمْ.
﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حِفَاةَ عِرَاقٍ بِلَا بَهْرَجٍ وَلَا زِينَةٍ، هَكَذَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ، وَهَكَذَا تَعُودُونَ.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنَا نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ الْخُطَابُ لِمُنْكَرِي الْبَعْثِ.
﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ اسْمُ جَنْسٍ لِكُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي تَحْمِلُ أَعْمَالَ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِكُلِّ
مُكَلَّفٍ كِتَابًا خَاصًّا بِهِ.

﴿مُشْفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ.

﴿يُنَوِّلُنَا﴾ نَدَاءٌ بِالشُّبُورِ وَالْهَلَاكِ.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ قَاعِدَةٌ كَلِيَّةٌ لَا تَتَخَلَّفُ، وَمُنَاسِبَتُهَا هُنَا: إِزَالَةُ الْوَهْمِ فِي نِسْبَةِ مَا فِي
هَذِهِ الْكُتُبِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْعَذَابِ إِلَى الْجَبْرِ الْقَدْرِيِّ الَّذِي يَحْتَجُّ بِهِ دَائِمًا بَعْضُ الْمُبْطِلِينَ.

سُورَةُ الْكَهْفِ

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرِيدُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أُمُودًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

قصة الصراع الطويل بين الحق والباطل

بين هذه القصص التي تفرّدت بها سورة الكهف يعيد القرآن في هذا المقطع التذكير بقصة الخلق الأولى، والصراع الطويل بين الإنسان والشیطان، وهي قصة مكررة في القرآن الكريم ومؤكدة بأساليب مختلفة، وكأنها محور الابتلاء الإنساني الذي قدره الله في هذه الحياة، وقد مرّت بنا بتدبر أوسع؛ ولذلك نكتفي هنا بالإشارة السريعة لبعض الملامح المناسبة لسياق السورة:

أولاً: إنّ الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ﷺ، فسجدوا إلا إبليس ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ ويبدو من السياق أنه داخل معهم في الأمر وإن لم يكن من جنسهم.

ثانياً: صرّح القرآن بأن إبليس كان من الجن، وجعل هذا كونه السبب في فسوقه عن

الطاعة ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾؛ إذ الجنّ كالإنس في هذه الناحية، ففيهم القدرة على الطاعة والقدرة على المعصية؛ تحقيقاً لمعنى الابتلاء والاختبار، بخلاف الملائكة.

ثالثاً: إنّ إبليس وذريّته في حالة عدااء دائم لآدم وذريّته، وعليه فلا ينبغي لبني آدم أن يتخذوا الشياطين أولياء وأنصاراً لهم ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَتَسَلَّلُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

رابعاً: إنّ الله بدأ الخلق ولم يُشهد إبليس ولا ذريّته ولا تلك الآلهة المزيّفة التي عبدها الإنسان بغواية الشيطان، فالله مُتَفَرِّدٌ في خلقه، وهو الغنيّ عنهم من كلّ وجه، وهم المفتقرون إليه في أصل وجودهم، وفي كلّ شؤونهم ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

خامساً: تلك الحقيقة الكبيرة ستجلى يوم القيامة، وسينكشف كلّ تزييفٍ وخداعٍ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾، وهناك سيندم أولئك المجرمون والمعاندون ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

سادساً: أكّد القرآن أنّ تلك الحقيقة قد بيّنها القرآن وفصلها وأقام الحجة عليها، لولا الكبر والعناد والجدال بالباطل ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

سابعاً: إنّ سنة الله ثابتة وباقية لا تُحاي أحدًا، ولا تظلم أحدًا، ووفق هذه السنة العادلة يكون الإنسان هو الذي يختار طريقه دون جبرٍ من القدر ولا إكراهٍ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، وهذا العذاب إنّما هو نتيجة لظلمهم وتكذيبهم بدعوة الأنبياء ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ

وَمُنْذِرِينَ ۖ وَبُحْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ۖ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۖ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا ذَا أَبَدًا ۖ ﴿٥٧﴾

ولم تكن هذه الغشاوة التي على قلوبهم وأبصارهم إلا من صنع أيديهم ومن ظلمهم لأنفسهم ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾، مع أن الله فتح لهم باب الرحمة والمغفرة ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابُ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أعوانًا، فالله هو الغني عنهم وعن غيرهم.
 ﴿مَوْعِدًا﴾ مكان الهلاك والعذاب، والظاهر أنها جهنم، والعياذ بالله.
 ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ بالشفاعة لهم، وبدفع العذاب عنهم.
 ﴿فَظَنُّوا﴾ أيقنوا، وفيه معنى التهكم على سبيل المشاكلة؛ لظنهم الباطل بربهم حينما كانوا في الحياة الدنيا.

﴿أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا﴾ واقعون فيها.
 ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ مخرجًا ومهربًا.
 ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: فصلنا فيه كل ما يحتاجون إليه من الأخبار والمعتقدات والشرائع.

وانظر هنا إلى التشاكل اللفظي بين ﴿مَصْرِفًا﴾ و﴿صَرَّفْنَا﴾ في إشارة إلى أنهم لو تدبروا هذا التصريف القرآني، لوجدوا لهم مصرفًا عن ذلك العذاب.

﴿أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ الجدل المذموم، وهو جدل المخاصمة والمعادنة.

﴿سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ سُنَّةُ الله في الأولين لما عاندوا وكفروا.

﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ يواجهونه مواجهة، والظاهر أنه إشارة لما سيحصل للمشركين

يوم بدر.

﴿لِيُدْحِضُوا﴾ ليبطلوا.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا^ط وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا

إِذَا أَبَدًا﴾ هذه سُنَّةُ الله العادلة بلا ظلم ولا محاباة، فمن سار على طريق الهداية اهتدى، ومن

سار على طريق الضلالة ضلّ، فهذا الجعل ليس جبرًا يسلب إرادة الإنسان، بل هو

نتيجة لظلمهم؛ ولذلك استهل هذه الآية ببيان ظلمهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ

عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

﴿لَوْ يَوَاحِشُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ^ع﴾ ولكنه يؤخرهم لعلمهم يتوبون أو

يتذكرون، وهذا الأنسب لمستهل الآية: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾^ط ﴿رَبِّكَ﴾.

﴿وَبِئْسَ الْفَرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ تأكيدٌ لمعنى العدل الإلهي، فإنها يحصد الإنسان ما

زرع.

سُورَةُ الْكَهْفِ

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّي نَذَرْتُ لَكُمْ لِقَاءَ هَذِهِ النَّسِيبَةِ (٦٢) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَيَّ اثْنَاهُمَا فَصَصَا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسُلَنَا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذَا فَلَا تُصَنِّجْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنْبَأَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّتُكَ بِنَاوِيلٍ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قصة النبي موسى مع الرجل الصالح

من فرائد سورة الكهف هذه القصة: قصة النبي موسى وفتاه مع الرجل الصالح عليه السلام، فدمع كثرة تكرار اسم موسى وحياته المتنوعة مع أخيه هارون وقومهما، ومع فرعون وملئه في عددٍ غير قليلٍ من سور القرآن، إلا أن هذه القصة لم تتكرر ولم ترد إلا في هذه السورة، والتي يمكن الوقوف مع تسلسل أحداثها المثيرة كما يأتي:

أولاً: تبدأ القصة بتحديد هدف واضح سار إليه موسى مع فتاه بعزم وإصرار ﴿وَإِذْ

قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾.

والقرآن لم يُشر بدايةً إلى الغاية من قصد هذا المكان، ولكن السياق يقودنا إلى أن الغاية كانت مُلاقة الرجل الصالح، والذي لم يُسمَّه القرآن أيضًا، ولكن الثابت في الأخبار أنه الخضر عليه السلام كما سيأتي، ويبدو من السياق أيضًا أن الله قد كلف موسى بمُلاقة هذا الرجل والتعلُّم منه ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَ عِلْمَتَ رُشْدًا﴾.

وقد جعل الله لموسى علامة واضحة على قرب وصوله إلى هذا المكان؛ حيث سيأخذ الحوت الذي معها طريقه إلى البحر، وسيترك أثرًا له غائرًا في الماء ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، وهذه من دلائل الرعاية الإلهية المباشرة والدقيقة لهذه السفرة الفريدة.

ثانيًا: وصل موسى إلى مُبتغاه، والتقى بالرجل الذي قال الله فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَايَتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾. وحين طلب موسى أن يتلمذ على يديه، أجابه بلُغة العالم الواثق بما معه من العلم: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧) ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، وهنا يردُّ التلميذ الحريص كلَّ الحرص على التعلُّم: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، وهنا بدأ المُعلِّم يُبلي شروطه: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

إنه مشهد لا تكاد الكلمات تقوى على وصفه أو تحليله؛ فموسى النبي الرسول، والقائد التاريخي الكبير يجلس ليتعلَّم من رجلٍ هو بالتأكيد أقلُّ منه منزلةً، وأقلُّ شأنًا. إنها تربية القرآن لنا دعاة ومدعوين، علماء ومتعلِّمين، قبل أن تكون قصَّة توثيقية لذلك الحدث الغابر في التاريخ.

ثالثًا: كان المشهد الأول بعد اللقاء والاتفاق على أسس الصحبة أنهما ركبا في سفينة لمساكين يعملون في البحر، فقام الرجل الصالح بخرقها، وهنا لم ير الكليم عليه السلام بُدًّا من النهي عن المنكر، خاصَّةً أنه رسولٌ مُبلِّغٌ لشريعة الله، فأنساه هذا شرطه مع الخضر ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ

إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧٥﴾، ولم يكن ردُّ صاحبه عليه إلا أن ذكره بالشرط: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فاعتذر له موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

رابعًا: المشهد الثاني كان الأشدَّ على موسى ﷺ ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ ﴿٧٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٧﴾.

خامسًا: المشهد الثالث، والذي يبدو أنه الأخفُّ من حيث إنه لم يشكِّل انتهاكًا ظاهرًا للشرعية ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾، ولكن صبر موسى نفذ ﴿قَالَ لَوْ شِئْتُ لَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وهنا أعلن صاحبُه انتهاء الرفقة ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾، ولا شك أن القصة لا بد أن تتوقف؛ إذ المقصود التربوي والتعليمي قد تحقَّق بهذه النماذج الثلاثة.

سادسًا: في وقفة الفراق كان الرجل الصالح يشرح لسيدنا موسى ﷺ الجوانب التي خفيت عليه في كلِّ مشهد ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

سابعًا: الملحظ الجدير بالتوقف هنا قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، فهذه الجوانب التي خفيت على النبي موسى أطلع الله عليها هذا الرجل لحكمة ظاهرة في سياق القصة، وهذا تأكيد عملي لقوله تعالى في بداية القصة: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهو تعليمٌ مقترنٌ بالأمر، وهو أمانة النبوة الظاهرة.

والقول بنفي النبوة عنه يفتح الباب لدعاوى كثيرة؛ من ادعاء نزول الأوامر الإلهية على البشر بعد النبي الخاتم ﷺ، كما هو شأن الرافضة مع أئمتهم، وهذا يقدح أيضًا بختم النبوة من حيث المضمون والفحوى، فإذا كان التعليم الإلهي المباشر لعباده مستمرًا وفيه أمر ونهي قد يصل إلى خرق السفينة، وقتل الغلام، فما معنى انقطاع الوحي إذن؟

ثامنًا: أما الدرس المحوري الظاهر في القصة فهو درسٌ للعلماء، فهذا هو النبي الكريم والكليم الذي واجه فرعون وسلطانة، وقارون وماله، وقاد شعبًا كبيرًا ومُعَقَّدًا غاية التعقيد، يَقِفُ بنفسه ليتعلَّم ممن هو أقل منه، من رجلٍ لم يذكر القرآن اسمه، بل ولم يذكره إلا في هذا الموضوع كمعلِّم لموسى فقط، ثم هذه الروح الجادة في البحث عن أهل العلم والتشَبُّث بهم، والتي جعلت موسى يُصِرُّ على مُلاَقاة هذا المعلِّم حتى لو أفنَى الحَقَب من عُمره!

وأخيرًا فتلك المشاهد الحية التي أقنعت موسى ﷺ بما يمكن تسميته اليوم بالتنوع المعرفي، فالمنظور المعرفي لناظرٍ قد يختلف عن منظور آخر، وهذا بطبيعته يؤدي إلى اختلاف في التصورات والأحكام، ومن ثمَّ كان لا بُدَّ من التِّقاء المناظير في بؤرة علمية مشتركة ومتفاعلة ومتكاملة للوصول إلى الحقيقة الكاملة.

أما الروايات التي تحكي بعض حثيَّات القصة ومقدِّماتها وأسبابها، فيمكن الرجوع إليها في كتب التفسير بالمأثور؛ كتفسير الطبري، وابن كثير، وأبواب التفسير أيضًا في صحاح السنة، وخاصةً عند البخاري ومسلم، ففيهما البُلغة الموثوقة، ويكفي هنا أخذ العبرة العملية من السياق القرآني مَشِيًا على المنهجية المعتمدة في تأليف هذا الكتاب.

دقائق التفسير

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ وهو يوشع بن نون^(١).

(١) وردت تسمية فتى موسى ﷺ بـ (يوشع بن نون) في حديث طويل عن ابن عباس يرويه عن أبي بن كعب ؓ عن النبي ﷺ، والحديث متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري (١/٥٦) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م) ومواضع آخر، وصحيح مسلم (٧/١٠٣) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

يُحْسِنُ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ، وَكُلُّ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ هُنَا مِنْ تَحْدِيدِ جُغْرَافِيٍّ لِلْمَوْقِعِ قَائِمٌ عَلَى الظَّنِّ وَالتَّقْدِيرِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿أَوْ أَمْضَى حُقُبًا﴾ أَزْمَانًا طَوِيلَةً غَيْرَ مُحَدَّدَةٍ.

﴿نَسِيَاحُوتَهُمَا﴾ أَيُّ: لَمْ يَنْتَبِهْ لَهَا حِينَ خَرَجَ مِنَ الْمَتَاعِ الَّذِي كَانَ مَعَهُمَا وَدَخَلَ الْبَحْرَ.

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أَيُّ: عِنْدَ دُخُولِهِ الْبَحْرَ تَرَكَ نَفَقًا فِي الْمَاءِ غَيْرَ مُلْتَمِثٍ؛ لِيَكُونَ عَلَامَةً لَهَا.

وَقِصَّةُ الْحَوْتِ كُلُّهَا آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا تَنْطَبِقُ عَلَيْهَا نَوَامِيسُ الْأَرْضِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عَنْهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَمَا أَنْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أَيُّ: مَا أَنْسَانِي ذِكْرَ الْحَوْتِ وَمَتَابَعَةَ حَرَكَتِهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ.

﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ أَيُّ: مَكَانَ نَزُولِ الْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ؛ لِأَنَّهُ عَلَامَةُ الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، وَ﴿نَبْغُ﴾ أَصْلُهُ نَبَغِيَ، وَهُوَ مُضَارِعٌ مَرْفُوعٌ، وَإِنَّمَا حُذِفَتْ الْيَاءُ تَخْفِيفًا.

﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رَجَعَا يَتَّبِعَانِ خَطَوَاتِهَا طَلَبًا لِلْمَكَانِ الَّذِي نَسِيَ عَنْدهُ الْحَوْتُ.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هُوَ الْخَضِرُ عليه السلام ^(٢).

﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ لَا تَبْدَأْنِي بِالسُّؤَالِ وَالْإِنْكَارِ حَتَّى أُخْبِرَكَ أَنَا بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ الَّذِي أَفْعَلُهُ.

﴿فَانْطَلَقَا﴾ تَكَرَّرَ هَذَا الْفِعْلُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ لِيَدُلَّ عَلَى الْحَرَكَةِ وَالْفَاعِلِيَّةِ، كَمَا

(٢) ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْعَبْدَ الصَّالِحَ صَاحِبَ مُوسَى هُوَ (الْخَضِرُ) عليه السلام، وَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْحَدِيثِ السَّابِقِ الَّذِي رَوَاهُ الشَّيْخَانُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، مِنْ أَبِي بَنِي كَعْبٍ عليه السلام فِي تَسْمِيَةِ فَتَى مُوسَى بِـ (يُوشَعَ بْنِ نُونٍ) صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ.

يدل أيضًا على أن هذه الأحداث لم تكن في مكانٍ واحدٍ.

﴿إِمْرًا﴾ عملاً فظيعاً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ قَتَلَ الْخَضِرُ لِلْغُلَامِ مسألة أشكلت على كثيرين؛ إذ المبادرة إلى قتل الغلام عملٌ مخالفٌ للشرع، حتى لو افترض كفره، أو أن الله طبع على قلبه بالكفر، أو أنه سيرهق أبويه بالكفر، فكلُّ هذا ليس مُسوِّغاً شرعياً لقتله؛ ولذلك لا يمكن القياس عليه، ولا اتخاذ هذه الحادثة دليلاً على فعلٍ قريبٍ أو مثيلٍ.

والذي يترجَّح لديَّ - والله أعلم - أنَّ الْخَضِرَ لم يكن في هذا الموقف سوى أداةً للقدر، فالله الذي بيده حياة الناس وموتهم قد كتب على هذا الغلام الموتَ في تلك اللحظة، فأوحى إلى عبده الْخَضِرَ ليكون سبباً قدرتاً لا غير، وهذا هو قولُ الْخَضِرِ نفسه: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾، وهذا تأكيدٌ لنبوته ﷺ؛ إذ يستحيل أن يكون مثل هذا الأمر كان بطريق الإلهام، أو بما يسمُّيه الصوفيَّةُ بالعلم اللَّدُنِّي، والله أعلم.

﴿أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ بريئةً وطاهرةً عن كلِّ ما يستوجب القتل.

﴿تُكْرًا﴾ منكراً كبيراً مخالفاً لضرورات الشرع.

﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَىَٰا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾ أي: أنها وصلاً في مسيرهما إلى قرية، فطلبا من أهلها طعاماً فردُّوهما، وقد سترَ الله على أهل هذه القرية فلم يُعرِّف بهما ولا بقريتهم، فالأولى الالتزام بهذا الأدب القرآني، والبُعد عن الخوض في اسم القرية ومكانها.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: مائل إلى السقوط، وهو من باب المجاز؛ إذ الجدار

ليست له إرادة.

﴿فَأَقَامَهُ﴾ عدَّله ورَّممه.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لأن أهل هذه القرية لا يستحقُّون منك أن تُقيمَ لهم

هذا الجدار دون أجر، وقد سبق أن طلبنا منهم طعاماً فأبوا.

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي: صالحة؛ ولذلك خرقها حتى لا يأخذها الملك.

﴿وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ذكر الحكمة القدريّة والتي لا تحتل القياس؛ لأنها من قبيل القدر الإلهي المتصل بإرادة الله المطلقة وليس من قبيل التشريع؛ إذ ليس في التشريع نظير لهذا، فالله أراد الخير للأبوين بموته، حتى لا يقودهما حبهما له إلى الكفر.

والدرس المستفاد هنا هو درسٌ قدرّيٌّ محضٌ، فالمؤمن الذي يواجه المصائب القدريّة في حياته مما لا سبيل إلى دفعه، عليه أن يُحسِنَ الظنَّ بربه، ويستشعر رحمته بعبده، فربما لو كشف له حجابُ الغيب لرأى مصلحته في هذه المصائب، والله أعلم.

﴿فَارَدْنَا أَنْ يَبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا كَانَتْ لَهُمَا﴾ كأنه يتكلم بلسان القدر، فالإرادة لله، وما الخضر هنا إلا السبب والأداة، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ فيه تأديبٌ عظيمٌ؛ وهو أن المؤمن لا يعمم بحكم السوء، فالقرية التي أبت أن تُضيّف موسى والخضر ﷺ كان يعيش فيها رجلٌ صالحٌ، وقد ترك يتيمين له يستحقّان الرعاية، وقد عرف الخضر شأنهما بإخبار الله له، فأقام لهما الجدار، ولم يُعاقبهما بفعل أهل قريتهما.

سُورَةُ الْكَهْفِ

﴿وَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَاتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِّحًا ۚ فَأَنْبَعُ سَبِّحًا ۚ﴾ ٨٥ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَغْدِبَ وَإِنَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۚ﴾ ٨٦ ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۚ﴾ ٨٧ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۚ﴾ ٨٨ ﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبِّحًا ۚ﴾ ٨٩ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ۚ﴾ ٩٠ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۚ﴾ ٩١ ﴿ثُمَّ أَنْبَعُ سَبِّحًا ۚ﴾ ٩٢ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۚ﴾ ٩٣ ﴿قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۚ﴾ ٩٤ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۚ﴾ ٩٥ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ۚ﴾ ٩٦ ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۚ﴾ ٩٧ ﴿فَمَا اسْطَبَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۚ﴾ ٩٨ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۚ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۚ﴾ ٩٩

قصة ذي القرنين

هذه هي القصة الأخيرة في هذا السورة، وهي من فرائدها أيضًا؛ حيث لم يأت ذكرٌ لذي القرنين إلا في هذه السورة، ويمكن تلخيص الملامح الرئيسة لهذه القصة في النقاط الآتية:

أولاً: جاءت القصة جواباً لقومٍ لم يُسمِّهم القرآن كانوا قد سألوا رسولَ الله ﷺ عن ذي القرنين: ﴿وَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، والسائل على الأغلب هم أهل مكة؛ لأن السورة مكية، ولا يبعد أن أهل الكتاب في يثرب قد لقنُوهم هذا السؤال بحكم العلاقة التي كانت بين مكة ويثرب، ولا يبعد أيضًا أن تكون قصص السورة الأخريات من هذا القبيل، وتبقى العبرة بمضمون القصة وليس بشخص السائل.

ثانيًا: إن الله قد مكَّن لذي القرنين في الأرض دون أن يُحدِّد لنا هويته وتاريخه والأرض التي امتدَّ إليها سلطانه: ﴿وَإِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَايَاتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِّحًا﴾، لكن القرآن يؤكِّد في أكثر من موضع وبأكثر من قرينة صلاح هذا الرجل وعدله، ودفاعه عن المظلومين

والمستضعفين، بل كان ممن يُلهمهم الله ويُسددهم ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، وكان ينسب كل هذا الخير والتمكين إلى ربه تبارك وتعالى: ﴿قَالَ مَا مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

ثالثًا: يلخص القرآن حركة ذي القرنين بثلاثة اتجاهات:

الأول: نحو الغرب ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾.
والثاني: نحو الشرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

والثالث: لم يحدده القرآن، واكتفى بقوله: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبِيلًا﴾ ١٢٠ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ١٢١ قَالُوا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ١٢٢.

وهذا يعني أن يأجوج ومأجوج في مكانٍ ثالثٍ لا هو مطلع الشمس ولا مغربها، وما يقال: إنهم في جهة الشرق لا يحتمله السياق، والله أعلم.

رابعًا: إنه قام بإنشاء السد؛ لقطع الممر الذي كان يهجم منه يأجوج ومأجوج على أولئك الناس، وقد كان الممر طريقًا بين جبلين متساويين في الارتفاع، فقام ذو القرنين بردهم بقطع الحديد المتناسك بعد إيقاد النار عليه ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

خامسًا: نجح السد في منع يأجوج ومأجوج من شن غاراتهم على هذه الأقوام؛ حيث أصبح السد حائلًا بينهم ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ ولكنه سيذك في موعده المحتوم ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

سادسًا: ليس في حديث القرآن عن يأجوج ومأجوج ما يُخرجهم عن المألوف في الطبيعة

الآدمية، ولا عن حالهم بعد مرور كل هذه القرون، والروايات بمجموعها متضاربة، ولا تُقدّم أجوبةً متكاملةً عن قصّة هؤلاء القوم، وأين هم الآن؟ وهل بإمكان هذا السدّ أن يمنعهم الآن من الخروج؟ والأسلم ترك أمرهم إلى الله دون الخوض في التفاصيل، ولا الجزم بشيء يصدّم النص الصريح، أو الواقع الملموس.

دقائق التفسير

﴿ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ يحتمل أنه سُمّي بذلك؛ لأنّه كان يُضفر شعره ضفيريّين، والعرب تسمي الصفائر قرونًا، أو أنه كان يلبس شيئًا على رأسه بقرنين بارزين، وقد يكون لسبب آخر لا نعرفه، والمسألة ليست مما ينبني عليه العمل، والله أعلم.

﴿وَأَنبَأْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبِّيًا﴾ أيّذناه بكلّ أسباب القوة والتمكين التي تناسب عصره وجيله.

﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ سلك طريقًا مُعيّنًا.

﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ المكان الذي تسقط فيه الشمس عند غروبها فيما يراه الناظر، والمقصود جهة الغرب.

﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ماء أسود مختلط بالطين.

﴿فَلَمَّا يَدَّا الْقُرْنَيْنِ﴾ خطاب الله له بصيغة مباشرة محمول على الإلهام، وليس من مانع يمنع أن يكون نبيًا، والله أعلم.

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ لأنهم قوم بدائيون لا يعرفون البناء، فليس لهم مساكن، ولا قرى تسترهم عن الشمس مثل باقي الأمم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ جبلين متقابلين كأنهما شقًّا الصّدفة، يؤكد قوله تعالى الآتي:

﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾.

﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ من غيرهم؛ لغرابة لغتهم، وانعزالهم عن العالم من حولهم.

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ هم قوم من بني آدم، ولم يذكر القرآن عنهم أمرًا مستغربًا في خلقهم، وكانوا يعتدون على الأقوام المجاورة لهم.

﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ نجمع لك من المال ما يمكنك من بناء السد.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما أعطانيه ربي خير مما تجمعونه لي.

﴿رَدَمًا﴾ يردم به الفجوة بين الجبلين، وهذه هي طبيعة هذا السد.

﴿زُبُرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد.

﴿حَقَّ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ ردم الفجوة التي بين الجبلين بشكل كامل.

﴿أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ معدنا مذابا يجمع قطع الحديد في بناء واحد.

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي: لم يتمكنوا من الصعود عليه ولا فتح ثغرة فيه، فبقوا محجوزين وراءه، ومنوعين من الإغارة على جيرانهم، وأضاف التاء على فعل (اسطاع)؛ لأن النقب أصعب من الظهور، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى.

سُورَةُ الْكَهْفِ

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۝١١ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٢ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٣ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاتٍ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝١٤ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٥ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٦ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝١٧ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُلًا ۝١٨ إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٩ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝٢٠ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝٢١ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۝٢٢﴾

وقفات ختامية

في ختام هذا التجوال التاريخي في صفحات فريدة من سفر هذا الإنسان وحركته على هذه الأرض، بدءًا من قصّة أصحاب الكهف وأحداثها المثيرة، ثم مع الرجلين المتحاورين بشأن جنة الدنيا وجنة الآخرة، ثم قصّة موسى وفتاه مع الرجل الصالح، وأخيرًا ذو القرنين وبناءؤه للسد العجيب لصدّ يأجوج ومأجوج، بعد كل هذا يعود القرآن مُذكّرًا بالحقائق الكبرى التي هي أكبر من كلّ هذه الأرض، وأوسع من كلّ ذلك التاريخ، فلنتدبّر:

أولًا: أن هذه الحياة كلها ستتوقف وستنتهي بحلوها ومرها، وصالحها وطالحها؛ لتبدأ حياة أخرى بنظام جديد، وعمر خالد مديد ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾.

ثانيًا: أن التمايز هناك سيكون على أساس العمل الذي قدّمه الناس في هذه الحياة ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۝١٢ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾،

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾.

إن هؤلاء الأشقياء قد عطَّلوا منافذ المعرفة في نفوسهم، فكانت أعينهم في غطاء، وآذانهم في صمم، وكانوا غارقين في السخرية والاستهزاء بعباد الله، أمَّا عباد الله هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، واستشعروا عِظَم المسؤولية وجِدَّة الأمر، فلهم - بلا شك - وضع آخر ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾.

ثالثًا: نبَّه القرآن في هذه السورة بالذات على سبب رئيس من أسباب الضلال يخصُّ الصادقين في تدينهم أكثر من الكاذبين، والجادِّين أكثر من العائِثين، إنها صورة الإنسان المتشبَّث بعقيدته الموروثة - مهما كانت - تشبَّث المتعصَّب المُغلِق الذي لا يرى الحقَّ إلا فيها، ولا يرى النجاة إلا معها، لكنها عقيدة غير مفحوصة، ولا قائمة على دليل أو تفكُّر أو تدبُّر ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٩﴾﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١١٠﴾.

هؤلاء المساكين عادةً ما يكونون جنودًا أوفياء ومخلصين لقادتهم وأهتهم المزيَّفة، إنهم يقدِّمون أرواحهم وأموالهم في الطريق الخطأ، ولديهم القدرة على معاداة العالمين من أجل فكرة عبثية، أو بدعة مشوهة لا تستقيم على أصل، ولا تؤدِّي إلى غاية.

رابعًا: أنَّ علم الله أوسع من أن تُحيط به الكلمات، أو تستوعبه الأرض بمن عليها وما عليها ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١١١﴾﴾ في إشارة إلى أن ما ورد في هذه السورة من أخبار غيبية إنما هو من علم الله الذي لا يقصُر عن شيء، ولا يغيب عنه شيء.

خامسًا: التفريق بين علم الله الشامل والكامل، وبين العوارض البشرية التي تصيب

الأنبياء ﷺ، وقد اقتضى هذا تعريف النبي تعريفاً دقيقاً بالسور الجامع المانع ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

فالنبيُّ هو إنسانٌ من حيث صفاته البشريَّة وعوارضه واحتياجاته، وإنما يتميز بالوحي، ومن ثمَّ كان لا بُدَّ من التفريق بين الجانبين في شخصيَّة النبي، والضابط في هذا أن كلَّ قول أو فعل أو تقرير منه ﷺ متصلٌ بوظيفته في تبليغ الوحي، فهذا الحقُّ المطلق، وهو محلُّ التأسيِّ الواجب؛ لأنَّه الوحي المُنْبِتُّ من علمِ الله وحكمته ورحمته تبارك وتعالى، وما عدا ذلك مما لا يتَّصلُ بالوحي، ولا يشعر بطلب القُرْبَى والثواب من الله مثل: الأكل، والشرب، والنوم، واللبس، والركوب، والسُّكنَى، والمرض، والتعب، والنسيان، والفرح، والغضب، والبيع، والشراء .. إلخ مما لم تردِّ معه قرينةُ الوحي، فهو من الصفات البشريَّة التي لا تدخل في مسمَّى الدين إلا من حيث إفادتها للإباحة؛ لأن النبي لا يرتكب المحرَّم، والله أعلم.

وقد جاء ذكرُ هذا التعريف مُناسِباً لسورة الكهف وما فيها من أخبارٍ فريدةٍ جاء بها الوحي؛ لتأكيد ثبوتها أولاً، ولتمييزها ثانياً عن العوارض البشريَّة للأنبياء؛ كالنسيان الذي أثبته الله لموسى وفتاه ﴿نَسِيََا حُوتَهُمَا﴾، وأشار به إلى نبينا محمد ﷺ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ، والله أعلم.

سادساً: رسم طريق النجاة بكلمات موجزة ومباشرة ولا تحتلُّ اللبس أو الغموض ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، إنه الإيمان بالله وحده، والالتزام العملي بمقتضيات هذا الإيمان كما جاء في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر].

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ﴾ أي: قبل يوم القيامة؛ حيث يختلط بأجوج ومأجوج بعامية الناس، ويكثر الجهل والهرج والمرج، وتغشى الفتن، ويضطرب النظام.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ ذاك يوم البعث؛ حيث يُجمع الناس إلى خالقهم سبحانه.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي: أظهرناها لهم عياناً بعد البعث، وقبل أن يحكم الله عليهم بدخولها.

﴿وَكَاُنُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ لا عن عاهة، بل عن عنادٍ وتكبرٍ؛ ولذلك استوجبوا العقاب.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ في إشارة إلى أن اتخاذ النَّد مع الله هو كفرٌ ولو كان النَّد عبداً من عباد الله، كما هو شأنُ النصارى مع سيدنا عيسى ﷺ، وقوله:

﴿مِنْ دُونِي﴾ أي: من دون إذني، سواء أكانوا يعبدونه مع الله أم من دون الله.

﴿بِالْآخِرِينَ أَعْمَلًا﴾ أكثرهم خسارة، وهم الذين يعملون ويجتهدون في عملهم، لكن بعقيدة فاسدة، ولغاية منحرفة.

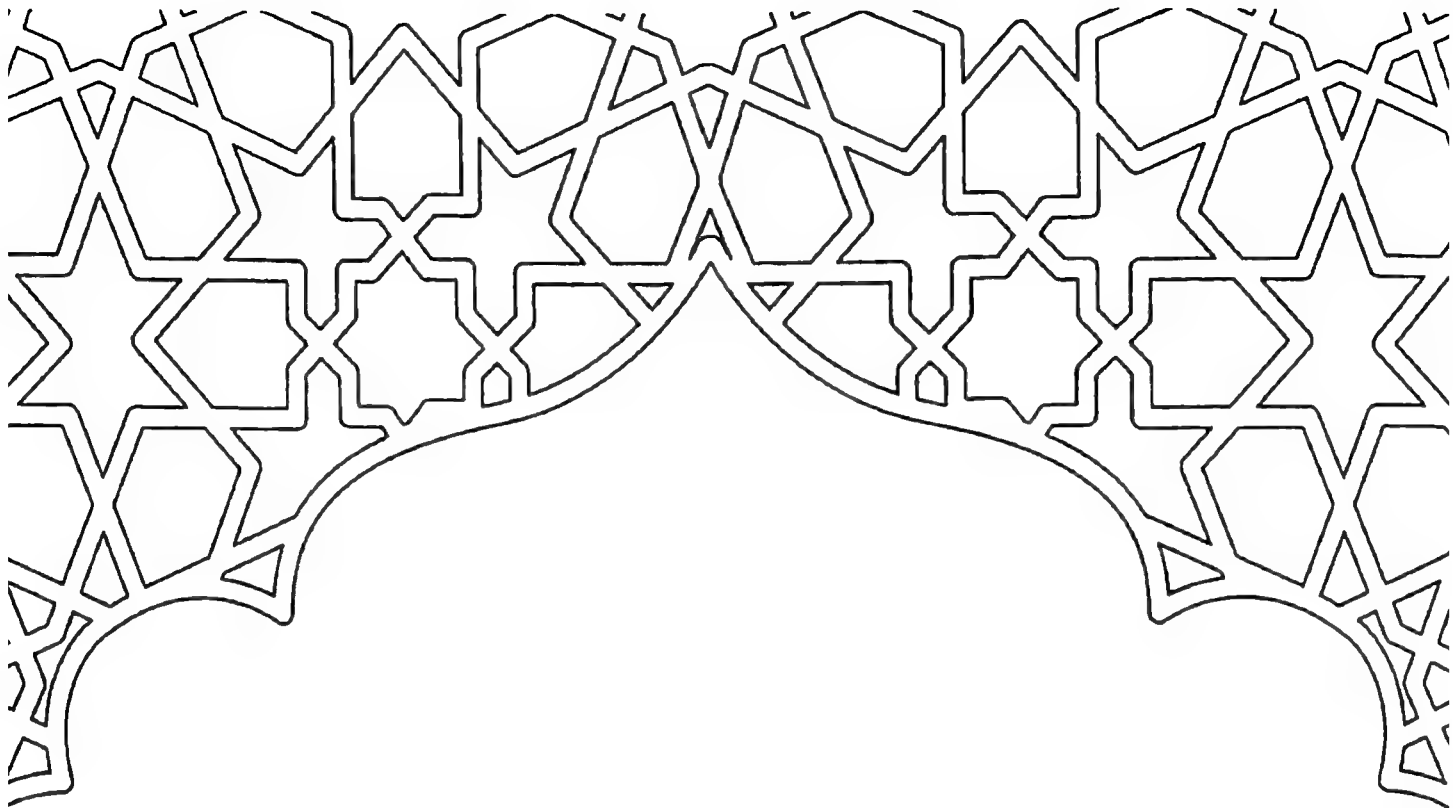
﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ لا يطلبون عنها تحويلاً.

﴿لَنفِثَ الْبَحْرُ﴾ لانتهى ماؤه.

﴿كَلِمَتُ رَبِّي﴾ علمه سبحانه الشامل، وما يتصل به من إخبار بالغيب، وتشريع للحياة.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ من حيث الخَلقة والحاجة الجسدية، والتعرض للطوارئ؛ كالنوم، والسهر، والنسيان بما لا يחדش مقام العصمة.

أما تميزه - بأبي هو وأمي - عن سائر البشر بما خصّه الله به - إضافةً إلى الوحي، ومقام النبوة، والرسالة الخاتمة - من حكمة بالغة، وخلق عظيم، وحلم كريم، فهذا لا يُنكره إلا جاهلٌ أو حاسدٌ.



سُورَةُ مَرْيَمَ

المجلس الثلاثون بعد المائة: قصة زكريا ويحيى ﷺ

المجلس الحادي والثلاثون بعد المائة: قصة مريم وابنها المسيح ﷺ

المجلس الثاني والثلاثون بعد المائة: شذرات من سيرة النبيين ﷺ

المجلس الثالث والثلاثون بعد المائة: حال الخلف بعد أولئك النبيين

سُورَةُ زَكْرِيَّا

﴿كَهَمِعَصَ ① ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ بَرَزْتُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ⑥ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑦ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑪ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑫ يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ⑬ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ⑭ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ⑮ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ⑯﴾

قصة زكريا ويحيى

تبدأ هذه السورة بقصة زكريا ﷺ وندائه الخفي لربه ﷻ أن يهبه غلامًا صالحًا بعد أن كبر سنُّه، ولم يُرزق بولد، والقصة هذه كأنها تمهيد لموضوع السورة الأساس، ألا وهو قصة مريم وآيتها الكبرى بولادة عيسى ﷺ، وقد كانت مريم في كفالة زكريا، وقد رأت ما حصل، فكان هذا إعدادًا إيمانيًا ونفسيًا لها.

تجدرُّ الإشارة إلى أن الروح العائلية الحميمة ظاهرة في هذه السورة، فبعد الحديث عن زكريا ومريم، جاء الحديث عن إبراهيم ﷺ مع أبيه، ثم عن إبراهيم وبنيه إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم عن موسى وأخيه هرون، وهكذا، وكأنَّ القرآن يُقدِّم نماذج أُسريَّة للاقتداء والتأسي. ثم في ثلث السورة الآخر يُحدِّثنا عن واقع البشريَّة بعد تلك النماذج، وما أصابها من تراجع وارتباك واختلاف.

وأما قصة زكريا وابنه ﷺ فيمكن تلخيصها بحسب هذه السورة المباركة في النقاط الآتية:
أولاً: كان زكريا ﷺ قد اشتعل رأسه شيبًا، ووهن عظمه، لكنه لم يُرزق بولد، فأخذ يدعو

ربه: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا ۝٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

وقد جاء في دعائه هذا إشارات أنه كان يخشى على من بعده بسوء تصرفهم، وضياح العهد الذي يتركه لهم، وهو عهد الإيمان والنبوة والتقوى، فلم يكن يرى في مواليه - وهم عصبته وأقرباؤه - من هو أهل لحمل هذه الأمانة التي حملها زكريا عن آبائه وأجداده من آل يعقوب ﷺ.

وأما التأويل أن هذا كان خوفاً على ماله أن يذهب ويتفرق في عصبته، فهو تأويل لا يليق بمقام الأنبياء ﷺ، ثم ما الذي كان يملكه زكريا وهو رجل نجار يأكل من كسب يده، ولم يُعرف بالثراء، كما أخبر النبي ﷺ في حديث مسلم^(١)؟.

وقد نصّ في دعائه أنه يرجو الولد الذي يرثه ويرث من آل يعقوب، فهل ترك آل يعقوب أموالاً لدى زكريا؟ أو تركوا النبوة والعلم والهدى؟

وأخيراً فالذي يدحض هذا التأويل من أصله ما ورد في «البخاري» وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً»^(٢)، وقوله ﷺ: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ»^(٣).

(١) نصّ الحديث عن أبي هريرة ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ زَكَرِيَّا نَجَّارًا»، ينظر: صحيح مسلم (١٠٣/٧) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

(٢) الحديث متفق عليه، وقد رواه البخاري في عدة مواضع من «صحيحه»، أغلبها كما أثبتناه، ورواه باختلاف بسيط، وكذا فعل مسلم في «صحيحه»، ينظر: صحيح البخاري (١١٢٦/٣) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، وصحيح مسلم (١٥١/٥) دار الجليل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

ثانيًا: استجاب الله دعاء زكريّا، وبشّره بيحيى الذي لم يُسمَّ أحدٌ باسمه من قبل ﴿يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

ثالثًا: أظهر زكريّا دهشته وتعجّبه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وهذا ليس على سبيل الشك ولا الاستبعاد؛ حيث إنه هو الذي دعا بهذا، ولو لم يكن يرجو لما دعا، ولكنه إظهارٌ جميلٌ لافتقار العبد أمام قدرة مولاه، ولجهله أمام علمه سبحانه، وفيه من تعظيم النعمة، وأنها لم تأت على عادة الناس، وكلّ هذا من كمال العبودية، وتمام الأدب والشكر.

رابعًا: طلب زكريّا من ربه علامةً على بدء الحمل ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾، وهو استعجالٌ يناسب طبيعة البشر في هذه البشارات، فأخبره الله تعالى بالعلامة: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي: أنه لن يقدر على الكلام طيلة هذه الليالي، بمعنى أن الله تعالى يسلب عنه القدرة على النطق فيهنّ، وهذه آيةٌ من الله وخرقٌ للعادة، وليس هو امتناعًا تكليفيًا؛ لأن العمل التكليفي لا يصحُّ علامةً في هذا الأمر، والله أعلم.

خامسًا: واصل زكريّا دعوته إلى الخير وتذكير الناس بالله، ولم ينشغل بشأنه الخاص ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أوحى إليهم؛ لأنه لا يقدر على الكلام، والوحي هنا: الإشارة.

سادسًا: بعث الله يحيى ليواصل دعوة أبيه كما كان يرجو الأب ﷺ، واختصر القرآن حديثه عن رسالة يحيى بهذه الكلمات: ﴿يَبْعَثْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا

(٣) الحديث رواه أبو داود (٣/ ٣٥٤) دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، والترمذي (٥/ ٤٨) دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر، وابن ماجه (١/ ٨١) دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي، وأحمد (٥/ ١٩٦) المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣ هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط رحمه الله: حسن لغيره.

﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ
وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۖ

إنها العلم والقوة والحكم والتقوى والتواضع والمبرّة بوالديه، هذه منظومة القيم التي
جاء بها الأنبياء، وهي الكفيلة بإصلاح الفرد والمجتمع والأمة.

دقائق التفسير

﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ لتقدم العمر به.

﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ مجاز في سرعة انتشاره، وأصل الاشتعال للنار.

﴿خِفتُ الْمَوَالِي مِن وَّرَآئِي﴾ أن يضيّعوا أمانة الهدي والنبوة، والموالي: القرابات.

﴿عَاقِرًا﴾ لا تلد.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ﴾ يرث النبوة التي كانت فيهم، ويحمل الأمانة التي حملوا.

﴿رَضِيًّا﴾ مرضيًا عندك.

﴿يُقَالِمُ اسْمُهُ يَخَيُّ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ من تمام كرم الله ورحمته أن اختار له حتى

الاسم، وهو اسم لم يُسم به أحد من قبل، وفي الاسم إحياء لطيف بطول العمر وتمام الصحة.

﴿عِتِيًّا﴾ أصله مجاوزة الحد، ومعناه هنا: الشيخوخة المجاوزة لحد الكبر.

﴿أَجْعَلْ لِّي آيَةً﴾ علامة من عندك أستدل بها على قرب تحقق البشارة.

﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ لا تقدر على الكلام فيهن من غير عاهة ولا

خرس، و﴿سَوِيًّا﴾ أي: معتدلاً سليماً من النقص، وقد جاءت هذه الكلمة في المقطع التالي:

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ بالمعنى نفسه.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أَوْماً وَأَشَارَ.

﴿مِنَ الْمَحْرَابِ﴾ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي اتَّخَذَهُ مَصْلى لَهُ.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً.

﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ تَعَلَّمَ التَّوْرَةَ بِعَزِيْمَةٍ وَإِتْقَانٍ - حَيْثُ لَمْ يَكُنِ الْإِنْجِيلُ قَدْ نَزَلَ بَعْدَ

وَاحِلِهَا إِلَى النَّاسِ كَمَا حَمَلَهَا آبَاؤُكَ وَأَجْدَادُكَ.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ وَتَمْيِيزَهَا، وَالْعِلْمَ بِأَحْوَالِ النَّاسِ وَمَا يَصْلَحُهُمْ.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً﴾ أَي: مَنَحْنَاهُ مَعَ الْحُكْمِ وَالْعِلْمِ الْحَنَانَ وَالتَّزْكِيَّةَ، فَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ

الْقُوَّةَ وَالرِّقَّةَ وَالْعِلْمَ وَالتَّزْكِيَّةَ، وَهَذِهِ شُرُوطُ التَّقْوَى ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ عَلَيْهِمَا، وَلَا ﴿عَصِيًّا﴾ لَهَا.

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ تَحِيَّةٌ مِّنَ اللَّهِ وَسَلَامٌ، وَبَشَارَةٌ دَائِمَةٌ

لِذَلِكَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ بِنَفْسِهِ، عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

سورة مريم

من الآية

١٦ - ٤٠

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيقًا ۖ﴾ (١٦) فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً ۖ إِنَّهَا لِلنَّاسِ وَرَحْمَةٌ ۖ وَمَا وَكَلَتْ أَمْرًا مُقْضِيًّا ۖ ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ بَلِّغْتَنِي مِنْ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ۖ ﴿٢٣﴾ فَنادَیْنَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ الْبَكَ بِجَنْعِ النَّخْلَةِ فَتَمِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ۖ ﴿٢٥﴾ فَكَلِمًا وَآشْرَى وَقَرَى عَيْنًا ۖ فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۖ ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ۖ ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَذَ هُنَّ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۖ ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۖ ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۖ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۖ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۖ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَنْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۖ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۖ ﴿٤٠﴾

قصة مريم وابنتها المسيح

مريم، تلك الفتاة التي نذرتها أمها لله وهي جنين لم ير الحياة بعد، فأنبثها الله نباتاً حسناً، وكفلها أحد أنبيائه، ورزقها في المحراب بما حير كافلها حتى كان يسألها: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾، فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ثم رأت بعينها معجزة زكريا في استجابة الله لندائه الخفي، فبشّره على كبر سنّه وعقم امرأته بيحيى النبي الكريم ابن النبي الكريم.

هذه هي مريم التي نزلت هذه السورة باسمها، تواجه في هذا المقطع ما لم تواجهه أنثى على الإطلاق! وهذه الآيات تُجَلِّي لنا هذه القصة الفريدة، وكما يأتي:

أولاً: اعتزلت مريم قومها واحتجبت عنهم ناحية الشرق؛ لحاجة لم يذكرها القرآن، فأرسل الله إليها ملكاً من عنده بصورة بشر سوي معتدل الخلقة ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا.

ثانياً: لم تعلم مريم حقيقة هذا الملك فارتابت منه، وطلبت منه أن يبتعد عنها، ونادته بنداء الإيمان والتقوى تذكّره بالله وتخوّفه منه ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾. ثالثاً: عرّفها الملك بنفسه وأنه مُرسلٌ إليها من الله لأمرٍ قدّره الله وقضاه بهذه الصورة ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

رابعاً: أنكرت مريم ذلك وتعجّبت منه بحكم بشريّتها والناموس الكوني الذي وضعه الله في هذه الحياة ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا﴾، فالغلام لا يأتي من المرأة دون أن يمسّها الرجل زواجاً أو بغاءً، ومريم الفتاة العذراء التي لم تتزوج، والحصان الطاهرة التي لم تعرف الحرام.

خامساً: أجابها الملك بلُغة القدر والإرادة الإلهية المطلقة التي لا تحدّها كلُّ نواميس الكون، وهل النواميس التي نخضع لها ونتعامل بها إلا من صنع الله الواحد سبحانه؟ ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ۖ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ وقد حمل لها في هذا الجواب بشارات عظيمة في هذا المولود المعجزة أنّه آية من الله ورحمة للناس.

سادساً: حملت مريم بعيسى كما قدّر الله القدير سبحانه، ولم يذكر القرآن لنا عن مدّة الحمل هذه، ولا ما مرّت به من أحوالٍ جسديّة ونفسيّة واجتماعيّة، واكتفى بقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: ذهبت بعيداً عن قومها، والسياق يُوجي بخشيتها من مواجهة قومها.

سابعًا: حين دنت ساعة الولادة التَّجَّأت إلى جذع نخلة، وهي تتمنى الموت خشيةً من كلام الناس، وهذا شأن كل شريفة حيّة، فكيف بمريم؟ ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾.

ثامنًا: هنا سمعت صوتًا يُجيبها ويطمئنها، والظاهر أنه صوت ابنها وحبيبها الوليد، وهذه أولى معجزاته ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يُخبر عن نفسه بما يذهب عن أمه الحزن والخوف، بمعنى أنه سيكون بين الناس عظيمًا، فالسَّراة: هم قادة المجتمع وعظماءه، وتفسير السَّريِّ بجدول الماء ونحوه - وإن صح لغة -، إلا أنه بعيد عن السياق؛ لأنها كانت تحمل همّ الفضيحة عند الناس، ولم تكن تشكو الجوع والعطش، بل ربما لم تفكر بهما أصلًا.

تاسعًا: بعد أن سمعت المعجزة واطمأنت إلى رعاية الله لها، وهدأت مشاعرها ومخاوفها، ناداها وليدُها مرة أخرى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ يُعلمها بما أودعه الله لها في هذه النخلة المباركة، وهذه مع كونها معجزة، فهزُّ الجذع لا يسقط الرُّطب، كما يعرف ذلك أهل النخيل.

وفيه أيضًا المبرّة المبكرة لهذا المولود بوالدته ﴿وَالَّتِي أَكَّذَّاها مرة ثالثة بقوله: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ يُوصيها بما يصلح من حالها جسديًا ونفسيًا، إنها إشارات تربويّة، تُعلم الولد الحرص على والدته، والاهتمام بها وبكل شؤونها.

عاشرًا: أما كيف ستواجه قومها؟ فأخذ وليدُها يُوصيها بما أوحى الله إليه: ﴿فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

حادي عشر: جاءت به تحمله إلى قومها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾، هنا كانت الصدمة لهم، فهم يعرفون مريم العذراء الطاهرة، لكنها هي تحمل دليل إدانتها بيدها ﴿قَالُوا

يَمْرِمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾، وقد أنصَفُوا فزَكُّوا نَسَبَهَا من جهة الأب ومن جهة الأم، ولكن ماذا يفعلون وهم بشرٌ وقد رأوا ما لا قِبَلَ لهم بإدراكه ولا بفهمه؟

ثاني عشر: هنا أشارت مريم إلى ولدها الذي تحمله أن يسأله، نعم فهي متأكدة أنه سيتكلم؛ لأنها كانت منذ قليل تسمع له، تسمع لوصاياه ونصائحه وتطميناته ﷺ.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ هنا تكلم الصبي، الصبي الذي اختاره الله ليكون آية إلى قيام الساعة ورحمة للناس ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٩﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٠﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

إنه لم يتكلم بما يرفع التهمة عن والدته الزكية الطاهرة، وإنما راح يشرح لهم رسالته التي بعثه الله بها، لقد غدا يدعوهم إلى الحق الذي هو أكبر من الأرض وما عليها، وأكبر من الحياة وما فيها.

ثالث عشر: اختتم القرآن هذه القصة بجملة من الدروس والتوجيهات الربانية، مؤكدا حقيقة السيد المسيح، ومفتدا لقول النصارى فيه ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وأن الصراط المستقيم إنما هو صراط التوحيد الخالص ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، وأن يوم الفصل آتٍ لا محالة ليُحقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل، ويلقى كل جزاءه ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَ الْكِبْرُ الْمَلِئُومُونَ أَيَّامٌ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿أَنْبَذْتُ﴾ اعتزلت قومها وذهبت بعيداً عنهم.

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ المَلَكُ الْمُكَلَّفُ بذلك، والأقرب أنه جبريل عليه السلام.

﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كنت تخاف الله فستبتعد عني.

﴿لَا هَبَ لَكَ غُلَمًا زَكِيًّا﴾ أي: ليهب الله لها، والمَلَكُ ليس سوى سببٍ غيبي لا تُدرك

نحن البشر سرّه في هذه القصة.

﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ لم يُعاشِرني زوج.

﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ مكاناً بعيداً.

﴿فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ ألجأها المخاض ودفع بها إلى جذع النخلة.

﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ تتمنى لو أنها ماتت قبل هذا ولم يبق لها ذكر بين الناس.

﴿سَرِيًّا﴾ هو العظيم في قومه، كأنه يقول لها: إن ابنك هذا لن يكون سبباً في حَسْرَتِكَ

وشقائِكَ عند قومِكَ، بل سيرفع من ذِكْرِكَ، والسَّرِيُّ مفردٌ جمعُه: السَّراة، والسياق يقتضي

هذا؛ لأنه قال لها: ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ فالذي تحتكِ لا يمكن

أن يكون سبباً للحزن، والله أعلم.

﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ معونة من الله لها؛ لأن هَزَّ الجذع لا

يُسْقِطُ الرُّطْبَ في العادة، بل إن الجذع في العادة لا تقوى على هَزِّ امرأة وهي في المخاض.

أما القول بأن الجذع كان يابساً وغير مُثمر أصلاً، فهذا لا دليل عليه، والأصل حملُ

الكلام على المعتاد في هذه الحياة، وليس على الخوارق والنوادر، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَطْبًا جَنِيًّا﴾ أي: كاملاً وصالحاً للجنين، وهو القُطْف.

وهنا أيضًا وقفة؛ إذ وقت نضج الرطب إنما يكون في الصيف وليس في الشتاء، وعليه
فالتاريخ الميلادي الذي يعتمدُه النصارى اليوم، ويزعمون أنه يبدأ بولادة السيد المسيح لا
يستقيم؛ لأن الولادة الميمونة ستكون في وسط الشتاء نهاية الشهر الثاني عشر، ولا يمكن أن
يكون في هذا الوقت رطب، والله أعلم.

﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ إمساكًا عن الكلام، وأصل الصوم: الإمساك والامتناع عما هو
معتاد من طعام، أو شراب، أو كلام.
﴿شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أمرًا شنيعًا.

﴿يَتَأَخَتَ هَارُونَ﴾ لم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة تعريف بهارون هذا، ومُحال أن
تكون أختًا لهارون أخي موسى ﷺ لفارق الزمن، والظاهر أنهم شبَّهوها به أو برجلٍ
معروفٍ عندهم بالتقوى، كأنهم يقولون: يا شبيهة هارون، واستعمال الأخ والأخت لهذا
الغرض معروف في اللغة، والله أعلم.

﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ﴾ أعطاني الإنجيل، واستعمل الفعل الماضي لتحقيق وقوعه.

﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكون ويختلفون، وقد أشار لهذا الاختلاف في الآية الآتية.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ مذاهب اليهود والنصارى من بين غالي حتى قال بالوحيَّة،
وقال مكذِّبٍ له وطاعن بأمه ﷺ.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي: ما أشدَّ سمعهم وبصرهم في ذلك اليوم.

﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ هو يوم القيامة؛ لأنه سيكون يوم ندم وملامة.

﴿إِنَّا نَعْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ يخبر ربُّنا ﷻ أن هذه الأرض التي جعلها ميدانًا للتكليف
والاختبار، ومنحها لهذا الإنسان على سبيل التحويل ستعود لله كما كانت قبل هذا التحويل
والتكليف.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ١٢ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ١٣ يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ١٤ يَتَّبِعْ إِنِّي خَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ١٥ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ١٦ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ١٧ وَأَعِزِّ لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيًّا ١٨ فَلَمَّا أَغْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ١٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صَدِيقٍ عَلِيًّا ٢٠ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٢١ وَنَدَيْنَاهُ مِنَ الْجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يُحْيَا ٢٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٢٣ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٢٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٢٥ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ٢٦ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٢٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَ إِذَا نُنَادِيهِمْ عَلَيْهِمْ أَهَيْتُ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا ٢٨

٥٨

شذرات من سير النبيين ﷺ

بعد ذكر ما جرى لذكرياً وابنه يحيى، ثم لمريم وابنها المسيح ﷺ، عاد القرآن ليذكر بإشارات سريعة بنهاج أسبق وأكثر عمقا في التاريخ، إنه يؤكد أن رسالة الأنبياء في هذه الحياة واحدة مهما اختلفت أماكنهم، وتباعدت أزمانهم، فلتقف مع هذه الشذرات المباركات:

أولاً: حوار إبراهيم ﷺ مع أبيه، حوار الابن البار بأبيه المشفق عليه: ﴿يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ سؤال يمزج العقل بالعاطفة، والمعرفة بالوجدان، ثم يُطْمَئِنُّ أباه أن نصيحته هذه ليست فكرة عابرة، أو ردّة فعلٍ طائشة، لا، بل هي العلم

الأكيد، العلم الموصل إلى الحق والحقيقة ﴿يَتَأْتِيَنِي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ثم يُكرّر هذا الخطاب بعبارات مختلفة وأساليب متنوعة مرّات ومرّات، والله وحده يعلم كم كان بين المرة والأخرى.

فما كان من أبيه إلا أن يتوعّده ويهدّده ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَتَابَرَهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، فلم يجد إبراهيم عليه السلام بداً من الهجرة، لكنه ترك سلاماً ودوداً لأبيه مع أنه مُصرٌّ على شركه وكفره ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فلما اعتزل أباه وقومه عوّضه الله بذريّة صالحة طيبة ﴿فَلَمَّا أَغْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وهنا يكون الربط والسياق الموحد مع القصّتين السابقتين.

ثانيًا: اصطفاء الله لموسى عليه السلام ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١﴾ وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ هكذا، فكما وهب الله لإبراهيم ولزكريّا ولريم ما تقرّ به عيُوبُهم، وهب هارون لموسى، هارون الأخ والنبيّ والعصيد، وفي قوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ تأكيدٌ لسياق الجوّ العائلي لهذه السورة المباركة، وقد خصّ الله موسى بتكليمه سبحانه: ﴿وَنَدَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

ثالثًا: رعاية إسماعيل عليه السلام لأهله وحرصه عليهم ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وهي شذرة تربويّة أُسريّة تؤكّد أيضًا السياق العام للسورة.

رابعًا: التذكير بأسماء عددٍ من الأنبياء بإشارات سريعة ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ٥٨﴾ ويلحظ هنا تكرار كلمة ﴿ذُرِّيَّة﴾ في تأكيد مستمرّ لسياق السورة وموضوعها الأساس.

﴿يَتَأْتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ فيه أن صراط الله المستقيم إنما يُعرف بالعلم، وليس بالجهل أو الخرافة مما يسمّيه الناس إيمان العجائز، أو الدروشة البعيدة عن منهج الاستدلال والاستنباط.

وفيه أيضًا أن الداعي إلى الحق ينبغي أن يُظهر ما عنده من العلم؛ لينال ثقة المدعوين بها عنده، والتذرّع بالتواضع وكراهة الظهور تذرّع فاسد، وقد مرّ معنا قول السبط يوسف ﷺ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥].

﴿مَلِيًّا﴾ زمنًا طويلًا.

﴿سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ أطلبُ منه سبحانه أن يغفر لك ذنبك.

وهنا مسألة دقيقة، وخلاصة القول فيها: أن استغفار المسلم لغيره إن كان بمعنى طلب الهداية له، فهذا أمر مشروع ولا غبار عليه، وإن كان بمعنى طلب العفو عنه مع بقاءه على الشرك، أو أنه قد مات على الشرك، فهذا محظور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١)، وعلى هذا يُحمل قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣) وما كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ من الحفاوة واللفظ والإكرام.

(٤) تكرر هذا النص الكريم في آيتين من سورة النساء / ٤٨، ١١٦.

﴿ فَلَمَّا آعَزَظَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ من زوجته التي هاجرت معه واعتزلت قومها أيضًا، وهذه مناسبة ذكر إسحاق دون إسماعيل، ثم أقرَدَ الله ذكرَ إسماعيل لمناسبة أخرى، وهي رعايته لأهله وحرصه عليهم، كما مرَّ.

﴿ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ لِلطُّورِ بِالنِّسْبَةِ لِمَوْقِفِ مُوسَى ﴾، والطور جبل معروف.

﴿ وَقَرَّيْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ أي: مُنَاجِيًّا.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نموذج آخر، وقد أفاد التذكيرُ به معنى العمق التاريخي الطويل لهذه الدعوة المباركة؛ حيث إنه ﷺ عاش بين آدم ونوح، ومن ثمَّ جاء التذكير بهما أيضًا لتأكيد هذا المعنى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ عليهم وعلى نبيِّنا الأكرم صلواتُ الله وتسليماته.

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَصَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَا ۝٨٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٩٠ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۝٩١ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ بَاطِنٌ ۝٩٢ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ۝٩٣ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٩٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٩٥ يَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا ۝٩٦ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝٩٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٩٨ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ۝٩٩ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ۝١٠٠ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝١٠١ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝١٠٢ وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ إِيْتَانَا يَنْتَسِبُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۝١٠٣ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا ۝١٠٤ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَمْدَدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُودًا ۝١٠٥ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ هَدَىٰ وَالْبَاقِيَتِ الصَّالِحِينَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ۝١٠٦ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝١٠٧ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝١٠٨ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَعُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا ۝١٠٩ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۝١١٠ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝١١١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝١١٢ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوْرَهُمْ آثًا ۝١١٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۝١١٤ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝١١٥ وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ۝١١٦ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝١١٧ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝١١٨ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝١١٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝١٢٠ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝١٢١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝١٢٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝١٢٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝١٢٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝١٢٥ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝١٢٦ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۝١٢٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكزًا ۝١٢٨﴾

حَالُ الْخَلْفِ بَعْدَ أَوْلَئِكَ النَّبِيِّينَ

بعد ما عرَّضَ القرآن من سلسلة النماذج المباركة للنبيين السابقين وحالهم مع الله، وعناية الله بهم، واستجابته لدعائهم، ومدَّهم بأسباب الثبات، ومُواصلة المهمة الكبيرة بين ذويهم ومع قومهم، شرَّعَ القرآن بتشخيصِ حال الخلف الذين جاءوا بعد طول العهد وتعاقب الأجيال، وهنا يسلِّط القرآن الضوء على حالةٍ واسعةٍ من الاختلاف واضطراب الرؤية، وشيوع الانحراف عن ذلك النهج النبوي السديد، وهو في خِصَمِّ هذا التشخيص لا يفتأ عن التذكير والمحاورة، والترغيب والترهيب، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولاً: إن الخلف بشكلٍ عام قد نكصوا عن ذلك الهدي النبوي ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ فاستحقوا بهذا العقاب الأخروي ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ ثم استثنى الله تعالى مَنْ تاب منهم وأصلح ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

ثانياً: ذكر القرآن بعد إضاعة الصلاة واتباع الشهوات حالةً أشدَّ وأبعدَ عن ثوابت الإيمان، وهي التشكيك بالبعث والحياة الآخرة ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وهنا بدأ القرآن يُجاوِزُ هذا الصنف: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَعَلَّكَ شَيْئًا﴾ وإذا لم تنفع هذه المُحاجة العقلية يذهب القرآن إلى هزِّ هذه النفوس من داخلها ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ إنه التصوير الذي يُرهب الإنسان ويدفعه من داخله للتفكير في جدِّية الأمر وخطورته.

ثالثاً: يعرض القرآن سبباً غير مباشر للغفلة عن الآخرة والتشكيك بها ﴿وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئِيًّا﴾ إنه الترف إذن؛ الترف الذي يُعمي أهله ويشغلهم عن حقيقة

أمرهم وما ينتظرهم في قابل أيامهم، هؤلاء الذين يظنون أنهم المصطفون من دون خلق الله، وأنتهم مُستَحِقُّون لهذا الترف بحكم تمييزهم عن الآخرين ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وَوَلَدًا ۖ﴾ (٧٧) أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ﴿

رابعًا: ثم يعرض القرآن أشنع الشناعات وأبشع البشاعات التي انحدر إلى قاعها العقل البشري: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ﴾ (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ ﴿٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ ﴿

خامسًا: بين القرآن أن مهمة هذه الرسالة الخاتمة إنما هي الدعوة إلى الحق، والتبصير به، والبشارة لكل راغب به مُقبِلٍ عليه، والندارة لكل لدودٍ مُعَانِدٍ مُحَاصِمٍ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ۚ﴾

دقائق التفسير

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ الظاهر أنهم أتباع الأنبياء السابقين من اليهود والنصارى الذين طال بهم العهد فقست قلوبهم، وابتعدوا عن هدي أسلافهم، وفيه الإشارة إلى أهمية الصلاة، والتلازم بين تركها وبين اتباع الشهوات، كما نبّه في آية أخرى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ عذابًا أليمًا.

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ جنات دائمة.

﴿كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ يأتي الناس إليه فيرونها بعد أن كان لهم وعدًا غيبياً.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فهو رزق دائم غير منقطع.

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

التفاتة في وسط السياق، والكلام هنا عن جبريل الذي يتنزل بهذا الوحي، فهو لا يتنزل من نفسه، وإنما بأمر ربه، وأن الله لا ينسى - تبارك وتعالى عن ذلك -، والمقصود الكلي لهذه الالتفاتة تأكيد صحة هذه الأخبار من غير زيادة ولا نقصان، فالقرآن لا يتنزل برغبة النبي ولا الملائكة، وإنما بعلم الله الشامل وإرادته المطلقة سبحانه.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ هل تعلم له شبيهاً ومثلاً في ذاته أو اسمه أو صفاته سبحانه؟

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ استدلال على الخلق الثاني الذي يرتاب فيه المبطلون بالخلق الأول، فالذي خلقهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم، بل هو بمقاييس البشر أهون وأيسر.

﴿ثُمَّ لَنُخْصِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ جاثون على ركبهم خائرون خائفون.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَهِمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ أي: لنخرجن من كل طائفة وجماعة قاداتهم وأكثرهم طغياناً وظلماً؛ ليراهم الناس مكشوفين مخزيين ثم يبدأ بهم العذاب.

﴿أَوَّلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ من يستحق أن يصلى بنار جهنم.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ الخطاب لهؤلاء الجاثين مع شياطينهم حول جهنم؛ دفعاً لتوهم أن بسطاءهم مبرؤون من العذاب بعد أن خصص العتاة منهم وقادة الشر فيهم بنزعهم وإخراجهم أمام الملأ.

وبما ورد من روايات حول تعميم هذا الخطاب لكل الناس بمن فيهم أهل الإيمان لا ينهض لإخراج هذه الآية من سياقها، بل ولا ينهض لتغيير صورة الوعد والوعيد الكلية التي أكدها القرآن بمئات الآيات؛ أن الوعد بالجنة للثقة المؤمنين، وأن الوعيد بالنار للعصاة الكافرين، وهذا محل اتفاق جميع المفسرين؛ أن الاتقياء لا يدخلون النار مطلقاً، ولكنهم

حينما أرادوا الجمع بين هذا الأصل القرآني المحكم وبين تلك الروايات فسروا ورود المتقين على النار بمرورهم عليها من فوق الصراط، وهو مخرج لا يضر، لكنه لا يخلو من التكلف.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا﴾ معاذ الله أن يكون الذين اتقوا قد دخلوها مع هؤلاء الظالمين، وإنما الكلام عن حالتين منفصلتين، والربط بينهما إنما جاء لزيادة إيلاام هؤلاء الظالمين، و﴿ثُمَّ﴾ هنا لا تحمل الترتيب الزمني، حتى لو كان الورد بمعنى المرور على الصراط، فهؤلاء المتقون لن يطول وقوفهم للحساب إلى أن يُقضى لأهل النار بالنار، والله أعلم.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أحسن مجلسًا، كأنهم يتباهون بمجالسهم وحاشيتهم وأسباب نعيمهم.

﴿أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ متاعًا وزخرفًا وبهرجة.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ خبر بصيغة الأمر، بمعنى أن الله هو الذي يمدُّ هؤلاء الطغاة بهذا

المتاع وهذا البهرج، ويزيد لهم بالنعم.

﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ الأعمال الصالحة هي الباقيات، وهي

الأكثر خيرًا والأدوم نفعًا، و﴿مَرَدًّا﴾ عاقبة.

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ نزيد له في العذاب، وهذا مُنَاسِبٌ لمدِّه بالنعم في الحياة الدنيا

التي لم يزد بها إلا كفرًا وعنادًا وتكبرًا على عباد الله.

﴿وَنَرِيَّهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ نرث منه ما كان يقول عنه ويتباهى به؛ المال والولد، فهذه

ودائع كانت بيده على سبيل التحويل لا التأييد.

﴿تَوَزُّهُمْ أَزًّا﴾ تُحَرِّكُهُمْ وتدفعُهُمْ دفعًا لكل ما فيه شرُّهم وشقاؤهم.

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذًّا﴾ فكلُّ شيءٍ بميزانٍ وحسابٍ؛ آجالهم وأرزاقهم، وما هم فيه، وما

هم صاترون إليه.

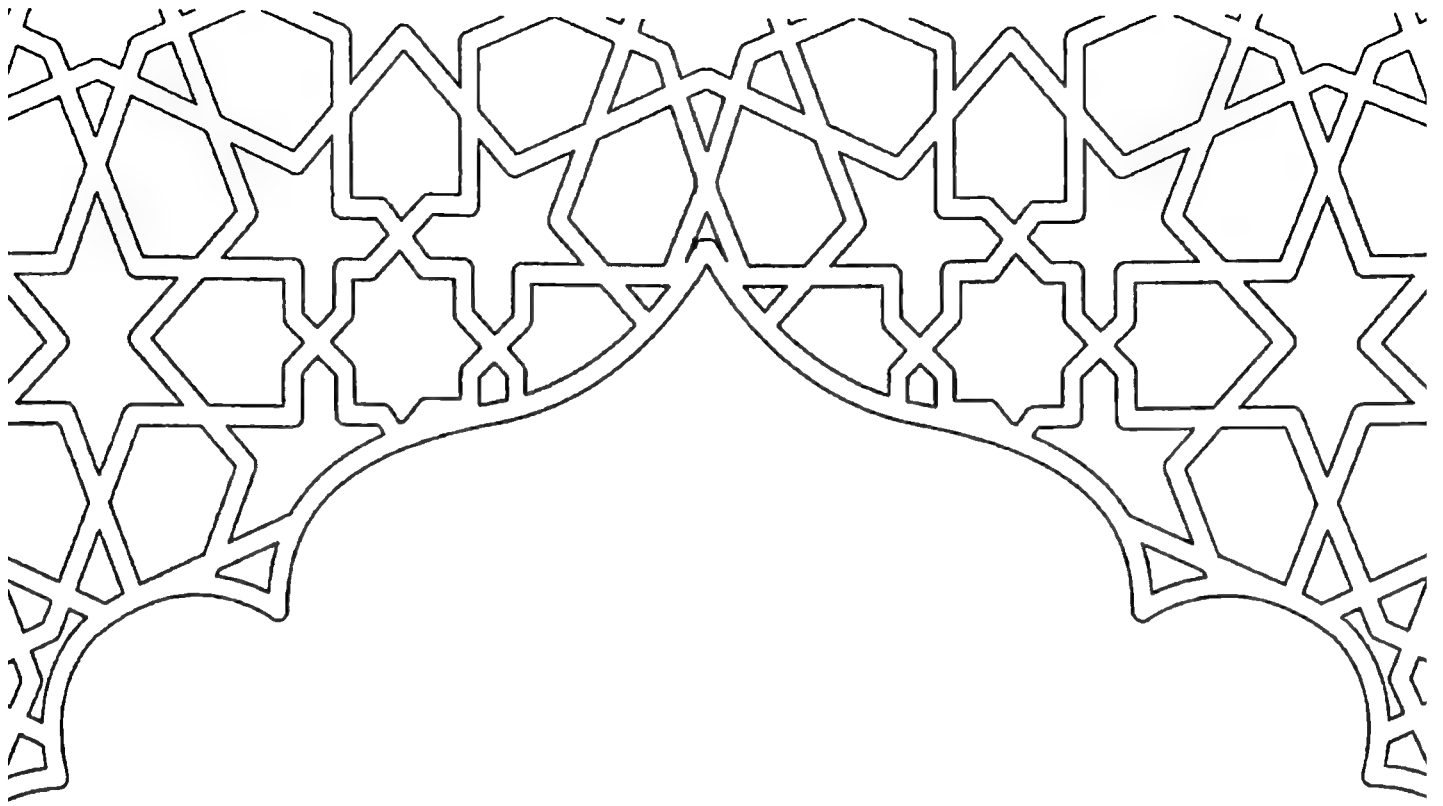
﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ جماعات بعضهم مع بعض؛ ليزدادوا أنسًا وبهجة، وفي الوفد معنى الاحتفاء والتكريم.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ كالقطيع الذي يساق إلى مورده.
﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ استثناء منقطع معناه أن هؤلاء ليست لهم شفاعاة ولا يقدرّون عليها، ولكن الذين يشفعون هم أولئك الذين وعدهم الله بها، كالنبيين والصديقين والشهداء، وهؤلاء لا يشفعون إلا لمن ارتضى.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ منكرًا عظيمًا.
﴿لَقَدْ أَخْصَنُكُمْ وَعَدَّكُمْ عَدًّا﴾ عَلِمَهُمْ واحدًا واحدًا، ولم يغيب عن علمه منهم أحد، كأنه يقول لهم: فمن أين يأتي هذا الذي تزعمون أنه ابنُ الله؟ ﷺ ربُّنا العظيم عن مثل هذا القول الأثيم.

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ سيجعل لهم المودة والمحبة التامة فيما بينهم مع محبة الله لهم، في إشارة إلى أن من كان بينه وبين أخيه شيء في الدنيا فإنه سيذهب ويحل محلّه الودّ والحبّ.
﴿قَوْمًا لَدًّا﴾ شديدي الخصومة، في إشارة إلى كفار قريش.

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ صوتًا.



سُورَةُ طه

المجلس الرابع والثلاثون بعد المائة: موسى عليه السلام: الإعداد والتهيئة الريانية

المجلس الخامس والثلاثون بعد المائة: موسى عليه السلام في مواجهة فرعون

المجلس السادس والثلاثون بعد المائة: موسى عليه السلام مع بني إسرائيل

المجلس السابع والثلاثون بعد المائة: يوم الحساب والجزاء

المجلس الثامن والثلاثون بعد المائة: التذكير بالعهد الأول وتوجيهات ختامية

طه ﴿١﴾ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذِيرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أُنْتُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنْهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَمُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَبَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَازِلُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴿٣٩﴾ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٤٠﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ﴿٤١﴾ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٢﴾ وَقَلْتَ نَعَسَا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا فَلَاحَ سَيِّدُنَا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿٤٤﴾ وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾

موسى عليه السلام : الإعداد والتهيئة الربانية

سورة طه كأنها نزلت في النبي موسى عليه السلام خاصة، تلخص سيرته، وتتابع مراحل حياته المختلفة، والأحداث التي واجهته، وجدير بالذكر هنا أن قصة موسى بالعموم لا شك أنها القصة الأبرز في كل القصص النبوي الوارد في القرآن الكريم كله، وأكثرها ورودًا وتكرارًا. وفي هذا المقطع تعرض السورة المرحلة الأولى في سيرة هذا النبي الكريم، وهي مرحلة التربية والتهيئة والإعداد، ويمكن تلخيصها في الآتي:

أولاً: يُمهّد القرآن لهذه القصة بتأكيد موثوقية مصدرها ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ
الْعُلَى ۝١﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٢﴾ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَرْنَى ۝٣﴾ فهذا القرآن الذي يقصُّ علينا هذه القصص إنما هو تنزيلٌ من الله الذي يعلم السرَّ
وأخفى، وله السموات والأرض وما تحت الثرى، وهذا التمهيد جاء مناسباً للحدث الأكبر
والأجل الذي استهلَّ به القرآن هذه القصة.

ثانياً: تبدأ القصة في هذه السورة بالحدث الأجل ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي
آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ فَلَمَّا أَنَّنَهَا نُودِيَ بِمُوسَى ۝١١﴾ إِنِّي أَنَا
رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۝١٢﴾ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٣﴾ هذا الحدث الذي لا ينبغي للمتدبر معه إلا أن
يقف موقف الهيبة والخشوع، والشعور بضالة العقل البشري لو حاول أن يتجاوز حدود
إمكانياته وقدراته، إنها لحظة اتصال السماء بالأرض بالكيفية التي لا يستطيع العقل تخيلها
ولا مُلامسة كُنْهها، لكنه يسلم لها؛ لما ظهر منها في عالم الأرض من آياتٍ بيناتٍ ومُعْجَزَاتٍ
قاهراتٍ.

ثالثاً: بيّن القرآن بشكلٍ قاطعٍ الحكمة من ذلك الحدث العظيم ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا
يُوحَىٰ ۝١٤﴾ ثم أكّد هذا المعنى في نهاية المقطع ﴿وَأَصْطَفَيْتُكَ لِتُخْصِيَ ۝١٥﴾ إنه الاصطفاء الخاص،
والبدء بصياغة هذه الشخصية الصياغة الخاصة التي تؤهله للقيام بالدور الكبير الذي
اختاره الله له في تلك المرحلة الخطيرة من التاريخ البشري.

تجدُر الإشارة هنا إلى أنَّ الرسالة الموسوية هي الأقرب للرسالة المحمدية من حيث
شموليتها، وخطورة شأنها، وطبيعة حركتها، وللرسالة المحمدية ميزة العالمية التي لا يحدها
زمان، ولا يفصلها مكان، وميزة الخاتمية التي تستلزم صلاحها الأبدي ومواكبتها المستمرة
لحياة الخلق.

رابعاً: بدأ المشهد بإعداد موسى ﷺ إعداداً ذاتياً بمعاني الإيمان والعبادة والعمل الصالح،

والاستقامة والثبات على كل ذلك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾
 ﴿١٦﴾ إِنَّ السَّاعَةَ ءَانِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا
 وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٤﴾ ثلاث آيات جمعت معاني التوحيد الخالص، والإيمان باليوم الآخر
 (وهو يوم الحساب والجزاء)، وملازمة العبادة والصلاة والذكر، والثبات على الصراط
 المستقيم، والوقوف بحزم أمام دُعاة الضلالة والمنكر، هذه هي القيم الأولى التي اختارها الله
 لصياغة هذه الشخصية الكريمة.

خامسًا: تمهيدًا للوظيفة الكبيرة التي سيتحملها موسى في مواجهة فرعون، شاءت حكمة
 الله أن يُريه من الآيات ما يُقوّي قلبه، ويثبت حجته أمام فرعون وملئه ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ
 يَمُوسَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ
 أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ
 ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةٌ أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾.

سادسًا: بعد تلك المَهَّدات جاء التكليف الحاسم ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

سابعًا: وقف موسى ﷺ يتلقى الأمر وهو يفكر من موقعه في تحمله لهذه المسؤولية
 الكبيرة، وهنا بدأ يرسم حاجاته وأدواته التي تؤهله للقيام بهذه المهمة ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي
 صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي
 ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾.

إنها أشبه بحالة استقراء تامٍّ لعدة الداعية؛ التهيئة النفسية بانسراح الصدر، والقوة البيانية
 والعلمية بحلّ عقدة اللسان وإيصال الفهم الصحيح، والأخ الناصح الأمين الذي يتحمل
 معه المسؤولية، والصلة الدائمة بمصدر هذه الرسالة وهذا التكليف ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا
 ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

ثامناً: أقرَّ الله موسى على حاجاته واستجاب له سؤالاته ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ وفي هذا تأكيدٌ لأهميتها، ووجوب التأسي بها لكلِّ من يسير على هذا الدرب، درب الدعوة والوراثة النبويَّة.

تاسعاً: عاد القرآن ليدكرِّ بمراحل الإعداد المبكر قبل ذلك الحدث الأجل، الذي قدَّمه القرآن تقديم رتبة ومقام، لا تقديم آني وزماني ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ٢٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوْحَىٰ ٢٨ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي آلِيهِ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِيُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ٢٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمَمِكَ كِيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّتِ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفُتِنَّا فُلَيْتَ سِينِينَ ۖ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ ۚ

وهذه الآيات تختصر سيرة موسى ﷺ من ولادته ثم إرجاعه إلى أمه بعد أن جعلته في التابوت وقذفته في البحر؛ حيث عثر عليه الفراعنة، فنجَّاه الله منهم، ثم أعاده إليهم لينشأ في قصورهم، ثم يقوم بقتل واحدٍ من حاشيتهم بعد أن استصرخه واحدٌ من أهله (أي: من بني إسرائيل)، فخرج خائفاً من العقوبة إلى مدين، وهناك تزوّج من ابنة ذلك الرجل الصالح، فلبثَ عنده ما شاء الله له، ثم عادَ بزوجته، وبينما كانا معاً في الطريق رأى النار، فكانت المرحلة الثانية التي بدأت بها هذه السورة أولاً.

دقائق التفسير

﴿طه﴾ شاعَت التسمية باسم (طه)؛ ظناً أنَّه اسمٌ من أسماء نبيِّنا محمد ﷺ، والصحيح أنَّها من الحروف المقطَّعة التي مرَّت معنا بشيءٍ من التفصيل في بداية سورة البقرة. ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ بل هو الرحمة التامة الشاملة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿ [الأنبياء: ١٠٧]، وفيه إشارة أن دعوات الغلو والقسوة على الخلق باسم الدين دعواتٌ باطلةٌ ومرفوضةٌ.

﴿الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اَسْتَوٰى﴾ استواء يليقُ بعظمة الله وجلاله وعلوه وغناه عن جميع خلقه؛ العرش وما سوى العرش، وهذه من الأخبار الغيبية التي تُؤمنُ بها كما وردت، ونُحجِّمُ عن الدخول في كَيْفِيَّاتِها وصورتها؛ لأن العقل لا يملك الأدوات القادرة على ذلك، ثم نندبِرُ المقصودَ من إخبارنا بها، وهو مقصودٌ يسيرٌ على من يسرَّه الله عليه، فالنصُّ يُوجي بكمال الملك والسلطان والعظمة والعلو المطلق، وهذا يكفي ويُريح عقولنا وقلوبنا من الجدل الذي لا نتيجة له.

﴿الْثَرَى﴾ التراب.

﴿اِنِّىْ ءَاسْتُ نَارًا﴾ أبصرتُ نارًا، بإضافة معنى الأنس؛ لأنه كان بحاجة إلى النار.

﴿لَعَلِّىْ ءَايٰكُمْ مِّنْهَا يَّقْبَسَ﴾ بجمرة أو شعلة منها.

﴿فَلَمَّا اَنهَا نُودِىْ يٰمُوسٰى ﴿١١﴾ اِنِّىْ اَنَا رَبُّكَ﴾ سَمِعَ كلامَ الله بلا واسطة، بالكيفية التي تليق بالله سبحانه، والقول في هذه كالقول في استوائه سبحانه على عرشه، من حيث إنها أخبار تؤمن بها وتأخذ العبرة منها، وليس هناك مَتَّسَعٌ للعقل للملازمة كُنْهَها وكيفيتها، والله أعلم.

﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وطوى اسم الوادي، والمقدس المطهر.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ فالصلاة ذِكْرٌ لله، ووظيفتها تذكير القلب بحقائق التوحيد ومعاني الإيمان، فالإيمان الفاعل إنما هو الإيمان الحاضر المتيقظ، والصلاة الفاعلة إنما هي الصلاة التي تجعل هذا الإيمان حاضرًا متيقظًا.

﴿أَكَادُ أَخْفِيَهَا﴾ عَلَّمْنَا الله بحقيقتها، وَعَلَّمْنَا بشرائها ومقدماتها، ثم أخفى عَنَّا موعدها، فهو سبحانه لم يُخْفِهَا تَمَامًا، ولم يُظْهِرْهَا تَمَامًا، وفي هذا حكمةٌ عمليةٌ بليغةٌ لا تخفى على لبيب.

﴿فَرَدَيْ﴾ تهلك.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ سردها عصا كما كانت.

﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ﴾ اجعلها تحت إبطك، وأصل الجناح للطائر، واستعير هنا؛ تشبيهاً بحال الطائر حينما يضم جناحه إلى نفسه.

﴿تَخْرُجُ بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ تخرج بلون أبيض جميل لا يُسبب تشوهاً، كما في البرص الذي تبيض فيه بقعة بطريقة متنافرة مع بقية الجسم.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ دلالة أن الداعي هو المكلف بتبليغ المدعو والمجيء إليه مهما كان الداعي، ومهما كان المدعو.

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ دلالة على أهمية الفصاحة والبيان للدعاة، ومنه تعلم لغة المدعوين وطرائقهم في الفهم والتفكير.. إلخ

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ الوزير: المؤازر، وهو معاون المناصر.

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ ظهري، كما تقول العربُ عن الأخ: حِزَامُ الظهر.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ (٢٢) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ قَدَّمَ التَّسْبِيحَ عَلَى الذِّكْرِ؛ لأنَّ التَّسْبِيحَ فِيهِ مَعْنَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ؛ إِذْ هُوَ تَنْزِيهُ اللَّهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَالْعِلْمُ سَابِقُ الذِّكْرِ، فَالذَّاكِرُ بِلَا عِلْمٍ لَا يَدْرِي مَا يَذْكُرُ، وَلَا كَيْفَ يَذْكُرُ، وَلَا كَيْفَ يَنْتَفِعُ بِالذِّكْرِ.

﴿إِذَا وَحْيَنَا إِلَى أُمِّكَ﴾ أَلْهَمْنَاهَا إلهاماً يقينياً.

﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ ضَعِيهِ فِي أَلْوَاكِ مِنَ الْخَشَبِ.

﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ ارمي التابوت بمن فيه في نهر النيل.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ وَكَانَتْ تَتَّبِعُ التَّابُوتَ حَتَّى عَرَفْتَ أَيْنَ وَصَلَ، وَبَيَدَ مَنْ وَقَعَ.

﴿فَنَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ كأنها ناصحة لهم بعد أن رفض الرضاعة من ثدي غير ثدي أمه.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ فيه اختصار، فأخذه قد نصحتهم بمن يكفله، وواضح من السياق أنها أقنعتهم بإرجاعه إلى أمه.

﴿وَفَنَّكَ فُنُونًا﴾ امتحنَّاك واختبرناك اختبارات كثيرة ومتنوعة؛ لتتهذب نفسك، ويصفو قلبك، ويشتدَّ عودك، وتستقيم خبرتك.

﴿وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ هذا المقام الذي يعجز اللسان عن وصفه، فعليك يا موسى وعلى نبينا الصلاة والسلام.

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ (٤٢) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ يَقُولَا إِنَّمَا أَنْتَ بِآيَاتِنَا تُكَذِّبُ (٤٤) فَأَنبِئْهُمَا بِمَا كَانُوا يَكُونُونَ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأَنبِئَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا ۖ وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٧) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى (٤٨) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٤٩) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥٠) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَاسْلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٢) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٣) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٤) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٥) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى (٥٦) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ ۚ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى (٥٧) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ مِثْلِي (٥٨) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٥٩) قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَرَبُّكُمُ اللَّهُ لَا تُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦٠) فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى (٦١) قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُعْتَلَى (٦٢) فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٣) قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٤) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَتْهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٥) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى (٦٦) فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٧) وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِهِ لَلْقَفِّ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٨) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٦٩) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعْ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا بِأَشَدِّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧٠) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧١) إِنَّمَا آمَنَ بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٢) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِحَسَنٍ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٣) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٤) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٥) ﴿

موسى عليه السلام في مواجهة فرعون

بعد مرحلة الإعداد، واستجابة الله تعالى لسؤال موسى في إشراك أخيه هارون معه في مهمته الكبيرة هذه، بدأت المرحلة الثانية من هذه القصة، وهي المواجهة التاريخية بين موسى

وفرعون، والتي يمكن تلخيصها هنا في التسلسل الآتي:

أولاً: جاءت التوجيهات الربانية الأخيرة لموسى وهارون ﷺ قبيل المواجهة ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (١٢) ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٣) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وقد تضمّنت هذه التوجيهات: التسلّح بآيات الله لإقامة الحجّة على فرعون ومليّه، والتزوّد بذكر الله وإدامة الصلة به، ولين القول مع فرعون رجاء تليين قلبه، فالقول اللين أدعى للقبول ومواصلة الحوار، وهو عُدّة الداعي في مخاطبة الناس والتواصل معهم.

ثانياً: أعرب موسى وهارون عن خوفهما من فرعون ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ وهو خوفٌ طبيعيٌّ بحكم المألوف من سلوك البشر، وليس في هذا منقصة لهما ﷺ، بل هو محمود؛ لما فيه من إظهار الضعف أمام الخالق ﷻ، وطلب العون والمدد منه، فأتى جوابُ الله لهما بما يُثبّت قلوبهما: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

ثالثاً: تلخّصت رسالة موسى وهارون إلى فرعون بإطلاق بني إسرائيل من نير العذاب والسّاح لهم بالسّير معهما ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ﴾ وتذكير فرعون بالحقائق الكبرى وعاقبة الناس في هذه الحياة ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ ﴿وَأَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

رابعاً: استمع فرعون لهذه الرسالة ليبدأ معها حواراً جاداً ومثيراً:

سألها أولاً: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾.

فأجابه موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

سألها ثانياً: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾

فأجابه موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ﴾ ثم توسّع ببيان صفات

هذا الربّ العظيم وآثاره الشاهدة في هذا الخلق ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا

سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٦﴾

لجأ فرعون إلى لغة الاتهام والتهديد المبطن ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِّنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ

﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ ۖ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾

ويبدو أن لجوء فرعون إلى هذا الأسلوب كان بعد أن أقام موسى عليه حجة البيان، وحجة الآيات التي أجراها الله على يديه، كما هو موضَّح في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

استجاب موسى لهذا التحدي مُحدِّدًا الموعدَ باليوم والساعة والكيفية ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ

الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

خامسًا: جمع فرعون كيده وسحرته؛ ليبدأ مشهدًا جديدًا أكثر إثارة بين موسى وهارون من

ناحية، وبين سحرة فرعون من ناحية أخرى، وبحضور فرعون وجنده وحاشيته وجمهور

عريض من الناس، وبعد تشاور وتداول بين جمع السحرة ومن معهم اختاروا أن يُخَيِّرُوا

موسى: ﴿٥٩﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٠﴾ وربما كان هذا التخيير على سبيل

الاستعلاء وإظهار القدرة والتمكن، كأن الأمر بالنسبة إليهم سيان.

فردَّ موسى: ﴿٦٠﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴿٦١﴾ وربما أراد موسى أن يستكشف ما عندهم، وهذه طريقة

حكيدة في كل حوار، خاصَّةً مع هذا الصنف الذي ليس لموسى معرفةٌ سابقةٌ به، لم يتردَّد

السحرة فآلقوا ما عندهم ﴿٦١﴾ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ تَسْعَى ﴿٦٢﴾

أوجس موسى في نفسه شيئًا من الخوف بحُكم بشريته، وقلة خبرته في هذا الشأن

﴿٦٢﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٣﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا

صَنَعُوا ﴿٦٥﴾ هنا كانت صدمة السحرة، وهم أدري بالسحر وأساليبه، وأدركوا عن يقين أن ما

مع موسى ليس هو السحر الذي عندهم، إنه ليس السحر، ولا يُشبهه السحر ﴿٦٦﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ

سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٦٧﴾

سادسًا: هنا تحوّل المشهد، وتغيّرت الأجواء من حالة الاحتفال واستعراض القوّة والهيبة أمام الجماهير إلى حالة من الغضب والتوحّش، وانكشف الباطل على حقيقته ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ. قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

لكن ردّ السحرة كان بقوة شرارة الإيمان التي أوقدها في قلوبهم موسى ﷺ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ مستذكّرين المصير المحتوم الذي ينتظر الخلائق كلّها ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٦﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَا دُنْيَا﴾ لا تنفرا.

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ غاية الداعية أن يتحقّق هذا فيمن يدعوه، فهو لا يريد به إلا الخير وإلّا كان مثل فرعون.

﴿يُعْجِلْ لَنَا بِالْعِقَابِ وَالْهَلَاكِ﴾

﴿اسْمَعْ وَأَنْتَ﴾ صفتان ثابتتان لله، وذكرهما هنا لزيادة معنى المعية والتأييد.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَهُودُ﴾ ظاهر في أن الحوار كان بينه وبين موسى ﷺ، وأما هارون فكان تابعًا لموسى وسمّتهما لهذا الحوار.

﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي: أنّه الذي خلق كلّ شيء من هذه المخلوقات، وأعطى

كُلِّ واحدٍ منها خصوصيته، ثم أرشدَه إلى أداء وظيفته في هذه الحياة، فكانت هذه الحياة المتنوعة المتكاملة المنظَّمة وفق هذا التنظيم البديع.

فانظر إلى التكامل الوظيفي مثلاً بين الماء والتراب والضوء لصناعة النبات، ثم التكامل بين النبات والحيوان والإنسان، والتكامل بين الذكر والأنثى، وهكذا، فكلُّ مُيسَّر ومهيَّئ لما خُلق له.

﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ أي: ما أخبار الأمم السابقة؟ كأنه أراد أن يُبعد موسى عن الاسترسال ببيِّنات الكون الشاهدة على توحيدِ الله الخالق العظيم، لكن موسى ﷺ أجابه جواباً مقتضباً، ثم عاد إلى مُحاججته الأولى ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ آيات لأصحاب العقول، وهذا الربط بين آيات الله وعقول العاقلين هو منهجُ القرآن الثابت والمؤكد، بخلاف توهم المتوهمين مَن مَالَ إلى العقل دون النصِّ، أو مَالَ إلى ظاهر النصِّ دون العقل.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ لأن آدم مخلوقٌ من التراب، وأجسادنا جميعاً إنما تتغذى ممَّا يُنتجه التراب، من ثمار الشجر، والزرع النابت في التراب ومن التراب، أو من لحوم الحيوان المتكونة أيضاً من هذه النباتات.

﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ فريَّةٌ ظاهرة لتأليب الناس على موسى وأخيه، وإلا فإنَّ موسى قال قبل قليلٍ لفرعون: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بمعنى أننا وقومنا نريد الخروج عنك وعن أرضك.

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أي: مُستويًا ومحل توافق بيننا وبينكم.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ هو يوم عيد فرعون وقومه، وهنا وقفة؛ فموسى ﷺ هو من اختار هذا اليوم، وهذه إشارةٌ إلى أنَّ حضور مناسبات الكافرين ليس بها بأس إذا كانت

لغاية أنبل وأكبر من شكلية الحضور والمشاركة، مع التأكيد أن لا يفهم من هذا الإقرار بما هم عليه، ولا مُعاونتهم على المنكر الذي هم فيه.

وقد كانت حكمة موسى ﷺ في اختيار هذا اليوم الذي يتفرغ فيه الناس للاجتماع دون شغلٍ ولا همٍّ، وهذا أدعى لإيصال الحق إليهم، ثم إنه اختار الضحى لهذا الغرض أيضًا؛ إذ مظنة اجتماعهم ونشاطهم فيه أكثر من غيره.

﴿فَيَسْجِجْكُمْ﴾ يمحَقِّكم ويهلككم.

﴿يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّا تَمَعْنَى﴾ وهي في الحقيقة لا تسعى وليس فيها روح، وهذا دليل على أن السحر لا يُغيِّر حقائق الأشياء وطبائعها، وإنما هو صناعة الخيال الذي يراه الناس كأنه حقيقة.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾ شعر بالخوف في داخله ولم يُظهره لهم.

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾ العصا التي كانت معه.

﴿لَلْقَفِّ﴾ تبتلع.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ﴾ بمعنى أنه خداعٌ ومكرٌ وليس له حقيقة.

﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قدّم هارون لمناسبة نهاية الآي، ومعلوم أن العطف بالواو

لا يقتضي ترتيبًا زمنيًا أو رتبيًا، وإنما هو للاشتراك فقط.

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يسألهم فرعون سؤالًا استنكاريًا؛ كيف تؤمنون بربِّ

هارون وموسى قبل أن تأخذوا الإذن مني؟ وهكذا يتيح الفراعنة لأنفسهم التحكم حتى في إيمان الناس وأفكارهم، وخصوصية أنفسهم.

﴿إِنَّهُ لَكَيْدٌ كَبِيرٌ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ يتَّهم سحرته بالتواطؤ مع موسى ضده وضدَّ قومه.

﴿فَلَا قَطِيعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ يقطع من كل واحدٍ منهم يده اليمنى ورجله

اليسرى.

﴿وَلَأُصَلِّتَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ يربط جثامينهم على جذوع النخل ليراها القريب والبعيد؛
مُثَلَّةً بهم، وعبرة لغيرهم.

﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ يُقَارَنُ نَفْسَهُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، بَلْ يَرَى نَفْسَهُ الْأَشَدَّ وَالْأَبْقَى،
تعالى الله عن قوله وسفّهه.

﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أَفْعَلْ مَا شِئْتَ، وَنَقْضُ مَا تَوَعَّدْتَنَا بِهِ.

﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ سَيَغْفِرُ لَنَا السِّحَرَ الَّذِي عَمِلْنَاهُ لَخِدْمَتِكَ وَتَحْتَ
سُطُوتِكَ وَجَبْرُوتِكَ؛ لِأَنَّا ثَبَّنَا إِلَيْهِ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ رَأَيْنَا الْآيَاتِ عَلَى يَدِ مُوسَى ﷺ.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ كَأَنَّهُمْ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ مُقَارَنَتَهُ تِلْكَ الْجَاهِلَةِ الْآثِمَةِ.

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ لَا يَمُوتُ فَيَنْجُو مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا يَحْيَى الْحَيَاةَ الصَّالِحَةَ الَّتِي يَرِيدُ.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ جَنَّاتُ الْمَقَامِ الدَّائِمِ.

﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ مَنْ تَطَهَّرَ عَنْ كُلِّ عَقِيدَةٍ بَاطِلَةٍ، أَوْ خُلِقَ رَدِيءٌ.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِحُنُودِهِ، فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ٧٨ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ٨٠ ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ٨٢ ﴿وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ بِمُوسَىٰ ٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ٨٤ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي ٨٦ ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسَىٰ ٨٨ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ٩٠ ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَ مَأْمَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ٩٢ ﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْجَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ٩٤ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرُ ٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ٩٦ ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ أَخْلَفَهُ ٩٧﴾ وَأَنْظِرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ٩٨ ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ٩٩﴾ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾

موسى عليه السلام مع بني إسرائيل

بعد تلك المواجهة المثيرة مع فرعون وسحرته، تنتقل السورة إلى المرحلة الثالثة من سيرة موسى عليه السلام، وهي المرحلة التاريخية التي قرّر فيها موسى - بأمر من الله تعالى - أن يخرج بني إسرائيل من مصر؛ حيث دخلوها أولاً على عهد يوسف عليه السلام مُعَزَّزِينَ مَكْرَمِينَ، ولكن الأحوال تغيّرت عليهم فيما بعد بمجيء الحكم الفرعوني الذي ساء لهم أصناف العذاب. في هذه الآيات صورة لعملية الخروج هذه وما تبعها من نجاتهم، وهلاك عدوهم،

وخوضهم لتجربة الاستقلال تحت قيادة موسى وهارون ﷺ:

أولاً: جاءت قصة الخروج في هذه السورة مختصرة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ فَلَئِنَّهُمْ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۚ﴾ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ فَالْخُرُوجُ كَانَ مُعْجَزَةً رَبَّانِيَّةً؛ حيث انفلق البحر لموسى ومن معه حتى صار طريقًا يبسًا، ثم لما رأى فرعون ذلك تشجّع على مُلاحقتهم في هذا الطريق، فكانت نهايته ومن معه من الجند؛ حيث أطبق البحر عليهم بعد أن نجا آخر فرد من بني إسرائيل.

وهذه المعجزة كأنها جاءت تجلياً لمعية الله ووعدته المؤكدة ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنِّي مَعَكُمْ ۚ أَسْمَعُ وَأَرَى ۚ﴾ بعد أن أظهر له سبحانه غاية الضعف بقولهما: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ۚ﴾، كما أنها جاءت ردًا عملياً على وقاحة فرعون وسوء أدبه مع الله حينما هدد السحرة بعد إيمانهم بالله ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۚ﴾.

والغريب في قصّة الخروج هذه أنّ فرعون قد خرج بنفسه لملاحقة قومٍ مُستضعفين هارين لا حول لهم ولا قوّة، وكان يكفيه أن يُرسل أحد أعوانه من حرسه أو قادة جنده، لكنها إرادة الله.

ثانياً: من الله على بني إسرائيل بالنجاة، وهنا أصبحوا أسياد أنفسهم، وأهلاً لتحمل المسؤولية، وقد أمدّهم الله بما يحتاجونه في حياتهم وأداء وظيفتهم ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ ۖ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلَوى ۚ﴾ (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۚ﴾ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ۚ.

ثالثاً: سجّل القرآن هنا أوّل سقطة لبني إسرائيل في امتحانهم الأول؛ حيث صنعوا لهم عجلاً من الذهب، وصاروا يعبدونه من دون الله، وكان هذا عند غياب موسى عنهم لذهابه

إلى ميقات ربه ﴿ وَمَا أَعَجَلَك عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴾ (٨٢) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾

وهذه السقطة تؤكد أن الحرية مسؤولية، وأن العبودية ثقافة، فهؤلاء الذين تحرروا من فرعون بمعجزة الخروج وانفلاق البحر، عادوا ليصنعوا بأيديهم عجلاً يعبدونه، والذهب الذي كان يأخذه منهم فرعون إتاوة، راخوا يُقدّمونه لعجلهم طواعية.

رابعاً: رجع موسى إلى قومه غاضباً عليهم مُنْذِداً بفعلتهم ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنَ أَسْفًا قَالَ يَنْقُورِ آلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾، وما كان جوابهم إلا أن ألقوا باللائمة على صاحبهم السامري الذي صنع لهم العجل، مع أنه ما كان يملك أدنى سلطة عليهم ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوزَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمِ فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَسَى ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ بَرَجْعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

خامساً: يُسجّل القرآن هنا موقف هارون ﷺ الذي خلف موسى في قومه ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقُورِ إِنَّمَا قَتَلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿ ولكن بعد رجوع أخيه موسى، توجه إليه بالمساءلة والمحاسبة، فكان هذا الحوار: ﴿ قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ (٩١) أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (٩٢) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْفُ بِقَوْلِي ﴾ وهذه حكمة هارونية قل من يلتفت إليها؛ فهارون بقي مُسكناً بالمجتمع الإسرائيلي، محافظاً على وحدته رغم ما حصل فيه من خللٍ عقديٍّ خطير؛ ذلك لأن بقاء الناس مُتجمعين في مكانٍ واحد، وتحت قيادةٍ واحدةٍ أدعى للإصلاح، وأيسر في معالجة الخلل.

لقد قال لأخيه بوضوح العبارة: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فلم يُعَقِّب موسى، ولم يُعَقِّب الوحي، وهذا إقرارٌ بمنح الشرعية لمثل هذا السلوك، فمُفاصلة المنكر ليست دائماً هي الحل.

وقد رأينا من سيرة نبيِّنا ﷺ كيف قاطَعته قريش ومَن معه في شِعب أبي طالب، فما كان يرضى بهذه المقاطعة حتى قطعها الله بآية من آياته؛ فكان في ذلك الفرج للمسلمين.

وحين غابت هذه الحكمة عن بعض الجماعات المنتسبة للإسلام اليوم، راحت تضرب حول نفسها أطواق العزلة والمفاصلة عن الناس، ومنها مَن بالغَ في العدوانية وإظهار الخصومة، ولا زالت الفتاوى تصدرُ من هنا وهناك في منع المشاركة في الحياة السياسية وإدارة شؤون البلاد؛ استناداً إلى المفهوم الخاطيء لعقيدة الولاء والبراء.

وقد مرَّ معنا في قصة يوسف ﷺ ما يدحض هذا الفهم الضيق؛ حيث انخرط ﷺ في حياة الناس السياسية والاقتصادية وهم على دين آخر مُحالفٍ لدينه.

سادساً: يُحْتَم هذا المشهد بموقف موسى ﷺ من السامريِّ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَرِيُّ﴾ (١٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (١٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

ويُلاحظ هنا أن السامريَّ كان مُتقدِّماً في الذكاء على قومه، وأنه بَصُرَ بما لم يبصروا به، لكن الذكاء لا يعصم صاحبه من السقوط إذا لم تتوفر التزكية الصحيحة التي تُهذِّب الإرادة، وتُعَدِّل السلوك، بل الذكاء قد يُضاعِف من إرادة الشر وآثارها، كما ترى في قادة العصابات الإجرامية، وصانعي الأسلحة التدميرية، ومنتجي المسلسلات الإباحية.

والغريب أنك ترى المناهج التعليمية اليوم تنجح نحو تقديم المعارف المجردة، تاركين الجانب القيمي والأخلاقي لإرادة المتعلِّم وطبيعة تكوينه وتربيته، ويُلاحظ هنا أيضاً أن موسى ﷺ قد ترك السامريَّ حياً طليقاً، مع أنه السبب الأول والأهم في الفتنة والردة، بينما

اكتفى بتحريق عجل الذهب ونسفه في البحر، ومحو أثره.

دقائق التفسير

﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَابَسًا لِّلْعُبُورِ نَحْوَ الضَّفَةِ
الْأُخْرَى، فَكَانَ ذَاكَ بِالْعَصَا الَّتِي ضَرَبَ مُوسَى ﷺ بِهَا الْبَحْرَ، وَهَذِهِ آيَةٌ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْبَشَرُ.

﴿لَّا تَخَفُ دَرَكًا﴾ لَا تَخْشَى أَنْ يُدْرِكَكَ فِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ.

﴿فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ﴾ دَهَمَهُمُ الْمَاءُ وَغَطَّاهُمْ فَقَضَوْا فِيهِ غَرَقًا.

﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ﴾ الْجَانِبَ الْأَيْمَنَ لَجَبَلِ الطُّورِ، وَكَانَ الْمِيعَادُ لِسَبْعِينَ رَجُلًا اخْتَارَهُمْ
مُوسَى مِنْ قَوْمِهِ.

﴿الْمَنَ وَالسَّلَوى﴾ الْمَنُ: طَعَامٌ لَا يَتَدَخَّلُ الْبَشَرُ بِزِرَاعَتِهِ أَوْ رِعَايَتِهِ، وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ
قَوْلُهُ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ»^(١)، وَأَمَّا السَّلَوى: فَهُوَ طَائِرٌ سَهْلُ التَّنَاولِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ سَوَالٌ مُّتَضَمِّنٌ الْمَدْحَ لِمُوسَى؛ حَيْثُ تَقَدَّمَ عَلَى قَوْمِهِ
السَّبْعِينَ مُسْرِعًا إِلَى الْمِيقَاتِ شَوْقًا وَرَغْبَةً فِي سَمَاعِ الْأَمْرِ، وَتَحْمِلُ الْمَسْئُولِيَّةَ ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضَى﴾.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ غَيْرُ السَّبْعِينَ؛ لِأَنَّ السَّبْعِينَ كَانُوا مَعَهُ
فِي الْمِيقَاتِ، بَلْ هُمْ مِنْ عَامَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِمَّنْ بَقِيَ مَعَ هَارُونَ، وَكَانَتْ فَتْنَتُهُمْ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ
الَّذِي صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ.

(١) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثٍ مُتَّفَقٍ عَلَيْهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَعْمَانُ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ»، يَنْظُرُ: صَحِيحُ
الْبُخَارِيِّ (٤/١٦٢٧) دَارُ ابْنِ كَثِيرٍ، نَحْوُ د. مُصْطَفَى الْبَغَا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م)، وَصَحِيحُ مُسْلِمٍ (٦/١٢٤) دَارُ
الْجِيلِ - مَسْمُورَةٌ مِنَ الطَّبْعَةِ التَّرْكِيَّةِ الْمَطْبُوعَةِ ١٣٣٤، نَحْوُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ).

﴿أَسِفًا﴾ شديد الغضب، وجاءت توكيداً لقوله: ﴿غَضَبْنَاهُ﴾.

﴿أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ﴾ إشارة أن طول العهد يُورث الفتور والنسيان، وغفلة القلب وقساوته، كما قال في آية أخرى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، غير أن بني إسرائيل غيروا وبدلوا وعبدوا العجل قبل أن يطول عليهم الأمد.

﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ أي: ما خالفنا عهدك بإرادتنا، كأنهم يُلقون بجريرتهم على غيرهم.

﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أنقلًا من الزينة، ولعلها هنا الذهب الذي صنعوا منه العجل، وأكثر المفسرين على أنه مما أخذوه إعارَةً من قوم فرعون، ولا يبعد أيضًا أنهم جمعوا إليه ما كان منه على جند فرعون بعد أن أخذهم الغرق، وكلمة: ﴿أَوْزَارًا﴾ تُوحى أنه لم يكن مُلكًا لهم، بل فيه معنى الإثم، والله أعلم.

﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ رميناها في مكان واحد.

﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ فكذلك صنع السامريُّ، أي: صنع العجل من هذا الذي ألقيناه.

﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ مجسّدًا على صورة العجل وما هو بعجل.

﴿لَهُ خُورٌ﴾ صوتٌ كصوت العجل، وذلك عند دخول الرّيح فيه، والله أعلم.

﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ لن نترك عبادته.

﴿قَالَ يَبْنَومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ حيث كان موسى من شدّة غضبه يُمسك بشعر

هارون من رأسه ولحيته.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرِيُّ﴾ ما حملك على ما فعلت؟

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ الظاهر أنه أخذ شيئًا من التراب الذي وطئه جبريل عليه السلام

وهذا من السمعيّات التي لا يستطيع العقل إدراك كُنْهها وكيفيّتها، والله أعلم.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أَلْقَيْتُهَا مَعَ الْحِلْيِ.

﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَأَدَّى بِمُلَامَسَةِ أَيِّ بَشَرٍ، وَكَأَنَّهَا عَقُوبَةُ إِلَهِيَّةٍ عَلَى فَعْلِهِ

الشَنِيعِ هَذَا.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ يُذَكِّرُهُ بِمَصِيرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَتُبْ، أَوْ لَمْ

يَقْبَلَ اللَّهَ تَعَالَى تَوْبَتَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تَأْكِيدٌ لَصَدَقَ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا؛ لِأَنَّ الَّذِي قَصَّهَا عَلَيْنَا

هُوَ الَّذِي وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ ﷻ.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ (١٠٠) خَلِيدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ- عَلَمًا (١١٠) ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿﴾ (١١٤)

يوم الحساب والجزاء

بعد عرض القرآن لسيرة موسى ﷺ ومواجهته لفرعون وسحرته، ثم تجربته الطويلة مع قومه بعد أن أنقذهم الله به من وطأة فرعون وافتنانهم بالعجل، عاد القرآن ليوجه الخطاب للأمة البديلة، مُستخلصًا الدرس الأكبر، ومُذكرًا بالحقيقة الكبرى، وبالمصير الواحد الذي ينتظر الجميع؛ الأمم السالفة، والأمم الوريثة، فكلُّهم سائرُونَ إلى يومٍ واحدٍ هو يوم الحساب، وكلُّ امرئٍ منهم إنَّما هو مجزيٌّ بعمله، ويمكن استخلاص كلِّ هذا في النقاط الآتية:

أولاً: تأكيد موثوقية القصص القرآني؛ ليكون مستندًا ثابتًا ويقينياً لأخذ الدرس والعبرة ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ وهذه القصص ليست للتسلية، ولا لزيادة المعارف التاريخية المجردة، وإنما هي جزءٌ من منظومة القرآن في إصلاح المجتمع البشري ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ

ذَكَرًا ﴿١٠٤﴾، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ طَرِيقَ الْهُدَايَةِ وَالْإِصْلَاحِ إِنَّهَا هِيَ فِي تَدَبُّرِ هَذَا الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ، وَالتَّزَوُّدِ مِنْ عِلْمِهِ، وَعَلَى أُسُسِهِ وَقَوَاعِدِهِ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٠٥﴾.

ثانيًا: إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي يَنْتَظِرُ الْجَمِيعَ آتٍ لَا مُحَالَةَ، ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي تَتَغَيَّرُ فِيهِ الْأَرْضُ، وَتُزَلْزَلُ فِيهِ الْجِبَالُ ﴿وَسْتَلُونَا عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ وَإِذَا كَانَ هَذَا حَالُ الْجِبَالِ، فَمَا بِالْكَافِرِ بِالْخَلْقِ الْآخَرِينَ؟
ثالثًا: إِنَّ النَّاسَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ سَيَكُونُ حَالُهُمْ حَالُ الْمُتَرْقِبِ الْخَائِفِ الْوَجِلِ، لَقَدْ اخْتَفَتِ السُّنَنُ الَّتِي كَانَتْ تَحْكُمُ هَذَا الْكُونِ، وَكَانُوا عَلَىٰ دِرَايَةِ بِهَا، أَمَّا الْيَوْمَ فَهُمْ أَمَامَ عَالَمٍ جَدِيدٍ، وَوَضِعٍ مُخْتَلِفٍ، لَا يَمْلِكُونَ فِيهِ رَأْيًا وَلَا سَبَبًا وَلَا حَوْلًا وَلَا قُوَّةً ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾.

رابعًا: سَيَلْقَى الظَّالِمُونَ الْمَكْذِبُونَ هُنَاكَ جَزَاءَهُمُ الْعَادِلِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٩﴾ يَخْفَتُونَ يَنْهَمُونَ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٠﴾﴾.
خامسًا: سَيَكْتَشِفُ هَؤُلَاءِ الْخَاسِرُونَ أَنَّ سَبَبَ هَلَاكِهِمْ وَخَسَارَتِهِمْ إِنَّهَا كَانَتْ أَوَّلًا بِتَكْذِيبِهِمْ لِكَلَامِ اللَّهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١١١﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١١٢﴾﴾، وَبِمَا تَوَقَّعُوهُ مِنْ وَسْطَاءٍ وَشَفْعَاءٍ ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَزَقْنَاهُ قَوْلًا ﴿١١٣﴾﴾، وَبِمَا حَمَلُوهُ مِنْ ظُلْمٍ عَامٍ بِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ خَلْقِهِ ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

سادسًا: أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ فَذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمُهُمُ الَّذِي كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ وَيَعْمَلُونَ لَهُ ﴿وَمَنْ يَحْمِلْ مِنَ السَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ إنما ثقيلاً.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ فهذه بضاعتهم التي اختاروها بمحض إرادتهم، وجاءوا بها إلى مصيرهم هذا.

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ لما بهم من عنتٍ وضيقٍ، وسوادٍ وجه، ومعلوم أن بشرة الآدمي لا تزرُق إلا لعلّة واحتباس دم.

﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ يتهامسّون فيما بينهم.

﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ و﴿إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي: في الدنيا، فهم يرون أعمارهم كانت قصيرة جدًا أمام المدى الزمني المفتوح في الآخرة.

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعقلهم وأحسنهم رأياً، وليس فيهم عاقل ولا ذو رأيٍ حسن، وإنّما هو تصويرٌ لحالة الاضطراب التي تعترّيهم هناك؛ بحيث إنّ أذكاهم لا يقدر عمره في الدنيا إلا يوماً واحداً.

﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أرضاً مستويةً وخاليةً من كلّ شيء.

﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ ليس فيها منخفضات ولا مرتفعات، وهو تأكيدٌ لمعنى القاع الصّفصّف، والأمت: هو التّواء البارز في الأرض.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ المُنَادِي لهم بالحشر؛ حيث الحساب ثم الجزاء.

﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يملكون الميل عنه ولا يستطيعون.

﴿هَضْمًا﴾ نقصاً.

﴿أَوْ مُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ يجعلهم يتذكرون ويعتبرون بحال الأمم السالفة.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ تطمينٌ له ﷺ بحفظ القرآن، فلا يتعجل بقراءته للمُسارعة بحفظه، وفيه إشارةٌ خفيةٌ أنَّ فهم القرآن وتدبره على مهلٍ ورويةٍ أولى من العجلة في قراءته والمغالبة بحفظ آياته، والله أعلم.

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ شعارٌ دائمٌ للمسلم في هذه الحياة، وإعلاءٌ لقيمة العلم، وفتحٌ لباب التزوُّد منه، فهو أساسُ الإصلاح الذي ينشده الإنسان في نفسه وفي مجتمعه وبيئته.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ١١٦ ﴿فَقُلْنَا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ١١٨ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبَىٰ ١٢٠ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءٌ تُهُمَا وَطَافِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَخْشَرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ١٢٤ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ١٢٦ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأُلْبَى ١٢٨ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ١٣٠ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ١٣٢ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ءَأُولَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِي ١٣٤ ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَتَسْأَلُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصُّرُطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ١٣٥﴾ ﴿

تذكير بالعهد الأول وتوجيهات ختامية

تتناول الآيات الأخيرة في هذه السورة تذكيراً بعهد الله الأول مع هذا الإنسان قبل أن يهبط على هذه الأرض، ويدخل في ميدان التكليف العملي، ثم التوجيهات الختامية المناسبة لرسالة السورة وما عرَضته من تجارب ومشاهد وأحداث، وكما يأتي:

أولاً: عهد الله لآدم بالخلافة فأسجد له ملائكته، وحذره من كيد الشيطان ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا

إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِلَّا أَنَّ الشَّيْطَانَ تَمَكَّنَ مِنَ الدَّخُولِ إِلَى آدَمَ مِنْ غَرِيزَتَيْنِ بَشَرِيَّتَيْنِ تُوَلَّدَانِ مَعَ الْإِنْسَانِ وَتَبَقَّيَانِ مَعَهُ حَتَّى الْمَوْتِ؛ حُبُّ الْمَلِكِ، وَحُبُّ الْبَقَاءِ، أَوْ هُمَا حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ﴿١١٨﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادُمُ هَلْ أَذَلِكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى ﴿١١٩﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِيقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢٠﴾ غَيْرَ أَنَّ بَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لآدَمَ وَذُرِيَّتِهِ لَا يَغْلِقُهُ إِلَّا الْمَوْتُ أَوْ السَّاعَةُ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَغَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ وَكَانَ هَذَا الدَّرْسُ قَبْلَ هُبُوطِهِمَا إِلَى الْأَرْضِ؛ لِيَتَدَرَّبَا وَيُدْرِبَا أَوْلَادَهُمَا عَلَى طَبِيعَةِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ هَذَا الشَّيْطَانِ.

ثَانِيًا: بَعْدَ أَنْ هَبَطَ الْإِنْسَانُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ أَصْبَحَتْ عِنْدَهُ تَجَرِبَةٌ سَابِقَةٌ يَسْتَعِدُّ إِلَيْهَا، وَمِيزَانٌ حَاضِرٌ يَحْتَكِمُ إِلَيْهِ ﴿١٢٣﴾ قَالَ أَهِيْطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٥﴾.

ثَالِثًا: يَدْعُو اللَّهُ هَذَا الْإِنْسَانَ لِلنَّظَرِ فِي تَارِيخِهِ وَتَارِيخِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَمَا جَرَى لَهَا، فَهَذَا أُخْرَى أَنْ يَدْفَعَ بِهِ لِسُلُوكِ طَرِيقِ الْهُدَى، وَتَجَنَّبِ مَهَاوِي الضَّلَالَةِ وَالرَّدَى ﴿١٢٦﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٧﴾ وَالْعَذَابُ الَّذِي أَصَابَ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ لَيْسَ بِبَعِيدٍ عَن كُلِّ مَنْ يَسْلُكُ آثَارَهُمْ وَيَتَّبِعُ خَطَوَاتِهِمْ، وَلَكِنْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَا يَعْتَذِرُونَ بِهِ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حُجَّتَهُ، وَارْسَلْ لَهُمْ نَبِيَّهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ هُدْيَهُ ﴿١٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴿١٣١﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٣٢﴾.

رابعًا: يُوصي الله نبيه ﷺ ومن خلفه كل مؤمن ومؤمنة بالصبر والثبات على طريق الحق، واللجوء إلى الله تعالى في كل الأحوال ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ ثم يُوصي بتذكير الأهل، وحثهم على الطاعة، وإقامة الصلاة، والتدرع بالصبر مع كل ذلك ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

خامسًا: يدعو الله ﷻ كل سائر على هذا الطريق أن يحذر مزالق الفتنة، ومداخل الشيطان ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

دقائق التفسير

﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ نسي العهد بأكله من الشجرة، ولم تكن عنده العزيمة الكافية لامتنال الأمر واجتناب النهي؛ إذ من لوازم الخلافة تحقيق معنى العبودية لله، والخضوع له في كل ما أمر أو نهى.

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ هي صورة لما يمكن أن يُباعد بين الإنسان وبين الجنة التي يرجوها في آخرته، أما آدم فكان مُقَدَّرًا عليه وعلى ذريته أن يكونوا في الأرض لإعمارها، وهم بهذا مُتَمَحِّنون ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿وَلَا تَضْحَى﴾ لا تحتاج إلى كسب الرزق والعمل تحت وطأة الشمس.

﴿فَبَدَّتْ لَهَا سَوَاءُ تَهُمَا﴾ بعد أكلهما من الشجرة، وفيه إشارة أن المعاصي تكشف قبائح الإنسان وأخلاقه الباطنية السيئة، والله أعلم.

﴿وَطَيفًا يَخِيفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ بادِرًا بستر العورة من أوراق الجنة.

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ شبهه بالأعمى على سبيل المجاز؛ لأنه لا يهتدي إلى الجنة ولا يعرف طريقها.

﴿مَنْ أَشْرَفَ﴾ تجاوز الحد بكفره وظلمه.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أفلم يبين لهم الله.

﴿لَا يَنْبِ لَأُولَى النُّهَى﴾ أصحاب العقول.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِنِهِمْ﴾ يَمْشُونَ بها أثناء سفرهم.

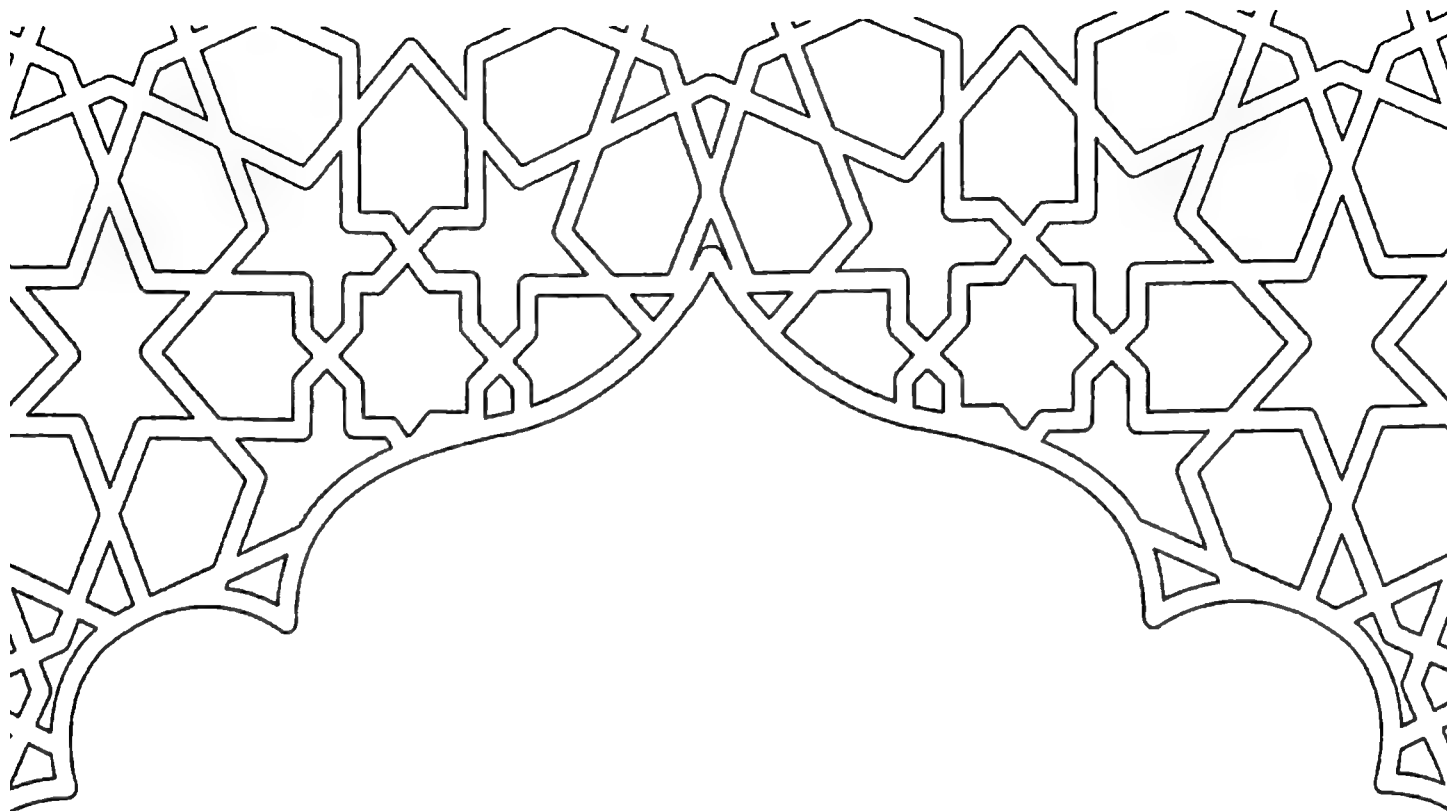
﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: لولا كلمة سبقت، وأجل مُسمًى

لوقع عليهم العذاب.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تتمنَّ ما أعطيناه لأصنافٍ مِنْ هؤلاء الكافرين المعاندين لك،

فما عندهم متاع زائل.

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾ متظر.



سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

المجلس التاسع والثلاثون بعد المائة: تنبيه الغافلين

المجلس الأربعون بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس الحادي والأربعون بعد المائة: إبراهيم عليه السلام يقيم الحجة على بطلان الأوثان

المجلس الثاني والأربعون بعد المائة: شذرات من قصص النبيين عليه السلام

المجلس الثالث والأربعون بعد المائة: العاقبة ونهاية الصراع

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أُنْزِلَتْ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُتُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٨﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

تنبيه الغافلين

تعالجُ السورة في مُقدِّماتها مشكلة الغفلة التي تلفُّ عقولَ الناس وقلوبهم، وتُبعدُهم عن التفكير الجاد بحالهم ومآلهم والكون الفسيح من حولهم، ومن هنا تكررَت في هذه الآيات مصطلحات: الغفلة، واللغو، واللعب، ولا شكَّ أنَّ هذه إحدى أهم أسباب الضلالة والإعراض عن النهج الحقِّ، ويمكن استخلاص طريقة القرآن في تناوله لهذه الظاهرة بالانتقال الآتية:

أولاً: وصف القرآن هذه الظاهرة وصفاً دقيقاً في أكثر من موضع في هذه المُقدِّمات، فقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فهم مُعْرِضُونَ؛ لشدة غفلتهم

حتى عن التفكير في ما ينتظرهم، ثم قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ فهم غارقون في الغفلة إلى الحد الذي لا يكلّفون أنفسهم النظر في الكلام الذي يسمعونّه ولو كان فيه خيرهم، ثم يُشير القرآن إشارة سريعة إلى سبب هذه الغفلة ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ فانشغال قلوبهم بمتاع الدنيا وهوها وزينتها لا يُبقي فيها مكاناً للتدبّر والتفكير الصادق.

ثانيًا: بيّن القرآن مدى انعكاس هذه الظاهرة على نظرة هؤلاء لطبيعة الحياة والكون الذي يعيشون فيه، فهم لا يرون في كلّ هذا إلا اللهو والعبث؛ ولذلك ردّ القرآن عليهم سفههم هذا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ (١٦) ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُكُم مِّنْ لَّدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وهذه النظرة نراها اليوم في كثيرٍ من النظريات والفلسفات الحديثة التي ينجح العقل البشري فيها إلى تغييب الحكمة من وجود هذا الكون، وتسخيرها لهذا الإنسان، والانهماك في تحقيق المصالح المادّية المجردة، وتحقيق أكبر قدر ممكن من المتاع.

ثالثًا: ثم بيّن كذلك مدى انعكاسها في عجزهم عن التفكير في حال الناس من قبلهم وما جرى لهم بسبب غفلتهم وإعراضهم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ (١٢) ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْئَلُونَ﴾ (١٣) ﴿قَالُوا يَتَوَلَّنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾.

رابعًا: أشار القرآن الكريم إلى أن شبهاتهم التي يُثيرونها بوجه الدعوة المباركة ليست آراء محترمة ناتجة عن نظير عقليّ، وتفكيرٍ صادق، وإنما هي إفرازٌ لحالة الغفلة واللعب واللهو هذه، فتراه مثلاً يقول: ﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

أَفَتَأْتُونَكَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾، وينعكس هذا اللّهُو واللعب في اضطرابهم، وشدة تناقضهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

خامسًا: في ثانيا هذا التشخيص والتوصيف يثبت القرآن الكريم تنبيهاته وتحذيراته المتكررة التي تهز القلوب وتحرك العقول، فتراه حينما يضرب مثلاً من الذين خلّوا من قبل يقول: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْدِينَ﴾ ﴿١٧﴾ وحينما يخاطب هؤلاء الغافلين يقول لهم: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

سادسًا: يؤكد القرآن هؤلاء ولغيرهم أن الأمر جادٌ وحاسمٌ، وأنه لا مجال فيه للهُو والعبث ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ أَتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾.

سابعًا: تأكيدهم أن القرآن إنما جاء لإسعادهم ورفع شأنهم لو تركوا لأنفسهم فرصة للتفكير والتدبر ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. ثامنًا: تأكيدهم أيضًا أن الله غنيٌّ عنهم وعن عبادتهم، وهو حينما يدعوهم إنما يدعوهم لمصلحتهم، وإلا فالله عنده من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله، يسبحونه ويعبدونه وحده دون شريك، ودون فتور ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾.

دقائق التفسير

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي: يوم حسابهم؛ وهو يوم القيامة، والخبر عامٌ لكل الناس، وإن كان المقصود به تنبيه الغافلين من مشركي قريش وتحذيرهم.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ أي: جديد بالنسبة لنزوله عليهم واتصالهم به، لا بوصف القرآن نفسه، فالقرآن كلام الله وكلامه صفةٌ له سبحانه، لا يتغيّر ولا يتجدّد.

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ تناجوا سرًا فيما بينهم.

﴿أَفَاتُوكَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ يوبّخ بعضهم بعضًا لمجيئهم واستماعهم لقراءة

القرآن؛ حيث كان بعضهم يتذوّق بلاغة القرآن، ويستأنس بها، ولا يصبر عنها.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ هو من قوله ﷺ ردًا على اتهامهم له، كأنه يقول

لهم: إن ربّي علیمٌ بحقيقة ما أقوله لكم، وهو علیمٌ أيضًا بحقيقة ما تقولونه عني.

﴿أَضَعْتُ أَحْلَمَ﴾ منامات مختلطة لا حقيقة لها ولا بُرهان عليها، وهم إنما يقولون هذا

في القرآن الكريم، وهم مع هذا لا يُحْفون إعجابهم ببيانه وبلاغته حتى سمّوه سحرًا، وهذا

دليلٌ على أنهم لا يتكلّمون بآراء ووجهات نظر، وإنما يلهون ويعبثون، ويتصرّفون وفق عُقد

نفسية تجمع بين التكبر والحسد واللامبالاة.

﴿فَلْيَأْنِبْنَا بِأَيَّةٍ﴾ بمعجزة ملموسة؛ كناية صالحة، وعصا موسى.

﴿مَاءَ أَمْنَتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يُذَكِّرهم بالقرى التي جاءها أنبياءها

بهذه الآيات، فلم يؤمنوا فأهلكهم الله بتكذيبهم وعنادهم؛ لأن هذه القرى لم يكن يختلط

عليها الحقّ بالباطل فتحتاج إلى هذه المعجزات الحسية، وإنما كان يصدّها الغرور والتكبر

والحسد والإعراض حتى عن مجرد التفكير، وهي موجودةٌ أيضًا عند كفّار قريش.

والآية تتضمن بيان الحكمة من عدم نزول مثل تلك الآيات على قريش؛ لأنهم لو كذبوا

بها فسيهلكون عن آخرهم، والله لا يريد لهم ذلك؛ لعلمه سبحانه أنهم سيؤمنون ويتحمّلون

أعباء هذه الدعوة، وقد كان ذاك بالفعل، فدخلت قريش كلّها في الإسلام، وكان منهم قادة

الامة (الخلفاء الراشدون ﷺ، والأمويون والعباسيون) وغيرهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ ردٌّ على اشتراطهم أن يبعث الله لهم ملكًا حتى يؤمنوا به،

والاستدلال بهذا على إنكار نبوة المرأة لا يقتضيه السياق، خاصّةً عند من يُفرّق بين النبوة

والرسالة باشتراط التبليغ في الرسالة دون النبوة، فالآية تتحدّث عن الرسل وليس عن

الأنبياء، وتحرّز عن الملائكيّة وليس عن الأنثويّة.

وقد قال بنفي النبوة عن النساء جمهور العلماء، وغالب استدلالهم بهذه الآية، أو بأدلة عقلية تتعلق بمهمة التبليغ، وليس بنزول الوحي، وليس هنا محل التفصيل، لكن الخلاف في هذا وارد، والاجتهاد فيه مقبول، والله أعلم.

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهم هنا أهل الكتاب، خاصّة اليهود الذين كانوا على صلة بقریش، والسؤال محدّد في موضوع كون الرسل رجالاً من البشر، أو كانوا من الملائكة، فهذه معلومة لا يختلف فيها أهل القرآن عن أهل الكتب السابقة، وليس في الآية إطلاق السؤال لهم في كلّ مسألة.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ تأكيد لبشريّة الرسل، فهم ليسوا ملائكة ولا آلهة.

﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ شرفكم وعلو شأنكم، وأسباب خيركم وسعادتكم.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ وكم أهلكنا.

﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ هرباً من قريتهم بعدما رأوا العذاب النازل عليها.

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ﴾ توبيخ لهم وتهكم بهم، وفيه إشارة إلى

أن الترف كان سبباً في هلاكهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لعلّ أحداً يطلب منكم بعض حاجاته، وهذا تهكم أيضاً وهو مناسب

لحال المترفين.

﴿جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَلِيدِينَ﴾ ميّتين لا يتحرّكون كحال الزرع المحصود.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوَاً لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ يتنزّل القرآن إلى مستوى عقول هؤلاء الغافلين

العابثين، فيقول لهم: لو كان الله يريد اللّهو سبحانه - كما تزعمون - لما خلّقكم وخلق الموت والحياة، وأرسل إليكم رسله، وجعل الثواب والعقاب، ولكان يكفيه ما عنده من الحور

والولدان، وأسباب اللهو والمتاع بحسب تصوُّراتكم المريضة والقاصرة.
﴿فَيَذَمُّهُ﴾ يزهقه ويذيله.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يمنعهم عن دوام العبادة تكبرٌ ولا
تكاسلٌ، وإيثارٌ للدَّعة والراحة، بل هم يجدون أنسهم وسعادتهم في هذه العبادة.
﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ لا يضعفون أو يترددون، وأصل الفتور: التراخي والسكون بعد الحركة.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلْ
 عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْشَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
 الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ
 وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
 وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ
 كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ
 أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَن يَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْهًُا
 مُحْفَوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّارَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن
 قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا
 رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَءِيلَ يَنْخَافُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾
 خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ
 يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً
 فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ
 تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ
 الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ
 الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْثَةٌ مِّن عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
 الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ
 مَاتَيْنَا مُوتَىٰ وَهَرُونِ الْفُرْقَانِ وَضِيَآءٌ وَذِكْرُ الْمُنَاقِبِ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾
 وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

بعد تشخيصه لظاهر الغفلة التي تُعمي وتُصم عن التفكير في حقائق الأمور ومآلاتها، والتي قادت هؤلاء الغافلين إلى التمسك بأصنامهم وعبادتها والدفاع عنها، فتح القرآن باباً واسعاً للحوار معهم ومناقشتهم في أصل معتقدتهم، وكما يأتي:

أولاً: عرض القرآن صوراً لمعتقداتهم التي خرجوا بها من جادة التوحيد إلى مزالق الشرك والكفر، ومن ذلك: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ﴾ وهذه هي التي يصنعونها بأيديهم، ثم عمم: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ ليشمل كل الآلهة المزيفة ولو كانوا بصورة الأنبياء، أو الملائكة، ثم خصّ الفرية الآثمة بنسبة الولد إلى الله - تعالى عن قولهم علواً كبيراً -: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ثم عرض تكذيبهم بعقيدة البعث والجزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣٨) ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، ثم استهزاءهم بالأنبياء والمرسلين: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَخَذُوكَ إِلَّا هُزُوًا﴾، ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ثانياً: كشف القرآن أسباب هذا الانحراف، فكان أولها: الجهل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

وهذا الجهل إنما كان بسبب إعراضهم وغلق منافذ المعرفة عندهم، وإلا فقد يُعذر الجاهل بجهله إن لم تبلغه الدعوة، أو لم تكن عنده أدوات فهمها والتوصل بها؛ ولذلك عقب القرآن بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وهذا صمم العناد والتكبر، لا صمم الخلقة والعاهة، ومنها: الاستهزاء، كما مر معنا قوله تعالى: ﴿إِن يَخِذُّوكَ بِهَٰذَا هُزُوًا﴾، ومنها: طول الأمد والانشغال بالمتاع الزائل: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءَ

وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴿١٥﴾، وطول الأمد مع تراكم الغفلة والنسيان لا شك أنه أحد أسباب الضلالة، كما قال جل ذكره في سورة الحديد: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

ثالثاً: فند القرآن دعوى المشركين في تأليه الملائكة أو بعض النبيين ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

رابعاً: أكد القرآن فقدان المشركين لأي دليل أو حجة على صحة دعواهم بوجود آلهة أخرى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

خامساً: شرع القرآن في بيان أدلته القاطعة على توحيد الله، فذكر منها ما عُرف بدليل التمايع: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾؛ لأن ﴿لَوْ﴾ هنا حرف امتناع لا امتناع، بمعنى أنه لما قامت السماوات والأرض على هذا النظام الموحد الدقيق، وانتفى فسادها والتناقض في داخلها، دلّ هذا على نفي الشريك؛ إذ لو كان فيهما أكثر من إله لكان فيهما أكثر من نظام تبعاً لاختلاف الإرادات لهذه الآلهة، فالنظام الواحد لكل هذا الكون دليل على الإله الواحد والإرادة الواحدة، ومنها إلى دقة هذا النظام، وهذا لا يكون إلا من إله واحد حكيم عليم قدير: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَلَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهُمَا مَآءً كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفْلا يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُّعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ النَّارَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

سادسًا: مع هذه المُحاجَجة العقلية، استعمل القرآن الخطاب العاطفي الوجداني الذي يهزُّ النفوس من داخلها، ويُذكِّرُها بمصيرها المحتوم وما ينتظرها بعد ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مَّتَ فَهُمْ يَخْلَدُونَ﴾ (٣٦) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَلَكِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنُوبُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٤٦) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

سابعًا: ربط القرآن بين دعوة التوحيد التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ وبين الرسالات السماوية السابقة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨) ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ (٤٩) ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

وهذا الربط جاء لتأكيد أن هذه الدعوة المباركة ليست بدعًا في الدعوات، بل هي رسالة الفطرة والمنطق السليم التي نادى بها جميع الأنبياء ﷺ.

دقائق التفسير

﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ استفهامٌ مُّتضمِّن معنى النفي والإنكار، أي: إن هذه الإلهة المزيفة لا تقدر على نشرهم وإحيائهم بعد إماتتهم.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ أي: لو كان في السماوات والأرض آلهة متعددة غير الله لفسد النظام الكوني؛ لأنه لن يكون هناك نظام واحد، بل كلُّ إله يضع النظام الذي يريده.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فالله لا يسأله أحدٌ عن إرادته وقدرته المطلقة التي أنتجت هذا النظام الكوني الواحد، وكلُّ ما عدا الله يُسأل عن سُلوكه وتصرفاته.

﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَى﴾ القرآن الذي هو ذِكْرٌ للمؤمنين.

﴿وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ التوراة والإنجيل.

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ هم الملائكة الذين نعتهم المشركون بصفات الإله أو أنهم بنات

الله.

﴿لَا يَسْتَفِيقُونَهُ، بِأَقْوَالٍ﴾ أي: لا يُقدِّمون قولهم على قول خالقهم، بمعنى أنهم

مُسْتَسْلِمُونَ لطاعته وعبادته.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ نفى للشفاعة الباطلة التي هي مُستند الشرك، وفتح باب

الشفاعة المقترنة بمعاني التوحيد والرحمة الإلهية الواسعة.

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ هذا مثل قوله تعالى: ﴿لَيْنَ

أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فصورة الخطاب لرسول الله ﷺ، والمقصود غيره ممن

يتوقع منهم الشرك بعد الإيمان، فرسول الله مُنَزَّهٌ عن الشرك، وكذلك الملائكة، وإنما المقصود

تهديد المشركين أشدَّ التهديد، فإذا كان الملائكة لو ادَّعى واحدٌ منهم أنه إله، كان هذا عقابه،

فكيف بمن يكذب عليهم هذه الكذبة، أو يدَّعيها لنفسه كما فعل فرعون؟

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ كَانَتَا شيئًا واحدًا

متصلاً، ثم فصلَ الله بينهما، وربما كشف العلم الحديث بعض الحقائق والنظريات الداعمة

لهذا التفسير.

لكن يُشكِّل هنا: أن الكافرين لم يروا ذلك، والقرآن قال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم إنه لا

بُدَّ مِنْ مُحَاجَّتِهِمْ بشيءٍ يَعْلَمُونَهُ، ويؤكد فيهم دَقَّةُ النظام الكوني الواحد الذي يدلُّ على

وجود الخالق الواحد، فهذا هو السياق أصلاً.

وعليه فقول ابن عباس وغيره أنهم يرون السماء رَتْقًا، فَتَفَتَّقُ عليهم بالمطر، ويرون

الأرض رَتْقًا، فَتَفَتَّقُ لهم بالزرع أقرب لما يعلمه المشركون في ذلك الوقت، وأدلُّ على

موضوع الحوار، وهناك قرينة من النص أيضًا، وهي قوله تعالى مباشرة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، وليس من مانع أن تتضمن الآية المعنيين، فهما ليسا ضدَّين ولا نقيضين، بل فتقُّ الكون الأكبر مُقدِّمة لفتقِ المطر والزرع، والله أعلم.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ الرواسي: الجبال، وقد قرَّنها القرآن باستقرار الأرض وتوازنها، فلا تنقلب بنا ولا ﴿تَمِيدَ﴾ أي: تتحرك بأهلها فلا يستقرون عليها.

﴿فَجَاغَا سُبُلًا﴾ والسبل هي: الفجَّاج، وجاء بها للبيان والتأكيد.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ مُتَمَاسِكًا فلا تقع على الأرض.

﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون في مداراتهم المخصصة لهم وفق النظام الكوني الدقيق الذي ضبط الله فيه حركة هذا الكون بما فيه من شمسٍ وقمرٍ.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ قرارٌ حاسمٌ وشاملٌ لا يُستثنى منه أحد، وإنَّما الفارق في الآجال وموعد التنفيذ.

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ فكلُّ ما يُصيب الإنسان في هذه الحياة من صحَّةٍ ومرضٍ، وقوةٍ وضعفٍ، وغنىٍ وفقيرٍ، وكلُّ ما يسُرُّه أو يُحزُّنه إنَّما هو داخلٌ في باب الابتلاء والاختبار، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢]، وإنَّما العبرة بسلوك المبتلى؛ فمن شكر وصبرَ ظفرَ، ومن بطرَ وجزعَ خسرَ.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: عَجُولًا، والسياق يقدم بهذه الجملة؛ تمهيدًا لردِّه على الكافرين في استعجالهم العذاب استعجال المنكر المتحدِّي؛ ولذلك عقب بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿فَتَبَهُمُ﴾ تجعلهم باهتئين واجمين لا يعرفون ماذا يصنعون.

﴿فَأَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فأحاط بهم العذاب الذي يستحقونه

على استهزائهم بأنبيائهم.

﴿مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ مَنْ يحفظكم ويمدكم بأسباب الحياة غير الله؟

و﴿مَنْ﴾ هنا على البدلية، بمعنى: مَنْ ذاك البديل عن الرحمن الذي يكلؤكم؟

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ تأكيد للمعنى الأول، بمعنى: هل لهم آلهة غيرنا

تحفظهم؟

﴿وَلَا لَهُمْ مِمَّا يُضْحَبُونَ﴾ أي: لا تكون معهم مناصرة أو جوار.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ إنذار للمشركون

بأنَّ كلَّ سلطان آيلٌ إلى النقصان ثم الزوال، وهذه سنةٌ من سُنَنِ الله، والمقصود بالأرض هنا:

الدولة والسلطان الذي يقوم على أرض محددة، ثم تتآكل هذه الدولة، وينكمش ذلك

السلطان، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ومعلومٌ في كلِّ أمم الأرض، وقرينة هذا المعنى قوله تعالى:

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، والله أعلم.

﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمُهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ شيءٌ من عذاب الله المُعَجَّل لهم في الدنيا.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أي: الموازين العادلة التي لا تُحابي ولا تميل على أحد.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ التوراة، وكأنَّ هذه الآية جاءت لتربط بين

موضوع هذه السورة والسورة التي قبلها، وهي سورة طه، بتأكيد أنَّ دعوة الأنبياء واحدة،

وأنهم يُمثّلون سلسلة النور والتوحيد في مُقابل تلك التي تُمثّل الظلام والوثنية.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جَذَاً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَشَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تُكْسُوا عَلَى رءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفَبِلَاكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

إبراهيم عليه السلام يقيم الحجة على بطلان الأوثان

بعد حوار الطويل مع المشركين وإيراده للحجج العقلية والوجدانية يُقدِّم القرآن في هذا المقطع دليلاً حسيّاً ملموساً لا ينبغي أن يختلف في برهانه اثنان، وهذا الدليل جرى على يد سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ حيث قام بتحطيم هذه الآلهة المزيفة لعل ذلك يُحرِّك عقول الغافلين، ويمكن تلخيص هذه الحادثة العظيمة كما وردت في هذه الآيات بالآتي:

أولاً: أتى الله إبراهيم رُشدَه وهَيَّاهُ لهذه المهمة العصبية، وكان في البدء يدخل مع قومه الوثنيين بالحوار والأسئلة الاستكشافية ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴾

﴿٥٧﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٨﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٩﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرُكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٦٠﴾، وواضح من هذا العرض أن قومه لم يكونوا يمتلكون حجة سوى تمسكهم بها وجدوا عليه آباءهم.

ثانيًا: أضمر إبراهيم في نفسه أن يُحطَّم بيده هذه الأوثان؛ ليقيم عليهم الحجة القاطعة الملموسة، فالإله الذي لا يتمكن من الدفاع عن نفسه كيف يُسمَّى إلهًا؟ ثم نفَّذ إبراهيم ما عزم عليه، فجعلهم جُذاذاً إلا كبيرهم ﴿٦١﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٦٢﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٦٣﴾.

ثالثًا: رجع القوم إلى أصنامهم فرأوها مُحطَّمةً، لم يسألوا أنفسهم كيف للآلهة أن تتحطَّم؛ بل راحوا يسألون عن الفاعل وكأنه عملٌ جنائيٌّ وعُدوان على بعض ممتلكاتهم! وهذه هي غفلة العقل التي نبَّهت إليها مُقدِّمات السورة، والتي يغرق فيها الإنسان فلا يقدر على رؤية الحقائق ولو كانت ماثلة بين يديه ﴿٦٤﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٥﴾.

رابعًا: تذكَّر بعضهم مجادلات إبراهيم، فكانت الخيط الذي دَهَّم على هويَّة الفاعل ﴿٦٦﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٧﴾ قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٨﴾، نعم، هكذا؛ فالناس لن يسألوا عن حقيقة هذه الآلهة، وما الذي يرجونه منها بعد أن فقدت القدرة على حماية نفسها، هذه الأسئلة ليست مُهمَّة لدى الجماهير الغافلة، وإنَّما المهم معرفة الجاني وما سيُتعل به.

خامسًا: أحضَرَ إبراهيم ﷺ أمام هذا الجمهور الأبله الغافل لتبدأ هذه المحاكمة الغريبة ﴿٦٩﴾ قَالُوا مَا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٧٠﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَلُّوْا بِهِمْ يَنْظُرُونَ ﴿٧٣﴾.

لقد ترك إبراهيم ﷺ كبير الأصنام لهذا الغرض، فهذه إذا كانت آلهة ولها إرادات مختلفة فربما حصل بينهم ما يحصل بين ملوك الأرض، فقام كبيرهم بالتخلص من هؤلاء الشركاء المشاكسين، وبعد هذا فما الذي يمنع كبير الآلهة - وقد خلا له السلطان تمامًا - من أن يعلن سلطانه وتفردّه، وأنه هو الذي أراح هؤلاء المنافسين! هكذا أراد إبراهيم أن يطرق على هذه العقول لعلها تستيقظ، لكنهم بعد تلاؤم وتشاور جاءوه بجوابهم الأخير ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾!

سادسًا: لم ير إبراهيم بُدًّا من أن يواجههم بالحقيقة، ويُفند هذه الطريقة الغبية والساذجة في التفكير ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

سابعًا: فما كان جواب هؤلاء إلا اللجوء إلى منطق القوة والانتقام بأبشع صوره ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فالتحريق إذن هو الرد المناسب؛ لما وجدوه من حرق في قلوبهم وهم يرون آلهتهم مُحطمة أمام أعينهم، وهكذا اندفع الغوغاء لجمع الحطب وإيقاد النار، وكأنهم وجدوا ما ينشغلون به عن كل فكرة أو خاطرة قد تُحرك شيئًا من مجاري عقولهم الآسنة.

ثامنًا: أراد الله أن يُقيم عليهم تمام الحجة، وليرينا أيضًا أن هاوية الضلال لا نهاية لها حينما يتلبّد العقل، ويصدأ الفكر ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٦٧) ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾، لقد رأوا النار التي جمعوها وأضرموها قد أحالها الله القدير إلى برد وسلام، ونجّى الله إبراهيم.

وهذه آية تضطر الفكر اضطرارًا للمقارنة بين تلك الأصنام المحطّمة التي لم تتمكّن من الدفاع عن نفسها، وبين حال إبراهيم الذي يدعوهم إلى عبادة الإله الواحد، وكيف أن هذا

الإله قد تدخل لإنقاذه من بين أيديهم، ومن بين هُلب نيرانهم، لكنهم أصرُّوا على التمسُّك بتلك الآلهة المحطمة، وليس بعد هذه الغفلة من غفلة، ولا بعد هذا الضلال من ضلال.

تاسعاً: ترك إبراهيم ﷺ هؤلاء الناس، مُصطحباً معه لوطاً عليه السلام وزوجته سارة، حتى استقرَّ بهم المقام في أرض الشام، ثم رزقه الله منها بإسحاق، ومن ذرية إسحاق يعقوب، ثم كانت سلسلة النبيين ممن جعلهم الله منارات للسائرين على طريق الهدى والحق المبين ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ۝﴾.

دقائق التفسير

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسى وهارون، وقَدَّمْهُمَا بالذكر؛ لمناسبة سورة طه المتقدمة، والتي وردت فيها قصتها مفصلة، ولتقدم الإشارة إليهما في المقطع السابق بقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعَى وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾.

﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ ملازمون لعبادتها.

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ قالها في نفسه، فالكيد في مثل هذه الأمور لا يناسبه الإعلان، ثم لو كان قد أعلن ذلك لهم لأخذوا حذرهم، ولما تساءلوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾، وحينما أشاروا إليه بالتهمة إنَّها تذكروا ذكره لأصنامهم على سبيل الإنكار وليس على سبيل التهديد؛ إذ لو كانوا قد سمعوا منه التهديد لما قالوا له: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ لاستدراجهم إلى الاعتراف بأن آلهتهم لا تنطق ولا

تفعل، وفيه معنى التهكُّم أيضًا.

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ربما كان هذا في لحظة من التحرر الجزئي للعقل، ثم ما لبثت أن غابت في موج الغفلة والعناد والمكابرة، ويحتمل أنهم تلاوموا حينما شعروا بالتقصير تجاه آلهتهم التي تركوها من غير حراسة وحماية.

﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ تحتمل المعنيين أيضًا؛ أنهم بعد ومضة التيقُّظ انتكسوا، أو أنَّ القرآن يصف حالهم وهم يعترفون بأنهم إنما يعبدون آلهة لا تنطق ولا تفعل شيئًا، وليس بعد هذا الانتكاس من انتكاس.

﴿أَفِي لَكُمْ﴾ كلمة تضجر؛ لما رآه منهم من انتكاس في العقل، وارتكاس في حماة الجهل والغفلة.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ من زوجته سارة، وقد رُزِق قبله بإسماعيل من هاجر.
﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ هو ولد إسحاق، وسماه نافلة؛ لأنه جاء من غير سؤال، بخلاف أبيه إسحاق.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يُقْتَدَى بِهِمْ.
﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يدلُّون الناس ويُرشِدُونهم إلى طريق الحقِّ بإذن الله تعالى.

﴿وَلَوْ طَآءَلَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحِثْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبَيْثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَسِيفِينَ ۝٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٧٥﴾ وَنَوْمًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً، مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَثَتْ فِيهِ غَصَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۝٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ۝٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَفُوضُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ۝٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ، أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۝٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَالَمِينَ ۝٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلُصًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَحِثْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٨٨﴾ وَذَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ، زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ ۝٩٠﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرَجَهَا فَفَقَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ۝٩١﴾ إِنَّ هَذَا مِنْ أَمْرِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٢﴾

شذرات من قصص الأنبياء

بعد التذكير بقصة موسى وهارون، ثم تفصيل قصة إبراهيم وتخطيمه للأصنام، شرع القرآن بنظم بعض الشذرات والومضات السريعة من قصص النبيين عليهم جميعاً وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، وهي كالآتي:

أولاً: ذكّر لوط عليه السلام وكيف نجّاه الله من تلك القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴿وَلَوْ طَآءَلَيْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَبَحِثْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبَيْثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِءٍ فَسِيفِينَ

﴿٨٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٧﴾ وقد قَدَّمَهُ الْقُرْآنُ بِالذِّكْرِ لِصِلَتِهِ بِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ ؑ. ثَانِيًا: ذِكْرُ نُوحٍ ؑ وكيف استجابَ اللهُ لَهُ فَجَّاهُ وَمَنْ مَعَهُ، وَأَهْلَكَ قَوْمَهُ الْمُعَانِدِينَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨٨﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٨٩﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٠﴾.

ثَالِثًا: ذِكْرُ دَاوُدَ وَابْنِهِ سُلَيْمَانَ ؑ وكيف آتَاهُمَا اللهُ الْمُلْكَ وَأَسْبَابَ التَّمْكِينِ وَالْقُوَّةِ ﴿٩١﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٩٢﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴿٩٣﴾ وَكُنَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٩٤﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٩٦﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٩٧﴾.

رَابِعًا: ذِكْرُ أَيُّوبَ ؑ وكيف كَشَفَ اللهُ عَنْهُ الضَّرَّ وَالْمَرَضَ الَّذِي أَصَابَهُ بَعْدَ طَوِيلٍ صَبْرٍ وَتَحَمُّلٍ ﴿٩٨﴾ وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿١٠٠﴾.

خَامِسًا: ذِكْرُ إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذِي الْكِفْلِ وَنَعْتَهُمُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاحِ ﴿١٠١﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٣﴾.

سَادِسًا: ذِكْرُ يُونُسَ ؑ وَمَحْتَهُ الْقَاسِيَةُ وَالْفَرِيدَةُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ وَفِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ﴿١٠٤﴾ وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٥﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾.

سابعًا: ذِكْرُ زكريا وابنه يحيى ﷺ الذي وهبَه الله له على كِبَرِ سِنِّهِ ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ، رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾.

ثامنًا: ذِكْرُ مريم وابنها المسيح ﷺ وقصة خلقه المعجزة ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١١) إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٢﴾.

تاسعًا: بعد كلِّ هذا ذَكَرَ القرآن الحكمة الجوهرية من ذِكْرِ هؤلاء الأنبياء في مقطعٍ واحدٍ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، فهؤلاء الصفوة الكرام مع ما يُمَثِّلونه من أسوةٍ حسنة، ومثالٍ يُتَذَنَّى به في كلِّ ما يعرض للإنسان المؤمن في حياته المتنوعة، هم كذلك يُمثِّلون المعالم المكوِّنة لشخصية الأمة الواحدة التي تستعلي على كلِّ الحدود والفواصل المكانية والزمانية، والعنصرية والطبقية، وبالتالي فإنَّ أيَّ مفهوم للأمة يخرج عن هذا الإطار هو من الولاءات المُحرَّمة التي تُصادم صريح القرآن.

أما الولاءات الأخرى التي تستند إلى واقعٍ سياسي كمفهوم (الدولة)، أو اجتماعي كمفهوم (القبيلة) فهذه ينبغي أن تدور كُلُّها في دائرة المفهوم الواسع للأمة، أما إذا خرجت عنها وتَنَكَّرَتْ لها، فهي كذلك من الولاءات العصبية المُحرَّمة.

دقائق التفسير

﴿وَلَوْ طَاءَ آيِنُنُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أما الحُكم فهو هنا: الحكمة، والقدرة على الفصل بين الخصوم، وتمييز الحق عن الباطل، ومعلومٌ أنَّه ﷺ لم يُؤْتَ الحُكم الذي هو السلطة والمُلْك، وأما العلم فهو: علم النبوة.

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ تَفَشَّتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ نموذجٌ من حكمة الأنبياء وعدلهم، واحتكام الناس إليهم؛ لعدلهم وحسن تدبيرهم.

وقد أعرض القرآن عن تفصيل القصة؛ لأنه اكتفى بهذا المعنى، فالسياق لم يأت ليبيان مسألة فقهيّة، والظاهر أنّ أصل المسألة كانت على خلاف بين صاحب زرع وصاحب غنم، وقد انتشرت غنم هذا في زرع هذا فأفسدته، فاحتكما إلى داود وكان بجنبه ابنه سليمان، فحكم داود أولاً بما معه من علم، ثم استدرك عليه سليمان، فكان الأقرب إلى مُراد الله، وذلك قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّاءَ آيِنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا﴾.

وفيه أيضاً: فضيلة المبادرة بالرأي الحسن مع صغر السن، وفضيلة التراجع إلى أحسن القولين مع كبر السن.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ في تسخيرها معنى مُضاف غير التسييح؛ إذ التسييح كائن قبل داود عليه السلام وبعده، ولعلّ خصوصيته كانت بسماحه لهذا التسييح، واستئناسه به، ولا يمنع أيضاً أنها سُخِّرَتْ له لتحصيل منافعها، وكان هذا مُقْتَرَنًا بتسييحها وخضوعها لناموس الله الذي وضعه فيهما.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُؤْسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ هي الدروع التي تحمي الأجساد من ضرب السيوف وطعن الرماح.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أي: سُخِّرْنَاها له فكانت تجري بأمره، وإلى الوجهة التي يريدّها. ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: كان يُكَلِّفُهُم بالعمل داخل البحر لاستكشافه وجني جواهره، ويُكَلِّفُهُم بأعماله الأخرى أيضاً.

وهذه معجزة وليست مثالا يُحتذى، ولا علة يُقاس عليها، فالأصل الفصل بين عالم الإنس وعالم الجن، فلا نحن نُسَخِّرُهُم لخدمتنا، ولا هم يُسَخِّرُونَا لخدمتهم، فهذا مُنافٍ لحكمة الله في الخلق والتكليف.

﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ رَدَّ عَلَيْهِ أَهْلَهُ، ثُمَّ بَارَكَ فِيهِمْ وَكَثَّرَهُمْ.

﴿وَذَا النُّونِ﴾ صَاحِبُ الْحَوَى، وَهُوَ يُونُسُ ؑ.

﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ تَرَكَ قَوْمَهُ بَعْدَ أَنْ غَضِبَ عَلَيْهِمْ.

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ حَيْثُ تَرَكَ قَوْمَهُ مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ؛ لَظَنَّهُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُلْزِمَهُ بِالْبَقَاءِ مَعَهُمْ وَالصَّبْرَ عَلَيْهِمْ.

﴿وَأَصْلَحَ نَاحِلَهُ، زَوْجَهُ﴾ الظَّاهِرُ أَنَّهٗ صَالِحُ الْجَسَدِ؛ بِحَيْثُ تَكُونُ قَادِرَةٌ عَلَى الْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ بَعْدَ كِبَرِ سِنِّهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عَنْ كُلِّ حَرَامٍ وَشُبْهَةٍ.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ دَلِيلًا عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ الْمَطْلُوقَةِ.

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَجْعَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَافٍ ﴿٩٤﴾ وَكَرَّمُوا عَلَى قَرَبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِتَوِيلِنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَيِّسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتْنٌ إِلَيَّ جِئْتُ بِقَوْلٍ مُّخْتَلَفٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

العاقبة ونهاية الصراع

بعد هذا التطواف الذي أخذتنا به سورة الأنبياء في آماذ التاريخ، وأعماق النفس البشرية، وطبيعة المجتمعات، وتجارب النبين مع أقوامهم، عادت السورة لتذكر بالحقائق الكبرى التي تختم هذه الحياة بكل ما فيها من مظاهر وظواهر، وأخبار وأسرار، وصراعات وتحالفات:

أولاً: أن الخلاف أمر واقع ولا مفر منه في الحياة البشرية، وإننا العبرة دائماً بالعاقبة التي سيقف عندها الجميع، والميزان الحق الذي لا يُجابي أحداً، ولا يميل على أحد ﴿وَتَقَطَّعُوا

أَمَرَهُمْ بِتَنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَجُوعٌ ﴿١٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ، وَإِنَّا لَهُ كَنُيُوتٌ ﴿١٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾.

ثانيًا: أن هذه الدنيا بكل من فيها وما فيها ستنتهي عند أجل محدد، وأن هذا الأجل له علامات وأشراطه: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُشِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَوَلَّوْنَ قُدُوكُنَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٨﴾.

ثالثًا: أن هذا الأجل لن يكون نهاية المطاف، فهناك الحياة الأخرى، والتي هي الأطول والأدوم، والتي سيشتمل فيها الناس بحسب ما قدموه لأنفسهم في هذه الدار ﴿ إِنَّا نَكْتُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءِ ءَالِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٤﴾.

رابعًا: أن طريق النجاة إنما هو في اتباع هذه الرسالة الخاتمة، التي بعث الله بها نبيه ورسوله الخاتم محمدًا ﷺ، والتي هي رسالة الرحمة الشاملة في الدنيا والآخرة: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَالِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾.

خامسًا: أن هذه الرسالة تقوم على أساس التوحيد الخالص لله رب العالمين، مع وضوح النهج، وصدق البرهان ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ

مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِيٓتَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾

سادسًا: أنَّ وظيفة رسول الله ﷺ إنما هي في تبليغ هذه الرسالة، أما الذي يعلم خبايا النفوس، ويحكم على الخلق، فهو المتفردُ سبحانه في ربوبيته وألوهيته، لا يُشاركه في صفاته نبيُّ مُرسل، ولا ملكٌ مُقرب ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

دقائق التفسير

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ تفرَّقوا في دينهم وكانوا شيعًا.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان شرطٌ في قبول العمل الأخروي، أما من يُقدِّم الخير للناس من دون إيمان، فله أجره كما أراد هو، أي: أجرٌ دنيوي لا يُبخس فيه حقه ولا جهده.

﴿وَحَرَّمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يتوبون إليه، ولذلك أهلكهم، وتحتمل معنى التئيس، كأنه يقول: وكلُّ قريةٍ أهلكناها بظلمها لن تعود إلى الدنيا، فهذا مُحَرَّمٌ عليها، والله أعلم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ﴾ بمعنى أنَّ ظهور هذه الأقوام المتوحشة وتدفعهم بهذه الكثرة والقوة هو أحد أشرط الساعة وعلامات اقتراب الوعد الحق.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا تتحرك أجفانهم؛ ترقبًا وتحسبًا بعد أن صدمتهم الساعة بأهوالها.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: حطبها ووقودها.

﴿لَوْ كَانَتْ هَتُولاَءَ ءَالِهَةً مَا وَرَدُّوهَا﴾ هذا توبيخٌ للمشركين الذين عبدوا هذه الآلهة

المزيفة من أصنام حجرية، أو بشرية، وإنما يُستثنى من ذلك من ادعى المشركون ألوهيتهم وهم بُرءاء من ذلك؛ كالأنبياء والملائكة والصالحين من عباد الله، أما الحجارة فهي قطعاً ليست مكلفة، وإلقاؤها في النار إنما هو لزيادة تحسّر هؤلاء المشركين وهم يرون أن آلهتهم تحترق معهم.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ إلا ما يزيدهم عذاباً، وحوار الكافرين في النار وارد في القرآن الكريم، وكذا حوارهم مع أهل الجنة، ومع أهل الأعراف، ولا يبعد أن تكون هناك أحوال مختلفة، فحال يسمعون فيها، وحال لا يسمعون، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ عام في كل من استحق الوعد الحسن بثواب الله والجنة من المؤمنين والمتقين، وفيه رد على من جادل في المسيح ونحوه من الأنبياء والأولياء والملائكة الذين ألهمهم البشر، فهؤلاء لهم الحسنى، ولا يدخلون النار مع تلك الآلهة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ صوتها؛ لشدة بعدهم عنها.

﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ ذاك يوم البعث الذي ينتفض فيه الخلق لملاقاة ربهم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ تُطوى يوم القيامة هذه السماوات بما فيها من نجوم وكواكب، وتُدرج كما تُدرج الأوراق، فقد انتهى دورها، وتوقفت هذه الحياة، لتبدأ الحياة الأخرى.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ الزبور: هو الكتاب، وهو اسم جنس للكتب السماوية.

﴿مِّنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير الخلق، ولا يمنع أيضاً أن يكون الزبور

هو كتاب داود، والذكر كتاب موسى ﷺ، والله أعلم.

﴿أَنْتَ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي: يتمكّنون فيها بعد انحسار الباطل وزوال

سلطانده، ويُحتمل أن يكون هذا في الآخرة، فتكون الأرض أرض الجنة، وهي الأرض

الدائمة والمستقرة، والسياق لا يبعد عن هذا، والله أعلم.

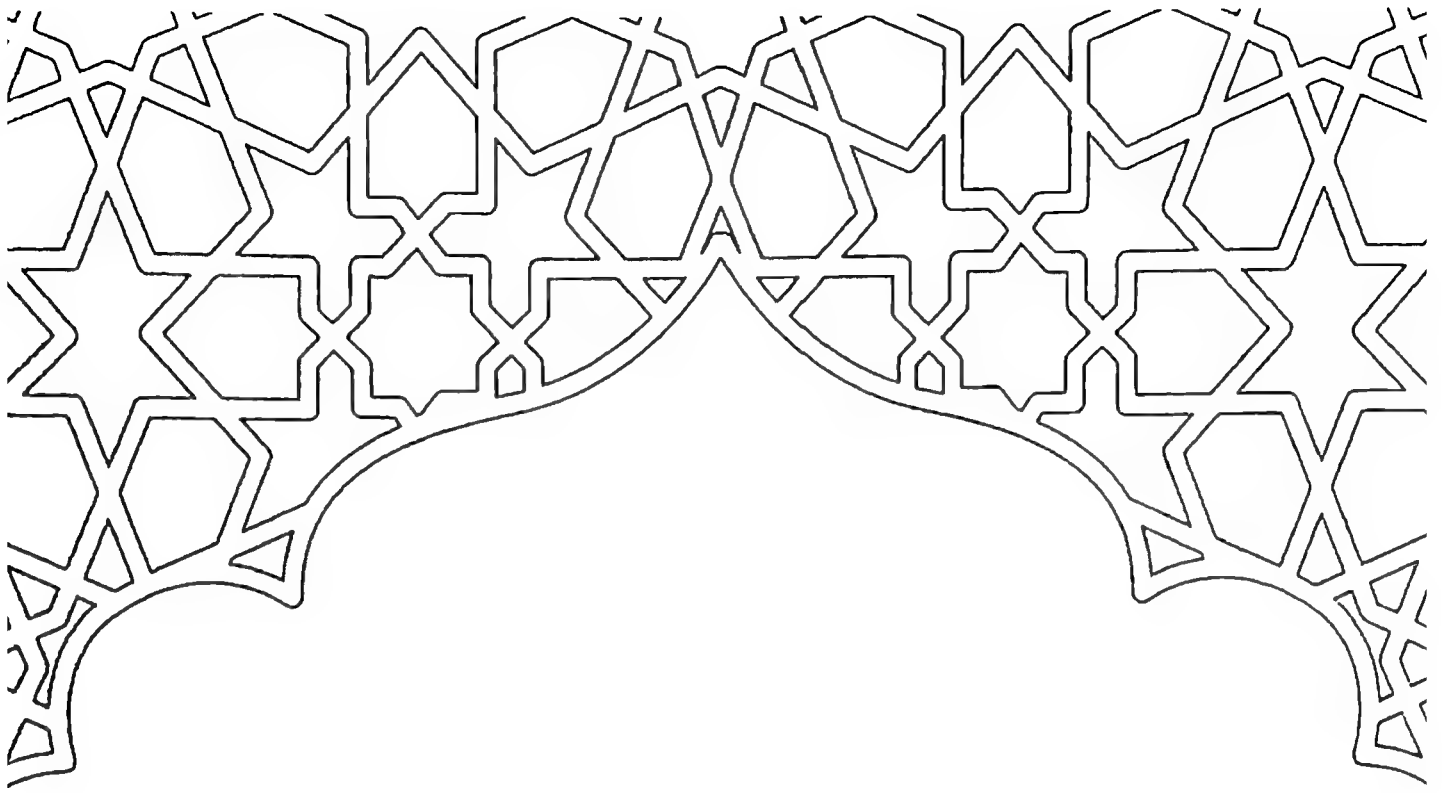
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ تلك هي القيمة المحورية لهذه الرسالة المحمدية، وهي غاية الغايات، وكلُّ ما في القرآن والسنة من أخبارٍ وأحكامٍ وعظائمٍ؛ إنما هو لتحقيق هذه الغاية، وحينما تكون الرحمة القيمة المحورية، بمعنى أنها المعيار الذي نحكم به على اجتهادات المجتهدين، واختلافات المختلفين، فكلُّ عبادة لله أو حكم من أحكامه لا بُدَّ أن نرى فيه من هذه القيمة أثرًا، فالدين لم يأت للشقاء، وإنما الشقاء من أنفسنا، ومن تصوراتنا الخاطئة والضيقة عن الدين.

﴿إِذْ أَنذَرْنَاكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أعلمتكم جميعًا وبلغتكم هذه الرسالة كما أنزلها الله عليَّ.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ الضمير عائِدٌ إلى الله، وهذا واضحٌ من السياق.

﴿وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني: تأخير العذاب عنهم، فلعله يكون اختبارًا ومهلة مضافة لهم.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أفصل بيننا وبين قومنا هؤلاء الذين كذبونا وآذونا، ولا ينتظر من الله إلا الحق، وإنما هو التأكيد، والتبرِّي من حول المخلوق إلى حول الخالق ﷻ.



سُورَةُ الْحَجِّ

المجلس الرابع والأربعون بعد المائة: عقيدة البعث والجزاء

المجلس الخامس والأربعون بعد المائة: رسالة الحج

المجلس السادس والأربعون بعد المائة: الصراع مع المشركين

المجلس السابع والأربعون بعد المائة: عقيدة التوحيد

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن فَوَّلَ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَاِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنتَبَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⑦ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّزِينٍ ⑧ ثَانِي عِطْفِهِ، لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ⑨ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيَسَّ بِظُلْمِ الْعَبِيدِ ⑩ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْعَمِينَ ⑪ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ⑫ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ⑬ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ⑭ مَن كَانَ يَظُنْ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ⑮ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُنَسِّتُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ⑯ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑰ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ⑱ هَٰذَا خُصَانٌ أُخْصِمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ⑲ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ⑳ وَلَهُمْ مَقْلَبٌ مِّنْ حَرِيرٍ ㉑ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ اعْبُدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ㉒ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ㉓ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ㉔﴾



إنَّها القوَّة الدافعة للعمل، والرُّكن الإيماني الذي يُحوِّل أركان الإيمان الأخرى إلى واقع يعيش على الأرض، تلك هي عقيدة الآخرة بما تتضمنه من حساب وجزاء، فالإنسان لن

يُتْرَكُ سُدىً، وأعماله كلها صغيرها وكبيرها مُسَجَّلَةٌ عليه، وهو مجزيٌّ بها، وبقدر ما يكون الإنسان متيقظًا ومستحضرًا لهذه الحقيقة يتحسن سلوكه، وينمو عنده الحسُّ المرفهُ تجاه أدنى زلَّة وأقلِّ مظلمة.

إنَّها وإن كانت عقيدة غيبية محضة في مضمونها، إلا أنَّها عقيدة عملية واقعية بآثارها ونتائجها، هذه المعاني وما يتَّصل بها هي المحور الأول لهذه السورة المباركة:

أولاً: تأكيد وقوع الآخرة وعظيم شأنها وخطرها ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾، ﴿ذَلِكَ يَأْنٍ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّئُ الْمَوْتَ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝﴾.

ثانياً: تأكيد الصلة بينها وبين الجانب العملي والأخلاقي في حياة الناس، بمعنى أنَّها القوة الدافعة لمحاسبة النفس وتهذيبها وتقويمها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۝ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝﴾.

وإذا كان الإيمان بالله الحق وبوعده الحق يُورث التقوى والثبات والعمل الصالح؛ فإنَّ الغفلة عن هذه المعاني تُورث التذبذب والتقلب بحسب المصالح الآنية حتى لو كان في هذا مجانبة عن الحق، وتلبُّس بالباطل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۚ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۚ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝﴾ يدعو من دُوبِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۝﴾.

ثالثاً: الاستدلال عليها بمنطق العقل، وصورة الحس:

أما العقل؛ فإنَّ إيجاد الحياة الأولى دليلٌ على إمكانية الحياة الثانية وبطريق الأولى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ۝﴾ وأما الحسُّ؛ ففي دورة النبات التي

نراها كل يوم، فالْبَذرة تنمو حتى تكون سنبله، أو شجرة فُشْمِر، وفي الثمرة بَذرة، ومن البَذرة تعود الحياة الثانية، وهكذا ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

ومن ينتبه للكمأة كيف تنمو، ثم تبقى خلاياها مُمتزجة بالرمال لسنة أو سنتين يمرُّ عليها الناس فلا يرون شيئاً، حتى إذا جاء الموسم المناسب ونزل المطر، ظهرت من جديد؛ فإنه يُدركُ معنى هذا الدليل، ولماذا نُسمِّيه دليلاً حسيّاً.

رابعاً: وصم الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنهم يفتقرون إلى العلم، ولو كانوا بذلوا جهدهم في تحصيله لما وسعهم هذا الإنكار، فمقتضى العقل والحسّ شاهد عليها كما مرَّ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ۝٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿ وفي الآيات إشارات إلى أن هذا الجهل إنما سببه اتِّباع الشهوات ومزالق الشيطان بعيداً عن الهدى والتَّجرُّد للحقّ.

خامساً: بيان أن ذلك اليوم هو يوم الفصل بين أصحاب الديانات المختلفة بأسمائها وأنواعها ومذاهبها ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وفي هذا تهديدٌ ووعدٌ لمن يكذب على عباد الله بصناعة الأديان المُحرَّفة والعقائد الفاسدة، وهي ظاهرة بشرية طاغية، وهي لا شك أهم أسباب الضلال والانحراف، حتى بالنسبة للمُلاحدين ونحوهم؛ فإن تشوية الدين هو أحد أسباب تكوُّن الإلحاد وانتشاره.

سادساً: بيان أن الناس في ذلك اليوم سينقسمون قسمة واحدة وبمعيارٍ واحدٍ فقط، لا كما يختلفون هنا في الدنيا بحسب قومياتهم وجنسياتهم، ومستوى معيشتهم، وحتى ألوان بشرتهم، هناك رايتان فقط ﴿ هَذَانِ خَصَمَانِ أَحْصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ

ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١١﴾ يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

دقائق التفسير

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أصل التقوى مُلازمة الحذر والورع، ومضمونها جامع لكل عمل صالح.

﴿وَنَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ قبل تمامه من شدة الفزع.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ أثبت سُكَرَ المجاز، والذي هو بمعنى الدهول والاضطراب، ونفى سُكَرَ الحقيقة، والذي لا يكون إلا بالشراب، وهذه الآية من أوضح الشواهد على استعمال المجاز في القرآن الكريم.

﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ تبيان لمراحل خلق الإنسان في الرَّحِم، وقد تمكَّن علمُ الأجنة الحديث من تصوير هذه المراحل بالدقة الكافية، وأثبت أنَّها تكون في حدود الأسابيع الخمسة الأول، وهو ما يوافق حديث مسلم: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ نِتْنَانٍ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا»^(١).

وقد طلبتُ من الدكتور عبد القادر العبيدي (وهو طبيبٌ معروف ومهتمٌّ بهذه المسائل) أن يكتب لي آخر ما توصل إليه في هذا المجال، فكتب لي ما نصُّه: (العَلَقَةُ تبدأ من يوم ١٥ إلى يوم ٢٣ بعد التلقيح، وخلال هذه الأيام تبدأ خلايا القرص الجنيني بالتخصص والتكاثر

(١) صحيح مسلم (٨/٤٥) - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

بشكلٍ سريعٍ جدًّا، وأوَّل ما يتكوَّن الجهاز العصبي والدماغ، ويتبعه القلب والأوعية الدموية، وتكوَّن الأوعية ممتلئة بخلايا الدم ولكنها غير متحركة؛ لأن القلب لم يبدأ بالنبض بعد، فهي تُشبه قطعة الدم الجامدة، وهي تعتمد في غذائها على الأم؛ وذلك بتعلقها عن طريق الحبل السُّري الابتدائي بجدار الرَّحِم، وفي نهاية هذه المرحلة تكون في مظهرها الخارجي تُشبه دودة العَلَقَة.

أما المُضغَّة فتبدأ من يوم ٢٣ إلى يوم ٤٢، والخلايا مُستمرة بالتخصص وتكوِّن أجهزة الجسم، ولكن الشيء المميز الآن هو ظهور ما يُسمَّى الفلقات على الجانبين، هذه الفلقات ستكوِّن العظام والعضلات والجلد، والجنين في هذه المرحلة شكله تمامًا يُشبه العَلَكَة أو اللحمية المضغوغة، والآن أطباء علم الأجنة يُسمونها: Leech embryo stage "مرحلة العَلَقَة" و Chewable lump stage "مرحلة المضغَّة".

﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ليست كُلُّ النُّطْفِ الداخلة في الرَّحِمِ تتخلَّقُ أجنَّةً، بل الجنين يتخلَّق من نُطفَةٍ واحدة، وباقي النُّطفِ يُمجُّها الرَّحِمُ.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ الطفل اسم جنسٍ يُغني عن الجمع.

﴿أَرَادَ الْعُمُرَ﴾ أَرَدَاهُ، وهو الحَرْفُ؛ ولذلك قال بعده: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.

﴿هَامِدَةً﴾ ساكنة، لا حركة فيها ولا نمو.

﴿أَهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾ تحركت بالزرع ونمت.

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ لاويًا جانبه، وقفة المستكبر المستهزئ.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ قاعدة عظيمة في بيان حقيقة العقيدة الإسلامية تجاه مسؤولية الإنسان الكاملة عن سلوكه وتصرفه، وأنَّ الاحتجاج بالقدر في هذه المسألة مُنافٍ للعقيدة الصحيحة، وفيه معنى اتهام الله بما يخالف الحق والعدل، فالله مُحال

أن يتدخل في إرادة الإنسان ويحرفها عن طريق الخير، ثم يعاقبه على ذلك، تنزه ربنا الرحيم الكريم عن ذلك، وعلا علواً كبيراً.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ على طرف غير ثابت وغير مستقر، كأنه يتعجل نتيجة عبادته؛ فإن أصابه مغنم استمر، وإن كانت الأخرى رجع.

﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ اختلف المفسرون في توجيه هذه الآية، والذي يظهر من السياق: أن الحديث لا زال متصلاً بأولئك الذين يعبدون الله على حرف، فالله ﷻ يقول لهم: إن كنتم تشككون في نصر الله لهذا الدين ولنبيه الكريم ﷺ، فارتقوا إلى السماء، واقطعوا عنه الوحي الذي هو أساس الدين، ومصدر النصر والتمكين، وهذا من باب التعجيز المحض، ثم يقول لهم على سبيل التهكم: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ﴾ بمعنى أنه إذا وصلتكم إلى السماء، وقطعتم مصدر الوحي، فانتظروا آنذاك أن يتحقق في محمدٍ ودينه ما تتمنون، والله أعلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ هو السجود القدرى، والذي يعني: الخضوع التام للنظام الذي وضعه الله في هذا الكون.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ يسجدون أيضاً، لكنَّه السجود التكليفي الذي يتفاوت فيه الناس بخلاف السجود القدرى.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ فريقان: فريق الجنة، وفريق النار.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ في دُنياهم وأُخراهم، أولئك أصحاب الجنة.

﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ طريق الله الحميد الذي أوصلهم إلى الحق والثبات عليه في الدنيا، ثم أوصلهم إلى مرضاة الله، والجنة في الآخرة.

سُورَةُ الْحَجِّ

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
بِالْحَكْمِ يُظْلَمِ نُزُفَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧
لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ
وَالْفَقِيرِ ٢٨ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٢٩ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ
لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ ٣٠ خُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
٣١ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ٣٣
وَلِكُلِّ أُمَةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ
الْمُحْسِنِينَ ٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣٥ وَالْبَدَنَ
جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْبِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالْمُعْتَرَّ
كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِئَالِهِ النَّفُوسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِهَا
اللَّهُ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾

رسالة الحج

بعد محور البعث والجزاء شرع القرآن مباشرة بالحديث عن الحج، وهي انتقالة تبدو لأول

وهلة كأنها بعيدة عن السياق، وهي ليست كذلك لسببين:

الأول: أن حديث القرآن عن اليوم الآخر لم يكن حديثاً غيبياً بحتاً، بل هو حديث يربط

بمتانة ووضوح بين عالم الغيب وعالم الشهادة، عالم الإيمان وعالم العمل.

الثاني: أن القرآن ختم حديثه الأول بالفريقين المختصمين في الله؛ فريق الإيمان، وفريق

الكفر، فريق الجنة، وفريق النار، وبهذا مهّد الطريق لتناول أعقد بُور الصراع على هذه

الأرض بين الفريقين؛ حيث كانت مكة والمسجد الحرام بيد الفريق المُشرك الكافر، بينما كان المسلمون يرون أنهم أولى بها، وأن عليهم مسؤولية تطهيرها من رجس الأوثان، وتركها حرماً آمناً لكل عاكفٍ وبادٍ لا يبتغي فيها إثماً، ولا يدعو فيها لوثن.

وقد نزلت هذه السورة، وبهذا الاسم؛ تُشَوِّق المسلمين للحجّ، وتُحفِّزهم لتحمل مسؤوليتهم تلك؛ ولذلك كان مدخل هذا المحور ليس الحديث عن ذات الحج، وإنما الإنكار على المشركين أن صدّوا المؤمنين الموحّدين عن دخول المسجد الحرام، ولتسلسل الآن مع حديث القرآن هذا:

أولاً: ندّد القرآن بالمشركين الذين يصدّون الناس عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقد تضمّن هذا التنديد وعيداً شديداً، كأنه يُهيئ المسلمين لمرحلة الصدام، والتي هي موضوع المحور الثالث لهذه السورة المباركة.

ثانياً: ذكر القرآن بعمق الهوية الدينية والتاريخية لفريضة الحجّ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

ولا شك أن ذكر إبراهيم عليه السلام في هذا السياق له دلالة الكبيرة في الصراع مع الجبهة الوثنيّة؛ حيث كانت قريش تتبنّى رعاية التراث الإبراهيمي في مكة، ومن ثمّ كان نزاع هذه الدعوى وإبطالها إنمّا هو نزاعٌ لشرعية المشركين في إدارتهم لمكة ولشؤون الحجّ فيها، وفي الآيات إشارة بانتشار هذا الدين وقبوله، وتلبية الناس لنداء الحجّ من كلّ فجٍّ عميق.

ثالثاً: أن الحجّ يهدف إلى تحقيق مصالح العباد كما هو موسمٌ للعبادة والذكر، وصقل النفس وتهذيبها ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ عَلَى مَا

رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾.

وقد ورد في الآية بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالحج مما هي موسعة في كتب الفقه؛ كالطواف، والهدي، والنذر، وتخصيص أيام مفرغة لذكر الله.

رابعاً: تأكيد حرمة الحج وتعظيمه، وتعظيم أحكامه وشعائره ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾. ولا شك أن هذا التعظيم مع ما فيه من معنى التدئين والتعبد الصادق، يُرسخ في الأمة روح الاعتزاز بهويتها الجامعة، وهذه إحدى أهم رسائل الحج وغاياته الكبرى.

خامساً: تأكيد ارتباط الحج بالعقيدة الصحيحة وبالأخلاق الحسنة، فهو ليس عبادة منفصلة، بل ركن في بناء متين ومتكامل ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنْعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾، ﴿فَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَحْدٌ فَلَهُ اسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

سادساً: تأكيد روح التكافل ومواساة الفقراء والمحتاجين ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَاسِ الْفَقِيرَ﴾، ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٢﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تقديره: وهم يصدُّون.

﴿سَوَاءٌ أَعْكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾ يستوي فيه المقيم في مكة والقادم إليها من خارجها.

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَامٍ يُظْلَمِ﴾ معناه: مَنْ يُرِدْ في المسجد الحرام إلحادًا مُتَلَبِّسًا بالظلم، والإلحاد هنا: الميلُ عن عقيدة التوحيد وطريق الإيمان، والمقصود به: الشرك، وهو الظلم الأكبر.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ وإذ هيأنا.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ارفع صوتك وادعهم لأداء فريضة الحج.

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ يُلبون دعوتك مُشاةً على أقدامهم، أو راكبين على دوابهم، والضامر: الناقةُ المُعدة للسفر، بخلاف تلك السميكة المُثقلة باللحم.

وهنا مسألة: أنَّ النصَّ تناوَلَ وسيلتين فقط، والمسلمون اليوم يُحْجُّون بوسائل أخرى؛ كالطائرات، والسيارات، دون نكير، ومعنى هذا: أنَّ النصَّ على الوسائل ليس كالنصَّ على أصل الحكم، فالوسائل تختلف وتتطور بحسب حاجة الناس، وتقدُّم الحياة، أما نصوص الأحكام (كالطواف، والسعي، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار) فهذه لا تتغير.

﴿مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾ مِنْ كُلِّ طريق بعيد.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ مطلقة؛ دينية وديوية، ولكن قد يكون هنا إفراط وتفريط؛ فمنهم من يُضَيِّق على الناس مصالحهم، ويَزْهَدُهم بكلِّ ما له صلة بالدنيا، ومنهم من يتوسَّع أكثر مما ينبغي، فيتضيَّجُلُّ وقته في الأسواق، والحقُّ أنَّ الأصل في الحجِّ أنَّه موسم تعبُّدي، مخصوصة أياؤه للذكر والعبادة وفعل الخير، فإنَّ احتاج الحاجُّ إلى حاجة دنيوية فلا بأس أن يُقْضِيها ثم يرجع إلى عبادته، أما التزُّه الفارغُ فهو تضييعٌ لأثمن الأوقات وأعظمها وأعظمها بركة عند الله.

﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والضأن والماعز، فلا تصح الأضحية من غير هذه الأصناف.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمرٌ بمعنى الإباحة وليس الوجوب، ونصّ عليه ذرّاً لشبهة التحريم؛ لأنها مالٌ مُصدّقٌ به، فالشبهة فيه واردة لولا هذا التنصيص.

﴿وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ ذكّرهم بالصفات التي تستدرّ الرحمة والعطف.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ يتحلّلوا من ملابس الإحرام، ويحلّقوا رؤوسهم، ويقلّموا أظفارهم، ويتزيّنوا بشياهم المعتادة، ويتعطّروا، فكلّ هذا أصبح مُتاحاً لهم، وبهذا يتخلّصون من تَفَثِ الإحرام، أي: من قيوده ولوازمه.

﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الكعبة المشرفة، وسميت البيت العتيق؛ لأنها أوّل بيت لله وُضع في الأرض.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ من هذه ليست للتبعض؛ فالأوثان كلّها رجس، بل هي لبيان مصدر الرجس.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ تشبيهٌ يُصوّر القرآن فيه حال المشرك، فهو كالساقط من السماء، الفاقد للإرادة ولكلّ أسباب المنعة والمقاومة، فيكون نهباً لكلّ مَنْ يختطفه بالشبهة أو الشهوة، أو تأخذه ريح الزمن إلى حيث لا يدري، فهو حائرٌ مضطربٌ لا يدري أصل وجوده، ولا يدري مُنتهى عمره، ولا طبيعة هذا الكون الذي يعيش فيه.

﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ وهذه أصل التقوى، فمن لم يتّق الله بقلبه، لم تنفعه تقوى الجوارح؛ لأنها علامات الرياء، ومُدارة الخلق، وستنكشف في أوّل اختبار.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْمُلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ هي الأنعام التي ينتفع بها أصحابها متى شاءوا، فإذا أشعروها هدياً فهذا الأجل المسمى؛ فترك ولا يُتعرّض لها حتى

تَصِلُ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَأَمَّا مَا يَنْتُجُ عَنْهَا فِي الطَّرِيقِ وَبَعْدَ الْإِشْعَارِ مِنْ وَلَدٍ وَلَبَنِ، فَفِيهِ تَفْصِيلٌ لَا يَتَسَعُ لَهُ الْمَقَامُ، وَمَحَلُّهُ كِتَابُ الْفَقْهِ.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ: أَنْتُمْ، وَكَذَلِكَ مَنْ سَبَقَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ، شَرَعْنَا لَهُمْ نُسُكًا يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ بِهِ وَيَذْكُرُونَهُ عَلَيْهِ.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ الْمُطِيعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ.

﴿وَالْبُدْنَ﴾ الْإِبِلَ الْمُعَدَّةَ لِلْأُضْحِيَّةِ.

﴿مَنْ شَعَرَ بِاللَّهِ﴾ مِنَ الْهَدْيِ الظَّاهِرِ، وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً﴾ عِنْدَ نَحْرِهَا وَهِيَ وَاقِفَةٌ.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ بَعْدَ نَحْرِهَا.

﴿الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ الْقَانِعُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ وَلَا يَتَشَوَّفُ لَهَا، وَالْمُعْتَرَّ بِخِلَافِهِ، وَكِلَاهُمَا مُسْتَحَقٌّ.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ لَنْ يَصِلَ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا شَيْءٌ.

﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ إِنَّمَا يَصِلُهُ التَّقْوَى مِنْ نِيَّةٍ طَيِّبَةٍ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ.

تَجَدُّرُ الْإِشَارَةِ فِي خَتَامِ هَذِهِ الدَّقَائِقِ أَنَّ تَفْصِيلَ الْقُرْآنِ لِكُلِّ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَمَكَّةَ لَا زَالَتْ

تَحْتَ وَطْأَةِ الْأَصْنَامِ، يَعْنِي تَحَقُّقَ الْفَتْحِ الْأَكِيدِ، وَدَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْوَ هَذَا الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ الْمُتَيَقَّنِ،

وَهَذَا مَا حَصَلَ بِالْفِعْلِ - كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ -، وَاللَّهُ يُتِمُّ عَلَى مَكَّةَ وَأَهْلِهَا بَرَكَاتِ ذَلِكَ الْفَتْحِ،

وَلَا يَنْتَزِعُ عَنْهَا رَايَةَ التَّوْحِيدِ وَالْدِّينِ الْحَقِّ بِمَنْنِهِ سُبْحَانَهُ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ.

الصراع مع المشركين

بعد محور الحجّ وما تضمّنه من تنديد بموقف المشركين وصدّهم عن المسجد الحرام، شرّع القرآن بيان طبيعة العلاقة مع هؤلاء المشركين وما ينبغي للمؤمنين الاستعداد له:

أولاً: بيان أن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، وهو معهم على من عاداهم وظلمهم ﴿١﴾ ﴿٢﴾
 إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣﴾، ﴿٤﴾ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٥﴾
 وواضح من أسلوب القرآن هنا أنه يتحدث عن الحرب الدفاعية لردّ الظالم المعتدي، وكفّ
 عدوانه.

ثانيًا: بيان أنَّ المشركين هم المعتدون، وهم الظالمون؛ ولذلك حُقَّ للمؤمنين أن يردُّوا هذا الظلم، وهذا العدوان ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِإِثْمِهِمْ ظِلْمًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۖ ﴿٣٩﴾

ثالثاً: تأكيد القرآن أنَّ ردَّ العدوان ولو من مُشركٍ أو كافرٍ ينبغي أن يكون بالعدل ﴿١٢﴾
 ذلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَاهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿١٣﴾
 رابعاً: بيان أنَّ أصل الخلاف مع المشركين لم يكن على أرضٍ أو مصلحةٍ دنيويَّةٍ، وإنما كان
 خلافاً عقديّاً بسبب موقف المشركين من رسالة التوحيد التي جاء بها خاتم المرسلين محمد
 ﷺ، وهو موقفٌ مُتكرر مع كلِّ نبيٍّ مرسلٍ، فالصراع بين الشرك والتوحيد صراع وجود لا
 تخلو منه أرض ولا زمان ﴿١٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٥﴾ وَقَوْمُ
 إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٦﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ لَأَكْفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ ۖ فَكَيْفَ
 كَانَ نَكِيرٌ ﴿١٧﴾

خامسًا: بيان أنَّ عاقبة الشرك خسارة الدنيا والآخرة، وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ ﴿فَكَأَيُّ مَن قَرَّبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهِ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْتَزُّ مَعْظَلَهُ

وَقَصِرَ مَشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٤٩﴾.

سادساً: بيان أن عاقبة المؤمنين خير الدنيا وخير الآخرة ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾
 إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٠﴾ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾
 ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وهكذا يكون المؤمن بين الحُسنيين؛ نصر الدنيا، وشهادة الآخرة.

سابعاً: تحميل المؤمنين مسؤولية الإصلاح ونشر الخير والفضيلة، ومحاربة المنكر والرذيلة بعد تمكين الله لهم، ونصره لهم على عدوهم ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

وهذه مسؤولية لا تقل أهمية عن مسؤولية البذل والتضحية في مراحل الصراع المختلفة، فمن يصبر على محن الطريق، ربما يقل صبره عند قطف الثمر، والتنافس في مقارعة العدو قد يكون أسهل على النفس من التنافس على الغنائم، وفي هذه وتلك يعيش المؤمن حالة من الاختبار والامتحان.

ثامناً: في خضم هذا المحور يذكر القرآن بُعداً آخر لهذا الصراع، ونموذجاً عما كان يواجهه ﷺ من هؤلاء المشركين، إنه نموذجٌ لظاهرة من ظواهر الصراع مع كل الدعوات، ومع كل النبين، وليست حادثة جزئية أو منفصلة كما تُشير بعض الروايات التفسيرية التي ذهبت

بالمقصود من السياق إلى زاوية أخرى ليس لها صلة بالواقع، ولا بالسياق، ولا بطبيعة الصراع أصلاً.

إِنَّ الْقُرْآنَ يُقَدِّمُ هَذَا النَّمُودَجَ كَالآتِي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٣ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٤ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾.

إنه يتكلم عن حالة متكررة، وصراع مستمر وله آثاره وانعكاساته، وهذا لا يمكن أن يكون بكلمة ألقاها جانٌّ أو شيطان ليخلطها بقراءة النبي، ثم يسمعها الناس على غير حقيقتها، هذا نوعٌ من العبث الذي لا يصحُّ تناوله عند تفسير القرآن العظيم، وكلام ربنا الكريم.

إِنَّ الْآيَاتِ تَتَحَدَّثُ عَنْ شُبُهَاتٍ تُثَارِ حَوْلَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَشْغِبُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مِمَّنْ لَمْ يَتَأَصَّلُوا تَأَصُّلاً مُتِيناً عَلَى مَنَهْجِيَّةِ الْقُرْآنِ، وَهَذِهِ الشُّبُهَاتُ مُسْتَمِرَّةٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَكَانَ الْقُرْآنُ أَيَّامَ نَزُولِهِ يَتَوَلَّى بِنَفْسِهِ دَحْضُهَا وَكُشْفُ زَيْفِهَا، كَمَا حَصَلَ فِي أَكْثَرِ مِنْ مُجَادَلَةٍ، وَحَوَارَاتٍ طَوِيلَةٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكِتَابِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾.

والنسخ بهذا المعنى قائمٌ ولا يزال، وهو مسؤولية العلماء الربانيين المتأصلين بمنهجية القرآن وثقافته، وبهذا تكون هذه الشبهات فتنةً للمنافقين والمرتدِّدين وبعض الجاهلين، أما أهل العلم فلا تفتنهم هذه الشبهات ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ فهم علموه بالعلم، وهذه ميزتهم.

هذه المعاني يشهد لها أيضًا قوله تعالى المتقدم والمتصل بهذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي مَآئِنَتِنَا مُعْجِرِينَ﴾ أي: يتسابقون في الطعن بها، وإثارة الشُّبُهات حولها، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ كثير الخيانة مُصِرٌّ على كفره بالله، والإشارة هنا إلى مُشركي مكة، كما يتضح من السياق.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ سَمَّاهُ إِذْنًا؛ لأنه جاء بعد منعه بقوله: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]، وهذه من سياسة التدرج، ومواكبة المراحل ومتطلباتها وحاجاتها.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ بالجهاد في سبيله، والدعوة إلى الخير، وإنكار المنكر. ﴿لَهَلَمَّتْ صَوَامِعُ وَبِيعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ﴾ أي: لولا ذلك الدفع لعمَّ الخراب، فلا يسلم ذو دينٍ على دينه، والصوامع والبيع دُورُ العبادة للنصارى، والصلوات أماكن الصلاة لليهود.

والقرآن يُشير هنا إلى أن المحافظة على هذه الأماكن على اختلاف مُعتقداتها - بالإضافة إلى مساجد المسلمين - من مقاصد التمكين ودفع الباطل بالحق، والمنكر بالمعروف، والتخريب بال عمران، وليس بعد هذه السَّعة في الدين من سعة، ولا بعد هذه السَّاحة من ساحة.

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أعطيناهم الملك والقوة والسلطان.

﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أمهلتهُم.

﴿خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ساقطة سقوفها.

﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ بهلاك أهلها، وكانوا من قبل يستقون منها.

﴿وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ كبير ومرتفع، لكنه خالٍ من أهله بعد أن أهلكهم الله.

﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ بعمى الحسد والتكبر والتعالي الفارغ.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ يتسابقون بالطعن فيها، وإثارة الشبهات حولها.

﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيِّ﴾ فرّق بين النبي والرسول بالعطف، ولم يُبيّن لنا الفارق بينهما، ولو كان في ذلك حاجة لبيّنه، وأما التفريق اللغوي فظاهر؛ إذ النبي من النبأ، وهو الذي يتلقّى النبأ عن الله، وهو الوحي. وأما الرسول فهو صاحب الرسالة الذي كلفه الله بحملها وتبليغها للناس.

وظاهرٌ أيضًا أنّ صاحب الرسالة لا بُدَّ أن يكون نبيًّا؛ لأن الرسالة نبأٌ مخصوصٌ، وعلى هذا نُطلقُهما معًا (النبي والرسول) على أصحاب الرسالات من محمدٍ إلى عيسى، وموسى، وإبراهيم، ونوح وغيرهم عليهم جميعًا الصلاة والتسليم، وليس فوق هذا من علمٍ يستند إليه، والله أعلم.

﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ بلّغ رسالة ربه وتلاها على قومه راجيًا أوبتئهم وهدايتهم.

﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أثار شياطين الجنّ والإنس الشكوك والشبهات لإفساد الدعوة، والتشويش عليها.

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ يزيله ويبطله بالحجج الظاهرة، والبراهين القاطعة.

﴿ثُمَّ يُخَيِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ يُثَبِّتُ اللهُ الحَقَّ بعد أن أزاح عنه شبهات الباطل.

﴿وَأَيُّ الظَّالِمِينَ لَفَى شِقَاقَ بَعِيدٍ﴾ في خلافٍ كبيرٍ بسبب ظلمهم ومُحاربتهم لمنهج

الحق.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ لأنهم بعلمهم عرفوا هذه الشُّبُهَات

وكتشفوها وأبطلوها.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ في شكٍّ منه بسبب موجات التشكيك والتضليل، ومكر الليل والنهار الذي يتزعمه كبرائهم لتشويه الحقائق وطمسها لو استطاعوا.

﴿لِيَدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾ بشارة للمؤمنين بسعادة الدارين، وتحقيق ما يرغبونه ويرضونه في حياتهم عاجلها وآجلها.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ تأكيد لقيمة العدل حتى مع المعتدي ولو كان كافراً.

سُورَةُ الْحَجِّ

ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يُخَكِّمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُّونَ يَسْطُوبُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلِ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ﴿٧٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبٌ مِثْلٌ فَأَسْمِعُوا لَهُ عِبَادَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلْ أَيُّكُمْ إِتْرَاهِيمُ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

عقيدة التوحيد

سورة الحج بمضمونها العام ومحاورها الرئيسة سورة عقدية؛ فقد بدأت بعقيدة البعث والجزاء، واختتمت بعقيدة التوحيد، وحتى حينما تناولت محور الحج ومحور الصراع مع المشركين، كان تناول مصبوغاً ومزوجاً بالصبغة العقديّة، وهذه بالعموم هي طريقة القرآن

في تناوله لمختلف القضايا، إنه يتناولها بمفهوم البناء الشامل والمتكامل.

في هذا المحور جاءت عقيدة التوحيد كأنها امتداد للمحور السابق، من حيث كونها الأساس الأول والأهم في ذلك الصراع، ويمكن تلخيص هذا المحور في النقاط الآتية:

أولاً: يؤكد القرآن الحقيقة الكبرى لأصل الإيمان، والفصل الحاسم بين الحق والباطل ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبْنَاءُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ فكلُّ إلهٍ من دون الله يلجأ إليه الناس بالعبادة أو الدعاء، أو يمنحونه صفةً من صفات الله، فهذا هو الباطل المُنَافِي للحق، حتى لو جاء بصورة نبيٍّ من الأنبياء؛ كقول النصارى في المسيح ﷺ، أو بصورة إمام، أو وليٍّ، أو شجرٍ أو حجرٍ، فكلُّ هذا مُنَافٍ للإيمان، ومُصَادِمٌ لعقيدة التوحيد.

ثانياً: إنَّ أصل الشرك المُنَافِي للتوحيد إنَّما يكون في العقول والقلوب التي لا تعرف الله، ولا تقدره قدره ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلو عرف هؤلاء الله لما ساووه بخلقه، ولما اختلطت عليهم الحدود الفاصلة بين مقام الخالق ومقام المخلوق مهما كان هذا المخلوق.

ثالثاً: إنَّ بداية التفكير السليم الذي يقود إلى حقيقة التوحيد إنَّما هو النظر في هذا الخلق العظيم الذي يُنبئ عن عظمة خالقه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، ثم النظر في تسخير هذا الكون للإنسان وآثار رحمة الله وعنايته في كلِّ صغيرة وكبيرة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وهو الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ.

إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا الْعَرَضِ لِهَذِهِ الشَّوَاهِدِ وَالْأَدْلَةِ الْقَاطِعَةِ، بَلْ رَاحَ يَتَحَدَّى الْمُشْرِكِينَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ تَحْدِيًّا صَرِيحًا وَمُحَدِّدًا، وَمُعَلِّنًا لِكُلِّ النَّاسِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿فَالَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُقَ ذُبَابَةً، كَيْفَ تُقَارِنُونَهُ بِالَّذِي خَلَقَكُمْ أَنْتُمْ الْبَشَرُ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ وَمَنْ فِيهِنَّ؟

رابعًا: إِنَّ ذَلِكَ التَّفَكِيرَ السَّلِيمَ الَّذِي يُثَبِّتُ وَحْدَانِيَةَ اللَّهِ وَتَفَرُّدَهُ فِي الْخَلْقِ، لَيَقُودُ بِالْبِدَاهَةِ إِلَى نَتِيجَةٍ أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ إِنَّمَا هُوَ مَلِكُ اللَّهِ بِحُكْمِ أَنَّهُ مَخْلُوقُ اللَّهِ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

خامسًا: بِنَاءٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ؛ فَالَّذِي يَخْلُقُ وَيَمْلِكُ هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِي خَلْقِهِ وَمَلِكِهِ، يَخْتَارُ لَهُمْ مَا يَشَاءُ، وَيُنْهَاهُمْ عَمَّا يَشَاءُ، وَيَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، وَيُجَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ، وَهَذِهِ هِيَ خُلَاصَةُ التَّوْحِيدِ فِي جَانِبِهِ الْعَمَلِيِّ الَّذِي يُثْمِرُ الْعِبَادَةَ وَالطَّاعَةَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأُمْرِ وَاَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦٧) وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٣﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٤﴾.

وبهذا تنتقل عقيدة التوحيد من أفقها السماوي الغيبي إلى مجاها العملية السلوكي الذي يهدف إلى إصلاح هذا الإنسان، ومن ثمَّ إصلاح أرضه وبيئته، فهذه رسالته الكلية التي جاء

ليحملها ويتحمل مسؤوليتها.

سادسًا: في الختام يعرض القرآن لُبْعِدٍ آخر في عقيدة التوحيد، هو بُعْدُ الهويَّةِ الجامعة والمستعلية على حدود الزمان والمكان ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ هُوَ اجْتَبَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلَّةٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

إنَّها الأُمَّةُ الممتدة في عمق التاريخ إلى عرض الجغرافيا، الأُمَّةُ المكلفة بحمل رسالة التوحيد هذه بصدق وأمانة إلى كُلِّ إنسانٍ يعيش على هذه الأرض، الأُمَّةُ المكلفة بتحقيق الشهود الرسالي والحضاري بتمثلها للحق الذي تحمله، والوحي الذي تحفظه، والخير الذي تُقدِّمه، إنَّه اصطفاء وابتلاء، ومسؤولية ثقيلة وحساب.

دقائق التفسير

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل الليل على النهار بانسحاب ضوء الشمس حتى يختلط فيه بعض الوقت، ثم يدخل النهار على الليل بشروقها فيختلط فيه أيضًا بعض الوقت، في حركة متواصلة ومستمرة لتؤدِّي وظيفة لا يُتصوَّر استمرار الحياة بدونها، والإنسان يشاهد هذا كلَّ يومٍ ويحسب به أيامه وأسابيعه وشهوره وسنَّه وعقوده وقرونه، ألا يدعوه هذا ليتفكَّر؟ ما سرُّ هذه الدورة الفلكية اليومية، وما مناسبتها لحياة الإنسان، ومَن الذي سخرها بهذا النظام الدقيق؟

﴿وَأَبَّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ تَعَالَى، فكلُّ كبيرٍ دونه صغير، وكلُّ عالٍ دونه ذليل.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب الذي هو فوقنا، والعرب تُسمِّي كلَّ فوقٍ سماءً.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ بالنظام الكوني وحركة الأفلاك، وانجذابها لبعضها

في ذلك الميزان الدقيق الذي لا يقدر على صنعه إلا ربُّ السماوات والأرض سبحانه.
﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ من الأمم السابقة، كما جعلنا لكم منسكًا،
وقد تقدّم نحوه قريبًا.

﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ﴾ ظاهر النهي مُوجَّه للمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يُنَازِعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فيما
لا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْوَحْيِ، والمقصود عدم الانشغال بمُنَازَعَتِهِمْ ومُجَادَلَتِهِمْ، والله أعلم.
﴿يَكَادُوكَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: يَبْطِشُونَ بِهِمْ؛ لشدّة عِنَادِهِمْ
وكرَاهِيَتِهِمْ لِلْحَقِّ.

﴿أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ أي: بِشِرِّ مِمَّا تَجِدُونَهُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ غِلٍّ وَكَرَاهِيَةٍ.
﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ بمعنى أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَيْسَتْ عَاجِزَةٌ
فَقَطْ عَنْ خَلْقِ الذُّبَابِ، بَلْ لَوْ أَنَّ الذُّبَابَ سَلَبَهَا شَيْئًا مِمَّا عَلَيْهَا مَهْمَا كَانَ صَغِيرًا، فَإِنَّهَا عَاجِزَةٌ
عَنْ مُلَاحَقَتِهِ وَاسْتِرْدَادِهِ مِنْهُ، فَكَيْفَ تَكُونُ هَذِهِ آلِهَةً؟

﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ انظر كيف
جعل الركوع والسجود والعبادة مِفْتَاحًا وَمَدْخَلًا لِعَمَلِ الْخَيْرِ الْمَطْلُوقِ، وهذه هي العبادة التي
يُرِيدُهَا الْإِسْلَامُ، بخلاف صور التَعَبُّدِ الْمُشَوَّهِ الذي يُبْعَدُ صَاحِبَهُ عَنْ هَذَا الْخَيْرِ، وَيَقْتَرِنُ
بِالشُّحِّ وَالْآثَرَةِ وَكَرَاهِيَةِ الْآخَرِينَ؟

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ الجهاد الذي يُرِيدُهُ هُوَ سُبْحَانَهُ، لَا جِهَادَ الشَّهْوَةِ
وَالْعَصِيَّةِ وَالْعَبْثِ وَالْإِنْتِقَامِ.

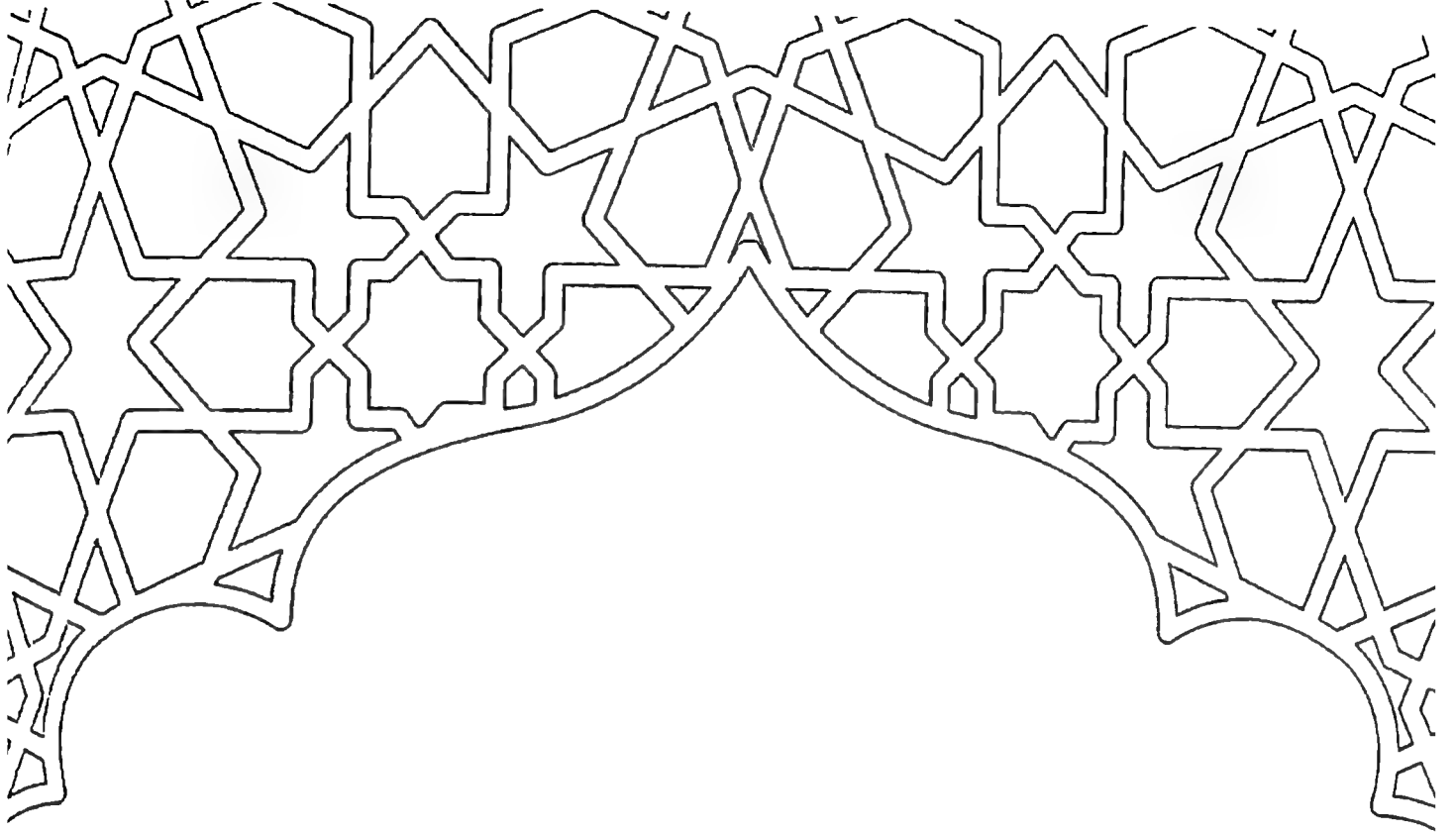
﴿قَلِيلٌ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأقرب في السياق أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي
سَمَّاهُمَا الْمُسْلِمِينَ، وَفِي الْقُرْآنِ أَكْثَرُ مِنْ قَرِينَةٍ تُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ولا يمنع أيضًا أن الله هو الذي سَمَّانا المسلمين؛ استجابةً لدعاء أبينا إبراهيم، والجدل في عود الضمير ﴿هُوَ﴾ إلى الله، أو إلى إبراهيم جدُّ لا يُثْمِر عملًا، ولا يَنْبِئُ عليه خلاف، وأما الاستناد إلى قوله: ﴿وَفِي هَذَا﴾ بمعنى: هذا القرآن، فيكون هذا صارفًا للضمير عن العود إلى إبراهيم (وهو الأصل في عود الضمير؛ لأنه أقرب مذكور)؛ لأنه ﷺ لم يُسمَّنا في القرآن، فهو استنادٌ لا يخلو من ضعفٍ؛ إذ يمكن تقدير الكلام على هذا المعنى أن إبراهيم هو الذي سَمَّانا المسلمين مِن قبل، وفي القرآن هو اسمنا كذلك، مع أن الذي يظهر من السياق أن قوله: ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: في هذا الذي ذكر مِن الاجتباء، ورفع الحرج، والانتساب إلى إبراهيم مِن أجل أن نكون شُهَداء على الناس بعد شهادة الرسول ﷺ علينا.

ويُشكل أيضًا على التأويل الأول: عطف محل التسمية الحاضر على زمن التسمية السابق، وكان الأنسب عطف المحل على المحل، كأن يقول مثلاً: سَمَّاكم في التوراة، وفي القرآن، أو عطف الزمان على الزمان، كأن يقول: سَمَّاكم مِن قبل، وسَمَّاكم مِن بعد، والله أعلم وأحكم وأرحم، وهو يعفو عنا إن زلَّلنا أو أخطأنا.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ لأنَّه هو الذي بَلَّغَكُمْ هذه الرسالة، وأدَّى أمانته فيكم كما حملها عن ربِّه.

﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأنَّكم المُكَلَّفُونَ بحمل هذه الرسالة بعده ﷺ، وأنتم خاتمة الأمم، وتشهدون على اعتدالهم أو انحرافهم عن قِيَم الدين، ومن ذلك شهادتكم على تحريف المُحَرِّفِينَ، وصدِّ الصادِّين، ومكر الماكرين، وهذه مسؤوليَّة كبيرة تتطلب قدرًا كبيرًا من الوعي والمتابعة، وهي مسؤوليَّة دنيويَّة أيضًا؛ فهذا الشهود ينبغي أن تكون له آثاره في تنمية الوعي، وحسُّ المراقبة والمراجعة، والقدرة على الإصلاح، والاستفادة مِن تجارب الآخرين؛ ولذلك جاءت موصولة مع قِيَم الإخلاص والجهاد والوحدة والاعتصام، وأول شرائط الشهود: العدل، ولا عدل إلا بالعلم والخلُق الكريم، والله المعين.



سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

المجلس الثامن والأربعون بعد المائة: صفات المؤمنين

المجلس التاسع والأربعون بعد المائة: دعوة النبيين السابقين

المجلس الخمسون بعد المائة: دعوة النبي الخاتم ﷺ

المجلس الحادي والخمسون بعد المائة: حوار مع المشركين

المجلس الثاني والخمسون بعد المائة: عاقبة الكذابين

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَيْتُونَ ١٥﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا يَوْمَ الْفَيْصَةِ بُعْثُونَ ١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْتَبِ لَكُمْ فِيهَا فَوَازٍ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّكِلَيْنِ ٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونَ ٢٢﴾

صفات المؤمنين

يتناول المحور الأول من هذه السورة المباركة صفات المؤمنين، ومنه جاء اسم السورة، وهي صفات تجمع بين مجموعة من القيم والعبادات والأخلاق؛ لتكون الصورة التي ينبغي أن تكون عليها شخصية المؤمن، وتتلخص في الآتي:

أولاً: الخشوع في الصلاة ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ فهم لا يؤدُّون الصلاة بجوارحهم وألسنتهم فقط، وإنما تُصَلِّي قلوبهم لله قبل أجسادهم، هذه الصلاة التي هي الصلة الحقة بين العبد وخالقه، وهي التي تُثمر تهذيب النفس، وتحسين السلوك.

ثانياً: الإعراض عن اللغو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ اللغو المباح فضلاً عن اللغو الآثم؛ لأن شعورهم بالمسؤولية الذاتية، وقيمة الحياة التي يعيشونها، وقيمة أوقاتهم لا

تسمح لهم بالانخراط في مجالات اللغو واللهو والعبث، مع ما في اللغو خاصّة من تكدير القلوب، وتعميق الفجوات، وإثارة النزعات، مما لا يتوافق مع رسالة المؤمن الصادق في هذه الأرض.

ثالثًا: أداء الزكاة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ لتهديب النفس أولاً من الشحّ والجشع والطمع، ثم غرس روح المحبة والتعاون بين أفراد المجتمع، وتطهيره من نزعات الحسد والغل، والتقاطع والتدابير.

رابعًا: العفة والطهر والحياء ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ فالمؤمنون يسعون لإنشاء مجتمع نظيف خالٍ من الرذيلة، يعرف كل فرد فيه من أمه، ومن أبوه، ومن أعمامه، ومن أخواله، لا تختلط فيه الأنساب، ولا تتقطع فيه الأرحام.

خامسًا: حفظ الأمانة والعهد ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ وهذه قيمة حاکمة لكل مجالات الحياة، فبين الحاكم والمحكوم عهد وأمانة، وبين المعلم والمتعلم عهد وأمانة، وبين الرجل وأهل بيته عهد وأمانة، وبين الشريك وشريكه عهد وأمانة، وبين الدول والمجتمعات والمؤسسات عهود وأمانات، وواجب المؤمن أينما كان وفي أيّ مجال وُضع أن يؤدّي هذه الأمانة، ويرعى ذلك العهد ولو مع كافر أو محارب.

سادسًا: الاستقامة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَواتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يحفظون صلاتهم بعد تأديتها، فلا يضيّعونها بالخروج عن كلّ تلك الصفات والشروط المطلوبة من المؤمن ولو واحدة منها؛ فمن خان العهد، أو ضيّع الأمانة، أو اخترق العفة، أو منع حقّ الفقراء، أو أضاع حياته باللغو والعبث، فقد ضيّع صلاته.

سابعًا: أشار القرآن في خاتمة هذه الصفات إلى الأصل الذي يؤسّس هذه الصفات ويرسّخها ويُنمّيها، ألا وهو الإيمان؛ الإيمان بالله الخالق العظيم، والإيمان بعقيدة البعث

والحساب والجزاء ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ
 ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ
 لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾، ثم جاءت الآيات الأخرى في هذا المقطع لتذكر بآلاء الله ونعمائه؛
 تثبيتاً لهذا الإيمان، وتعميقاً لآثاره المنشودة في النفس والحياة.

ثامناً: مع هذه الصفات جاء تأكيد العاقبة التي تنتظر هؤلاء المؤمنين ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾
 وهذه نتيجة مطلقة وشاملة لكل مفردات الفلاح الدنيوية والأخروية، ثم خصَّ الأخروية
 بمزيد من التوضيح والتأكيد ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿.

دقائق التفسير

﴿اللَّغْوِ﴾ الكلام الباطل الذي لا فائدة له.
 ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ المعتدون المجاوزون للحق.
 ﴿لَا مَمْنَنِيهِمْ﴾ كل ما يؤتمنون عليه من أموال، وأسرار، ومعلومات، وعلاقات،
 ومسؤوليات.
 ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ أصل خلق الإنسان؛ حيث خلق آدم من مادة مسلوقة ومأخوذة من
 الطين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ طريقة التكاثر عن طريق النطف وتلقيحها في الرحم
 الذي يوفر له ظروف الاستقرار والحياة والنمو.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ تقدم شرح

هذه المراحل في الخلق في سورة الحج.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وليس من خالقٍ على الحقيقة إلا الله؛ فما من صانعٍ إلا والله

صانعه، وما من خالقٍ إلا والله خالقه، وقد تحدّى الله من يعبدون غيره ويدعون سواه أن يخلقوا ذبابًا فعجزوا.

﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ سبع سموات.

﴿فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ جعلناه - أي: الماء - مُستقرًّا فيها، فمنه: الينابيع، والآبار، والأنهار.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ شجرة الزيتون.

﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ الزيت الذي يُدهنُ به تطيبًا، ويُتخذ إدامًا.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٣٩﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤٠﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ السَّلَامُ لِلَّهِ الَّذِي يَجْعَلُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤١﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٤٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٢٤٣﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٤٤﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٤٥﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَفَلَا تَكُونُونَ ﴿٢٤٦﴾ وَشَرِبُوا مِمَّا تَنْشَرُونَ ﴿٢٤٧﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٤٨﴾ أَلَيْدُكُمْ أَنْتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَايَا وَعِظْنَا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٤٩﴾ هَيَّاهُ هَيَّاهُ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٥٠﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٥١﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥٢﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٥٣﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٢٥٤﴾ فَآخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُسَّةً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٥﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٥٦﴾ مَا قَبِضُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٢٥٧﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَلَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٥٩﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٢٦٠﴾ فَقَالُوا أَنْزِلْ لَنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٢٦١﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٢٦٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٦٣﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٢٦٤﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٦٥﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أَنتُمْ كَرُمُتُمْ أُمَّةً وَجِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٢٦٦﴾

دعوة النبيين السابقين

يذكر القرآن الكريم في هذه الآيات بأخبار بعض النبيين السابقين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام الذين تقدم ذكرهم مفصلاً في السور المتقدمة، وكأنه يقدمهم هنا نهادج لمن تمثلت فيهم صفات المؤمنين التي جرت معنا في المقطع السابق، والأنبياء الذين ذكرهم

القرآن هنا هم:

أولاً: نوح عليه السلام؛ حيث دعا قومه إلى التوحيد فأبوا، واتهموه بشتى التهم، فأهلكهم الله بالطوفان، ونجى الله نوحاً ومن معه بسفينة صنعها نوح بأمر من ربه ﷻ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٢﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ٢٣﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَنَرْتَصُّوهُ ۖ حَتَّىٰ حِينٍ ٢٤﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٥﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ٢٦﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَّعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٢٧﴾ وَقُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ٢٩﴾.

ثانياً: هود عليه السلام؛ الذي بعثه الله إلى قومه عاد، فدعاهم إلى التوحيد كما دعا نوح قومه، فكذبوه كذلك، فأهلكهم الله بالصيحة ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ٣٤﴾ أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْماً أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ٣٥﴾ هَٰهِنَآ هَٰهِنَآ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِينَ ٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَثْنَا الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٤١﴾.

ثالثاً: موسى وهارون عليه السلام؛ حيث أرسلهما الله إلى فرعون وملئه، فاستكبروا فأهلكهم الله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ

الْمُهْلِكِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾

رابعًا: عيسى بن مريم ﷺ، وكيف جعلها الله آية من آياته، وأمدّها بمدده وعونه ورعايته ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. خامسًا: في خضمّ ذكر القرآن لهذه النماذج المباركة، أشار أيضًا إشارة سريعة لباقي الأنبياء ﷺ الذين جاءوا بعد هود وقبل موسى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ هم رؤوس القوم ووجهاءهم.
﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أن يسودكم ويعلو عليكم.
﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾ أصابه الجنون، حاشاه.
﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ فانتظروه حتى يموت.
﴿أَنْصُرْ فِي يَمَاهُ كَذَّبُونَ﴾ انتقم منهم؛ لأنهم كذبوني.
﴿أَنْ أَصْنَعَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ اصنعها برعايتنا وحفظنا.
﴿وَفَارَ التَّسْوُرُ﴾ فارت عين الماء، وقد تقدّم بيانه في سورة هود.
﴿فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أدخل في السفينة من كلّ صنفٍ من أصناف الحيوانات ذكرًا وأنثى.
﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالدعاء لهم من أجل إنقاذهم.
﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ﴾ استقررت.

﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ نَبِّئِ النَّاسَ وَنَخْتَرِهِمْ.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ.

﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾ عَادَ.

﴿فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هُوَ هُودٌ ؑ وَلَمْ يُسْمَعْ هُنَا، وَقِصَّتُهُ مَعْرُوفَةٌ وَمُكَرَّرَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جَعَلْنَاهُمْ أَصْحَابَ تَرْفٍ وَنَعِيمٍ.

﴿أَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ مَبْعُوثُونَ مِنْ جَدِيدٍ لِلْحِسَابِ.

﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ﴾ كَلِمَةٌ تَسْتَعْمَلُ لِاسْتِبْعَادِ الْأَمْرِ وَإِنْكَارِ وَقُوعِهِ.

﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ بِمَا اسْتَحَقُّوه بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَظُلْمِهِمْ.

﴿غُشَاءً﴾ هَلَكَى لَا حِرَاكَ بِهِمْ، وَأَصْلُ الْغُشَاءِ: مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَبَقَايَا نَبَاتٍ

وَحَطَبٍ.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ فَلَ كُلِّ أُمَّةٍ بَدَايَةٌ وَنَهَايَةٌ، تَطُولُ وَتَقْصُرُ، تَمَامًا كَأَجَالِ

الْأَحَادِ.

﴿تَنَزَّأُ﴾ مُتَرَادِفِينَ وَمُتَابِعِينَ، وَالْكَلِمَةُ تُوجِي بِالْكَثَرَةِ.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ قِصَصًا وَحِكَايَاتٍ لِلْمَثَلِ وَالْعِبْرَةِ بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ مُسْتَكْبِرِينَ.

﴿وَقَوْمُهُمْ لَنَا عَدِيدُونَ﴾ أَيُّ: قَوْمُ مُوسَى وَهَارُونَ، وَهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانَ يَسْتَعْبِدُهُمْ

فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ.

﴿رَبْعَةً﴾ مَكَانَ مُرْتَفِعٍ.

﴿ثَابِتَ قُرْآنٍ﴾ مُهَيَّأَةً لِلرَّاحَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ.

﴿وَمَعِينٌ﴾ ماء جارٍ.

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فالصلاح لا يستلزم الحرمان والفقر، بل العناية بالجسد بالغذاء والدواء والرياضة تُعينُ على العمل الصالح.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ تأكيد مُتكرِّر بوحدة الرسالات، ووحدة المصدر والمصير؛ فالأنبياء جميعًا إنما يعبدون ربًّا واحدًا، ويستقُّون من منبعٍ واحدٍ، ويسعون لغايةٍ واحدةٍ ﷻ.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

من الآية

٥٣- ٧٧

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ رَبِّينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ يُنَادُونَ رَبَّهُمْ يَقُولُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا تَكُلِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخْتِرُونَ (٦٤) لَا تَخْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا لَا نُصَرِّفُونَ (٦٥) فَذَكَاتٌ ءَاتَيْنِي ثَمَلًا عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفِيكُمْ تُنْكِرُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِيرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ (٧٧)

دعوة النبي الخاتم ﷺ

بعد ذكر نماذج من أخبار الأنبياء السابقين، ذكر القرآن هنا طرفاً من اختلاف أتباعهم؛ تمهيداً للحديث عن دعوة نبينا الكريم عليه وعلى إخوانه النبين أفضل الصلاة وأتم التسليم، ويتلخص في الآتي:

أولاً: شيوع الاختلاف بعد الأنبياء السابقين ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾، فانقسمت الملة الواحدة إلى طوائف، وكل طائفة لديها كتاب زادت فيه ونقصت منه، حتى لم يعد للملة الواحدة كتاب واحد، وكل طائفة تدعي أن ما عندها هو الحق، وما عند غيرها الباطل، هذا بالإضافة إلى الأميين الذين لم ينزل عليهم كتاب فاجتاحتهم خرافات الوثنية والجاهلية.

ثانيًا: يُصَحِّحُ القرآن هؤلاء ميزان الحق والباطل، فيردُّ عليهم تصوُّرَهم الخاطي ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۖ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فالمال والجاه والكثرة ليست هي المقياس، إنما المقياس الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ۖ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّائِهِمْ يَوْمِنُونَ ۖ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۖ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَّا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُم إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۖ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۖ ﴿٦١﴾ وَلَا تَكُلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَلَدَيْنَا مَكْتُبٌ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

إنها منظومة الإيمان والقيم الصحيحة والعمل الصالح، فهؤلاء هم المقرَّبون عند الله، المسارعون في الخيرات، الذين تكدُّ أجسادهم في الطاعة، وقلوبهم متواضعة ليَّنة، لا يرون أنهم قدَّموا شيئًا.

ثالثًا: يُحذِّرُ الله أولئك المترفين أصحاب المقاييس الفاسدة من الصدمة التي ستصدمهم وهم في حالٍ من الغفلة والضياح ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ ﴿٦٦﴾ مُّسْتَكْبِرِينَ بِهِ ۖ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

رابعًا: ثم يأخذ القرآن ببيان إقامة الحجة عليهم، وأن الله لم يتركهم هملاً ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لَهُمُ الْكُرْهُونَ﴾ نعم، كان يكفيهم لو استمعوا لرسولهم ﷺ، وتدبَّروا قوله وهم يعرفونه تمام المعرفة، يعرفون صدقه وأمانته وشرفه فيهم، ثم يلتفت الخطاب إلى النبي ﷺ فيزكِّيه ويزكِّي دعوته ﴿وَلَا تَنفَكْ وَلَتَعْلَمَنَّ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

خامسًا: يؤكِّد القرآن أن الذي صدَّهم عن سماع الحق وتدبره والقبول به ليس شبهة ذات قيمة، ولا فكرة قابلة للنقاش، وإنما هي كراهية الحق؛ لأنه ثقیلٌ على الهوى ﴿بَلْ جَاءَهُمُ

بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْ لِحَقِّ كَرِهُونِ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾

سادسًا: يؤكِّد القرآن أيضًا أنَّ هؤلاء المتكبرين المعاندين لن يرجعوا إلى الحق حتى لو كُشِفَ عنهم الضرُّ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٢﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٣﴾ والشواهد على هذا كثيرة، وأوضحها ما ورد في فرعون وقومه، والآيات الصاعقات التي تنزل عليهم ثم لا يرجعون ولا يهتدون.

دقائق التفسير

﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ اختلَفوا في دينهم وتفرَّقوا شيعًا.

﴿فِي غَمَرَاتِهِمْ﴾ سكرتهم وعمائيتهم.

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ لِرِضَانَا عَنْهُمْ؟

﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فميزان الرضا والقرب من الله ليس بما نمدَّهم به من متاع الدنيا.

﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ يُقَدِّمُونَ كُلَّ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ واجبات، ويتصدَّقون بما

عندهم، ثم هم خائفون من الله أدبًا معه، وتواضعًا لعباده، ومحاسبة دقيقة لنوايا القلوب وخواطر النفوس، فمثل هذه القلوب لا يدفعها البذل مهما بلغ إلى الغرور، أولئك المتقون.

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قاعدة عظيمة من قواعد التشريع، فغاية الشرع إسعادُ البشر

في الدنيا والآخرة، فإذا كلفهم ما لا يُعطِقون فقد شقَّ عليهم وألجأهم إلى المعصية، وليس من

وراء ذلك حكمة، وليس الله بمُحتاج أصلاً لهذا التكليف، ولا لما نُقدِّمه من العبادة، لكنه لتمييز الطائع عن العاصي، والصادق في إيمانه عن الكاذب، وهذا يتحقَّق بالتكليف الموائم لطبيعة الإنسان وطاقته.

﴿يَجْثُرُونَ﴾ يرفعون أصواتهم بالشكوى والدعاء.

﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ تسمرون مع بعضكم في الليل، ولا تتزهون عن الكلام الباطل في سمركم.

﴿فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ جاهلون به ومستغربون منه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أصابه جنون.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ مالا وأجرًا على دعوتك لهم.

﴿فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ﴾ أجر الله وفضله عليك أكبر من الدنيا وما فيها.

﴿لَلْجَوِّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ لتهاذوا في طغيانهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتخبَّطون تخبط الأعمى.

﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ فما ندموا، ولا خضعوا للحق.

﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيسون من رحمة الله.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا نَحْنُ وَوَعَدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَنْقُوبُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

حوار مع المشركين

تِمَّة للموضوع السابق الذي تناول دعوة الرسول الخاتم ﷺ وموقف المشركين منها، شرع القرآن هنا بمناقشة هؤلاء المشركين، ولفت أنظارهم لآيات الله الماثلة في هذا الكون؛ لعلهم يرجعون إلى رشدهم، ويتفكرون في حقيقة أنفسهم، ومستقبل حياتهم:

أولاً: يدعوهم القرآن للتفكير في أنفسهم ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

إنه يُذكِّرهم بأدوات المعرفة التي وهبها الله لهم؛ السمع والبصر والعقل، فهذه كفيلا بالوصول إلى الحق الذي نزل به الوحي، فإنَّ مُنزل الوحي هو نفسه خالق هذه الأدوات،

يُذَكِّرُهُمْ بِبِدَايَةِ الْخَلْقِ، وَكَيْفَ أَنْشَأَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْعَدَمِ ثُمَّ كَثَّرَهُمْ وَنَشَرَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، وَخَلَقَ فِيهِمُ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَتَجَدَّدَانِ كُلَّ يَوْمٍ؛ فَوُجَّ ذَاهِبٌ، وَفَوُجٌّ آتٍ، يُذَكِّرُهُمْ بِهِذِهِ الْحَقَائِقُ الْكُبْرَى لَعَلَّهُمْ يَخْرَجُونَ مِنْ مَأْلُوفِ عَادَاتِهِمْ قَلِيلًا، لِيَتَفَكَّرُوا فِيهَا وَرَاءَ كُلِّ هَذَا.

ثانيًا: يذكرُ شُبُهَتَهُمُ الْمُتَكَرِّرَةَ، وَالتِّي تَلُوكَهَا أَلْسِنَتُهُمْ دُونَ وَعْيٍ بِتِلْكَ الْحَقَائِقِ، وَلَا بِحَرَكَةِ الْحَيَاةِ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ وَكَأَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَذَرَأَهُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ أَجْيَالًا بَعْدَ أَجْيَالٍ يَعْبُزُ - حَاشَاهُ - أَنْ يُعِيدَ خَلْقَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ.

ثالثًا: راح القرآن يُحَفِّزُ عَقُولَهُمْ بِالْأَسْئَلَةِ الَّتِي لَا يَمْلِكُ الْعَقْلُ أَمَامَهَا غَيْرَ التَّسْلِيمِ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِصُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

فَالْمُشْرِكُ مِمَّا عَبْدٌ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَلِّمَ لَهَا بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدَّعِي فِي هَذِهِ الْجَمَادَاتِ الْمَصْنُوعَةِ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَهِيَ الَّتِي تُسِيرُ هَذَا الْكَوْنُ عَلَى هَذَا النِّظَامِ الدَّقِيقِ.

مِنْ هُنَا يَرِيدُ الْقُرْآنُ أَنْ يَأْخُذَهُمْ لِيَبَيِّنُوا عَلَى هَذِهِ الْمُسْلِمَاتِ، وَلَكِنَّهُمْ يَنْكَسُونَ عَنَادًا وَإِثَارًا لِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ سُلْطَةٍ وَمَتَاعٍ؛ وَلِذَلِكَ يَصِفُهُمُ بِالْكَذِبِ ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ كَاذِبُونَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُنَاقِشُونَ عَنْ رَأْيٍ وَشُبُهَةٍ، وَلَا يَبْحَثُونَ عَنِ الصَّوَابِ، بَلْ يُمَارُونَ وَيُسَوِّفُونَ وَيُرَاوِعُونَ، وَهُمْ بِذَلِكَ إِنَّمَا يَكْذِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَيُضِلُّونَهَا، وَيُورِدُونَهَا مَوَارِدَ الْهَلَاكِ.

رابعاً: يذكر القرآن أنواعاً من شركهم التي لا تتفق مع تلك المسلمات التي أفروا بها ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا ردّ لكلامهم على أوله، كأنه يقول لهم: إذا كان الله هو ربّ الأرض ومن فيها، وربّ السماوات السبع والعرش العظيم، وهو الذي يُسير كلّ هذا الكون، فما موقع الشريك، سواء كان ابناً له، أو وثناً يُعبد معه؟ تبارك الله وتعالى عن قولهم علواً كبيراً.

خامساً: يُوصي الله ﷻ نبيه الكريم ﷺ وكلّ داعية من بعده بالحلم عليهم، وأن يدفع إساءتهم بالخلق الأنبل والأحسن، مع تحقق التمايز عنهم بالعقيدة الصافية، والموقف الواضح الذي لا شبهة فيه ولا غموض ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٢﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٣﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٤﴾ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٥﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٦﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ إشارة أن التفكير السليم واستعمال السمع والبصر في المعارف الصحيحة من مُستلزمات الشكر، بخلاف من استعملها في الباطل وكسب المآثم. وقد ورد عن الجنيد رحمه الله قوله في تعريف الشكر: (أن لا تستعين بنعم الله على معاصيه)، وهذه الإشارة تشهد له.

﴿ذُرَّاكَ فِي الْأَرْضِ﴾ خالقكم ونشركم فيها.

﴿أَسْطِيزُ الْأُولَى﴾ أكاذيبهم التي يروونها دون دليل ولا بيّنة.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ في الأولى ظاهر؛ لأنه سألهم ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾، أما في الثانية والثالثة فقد كان السؤال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، و﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فكان سياق الجواب أن يكون: الله، ولكن اللام هنا أضافت معنى آخر، كأنه يقول: هذا ثابت لله، والله أعلم.

﴿إِذَا لَدَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ منفردًا به، ومعناه أن يكون لكل خلق نظامه الذي يرضيه إلهه الذي خلقه، فلو كان هنالك آلهة متعددة، لرأينا لهذا الكون أنظمة مختلفة ومتضاربة.

﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيتَنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ إِنَّ نَفْذَتَ فِيهِمْ وَعِيدَكَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، وَأَنَا موجود وأراهم.

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: أبعدني وميزني عنهم.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ ادفع سيئتهم بحسنتك، ولا تقابل السيئة بالسيئة.

﴿هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ حركاتهم الخفية ووساوسهم.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: يحضرون معي في حياتي أو عند مماتي، وفيه التبري من الحول والقوة إلى حول الله وقوته.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ (١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ (٢) فَلَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۚ (٣) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ (٤) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۚ (٥) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ۚ (٦) أَلَمْ تَكُنْ أَتَيْنِي تَتْلُوا وَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۚ (٧) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۚ (٨) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۚ (٩) قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۚ (١٠) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۚ (١١) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۚ (١٢) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۚ (١٣) قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۚ (١٤) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّاكَ الْكَافِرِينَ ۚ (١٥) قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَا أَنَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ (١٦) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۚ (١٧) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۚ (١٨) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۚ (١٩) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۚ (٢٠) ﴾

عاقبة المكذبين

في ختام هذه السورة المباركة التي بدأت بصفات المؤمنين وأحوالهم، وما أعدّه الله لهم، جاء الحديث عن المكذبين، والعاقبة البئيسة التي تنتظرهم:

أولاً: يعرض القرآن حالهم عند الموت، اللحظة التي ينطفئ فيها كل وهج الحياة بالأمها وآمالها وحساباتها، ويكون المرء مجرداً من كل شيء أمام مصيره المحتوم، هناك تأكل هؤلاء المكذبين حشرات الندم ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۚ (١) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۚ ﴾.

ثانياً: عند البعث والقيامة للحساب يؤكد القرآن أن الميزان هناك إنما هو العمل، فكل نسب من دونه باطل، وكل علاقة من غيره سراب ﴿ فَلَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۚ (٣) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۚ (٤) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۚ ﴾.

ثالثًا: وفق هذا الميزان الحق ليس هؤلاء المكذبين سوى العذاب الأليم ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ وليس أمامهم سوى الاعتراف والإقرار بذنبهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رابعًا: هناك لم يبق بأيديهم إلا التوسل لعل الله يُخْرِجَهُمْ مِنْهَا وَيُعِيدَهُمْ إِلَىٰ هَذِهِ الدُّنْيَا مَعَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ أَنْ لَا يَعُودُوا لِلْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، لكن الله يردُّ عليهم ويوبخهم، فقد أمضوا في هذه الحياة من الأيام والسنين ما يتذكَّر فيه من يتذكَّر، ويندم فيه من يندم، وقد جاءهم النذير تلو النذير، والآيات تلو الآيات ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

نعم، فهؤلاء المؤمنون كانوا معكم، وهم حجة عليكم، ولكنكم كذبتُموهم وحاربتموهم. تجدرُّ الإشارة هنا إلى أنَّ أساس الاختبار بين كلِّ الناس إنما كان الإيمان بالغيب، فلما رأى المكذَّبون الآخرة وما فيها لم يعد هناك غيب يُمتحنون فيه.

خامسًا: يقرر القرآن أخيرًا تلك الحقيقة الكبرى التي قامت عليها الحياة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

دقائق التفسير

﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيما ضيَّعتُ من العمر.

﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ أطلق الكلمة المفردة على مجموع كلامه، وهو شائع في لغة العرب.

﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ قولٌ بلا حقيقة، ولا ينتج عنه واقع؛ لأنَّ الأمر بيد الله وحده.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالأعمال الصالحة.

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ خَسِرُوا إِنْسَانِيَّتَهُمْ وما منحهم الربُّ الجليل من عقولٍ ووسائلٍ للفهم والتدبر، فأثروا الغفلة ولم يفكروا في هذا الذي ينتظرهم؛ فخسروا أنفسهم، وخسروا كلَّ شيء، ﴿كَالْحُوتِ﴾ صورة ومعنى؛ صورة من أثر النار ودخانها، ومعنى من أثر الخزي والحسرة والندامة.

﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ الشقاء الذي صنعوه لأنفسهم بأيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

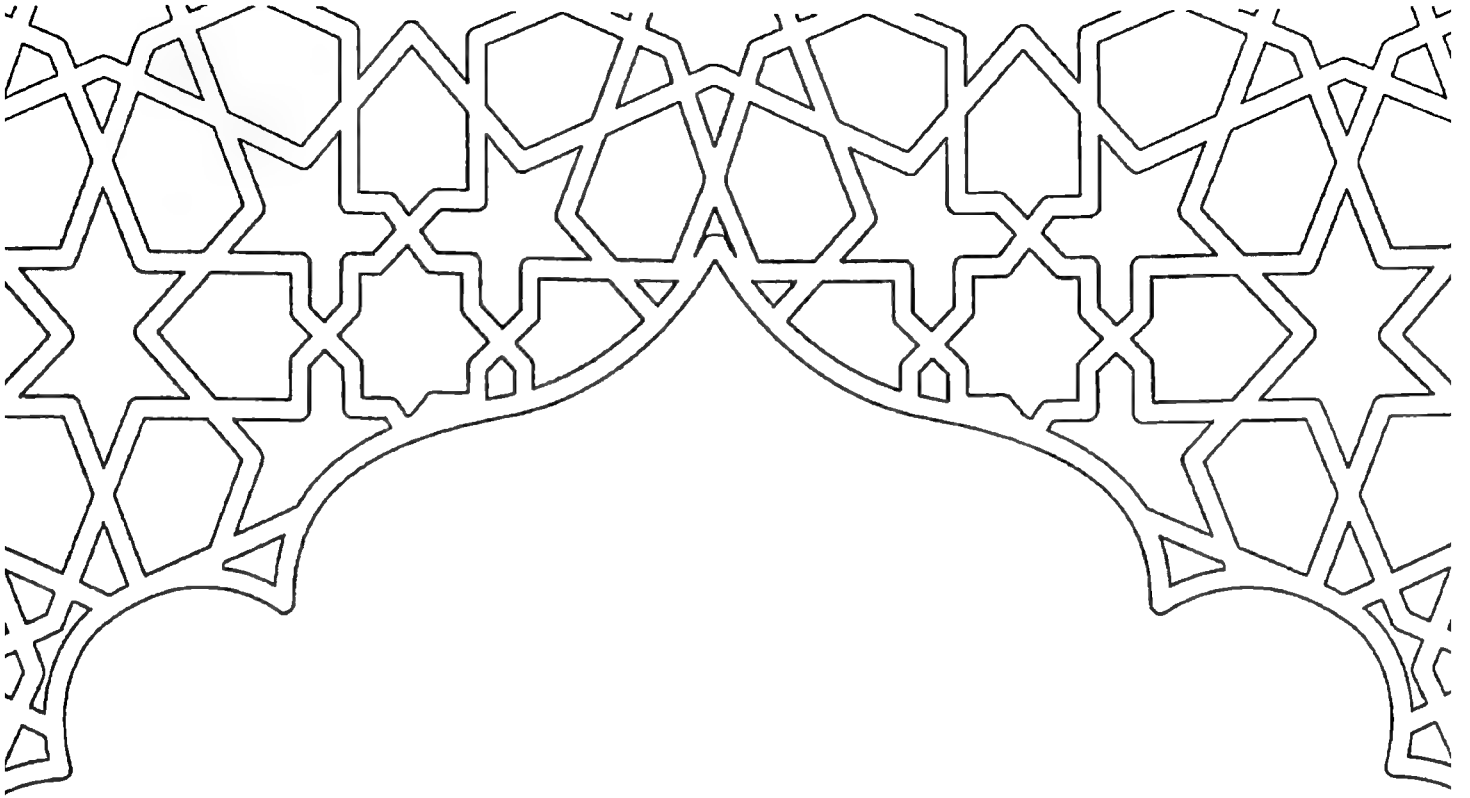
﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ من السخرية والاستهزاء، ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي﴾ لانشغالكم بمعاندتهم ومحاربتهم والاستهزاء بهم، فلم تعطوا لأنفسكم الوقت للتفكير في حقيقة دينهم وما يدعونكم إليه، وهنا إشارة إلى سببٍ من أسباب الضلال؛ وهو تحويلُ النظر من الأفكار، ومناقشتها إلى النظر في الأشخاص؛ حيث تظهر حظوظ النفس في الغيرة والحسد، والخلافات الشخصية والمجتمعية، فيكون هذا حائلًا سميكا دون النظر في جوهر الفكرة محل الخلاف.

﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي: في الدنيا، وكأنَّهم نسوا ذلك العمر الطويل، وما كان لهم فيه من متاعٍ وعلاقاتٍ ومواقف، ﴿قَلَّ إِن لَّيْتُنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ قياسًا على الحياة الأخرى وأبديتها التي لا تقف عند حدٍّ.

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ على سبيل التحقق لا على سبيل التحرُّز؛ إذ الإله الآخر وَهُمْ لا يمكن أن يقترن ببرهان، ولا شبهة برهان.

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ دعاء ودود وجميل، اللَّهُمَّ فاغفر لنا وارحنا وأنت

خير الراحمين.



سُورَةُ النُّورِ

المجلس الثالث والخمسون بعد المائة: حماية المجتمع من الرذيلة

المجلس الرابع والخمسون بعد المائة: مجتمع النور

المجلس الخامس والخمسون بعد المائة: مجتمع الرحمة والأخلاق والانضباط

حماية المجتمع من الرذيلة

تتناول سورة النور باهتمام بالغ، الأسس والمبادئ والتشريعات المناسبة لحماية المجتمع وصيانتها عن كل عوامل الانحراف ومقدماته، الانحراف الذي يُهدد هوية المجتمع وقيمه وأخلاقه وتماسكه الأسري.

وقد جاءت هذه الآيات بمنظومة متماسكة من القيم البانية، والتشريعات الرادعة، والتي يمكن تلخيصها في الآتي:

أولاً: تأكيد أن هذه التوجيهات تحمل طابع الحسم والإلزام ﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَاهَا فِيهَا آيَاتٍ يَتَّبِعْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثانياً: بيان الحكم الحاسم في مرتكبي جريمة الزنا ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثاً: بيان الحكم الحاسم في مُروجي الأخبار والافتراءات الباطلة بحق الأبرياء دون بيّنة كافية ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةٌ أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِكَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

رابعاً: تحديد البيّنة المطلوبة لإثبات جريمة الزنا وما يترتب عليها ﴿لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

خامساً: بيان الحكم الخاص في الرجل الذي يتهم امرأته ويرميها بالفاحشة ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

سادساً: التحذير من التشبه بأخلاق الزناة وعاداتهم وكل ما كان من شأنهم ودأبهم ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد بلغ التحذير مداه في هذه الآية حينما قرن الزنا بالشرك.

ثم أكد هذا التمايز بين مجتمع الطَّهَرِ والإيمان، وبين مجتمع الرذيلة والكفر: ﴿الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِينَ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

سابعاً: التحذير الشديد من التهاون في إشاعة الفاحشة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشمل من يُشيعها بالقذف الباطل والاتهامات الكاذبة، كما هو واضح من السياق، ويشمل أيضاً من يعمل على التهوين من خطرهما، وفتح باب الشهوات؛ من تبرُّج، واختلاط، ومُجُون تحت أي اسم جاءت، كما هو شأن كثير من القنوات الإعلامية اليوم؛ حيث جعلت من الشهوة المحرمة ديدناً لها في كل عملٍ فنيٍّ أو دعائيٍّ، مُتَسَرِّة خلف قِيم الحرية.

والأصل في الحرية أنها قيمة إنسانية تحفظ معنى الإنسان وشرفه وكرامته، أما الحرية التي تهدم إنسانية الإنسان، وتزرع الشك والريبة داخل الأسرة، وتُشجّع العلاقات الهدامة، فتلك النزعة الحيوانية التي تمسحُ الإنسان، وتقتلُ خصوصيته التي بها يسمو ويرتفع عن سائر الحيوانات.

ثامناً: ضبط الأحكام المتعلقة بالبيوت وآداب الدخول والاستئذان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٤) ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٥) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْثُورُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

تاسعاً: ضبط الأحكام المتعلقة بالسَّترِ و غَضِّ البصر ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢١﴾

عاشراً: تشجيع الزواج والتزويج لكل قادرٍ عليه ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

حادي عشر: تشجيع الصبر والاستعفاف لكل من يرغب بالزواج ولا يجد القدرة عليه ﴿وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَتْنَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرِهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي ثنايا هذه الأحكام والتوجيهات والاحتياطات تطرَّق القرآن الكريم إلى نموذج عملي من الجرائم التي حصلت بالفعل على عهده ﷺ، وهي جريمة الإفك التي مسَّت بيت النبوة، واهتز لها المجتمع المسلم كله، وقد جعلها القرآن نموذجاً صارخاً لهذا الانحراف الذي يمكن أن ينساق وراءه ضِعافُ الإيمان، أو ضِعافُ النفوس؛ حيث تستغل الدوائر المشبوهة مثل هذا الضعف في تمرير إشاعاتها المريضة للوصول إلى غاية أبعد من التهمة نفسها على خطورة التهمة وبشاعتها.

وقد تكفَّلت كتب السنَّة وكتب التفسير بالمأثور بعرض هذه الجريمة، وسرد تفاصيلها، وشرح ملبساتها، وإنَّما يكفينا هنا تدبُّر الآيات كما وردت في هذا الموضع، والله المستعان:

أولاً: حكم القرآن بالقطع الجازم والمؤكد أن تلك الإشاعة وذلك الاتهام إنما كانا إفكاً وكذباً محضاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾، ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوَّلَتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

ثانياً: رسم القرآن صورة للإشاعة وكيفية انتشارها؛ حيث يتولاها من يقصدها ويخطط لها ولتائجها، ثم تتلقفها الألسنة عنه بغفلة دون النظر في فحواها وعواقبها ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وهذا التنبيه والتشخيص جزءٌ من الإعداد التربوي لتحصين المجتمع من خطر الإشاعة، وتدريبه على تحليلها ومواجهتها بوعي وبصيرة.

ثالثاً: قسّم القرآن الناس الذين روجوا لهذا الإفك بناءً على النقطة السابقة إلى صنفين:

الصنف الأول: الذين يطلقون هذه الإشاعات ويروجونها لأغراض خبيثة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وأما الصنف الثاني: فهم أولئك الذين يطّيرون بكلّ خيرٍ دون قصدٍ، وإنما هي الحفّة والغفلة، وهؤلاء بحاجة إلى مزيد من التربية والتدريب؛ ولذلك تعامل معهم القرآن بفُسْحَةٍ ومرونة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعْرُدُوا لِلْإِثْمِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وإن تعجب بعد كلّ هذا فاعجب من بعض من يدعون الانتساب إلى ملّة الإسلام اليوم، ويتسّمحون بمحبّة أهل البيت ﷺ، وهم يلوّثون هذا الإفك، ويجعلون ذيدّتهم الطعن في عرض النبي ﷺ وفي أمّهات المؤمنين عليهنّ من الله الرحمة والرضوان.

رابعاً: ذكّر القرآن نموذجاً للصنف الثاني من أولئك المؤمنين الذين أصابتهم الغفلة، الغفلة

التي أنستَه مقام بيت النبوة، ومكانة أمّهات المؤمنين، وأنستَه أصحاب الفضل عليه، وهم آل الصديق عليه السلام؛ حيث كان أبو بكر يتعهّده بالإنفاق والرعاية، فوقع في حبائل المنافقين، وخاض فيها خاضوا فيه، فما كان من سيّدنا الصديق عليه السلام الحليم الكريم إلا أن قطع عنه الصلة.

فجاء القرآن ليُرّم هذه العلاقة، ويمحو تلك الآثار السيئة في نفسيّة مسطح؛ ليصنع نموذجاً للمسامحة الكريمة والعفو النبيل ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

خامساً: وضع القرآن منهجاً عملياً لمواجهة هذا النوع من الإشاعات ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾.

وهذه منهجية قلّ من ينتبه لها؛ فالردّ الفوريّ لهذه الإشاعات بناءً على حُسن الظن بالمؤمنين هو المطلوب في مثل هذه الحالات، أما التوقف بذريعة التبيّن والتثبت، فهذا من شأنه أن يمنح الإشاعة عُمرًا أطول، ويُعطيها فرصة للوصول إلى أهدافها، وأما توقّفه عليه السلام في حديث الإفك هذا وانتظاره للوحي، فهذا غاية الحكمة؛ إذ التهمة مُوجّهة إلى بيته وعرضه، فلو بادَرَ هو بالردّ - بأبي هو وأمي -، لكان للمنافقين منفذ آخر للطعن والتشكيك، وهذا لا يخفى على لبيب.

أما التبيّن الوارد في سورة الحجرات: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] فليس محله هذا النوع من الإشاعات، فلا بُدّ من التفريق بين مسؤوليّة الدولة، أو القضاء في التثبت قبل اتخاذ القرار أو الحكم، وبين هذه الإشاعات التي تستهدف سُمعة المجتمع ووحدته وتماسكه، وقد بسطنا هذه المسألة في بحثنا الموسوم: «منهج القرآن في مكافحة الإشاعة»^(١).

(١) بحث منشور في «مجلة الأحمديّة» التابعة لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث/ دبي، العدد الخامس، سنة

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا﴾ وكلُّ سور القرآن مُنْزَلَةٌ، وإنما خَصَّهَا؛ تنبيهًا على أهميتها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ بمعنى الإلزام؛ لما فيها من الأحكام والتشريعات القاطعة.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ لفظان عامَّان في كلِّ زانٍ وزانية، وقد ورد تخصيصهما بأحاديث رَجَمَ الْمُحْصَنَ دُونَ الْبِكْرِ، وهو محل اتفاق الفقهاء والمذاهب المعتبرة، كما وردت إضافة عقوبة التغريب عامًّا للبكر في الأحاديث الصحيحة، وللناس في الجمع بين هذه العقوبات وتكييفها وشروط تطبيقها من الأقوال ما لا يتسعُ له المقام، والله أعلم.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لا تأخذكم الرأفة بهما بعيدًا عن تنفيذ حُكْمِ اللَّهِ، أما الرأفة بمعنى الرحمة والدعاء لهما بالتوبة والمغفرة، فهذه مِنْ صَمِيمِ خُلُقِ الْمُسْلِمِ، فالحدُّ ليس انتقامًا من العاصي، ولا كراهيةً لشخصه، وإنما تقتضيه ضرورة النظام العام وحماية المجتمع.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لتحقيق الردع للآخرين، وتكوين الوعي اللازم لصيانة المجتمع وحمايته.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ إخبار ووصف لطبيعة المجتمعات الوثنية الموبوءة بالعقائد الفاسدة، والعادات المنحرفة، وليس فيه تشريعٌ بإباحة زواج الزاني مِنَ الزانية أو المشركة، وأما المجتمع المؤمن فهو مُبْرَأٌ مِنَ الشُّرْكِ، ومُبْرَأٌ مِنَ الْفَاحِشَةِ؛ لأنه محمًى بشريعة الله.

فقروله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان سبب هذا النقاء الذي يتميز به المؤمنون، وليس ابتداءً للتشريع؛ إذ تحريم الزنا سابق، فالآية كلُّها إنما جاءت إخبارًا ووصفًا ومقارنةً بين مُجْتَمَعِ الْمُؤْمِنِينَ ومُجْتَمَعِ الْمُشْرِكِينَ، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يَتَّهَمُونَ الْعَفِيفَاتِ بِالزَّانَا.

﴿ثُمَّ لَรَبَاتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهْرَةٍ﴾ البيّنة المطلوبة لإثبات جريمة الزنا، وهي بيّنة يصعب تحقّقها؛ إذ ليس من الممكن ممارسة هذا النوع من الجرائم أمام الملاء، وكأنّ الشرع وضع هذه العقوبة لكي لا ينزلق المجتمع إلى حالة من الفوضى الشهوانية التي لا تُناسب فطرة الآدميين.

أما لو زلّ امرؤ في هذا الباب زلّةً، فالأولى به الستر، مع وجوب المبادرة إلى التوبة النصوح، أمّا الحرص على نزع الاعتراف منه، والرغبة في إقامة الحدّ عليه، ظناً أنّ هذا مقصود الشارع، فهذا من الخطأ الناتج عن جهل بطبيعة هذا الدين ومنهجه في الإصلاح.

﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ثلاث عقوبات للقاذف: جلده ثمانين، وردّ شهادته في آية واقعة أخرى، ووصمه بالفسق، والعياذ بالله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ استثناء من وصمة الفسق؛ فالفسق يزول بالتوبة اتفاقاً، ولا يدخل الجلد في هذا الاستثناء اتفاقاً أيضاً، فالتوبة لا تُبطل حدّ القذف، وإنما وقع الخلاف في قبول شهادته بعد التوبة، والظاهر ردّها بالتأبيد الوارد في الآية، ولأن الاستثناء لم يلحق العقوبة كلّها اتفاقاً، فالأولى قصره على آخرها، وهو الفسق، والله أعلم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ يقذفون زوجاتهم بالزنا وليس معهم أربعة شهود.

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١) وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ﴾ وهي شهادة لدفع عقوبة القذف عن نفسه، استثناء تقتضيه خصوصية العلاقة بين الزوجين.

﴿وَيَذَرُوهَا غَنَاهَا الْعَذَابُ﴾ إشارة إلى العذاب الوارد أولاً في حدّ الزنا، وفيها تأكيد لمعنى العموم الأصلي في الحدّ، والله أعلم.

﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ جماعة منكم وتعيش معكم، وقد مرّ تصنيف القرآن لهم.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ﴾ إذ رفع الله به ذكر أمهات المؤمنين، وأنزل براءة الصديقة بنت الصديق ﷺ وعن أبيها آيات تُتلى حتى قيام الساعة، وكان فيه الدرس العمليّ البليغ لتحسين

المجتمع المسلم ومدّه بأسباب المنعة والمقاومة.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ هو ابنُ أَبِي بن سَلُولَ رأسُ المنافقين، وقد جاء في «صحيح البخاري»: (... فقام رسولُ الله ﷺ من يومه، فاستعذَرَ من عبد الله بن أَبِي بن سَلُولَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يَعْذُرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا...»).

﴿تَوَلَّى إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ هَلًا، وهي أداة من أدوات الطلب.

﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ تأكيدٌ لمعنى المجتمع المتلاحم والمترابط حتى كأنه جسدٌ واحدٌ، وشخصيةٌ واحدةٌ.

﴿إِنِّكَ مُبِينٌ﴾ كَذِبٌ ظاهريٌّ، وأصلُ الإفك الصَّرف، وأُطلق على الكَذِبِ؛ لصرفه عن الحقِّ والعدل.

﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: في علمِ الله، وهذه تبرئةٌ قاطعةٌ لأُمَّ المؤمنين؛ إذ إنَّ القاذف في الحالات الأخرى قد يكون صادقًا في عِلْمِ الله وإن أُقيم عليه حدُّ القذف؛ لفقده الشهود.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تنبيهٌ إلى أخطر أسباب انتشار الإشاعة؛ التلقّي عن غير عِلْمٍ، والنشر بلا تفكير، وهي ظاهرةٌ مجتمعيةٌ طاغيةٌ، خاصّةً فيما يُستغرب من الأخبار، ويثير الفضول والاهتمام عند الناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهُم المنافقون ومن يُواليهم ويمشي في ركبهم؛ إذ لا يتصوّر مؤمن يسعى لنشر الفاحشة في مُجتمعه؛ ولذلك توعّدَهم الله بعَذَابَي الدنيا والآخرة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

(١) جزءٌ من حديث الإفك الطويل، وهو حديثٌ متفقٌ عليه عن أم المؤمنين عائشة ؓ، ينظر: صحيح البخاري (٢/٩٤٢) دار ابن كثير، تع. د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٨/١١٥) دار الجيل - مصورة من الطبعة التريكة المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَهُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ جوابه مفهوم من السياق، ويدلُّ

عليه الجواب السابق: ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ تأكيد أن فعل المنافقين في الإفك،

والسعي لإشاعة الفاحشة وزعزعة المجتمع المؤمن إنما هو اتباع للشیطان وخطواته المتسلسلة والمتابعة لفتنة المسلمين، وإلحاق الشر بهم.

﴿ وَلَا يَأْتِلِ ﴾ ولا يحلف.

﴿ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا ﴾ إشارة إلى أن

الصلاح مع الغفلة وعدم الفطنة قد يُوقع صاحبه في الخطأ الكبير، ومسطح مثال لهذا، والترغيب بالعفو والصفح عنه إنما هو من حيث الصلة لا من حيث الحد، فالناس أمام الحدود سواء.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِكَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ وعيد شديد لكل من

رمى مؤمنة عفيفة، وهو أكد وأشد فيمن رمى أم المؤمنين، وخاض في عرض رسول الله ﷺ.

وقد ذكر العلماء أن من خاض في هذا بعد نزول هذه الآيات فهو كافر ومكذب للقرآن، وخارج من الأمة والملة.

﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴾ تهديد آخر، وتخويف من عواقب الإفك.

﴿ يَوْمَذِيُوقِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ حسابهم العادل، وهو عيد آخر، وتهديد مضاف، فيا خسران

من استحق كل هذا الوعيد والتهديد.

﴿ الْغَيْثُ لِلْغَيْثِ وَالْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ ﴾ وصف لما

هو الأصل والشأن المعهود في العلاقات، وكما يقال: شبيه الشيء مُنْجَذِبٌ إليه، ومناسبة الإخبار عن هذا الشأن جليّة؛ فالرسول - بأبي هو وأمي - أطيّب الخلق وأزكاهم وأصفاهم، وقد اختار

الله له أطيّب النساء، حتى منعه من الزواج بغيرهن: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ

مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، فلو لم يكن مناسبات له وجديرات به لما

تَمَسَّكَ بِهِنَّ اخْتِيَارًا، وَلَمَّا خَصَّه اللَّهُ بِهِنَّ تَقْدِيرًا.

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ بمعنى أَنَّ الطيبين والطيبات مُبَرَّءُونَ مما يَرْمِيهِم بِهِ الْخَبِيثُونَ والخبيثات.

﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ حتى تستأذنوا، وفي الاستئناس معنى دقيقٌ مُضافٌ إلى الاستئذان، وهو اختيار الوقت المناسب الذي يبعث على الراحة والأُنس.

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا﴾ حالتان ينهى الله فيهما عن دخول بيوت الآخرين: ألا يكون فيها أحد، وأن يكون فيها أهلها لكنهم لم يأذنوا لمن استأذن عليهم، وهذا من حقهم؛ لأنهم أعلم بحالهم وبمن معهم.

والتحرُّج في هذا من قبلهم أو من قبل المستأذن تحرُّجٌ في غير محله، وهو مُنافٍ لحالة الصفاء وحُسن الظنِّ فيما بين المؤمنين؛ ولذلك عَقَّبَ بقوله: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ أي: أظهر لقلوبكم، وأصفى لعلاقاتكم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ استثناء تقتضيه المصلحة، فهناك بيوت لم تُعدَّ للسكنى أصلاً؛ كالأماكن العامة المعدة مثلاً لخدمة الزوّار، والمسافرين، وطلاب العلم، فهذه لا تحتاج إلى استئذان ولا استئناس.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِيهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ نهى عن السبب أولاً؛ إذ النظر المحرَّم سببٌ في انتهاك الحرمات، والوقوع في المنكرات، سواء كان من الرجل أو من المرأة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِيهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾.

﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ إذ زينة المرأة ليست للرجال الأجانب، وقد وقع الاستثناء فيما يصعب إخفاؤه، أو ظهر منها عن غير قصد.

وللعلماء في وجه المرأة وكفيها كلامٌ لا يتسع له المقام، وهي مسألة لم يرد فيها نصٌّ قاطعٌ؛ ولذلك جرى فيها الخلاف، وساغ فيها الاجتهاد، والله أعلم.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ الخُمُر: جمع خمار، وهو: غطاء الرأس، والجيوب: الصدور،

والمعنى أن تستر المرأة رأسها بالخمار، ثم تلفه على عنقها، وتُسدله على صدرها.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ ما يجوز للمرأة أن تُبديه لبعلها غير ما يجوز لها أن تُبديه لأبيها ومن بعده من الرجال المحارم الذين ذكّرهم هذه الآية، وهذا مقتضى الفطرة والنقل والعقل، أما إذا كان المقصود بالزينة ما تتزيّن به المرأة في العادة؛ كالقُرط، والسوار، والخلخال - وهو ظاهر النص - فلا فرق في الاستثناء، والله أعلم.

﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي: يجوز لها أن تُبدي زينتها لمن معها من النساء المؤمنات.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾ من الإماء ولو كنَّ مُشركات، فالأمة تخدمها وتدخل عليها، فلا يصح احتجاجها عنها، وأما العبد فالأصل فيه المنع، وخلاف الفقهاء فيه معروف وليس هنا محله. ﴿أَوِ التَّبِيعِ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ هم الرجال الذين يتبعون الناس ولا يستقلّون برأي ولا عمل؛ لعاهة مُقعدة لهم، أو عتّه وبكّه، بشرط ألا يُعرف عنهم الميل الغريزي للنساء، فإن عُرف عنهم ذلك وجب الاحتجاب، فربما كان المجنون والمعتوه أجراً من غيره، وأبعد عن معاني الاحتشام والمروءة.

﴿أَوِ الطِّفْلِ﴾ اسم جنس، والمقصود: الأطفال؛ ولذلك عبّ بالجمع فقال: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: لم يعرفوها لعدم التمييز.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا تضرب برجلها الأرض لسمع الرجال صوت خلخالها، فهذا مع ما فيه من قصد مُنافٍ للستر، أمانة على خفتها، وقلة احتشامها، مما يُجرى عليها السفهاء ونحوهم.

﴿وَالْيَكُحُوا الْأَيْمَى مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أي: زوّجوا الأيامي وساعدوهم على الزواج، والأيامي: جمع أيم، وهو من لا زوج له من الرجال والنساء، بكراً كان أو ثيباً.

﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إرشاد للناس وحثّ لهم على المبادرة بالزواج والتزويج، وألا يكون الفقر حائلاً دونه، وفيه وعدٌ لطيفٌ بفتح باب الرزق لمن رضي بالفقر أو

الفقيرة، وأبواب الله واسعة لا يُحْدِثُهَا حَدٌّ، ولا يَمْنَعُهَا سُدٌّ.

﴿وَلَيْسَتَعْفِيفُ الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أمر بالاستعفاف والصبر لكل راغبٍ بالزواج مع عدم القدرة عليه، وفي الآية وعدٌ خفيٌّ بالفرج والرزق.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أمر للسادة بشأن العبد الذي يشتري حرَّيته بما يكسبه من عمله، وبما يُقدِّمه له إخوانه المسلمون من عونٍ، فالأمر صريحٌ بالمكاتبة، وهذا من تشجيع الإسلام على تضيق مساحة الرِّقِّ، وتوسيع مساحة الحرية، وهو المناسب لكل التشريعات الإسلامية المتعلقة بالكفارات، ومطلق القُرَبات.

وربما كانت المناسبة للسياق: أن هذا العبد يرغب بالزواج بعد التحرُّر، وهو الأصل الذي ينشُدُه كلُّ آدمي مُستَقِلٌّ بإرادته.

وأما قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ فمعناه: إن ترجَّح لديكم أنه قادرٌ على الكسب والاستقلال بنفسه، والله أعلم.

﴿وَعَاثُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ ترغيبٌ في معاونة المكاتب للإسراع في تحرُّره وتخفيف الأعباء عنه، وهي دلالةٌ أخرى على رغبة الإسلام في فكِّ قيود العبودية، وتحرير مَنْ يمكن تحريره من الرقيق.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ تحريمٌ صريحٌ ومُنسَجَمٌ مع نصوص الوحي ومبادئ التشريع وأحكامه، وفيه توبيخٌ للمشرِّكين الذين كانوا يُكرِّهون إماءهم على البغاء.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس على سبيل التحرُّز، بل هو زيادةٌ في استقباح فعلهم، كأنه يقول لهم: كيف تُكرِّهوهنَّ على البغاء استغلالاً لضعفهنَّ، وقلة حيلتهنَّ، وأنتم تعلمون أنَّهنَّ يكرهنَّ ذلك؛ لأنه مُنافٍ لفطرتهنَّ، وانتهاكٌ لآدميتهنَّ؟

﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفورٌ لهنَّ ورحيمٌ بهنَّ؛ لأنَّهنَّ مُكرَّهات ولَسْنَ مُختارات، وإنما الِوِزْرُ على من ظلمهنَّ وأكرهنَّ، ليبغين بشرفهنَّ عَرَضًا من المال الزائل.

سُورَةُ النُّورِ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ نِجْرٍ مَّيْمَنَتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشَافُهَا فِيهَا مِصْبَاحٌ أَلْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةِ الرَّجَاةِ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنشَأَ اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا بَصِيرَةٌ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ ۖ سَابُحٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا ۚ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن مَّاءٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۚ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤١﴾ يَلْقَى اللَّهُ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٣﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ ثَمُودَ مَائِمَةً مِّن بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِن بَنِي إِسْرَءِيلَ مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ ثَمُودَ مَائِمَةً مِّن بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِن بَنِي إِسْرَءِيلَ مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ ثَمُودَ مَائِمَةً مِّن بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمِن بَنِي إِسْرَءِيلَ مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ۖ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَقُولُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَن يُخَافُوا أَن يُحَافِتُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ ۖ وَسَتَقَفْهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۖ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ۚ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْبَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَدَّعَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

بعد تنقية المجتمع من آثار الإشاعات المنكرة والسلوك المشين، وحمايته من الانحراف ومُسبباته، شرع القرآن في بيان الأسس التي ينبنى عليها هذا المجتمع، وملاحمه وخصائصه التي تُميّزه عن المجتمعات الأخرى:

أولاً: إنه مجتمعٌ موصولٌ بالله، ومنورٌ بنور الله الذي هو مصدر هذا الوجود، ومنشئ الحياة فيه، وهاديه إلى أحسن الخلق وأعدل النظام ﴿لِلَّهِ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوْفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثانياً: إنه مجتمع المساجد التي يلتقي فيها المسلمون على نور الله ومحبه وذكره وشكره، إخوة متحابين متعاونين متكافلين ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

ثالثاً: إنه مجتمع الاستقامة والثبات على طاعة الله، والاحتكام إلى شرعه وسنة نبيه ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، ﴿وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرِّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

رابعاً: إنه المجتمع المنسجم مع حركة هذا الكون ونظامه العام، وسُنن الله وآياته المبثوثة في كل جانب من جوانبه، وفي كل زاوية من زواياه ﴿الَّذِينَ تَرَى الظُّلُمَاتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمَاتِ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٤٢﴾ الذين تَرَى الظُّلُمَاتِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمَاتِ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٤٢

مِنْ أُنْتَمَلِكُمْ مِنْ حِجَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ فَصِيبٌ بِهِ مِنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ، عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ
زَيْدًا يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٧﴾.

خامسًا: إنه المجتمع الموعود بنصر الله وتمكينه، وحفظ أمنه واستقراره ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ
دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾.

سادسًا: إنه المجتمع الموعود بالجنة والسعادة الأبدية ﴿لَيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ
فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٩﴾.

في مُقابل هذه الملامح والخصائص، يُشير القرآن في معرض المقارنة إلى تلك المجتمعات التي
رَفَضَتْ هذا النور، وتَحَبَّطَتْ في ظلام الجهل والجاهلية؛ ليظهر بذلك ميزة المجتمع المسلم عن
غيره، أما ملامح تلك المجتمعات فتوضَّحها هذه الآيات كما يأتي:

أولًا: إنها مجتمعات تعيش في ظلماتٍ متراكمة ﴿أَوْ كُظُمْتُ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ
مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ
مِنْ نُورٍ ﴿٢٠﴾ وهذه الظلمات المتراكمة إنما هي ظلمات الجهل والظلم والشرك التي تجتمع حولهم، وفي
صدورهم؛ فتُعميهم وتُصمِّمهم عن النور الذي أودعه الله في هذا الكون نظامًا دالًّا على
وحدانيته، وتشريعًا دالًّا على كمال ألوهيته، وحكمته ورحمته.

ثانيًا: إنها مجتمعات ترفض الانصياع للحقِّ إلا إذا كان يُحقِّقُ لها بعض المصالح الآنية، وهذا
لا شكَّ مظهرٌ من مظاهر النفاق ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢١﴾ وَلَئِنْ
بَكَرْتُمْ لَكُمْ لَحِقَ بِاتِّبَاعِهِ مُدْعِينٌ ﴿٢٢﴾.

ثالثًا: إنها مجتمعات لا تعرف الله، ولا تُحسن الظنَّ به، بل هي في شكٍّ وقلقٍ واضطرابٍ دائمٍ
﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾.

رابعًا: إنَّها مجتمعات لا تُقدَّر الكلمة، ولا تَفِي بوعدٍ ولا بعهدٍ، بل هي مُتقلِّبة بحسب مصالحها المستعجلة أو المتوهمة ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

خامسًا: إنَّها مجتمعات ستلقى جزاءها، ونَجْني في الآخرة ما زَرَعْتَه في دنياها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَرَابٌ يَبْقِعُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَوْلَهُمْ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾.

دقائق التفسير

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النور ضد الظلمة حقيقةً ومجازًا، والله نور السماوات والأرض مُنورهما بضياء النجوم والكواكب، ومُنور الخلق فيهما بنور هديه ووحيه، بل وكل مخلوق إنما خرج بنور الله من ظلمة العدم إلى نور الوجود. والنور أيضًا: العلم؛ إذ تُقابله ظلمة الجهل، والله مصدر كلِّ علمٍ ومعرفةٍ، وهو الخالق لهذه العقول التي تنكشف لها معارف الكون وخباياه.

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ مَثَلُ نور الله وهديه في قلب المؤمن مثل المصباح الذي يجتمع ضوؤه في كوة غير نافذة في الجدار، فقلب المؤمن الكوة التي يجتمع فيها الضوء، ونور الله المصباح الذي هو مصدر الضوء.

﴿الْيَصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ﴾ تشبيهٌ للحفظ ومُضاعفة الضوء؛ إذ الزجاجة تحفظ المصباح وتزيد من إشراقه وسطوعه.

﴿الرُّجَاةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ﴾ ساطع بنوره، وسامٍ بعلوه ورفعته.

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ معناه أَنَّ وقود هذا المصباح من زيت شجرة مباركة كثيرة الخير، مُعتدلة ليس فيها ما يَشِينُها ويُقلِّلُ بركتها.

وقوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لتأكيد اعتدالها، وليس لتحديد مكانها أو جهتها، كما تقول: فلان مستقيم لا يميل يمنة ولا يسرة، وهو المعنى المراد أصلاً من التشبيه؛ فالمؤمن معتدلٌ بلا بخل ولا إسراف، ولا جبن ولا تهور، ولا تهاون ولا تنطع، وهكذا.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لفرط صفائه ونقاؤه.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تأكيدٌ للمُراد من التشبيه؛ أَنَّهُ نور الوحي والهداية والاستقامة، ثم أكَّده بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ هي المساجد التي يجتمع فيها المؤمنون على نور الله وهديه، ومنها يَشعُّ هذا النور وذلك الهدي إلى بقاع الأرض.

وقد أشكل على بعض المُفسِّرين مُتعلِّقُ الجار والمجرور، والأظهر أَنَّهُ مُتعلِّقُ بالمشبَّه وليس بالمشبَّه به، أي: يَهْدِي اللهُ ونوره، وليس بالزيت والمصباح؛ إذ لم تكن في مساجد المسلمين آنذاك مثل تلك المصابيح، ومعنى تُرْفَعُ: تُبْنَى حتى يظهر بناؤها، ويُعرف عند الناس.

﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ في بداية النهار ونهايته.

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فهم يَتَجَرَّون ويبيعون كسائر الناس، لكنهم لا ينشغلون بأعمالهم هذه عن واجباتهم الدينية؛ كالصلاة، والزكاة.

وخصَّ الرجال؛ لوجوب الجمعة عليهم، وحثُّهم على الجماعات، بخلاف النساء المخيَّرات في ذلك.

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ كناية عن القلق والخوف وشدة الاضطراب.

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فوق ما وعدهم الله به من الحسنات، وهذا من كرم الله الذي ليس له

حد.

﴿أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ يَفِيعَةٍ﴾ أعمال الكافرين تكون في ذلك اليوم كالسراب الذي يظهر في القاع المستوية، ولا حقيقة له، ولا جدوى منه.

﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ عميق.

﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ﴾ حيث يتراكم الموج ويركب بعضه بعضًا لتشتدَّ

ظلمة قاع البحر، فكيف إذا تلبَّدَت الغيوم فوق ذلك، وحجبت أشعة الشمس؟

﴿ظُلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ صورة مركبة للمُشَبَّه به، تُقابل صورة المُشَبَّه، وهو هنا: التَّيَّه

والضلال الذي يغرق فيه هؤلاء الكافرون والمنافقون.

﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ﴾ باسطات أجنحتها وهي تُحَلِّقُ في جوِّ السماء.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كلُّ مخلوق يعلم طريقته في الصلاة والتسبيح، فالعقلاء

يُصَلُّونَ لله وُسْبُحُونَهُ الصلاةَ والتسبيحَ التكليفيَّينَ برِجاءِ الثواب والغفران، وغيرهم يخضع

الخضوع القدري، ويدل على وحدانية الله وعظمته وحكمته بهذا الخضوع والانسجام الكلي مع

نواميس الكون.

﴿يُنَزِّجِي﴾ يسوق.

﴿فَفَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ فتري المطر يخرج من خلال السحب المتراكمة.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ شبه الغيوم المتراكمة بالجبال، ولأنَّها في العلوِّ، فهي في

السماء، وقوله: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ أي: يُنزل بردًا، وليست هي وصفًا للجبال.

﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: بالودق والبرد، وهذا الظاهر، فالإصابة هنا بمعنى: الخير، ومن

قصره على البرد حمل الإصابة على المكروه؛ لأنَّ البرد قد يُصيب الزرع بالضرر، والله أعلم.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ كناية عن شدَّته و سطوع ضوئه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾ فالماء أصل الحياة على هذه الأرض، ومنه تتكوَّن النُطف، ومنه

تتكون الأجسام.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كالزواحف والأفاعي.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ عامة البهائم والسباع والأنعام.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ إشارة للأنواع الأخرى التي لم ينص عليها؛ كالحشرات التي تمشي على

أكثر من أربع.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طريقة القرآن في تجنب التعميم في الحكم؛ تأكيداً لمبدأ العدل حتى مع

هؤلاء الكافرين والمنافقين.

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن حكم الله إذا رآوه ليس في صالحهم.

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ مُسْتَجِيبِينَ وخاضعين، وهذه من علامات النفاق؛ إذ إنهم

لا يتحاكمون إلى الشرع إيماناً به، بل طمعاً في حصول المنفعة الدنيوية إذا كان الحكم بجانبهم،

وإن كانت الأخرى رفضوه وخالفوه.

﴿أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أن يميل عليهم بظلمهم وأخذ حقهم، تعالى الله عن ذلك.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ نصّ في دخول

التقاضي فيما يختلف فيه الناس من شؤون حياتهم في معنى الدين والإيمان، بخلاف ما يردده

بعض المعاصرين المتأثرين بأفكار الغرب من قصر الدين على الشعائر التعبدية ونحوها.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: حلفوا بالله أبلغ الحلف وأكده وأشدّه.

﴿لَنْ أَمْرَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ﴾ للجهاد ونحوه طاعة لك.

﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً﴾ لا حاجة لهذا القسم ولا لتأكيدهِ وإعادته، فطاعتكم معلوم لنا

كذبها بحسب ما تكرر من سلوككم.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: على النبيّ البلاغ، فهذا ما كُلف به، وعليكم الطاعة، وهذا ما كُلفتم به.

﴿لَيْسَتْ خِلْفَتُهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ وعدّ إلهي للنبيّ ﷺ وأصحابه ومن اتبعه بالتمكين في الأرض، وجعلهم أئمة وسادة، وقد تحقّق هذا بفتح مكة، ثم بالفتوحات التاريخية الكبرى على يد الصحابة والتابعين لهم عليهم رضوانُ الله أجمعين، ثم ما كان من فتوح عظيمة أيام الأمويين والعباسيين والأيوبيين والعثمانيين، ولم تنتكس هذه الأمة إلا بعد أن نكثت عهدها مع ربّها، وفلّت حبلَ وحدتها، وآصرة أخوتها.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ فهو تمكينٌ للدين وقيمه ومبادئه، وليس تمكينًا تسلطيًا استعلائيًا لأشخاص مُعيّنين، أو تغليبًا لقومٍ على قومٍ، وطبقةٍ على طبقةٍ، فالناس كلُّ الناس أمام الحقّ سواء.

﴿وَلَيَسِّدَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ تأكيد لأهمية الأمن وضرورته لحياة الناس.

﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا يُعْجِزُون الله، بل هو القادر عليهم أينما كانوا، وكيفما كانوا.

سُورَةُ النُّورِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَھُنَّ طَوْفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَذِنُوا كَمَا اسْتَذِنَ الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِمَّنْ بِيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّمَّا نَحْنُھُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنكُمْ لِيُؤْذِنُوا فَليَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

مجتمع الرحمة والأخلاق والانضباط

في ختام هذه السورة النورانية تأتي التوجيهات الربانية المناسبة لمحاور السورة ولموضوعها الاجتماعي الأساس؛ لتصوغ منظومة من الآداب التي تحافظ على خصوصية هذا المجتمع، وتُحسِّن وحدته ونسيجه الداخلي، وعلاقاته المختلفة، وتُجيب على بعض التساؤلات التفصيلية ذات الصلة:

أولاً: في ضبط تحرُّك العائلة الواحدة ومن يسكن معها داخل البيت؛ من خَوْلٍ وخدمٍ،

وإمكانية اطلاع بعضهم على بعض، يُشرع القرآن ثلاثة أوقات للاستئذان: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَفَاتٍ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾.

ومعلوم أن هذه هي أوقات الراحة، وما عداها أوقات عمل وحركة، وفي وقت الراحة يخلد الناس إلى خلواتهم وحجراتهم الخاصة، وقد يتخففون من ثيابهم، وقد يكون معهم في ذلك أزواجهم، لكل ذلك وجب الاستئذان بالنسبة للخول والخدم، وكذلك الأولاد المميزون الذين لم يبلغوا الحلم في هذه الأوقات الثلاث، فإن بلغوا الحلم وجب عليهم الاستئذان فيها وفي غيرها ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾.

ثانيًا: استثنى من الحكم السابق المرأة الكبيرة التي لا ترجو نكاحًا، ولا تشوّف للزواج، وقد قعدت عن الحيض والحبل، فلها أن تضع عنها من ثيابها من غير تبرّج ولا تزين ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۝﴾، ثم رغبها بالاستعفاف والاحتياط في ذلك ﴿وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾.

ثالثًا: في ضبط الأكل والشرب داخل البيت، وفي بيوت الأرحام والأقرباء والأصدقاء يقول القرآن: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ۝﴾.

ففي هذه الآية يُعدّد القرآن قائمة بالذين يجوز للشخص أن يأكل من طعامهم دون إذن منهم، بل يكتفي بها هو معروف ومعهود في مثل هذه القربات والعلاقات، بل ربما يكون طلب الإذن مُستغربًا ومُستهجنًا، وهو من التنطع والتكلف في دين الله.

وقد أشكل على بعض المفسرين علاقة هذا الموضوع بصدر الآية، والظاهر أن الحديث عن الأعمى والأعرج والمريض في رفع الحرج عنهم جاء بمثابة المقدمة والتمهيد، كأنه يقول: إن طبيعة هذا الدين هي رفع الحرج، والبعد عن التنطع والتكلف، وكل ما يؤدي إلى المشقة، فكما أن الله رفع الحرج عن أصحاب الأعذار في كل ما يشق عليهم من جهاد وغيره، فكذلك رفع الحرج في هذه العلاقات؛ لأن طلب الإذن في كل مرة مبعث على الضيق وتقييد الصلات التي أمر الله أن تتوسّع وتتوثق؛ ليكون رفع الحرج قاعدة عامة تندرج تحتها مسائل كثيرة.

وفي هذا تربية أصولية قياسية مقاصدية للعقل المسلم، والله أعلم.

ثم أكد هذا المبدأ العام في مسألة تفصيلية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، فلكل حالة ما يناسبها بلا تشديد ولا تضييق، وبحسب حال الناس والظرف الذي يمرون به.

رابعاً: في التحية التي هي السلام، وديننا كله هو دين السلام ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ والآية ليس فيها تقييد، فمن دخل بيتاً ووجد فيه أهله فليسلم عليهم، وإذا لم يجد فيه أحداً فليسلم على نفسه، كما جاء في التشهد: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ»^(١).

وسلام المؤمنين على أنفسهم يحتمل هذا وهذا معاً، وفيه شعور ودود بالأخوة الحميمة التي تتسامى حتى تكون كالجسد الواحد، والنفس الواحدة.

خامساً: في آداب الانصراف، لاسيما في اللقاءات التي تهم الشأن العام؛ حيث يتأكد الالتزام بضوابط اللقاء ووقته ونهايته، فإذا كان ذلك في عهد رسول الله ﷺ، فسيكون الالتزام مع ما فيه

(١) هذا اللفظ جزء من دعاء التشهد في الصلاة، وقد ورد في عدة أحاديث، منها: حديث متفق عليها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ينظر: صحيح البخاري (٢٨٦٩/١) دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م، وصحيح مسلم (١٣/٢) دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين، وانفرد مسلم بأحاديث أخرى عن ابن عباس، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ينظر: صحيح مسلم (١٤/٢).

من خُلِقَ رفيع علامة على الإيمان الصادق، وحسن الأدب مع مقام النبوة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

سادساً: ذكر القرآن بعد كل هذه التوجيهات والتشريعات بالأصل الذي يدفع المسلم للالتزام والانضباط، وتنمية الرقابة الذاتية في ضميره ووجدانه ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

دقائق التفسير

﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء ممن يعملون في البيوت، وتدعو الحاجة لدخولهم واختلاطهم بأهل الدار.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ وقت القيلولة.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ ثلاث أوقات مخصوصة يجب فيها الاستئذان؛ لما فيها من مظنة التخفف من الثياب.

والملاحظ هنا إشارة أن عمل المسلم يبدأ مع طلوع الفجر، فإذا أراد الراحة كان ذلك في قيلولة الظهيرة، ثم السكن وأخذ الراحة التامة بعد صلاة العشاء، وهذا تنظيم للوقت لو أخذ به المسلمون اليوم، لكان لهم بركة ومزيد نشاط وإنتاج.

﴿طَوَّفُوا بَيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ بُعْضِكُمْ﴾ أي: يطوفون عليكم لخدمتكم، وأنتم وهم جميعاً بحاجة إلى هذه الحركة والخلطة، والدخول والخروج بلا تخرج ولا استئذان، أي: في غير العورات الثلاث.

﴿فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: الأحرار البالغون الذين أوجب الله عليهم الاستئذان في كل الأوقات.

﴿وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ اللواتي قعدن عن الحيض والحمل فلا يتشوفن للزواج؛ ولذلك قال في وصفهن: ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ في كل ما يشق عليه، وكذا الأعرج والمريض، وهذا حكم معروف في غير هذا الموضع، وجاء به هنا؛ تذكيرًا بالمبدأ العام في التشريع، وهو رفع الحرج؛ ليكون تمهيدًا مناسبًا للأحكام المفصلة الآتية.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحِيَهُ﴾ كبيت الموكل إذا سلم المفاتيح لوكيله ليتعهده في حال غيبته، فللوكيل الأكل بالمعروف مما يجده في البيت، ومثله الحارس والخادم، والله أعلم.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: لا حرج كذلك من الأكل في بيت الصديق ومن طعامه دون إذنه إذا كان ذلك معهودًا، وهذا يختلف بحسب قوة العلاقة ونوعها، والله أعلم.

﴿فَسَلِمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ على أهلكم وإخوانكم، أنزلهم منزلة النفس، فإن لم يكن فيها أحد فليسلم المسلم على نفسه^(١).

﴿عَلَى أَمْرِ جَامِعٍ﴾ على أمر يهم الجميع، كما في الاجتماع للشورى ونحوه.

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ﴾ لمظنة أن استئذانهم لبعض شأنهم لم يكن أولى من البقاء للشورى والمشاركة في الأمر العام، وإن كان الاستغفار مطلوبًا ومحبوبًا في كل حين.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تُخاطبوه كما يُخاطب بعضكم بعضًا؛ فالأدب مع رسول الله ﷺ قرين الإيمان به؛ ولذا وجب خفض الصوت بحضرته،

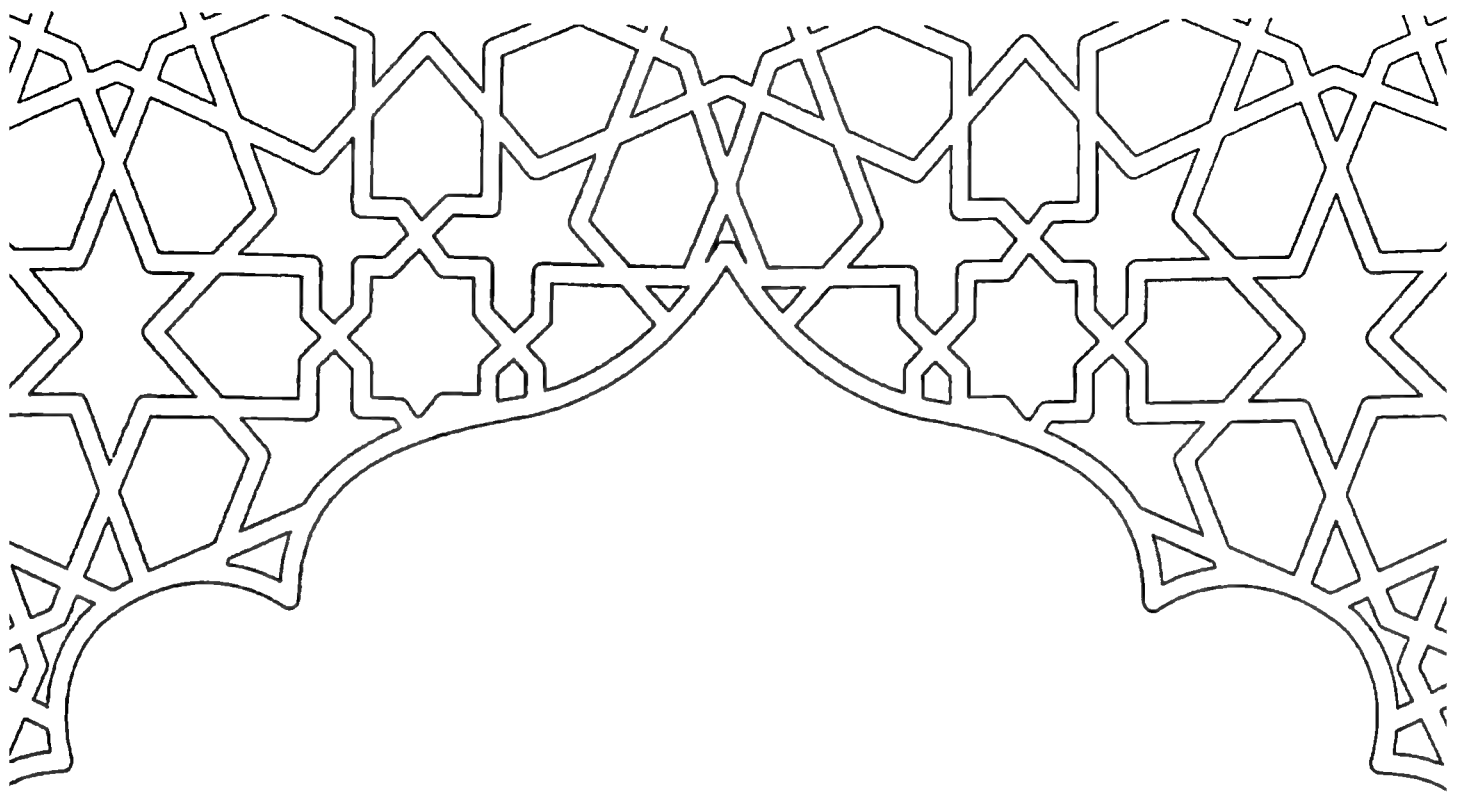
(١) وذلك لما روي عن نافع، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ غَيْرَ الْمَسْكُونِ فَلْيُقَلِّ: السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٧٧/ دار البشائر الإسلامية، ط. ٣، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ م، تح محمد فؤاد عبد الباقي)، وحسنه الحافظ ابن حجر، ينظر: فتح الباري (٢٠ / ١١) دار المعرفة، طبعة سنة ١٣٧٩، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي).

والاحتياط في اختيار اللفظ والصيغة المناسبة لمقام النبوة.

﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ صفة من صفات المنافقين في التهرب من مجالس الرسول ﷺ، وصلاة الجماعة، والعمل المشترك الذي فيه مصلحة المسلمين؛ لأن ذلك كله كان يُشَقُّ عليهم.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تحذير ووعيد شديد لمن يتعمد مخالفة أمر رسول الله ﷺ، أو يُسيئون الأدب معه أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ في دينهم بالردة والنفاق، ثم يلحقهم العذاب الأليم في عاقبة أمرهم.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ على وجه الإحاطة واليقين، و(قد) هنا للتأكيد والتحقيق.



سُورَةُ الْفُرْقَانِ

المجلس السادس والخمسون بعد المائة: الفرقان بين الحق والباطل

المجلس السابع والخمسون بعد المائة: أسباب الغواية والضلال

المجلس الثامن والخمسون بعد المائة: دلائل الهدى المبثوثة في هذا الكون

المجلس التاسع والخمسون بعد المائة: عباد الرحمن

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ. لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ۝ (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝ (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَهُ ظُلْمًا وَزُورًا ۝ (٤) وَقَالُوا اسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَتْهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (٦) وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَنْشِئُ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ (٧) أَوْ يُنْفِثُ إِلَيْهِ كَافًّا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَشِيعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ (٨) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ (٩) بَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لك قصورًا ۝ (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝ (١١) إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ يَبْعِدُونَ لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ۝ (١٢) وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝ (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ۝ (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَّتَّوِلًا ۝ (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ (١٧) قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُغْنِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظلم يَنْكُم نَذْفُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝ (١٩) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝ (٢٠) وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝ (٢١)

الفرقان بين الحق والباطل

سورة الفرقان، والفرقان هو: القرآن الذي جاء ليفرق بين الحق والباطل، وبين طريق

الجنة وطريق النار، وبين صفات المؤمنين الطائعين وصفات الكافرين المعاندين، هذا هو

موضوع السورة الذي ينتظم جميع آياتها.

إنَّهَا سورة البيان الذي لا يدع مجالاً للغش والالتواء، ولا للشك والتردد؛ ليكون الناس بعد ذلك على بينة تامة من أمرهم، وليتحملوا عاقبة قرارهم وخيارهم.

في فواتح السورة جاء الحديث بشكل مفصلٍ عن الحق والباطل؛ الحق بنوره ودلائله ومعالمه، والباطل بظلمته وشبهاته وتخبُّطه، وكما يأتي:

أولاً: إن القرآن هو الفاصل بين طريق الحق وطريق الباطل، وهو الذي أنزله الله على خاتم رسله محمد ﷺ؛ لينذر به العالمين كل العالمين ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

ثانياً: إن التوحيد هو نقطة الافتراق الأولى بين طريق الحق وطريق الباطل ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ۝٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

ثالثاً: إن الموقف من القرآن الكريم هو الفاصل المنهجي والتشريعي العميق بين من يؤمن بمصدرية القرآن، وحاكميته ومصادقته المطلقة، وبين من يعمى عنه، ويلوذ بالخرافات التي يسميها ديناً، أو بالتصورات المادية المحدودة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ۝١﴾ وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۖ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فِيهِ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ۝٢﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٣﴾.

رابعاً: إن الموقف من الرسول الخاتم ﷺ هو الحد الحاسم بين طريق الهداية وطرق الضلال، فهو ﷺ الدال على الخير، وهو القدوة في كل خير، وهو المثل الأعلى لكل سائر على الصراط المستقيم ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ

الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿٨﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴿٩﴾.

خامساً: إن عقيدة الحساب والجزاء هي حجر الزاوية بين المهتدين والضالين، بين من يجد في نفسه الدافع للعمل الأفضل والسلوك الأمثل بحسّ حاضر ودائم من الرقابة الذاتية، وبين من يعيش عابثاً لا هياً ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ﴿١١﴾ إذا رأتهم من مكانٍ بعيدٍ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴿١٢﴾ وإذا ألقيوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴿١٣﴾ لا ندعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴿١٤﴾ قل أذلك خيرٌ أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاءً ومصيراً ﴿١٥﴾ لهم فيها ما يشاءون خالدين على ربك وعداً مسئولاً ﴿١٦﴾.

سادساً: إن أهل الباطل ليس لهم حجة يدلون بها، ولا عذر يعتذرون به، بعد قيام الحجة عليهم، ومزاجتهم بالحقيقة الصادمة أنهم وحدهم من يتحمل مسؤولية المصير الذي أوقعوا أنفسهم فيه ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿١٧﴾ قالوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴿١٩﴾.

سابعاً: إن وجود أهل الباطل يمثل اختباراً لأهل الحق، كما أن وجود أهل الحق يمثل اختباراً لأهل الباطل، وهذه سنة معلومة وثابتة من سنن الله في هذا الخلق، فوجود الباطل وأهله يمتحن الله إيمان المؤمنين، وصبر الصابرين، ووجود الحق وأهله يُقيم الله الحجة على الكافرين والجاهلين والمعاندين، ويختبر الله صدق توجهاتهم وإراداتهم، بحيث لا يبقى عذر لمعتذر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ ﴿٢٠﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ تقدّس وتعظّم.

﴿الْفُرْقَان﴾ اسمٌ من أسماء القرآن؛ لأن غاية التفريق بين الحقّ والباطل.

﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ هو نبيّنا الكريم محمد ﷺ.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ صفة للرسول ﷺ أو للقرآن، وكلاهما بمعنى، فالرسول إنّما يكون نذيرًا بهذا القرآن.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ تأكيد لأصل من أصول التوحيد، وهو وحدانيته تعالى في الملك؛ إذ هو المالك لكل شيء بحكم أنّه الخالق لكل شيء.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ فكل مخلوق له خصوصيته ووظيفته وحدّه الذي لا يتجاوزه، وهنا إشارة أنّ الهدى القرآني يُحقّق انسجام الإنسان مع سنن الله في هذا الكون.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي: من دون إذنه، وإلا فهم يعبدونهم تقرّباً إلى الله بزعمهم.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ تأكيد أنّ الذي يستحقّ الألوهيّة إنّما هو الذي يخلق، أما المخلوق فواجهه الخضوع لإرادة الخالق وأمره ونهيه.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ آفَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ تهمة يُطلقها المشركون بعد أن أدهشتهم حقائق القرآن، وأثبتت عجزهم وعجز آلهتهم عن مجاراتها، فهم يرمونه ﷺ باختلاق القرآن، ويتهّمونه أيضاً بالاستعانة بآخرين، يُشيرون إلى علماء أهل الكتاب، وقد ردّ القرآن هذه التهمة على قائلها: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا زُورًا﴾.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ الأساطير ما سطره الأقدمون من قصص وحكايات بلا دليل ولا بينة، والمشركون إنّما يعنون به القرآن، وهذا من تمام تحبّطهم، وفقد صوابهم، ولو أزاخوا عن عيونهم غشاوة الحسد والتكبّر الفارغ، لآمنوا به واستسلموا له.

قبل غيرهم؛ لما يعرفونه من لغة القرآن وبيانه وفصاحته، وقد نزل بلغتهم، ولما يعرفونه عن نبيهم الذي وُلِد ونشأ بين ظهرانيهم، والذي كانوا يسمُّونه الصادق الأمين قبل البعثة.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البكرة أول النهار، والأصيل آخره.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة لتحقيق الانسجام بين سُنن الله في السماوات والأرض، وبين ما جاء في هذا القرآن من أخبارٍ وأحكام.

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ جنوحٌ غريبٌ في الناس للتقليل من شأن من يخالطهم ويعيش معهم في تفاصيل حياتهم بآلامهم وآمالهم، وكأن الذي يستحقُّ الاتباع والافتداء إنما هو ذلك الذي يعيش في أبراجٍ مرتفعةٍ عليهم، ومُستعليةٍ على واقعهم، هذا الجنوح المتكرر والمعتاد هو الذي صنع الطواغيت البشرية في كلِّ جيل.

﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ، نَذِيرًا﴾ يقولون: هلاً أنزل الله معه ملكاً ليصدِّقه ويُعاونه في تبليغ الرسالة، ومن ثمَّ ليمتيز عليهم نبيهم، فلا يكون بشرًا مثلهم.

﴿أَوْ يُنَزِّلُ إِلَهُكَ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ تأكيد لذلك الجنوح نحو البحث عن المتبوع الذي يمتيز عليهم، ويتعالى عليهم حتى بمعيشته ومستوى رفاهيته، ولا مانع أن تكون هذه الشروط نوعاً من التعجيز والمحاكة الباطلة، لكن السلوك البشري العام شاهد أيضاً على وجود هذه الظاهرة في الحياة الإنسانية.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ دلالة أن من يتهم الرسول بالسحر أو أنه يتأثر به في رسالته وبعثته ووظيفته، فقد ارتكب إثماً وظلماً مبيناً.

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ﴾ الصفات والتشبيهات الباطلة، فكان هذا سبباً في ضلالهم ﴿فَضْلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لك قصوراً﴾ نعم؛ فالله على كلِّ شيءٍ قدير، لكن مقياس التفاضل بين الناس لا يصحُّ أن يكون بهذا المتاع

الزائل، فكيف بالنبِيِّ الذي شَرَّفَهُ اللهُ بالوحي، واصطفاه بالرسالة، وجعلَه المثلَّ الأعلى والأسوةَ الحسنةَ لعباده، وأيده بالمعجزات الباهرات ١٩

إنها انتكاسة العقل حينما يَعْمَى عن كُلِّ هذا، ثم يبحث في مُمتلكات النبيِّ ومُقتنياته المادية ليجعلها مقياسًا لصدقه أو كذبه! أو ليرى هل هو جديرٌ بالاتباع أو لا

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ إشارة إلى أن سبب تحبُّطهم هذا إنّما هو في تنكُّرهم ليوم الحساب، فغَدَّت الدنيا بالنسبة لهم مَسْرَحًا للهو والعبث، والتنصُّل عن كُلِّ مسؤوليّة.

﴿إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: أول ما يظهرها لها - أي: النار -، وعَبَّرَ بالرؤية كأنّها تحسُّ بهم وتشوِّف لهم؛ لأنّها لم تُخلق إلا لهم.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ التغيُّظ: هممةُ المُعتاظ الغاضب، والزفير: صوت الهواء الخارج من الصدر، وهذه صورةٌ تخلُّعُ القلوبُ بخوفها ورُعبها، فكأنَّ جهنَّمَ - أعادنا الله منها - كائنٌ حيٌّ وقد مُلِئَ صدره بالحنق والغضب.

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِيحًا﴾ والضيقُ لوحده عذابٌ، فكيف إذا كان بين لَهيبها ودخانها! ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مُصَفَّدِينَ، قد قُرِنت أيديهم مع أعناقهم. ﴿ثُبُورًا﴾ هلاكًا.

﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ادعوا - والخطاب للمشرّكين - بالهلاك على أنفسكم كثيرًا. ﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ الجنّةُ الباقية الخالدة.

﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾ مطلوبًا ومأمولًا، ويتطلَّع له المؤمنون كُلُّ حين.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: المشرّكين والذين اتخذوهم آلهة من

دون الله.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يُبْغَى لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ هذا جواب الأنبياء والملائكة

الذين اتخذهم المشرّكون آلهة، يقولون: إننا لم نتخذ من دونك وليًّا ومعبودًا، فكيف ندعو

هؤلاء المشركين لعبادتنا؟

ولا يبعد أيضًا أن يكون هذا جواب الصالحين الذين صوَّروهم المشركون على هيئة الأصنام فعبدوهم من دون الله.

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتُهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَقًّا نَسُوا الذِّكْرَ﴾ بيان لسبب ضلالهم أنهم طال بهم الأمد حتى نسوا كتاب الله المنزل على أنبيائهم، والظاهر أنه من جواب النبيين الذين عُبدوا من دون الله كعيسى وعزير عليهما السلام.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ هالكين.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: إن الأنبياء والملائكة والصالحين الذين اتخذتموهم آلهة ها هم يتبرؤون منكم ومن عبادتكم، ويكذبونكم فيما تدعون.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ لا يقدرُونَ على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ إذ الأنبياء بشر لا يتميزون عن سائر البشر إلا بما فضَّلهم الله به من النبوة وما تستتبعه من شرائط التبليغ ومُتطلبات النَّاسِي، فأكل الطعام ليس منقصة، وكذلك المشي في الأسواق بيعًا وشراءً وإجارةً ونحوها، وهم في هذا يَعْتَرِيهِمْ ما يَعْتَرِي سائر البشر من الغنى والفقر ونحوهما، وبهذا كانوا قدوةً لأحوال الإنسان المختلفة.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ نختبر بعضكم ببعض، وهذه سنة الله العامة في هذا الخلق.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالسَّعْيِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ ٢٦﴾ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ٢٧﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ٢٨﴾ يَتَوَلَّىٰ لَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا ٢٩﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ٣٠﴾ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ٣١﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ٣٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ٣٣﴾ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ٣٥﴾ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ٣٦﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٧﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٣٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ٣٩﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْغْنَهُمْ تَدْمِيمًا ٤٠﴾ وَقَوْمٌ نُوْج لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ٤١﴾ وَاعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٤٢﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ٤٣﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ آلَامَةً وَمَثَلًا ٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفْكَمَ يَكْفُرُونَ بِرُؤْسِهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ٤٥﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَنْخَضُونَكَ إِلَّا هَرُّوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ٤٦﴾ إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ٤٧﴾ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٨﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ٤٩﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ٥٠﴾ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٥١﴾

أسباب الغواية والضلال

بعد أن وضعت فواتح الفرقان الحد الفاصل بين الحق والباطل، جاءت هذه الآيات لتبين الأسباب التي تأخذ ببعض الخلق بعيداً عن طريق الحق، وترميهم في مهاوي الضلال والتهيه:

أولاً: الاستكبار، فهو الذي يُعَمِّي ويُصِمُّ، ويغلق طرق البحث والفهم والحوار ﴿عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

وقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا.

ثانيًا: الصحبة السيئة، التي تُعين على الباطل، وتُرهد بالحق، وتصنع بيئة من المجاملات الباطلة ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَنَاخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾.

ثالثًا: الجهل المتعمد بهجر مصدر النور والمعرفة الموثوقة ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

وفي معرض رده على شبهات المشركين، أكد القرآن أنه الكتاب الذي يثبت المؤمن على طريق الهداية، ويمدّه بأسباب الصبر، ومقاومة الباطل وضغوطاته ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾.

رابعًا: العداوة للنبي ﷺ ثم لكل داع للحق بعده، وهذه العداوة لا شك أنها تُبعد المعادي عن سماع الموعظة والحكمة مهما كانت جليلة ومؤثرة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

خامسًا: الاستهزاء الذي أبعدهم عن التفكير الجاد، والمحاورة الهادئة والهادفة ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾.

سادسًا: اتباع الهوى حتى يصبح كأنه إله يعبدونه من دون الله ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

سابعًا: غلق منافذ المعرفة التي أودعها الله فيهم، وهذا ديدن المتكبرين والمستهزين وعُباد الهوى ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

في ثانيا هذه الأسباب والطرق الموصلة إلى الضلال، جاء ذكر النماذج والأمثلة السابقة من تجارب النبيين ﷺ مع أقوامهم، فذكر بقصة موسى وهارون، وبقصة نوح عليه السلام ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا نُوحًا الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ۝٢٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْغْنَهُمْ تَدْمِيرًا ۝٢٦﴾ وَقَوْمٌ نُّوحٍ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٤٢﴾

ثُمَّ عَرَّجَ عَلَى بَعْضِ الْأَقْوَامِ الْغَابِرَةِ: ﴿وَعَادَا وَثُمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾، مَبِينًا أَيْضًا عَاقِبَةَ هَذِهِ الْأَقْوَامِ الظَّالِمَةِ وَالْمُكَذِّبَةِ بِرِسَالَاتِ اللَّهِ وَدِينِهِ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿١٤٣﴾ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِلَّا كَافِرِينَ﴾ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٤٤﴾.

دقائق التفسير

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ طلب الرؤية بحد ذاته ليس منكرًا، فقد طلبها موسى ﷺ فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لكن هؤلاء يطلبونها ليس شوقًا لمعرفة سبحانه والإيمان به، وإنما استكبارًا وغرورًا مع قدر من السخرية والاستهزاء؛ ولذلك عَقَّبَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

ثم إِنَّ رُؤْيَا اللَّهِ أَوْ نَزُولَ الْمَلَكِ يَنْقُلُ عَالَمَ الْغَيْبِ إِلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ، وَحِينَهَا يَنْتَهِي مَعْنَى الْاِخْتِبَارِ وَالتَّمَايُزِ بَيْنَ الْبَشَرِ فِي الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ. وَالْعَتُوُّ: هُوَ الطَّغْيَانُ وَمُجَاوِزَةُ الْحَدِّ.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَا تَنْفَعُ الْمُشْرِكِينَ هَذِهِ الرُّؤْيَا أَبَدًا ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ بِمَعْنَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يُبَشِّرُونَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِالْجَنَّةِ، بَلْ يَقُولُونَ لَهُمْ: إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَبَدًا.

﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِلَّا كَافِرِينَ﴾ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿ذَلِكَ الْعَمَلُ الَّذِي كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ النَّافِعُ لَهُمْ وَفَقْدَ مَقَاسِيهِمْ الْمَغْلُوطَةِ، وَنَحْوَهُ كُلِّ عَمَلٍ لَا يُقْصَدُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، وَلَوْ كَانَ فِي

ظاهره خيرًا، كالبذل والكرم؛ لأنهم عملوه للدنيا، وقد نالوا مُبتغاهم فيها من سُمعةٍ وجاهٍ، دون تبخيسٍ أو تطفيفٍ.

والهباء: ما لا وزن له ولا قيمة مما تحمله الريح؛ كالغبار، والدخان.

﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ مكان القيلولة والراحة، وفيه صورةٌ للنعيم المقيم الذي ينعم به أهل الجنة.

﴿وَيَوْمَ تَشْقَى السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ صورةٌ من صور يوم القيامة؛ حيث ينزل الملائكة بأمر الله ومعهم ظُلل من السحاب، وفيه ردٌّ على سؤال المشركين السابق بتنزيل الملائكة، كأنه يقول لهم: إن الملائكة ستنزل في الوقت الذي لا ينفعكم ذاك النزول.

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ صورةٌ بالغةٌ في الندم والتحسُّر.

﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ يتمنى لو أنه اتخذ طريقًا يجمعه مع النبي ﷺ وهديه ودعوته.

﴿يَوَيْلَ لَكَ﴾ كلمة تحسُّر وندامة.

﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ لم يُسمِّه؛ لأنَّ لكلَّ ضالٍّ فلانَه الذي أضلَّه وأبعده عن طريق الحقِّ.

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وهم المشركون الذين هجروا القرآن، بمعنى أنهم كفروا به ونأوا عنه، أما المسلم العاصي والتارك لتلاوة القرآن وتدبره والعمل به، فقد يقع في الهجر الجزئي الذي يستحقُّ عليه الإثم، وليس هو المقصود أصالةً بهذه الآية، والله أعلم.

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: لم ينزله الله جملة واحدة، وإنما أنزله مُفرَّقًا بحسب النوازل والمستجدَّات، وحاجة الصفِّ المؤمن في مسيرته ومراحله المختلفة، ولا شكَّ أنَّ هذا أدعى لتثبيتهم على الحقِّ، ومدِّهم بأسباب المنعة والمقاومة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ بشبهة على مثال الشبهات التي يُكرّرها ويُعيدُها أهلُ الباطل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿وَأَحْسَنَ تَقْسِيرًا﴾ أحسن بيانًا.

﴿يُخْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ جزاءً مناسبًا لغرورهم واستكبارهم.

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُوتَ وَزِيرًا﴾ معاونا ومناصرًا.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ عبرة.

﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ قومٌ من الأقوام الكافرة والمكذبة بدعوة الرسل، ولم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة ما يُبين حالهم، فالأولى أخذ العبرة العامة دون الجزم بهويتهم، والله أعلم.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمَثَلُ﴾ لعلمهم يتعظون بأحوال من قبلهم من الأمم الغابرة.

﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا﴾ دمرناهم تدميرًا بسبب ظلمهم وعنادهم وتكذيبهم لأنبيائهم بعد إقامة الحجة عليهم.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا﴾ أي: لقد مرُّوا في طريقهم - والكلام عن مشركي قريش - على القرية التي أمطرها الله بالحجارة، وهي قرية قوم لوط عليه السلام.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ ليعتبروا وينظروا في حالهم، وعاقبة أمرهم.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ بيان لسبب لهوهم وغفلتهم، وعدم اعتبارهم؛ حيث كانوا لا يؤمنون بالآخرة ولا يحسبون حسابها، والنشور هو: البعث والقيامة للحياة الأخرى.

﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ سؤال على معنى الازدراء والاستهزاء.

﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْآلِهَةِ لَاتَعْمِمْ﴾ بل هم أضلُّ سبيلًا ﴿لَأَنَّ الْأَنْعَامَ لَيْسَ لَهَا الْقُدْرَةُ عَلَى تَمْيِيزِ الْحَقِّ عَنِ الْبَاطِلِ، وليست مكلفة بذلك، بخلاف هؤلاء الذين منحهم الله العقل فعطلوه، ومنحهم أسباب المعرفة فأغلقوها.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

﴿الَمْ تَر إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝١٥ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ۝١٧ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝١٨ لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَهُ مَبْنًى وَنُشْفِيَهُ، وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ۝١٩ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآبَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٢٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۝٢١ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَنِّهْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٢٢ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ۝٢٣ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٢٤ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ۝٢٥ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٢٦ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝٢٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ۝٢٨ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ۝٢٩ وَإِنَّا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَاجُ لِمَا نَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝٣٠ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝٣١ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٣٢﴾

دلالت الهدى المبثوثة في هذا الكون

بعد التفصيل الذي قرأناه في المجلس السابق لأسباب الغواية والضلال، شرع القرآن في هذه الآيات بتعداد آلاء الله ونعمائه وآياته المبثوثة في هذا الكون، والتي يتعامل معها الإنسان بشكل يومي حتى أصبحت جزءاً من حياته، وكلُّها شاهدة على وحدانيته سبحانه، وهادية إلى طريق الحق والسعادة الأبدية:

أولاً: يُذَكِّرُ القرآن بحركة الظل التي يعيش معها الإنسان في كلِّ نهار، ظل الأشجار والجبال والبيوت، وظل الإنسان نفسه وهو واقفٌ أو جالسٌ أو ماشٍ، والذي يستجيب لحركة الشمس طولاً وقصرًا.

وهذا التذكير نوعٌ من تدريب العقل على التفكير في كلِّ ما حوله، ومحاولة تحليل الظواهر

وتفسيرها مهما كانت مألوفة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (١٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿.

ثانيًا: واستبعا حركة الظل يُذكر القرآن بتقسيم اليوم إلى ليل ونهار، ولكل وظيفة ودوره في هذه الحياة، فالليل خيمة السكن والراحة، والنهار وقت الانتشار والحركة والعمل ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ تُشُورًا﴾.

ثالثًا: ينتقل القرآن من حركة الظل إلى حركة الرياح وما تحمله من سحب ورزق للعباد ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ (١٨) لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُشْفِيَهُ، مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿.

رابعًا: ثم راح القرآن يلفت أنظارنا إلى عالم البحار وما فيه من خبايا وأسرار، ونعم ودلائل ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

خامسًا: ثم عاد القرآن ليذكر بخلق الإنسان نفسه، إنه مخلوق من ماء، فالماء سر هذه الحياة، يُكوّن البحار والأمطار، ويحيي الأرض بالنبات والأشجار والثمار، وينبت منه الإنسان في نظام موحد ومُناسِقٍ لا يقدر عليه إلا الذي أبدعه وكونه ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

سادسًا: ثم ذكر بأصل الخلق كله، خلق السماوات والأرض وما بينهما ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِمُخْبِرًا﴾.

سابعًا: ثم رفع بنظر الإنسان لينظر في سقف هذا الكون وما فيه من آيات ودلائل باهرات ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ

الَّيْلِ وَالنَّهَارِ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٥٦﴾.

ويلحظ هنا كيف ختم الله هذه الآيات بما بدأ به؛ فذكر مرة أخرى بحركة الليل والنهار وتعاقبهما، وكأنه يُشير إلى هذا النظام الموحد، والنسق الكلي الذي يحكم حركة هذا الكون.

وفي ثانيا هذه الدلائل يؤكد القرآن المعنى الكلي الذي تقود إليه هذه الدلائل ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۚ ﴿٥٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ ﴿٥٧﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۚ ﴿٥٨﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا ۚ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۚ ﴿٦٠﴾ مُنَبِّهًا الْمُؤْمِنِينَ أَيْضًا فِي شَخْصِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ بِوَأَجِبِ الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ وَتَبْلِيغِهِ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ، مَهْمَا كَلَّفَ مِنْ جَهْدٍ وَجِهَادٍ وَتَضَحِيَّاتٍ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَافْتَنَّا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ۚ ﴿٦١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

دقائق التفسير

﴿مَدَّ الظِّلَّ﴾ بسطه بالتدرج تبعًا لحركة الشمس.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ والقبض ضد البسط، وقبض الظل: انحساره بظهور الشمس وعلوها.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَا﴾ يغشاكم ويعمكم بستره.

﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ سكنًا وراحة لكم.

﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ينتشر الناس فيه للحركة والعمل.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ يستبشر بهبوبها الناس؛ لما تحمله من

خير وهدى.

﴿مَاءٌ طَهُورًا﴾ طاهرًا في نفسه مُطَهِّرًا لغيره.

﴿لِنُخْصِيَ بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا﴾ شَبَّهَ القفر بالموت والزرع بالحياة.

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا﴾ أي: ماء السماء فسُقناه إلى بلادٍ مختلفة؛ ليروا آثاره في الحياة، وفي الآية تنبيه أيضًا للهدي النازل من السماء، وما فيه من حياةٍ للقلوب، والآيات التالية تؤكد هذا المعنى.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ لكنَّ الله خَصَّ نبيَّه ﷺ بهذه الدعوة العامة لكافة الخلق؛ تعظيمًا لشأنه ولشأن الرسالة التي يحملها، وليستظم هذا الخلق في شريعة واحدة، وخلف قُدوة واحدة.

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ جَاهِدْهُمْ بالقرآن تذكيرًا وتحذيرًا، وترغيبًا وترهيبًا، حاورْهُمْ بحقائقه، وأقم عليهم الحجة بأدلتها، ولا تألَّ جهدًا في كلِّ ذلك، وهذا الخطاب له ﷺ ولأمته معه ومن بعده في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ خلطهما، وهذا مشاهد بتدفق الأنهار العذبة في البحار المالحة، دون أن تتغير الأنهار ولا البحار، كما سيأتي.

﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ الفرات العذب، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنه شديد العذوبة.

﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ والأجاج المالح، وأفاد هنا التأكيد، بمعنى أنه شديد الملوحة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا، فلا يطغى المالح على العذب فيفسده، ولا العذب على المالح فيذهب به؛ لأن لكلٍّ منهما وظيفة، فالأنهار العذبة وظيفتها: السقي والري، والأنهار المالحة وظيفتها: حفظ الحياة البحرية من التعفن والتغير الضار.

أما تفسير العذب بوجود مياه عذبة وسط البحار المالحة فلا مانع منه، لكن ليس هذا هو المعهود والمعروف بين الناس، ثم إنَّ هذه المياه ليست هي التي تُستعمل في السقي، ولا يتفع منها عامة الناس، ومساق الآيات مساق عظةٍ وامتنان.

وأما إطلاق البحر على النهر العظيم؛ كالنيل في مصر، والرافدين الكبيرين في العراق، فهو أمرٌ شائعٌ ومعروفٌ في لغة العرب، والله أعلم.

﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ جعل من هذه النُطف بشرًا كثيرًا لهم أنساب وسلاسل وقرابات وعلاقات ومصاهرات.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعاديًا لله محاربًا لدينه، ومعاونًا للشيطان في كل ذلك. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فالدعوة لله، وأجرها من الله، وفي هذا تأكيد للنزاهة، ونظافة اليد لكل من يتصدى لمهمة التبليغ والدعوة إلى الله.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ استثناءٌ منقطعٌ، بمعنى: أني لا أطلب منكم أجرًا سوى هدايتكم إلى طريق الله.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ فكل ميت أو مُعرَّضٍ للموت لا يصح التوكل عليه، فالذي لا يحمي نفسه من الموت كيف يحمي غيره! وهذا تنبيهٌ نفيسٌ لخصائص التوحيد الحق، ومجادلةٌ ضمنيةٌ للمشركين الذين يرجون من المخلوق ما لا يملكه ولا يقدر عليه.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي ليست من أيامنا؛ لأن يومنا هو حصيلة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكل كوكب يومه، فكيف باليوم الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلا الله، والمقصود بالإخبار عن تلك الأيام إنما هو التقديرُ على مراحل، كما هي سنة الخلق كله.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواءٌ يليقُ به سبحانه، ومن لوازمه العلوُّ المطلق، والمُلْكُ والسلطان، وكل صفات الكمال الثابتة له سبحانه.

﴿الرَّحْمَنُ فَتَسَلُّ بِهِ خَيْرًا﴾ وليس هناك من خيرٍ بالرحمن وأسمائه وصفاته كالرحمن نفسه - تبارك وتعالى علوًّا كبيرًا -، كأنه يقول: لا تسأل غيري عني، فأنا العليم الذي ليس فوقني عليم، وأنا الخير الذي ليس بعدي خير.

﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ هذا قولُ المشركين الذين يُنكرون هذا الاسمَ العظيمَ لله، وكأنَّهم يتهمون النبي ﷺ باختلاقه وإضافته إلى الله، بدلالة قولهم: ﴿أَنسَجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

﴿بُرُوجًا﴾ المنازل والطرق التي تدور فيها الأفلاك.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يعني: الشمس، وفيه إشارة أنَّ الشمسَ ضوءها ذاتي كالسراج، بخلاف القمر.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يخلف أحدهما الآخر، في دورة فلكية يومية، كما هو مُشاهدٌ ومحسوسٌ.

﴿لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فهذه كلها دلائلٌ تستلزم التذكُّر والتفكُّر، ونعم تستدعي الاعتراف والشكر.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِبَ وَسَلَامًا ۝٧٥ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾

عباد الرحمن

في ختام هذه السورة المباركة وبسياقٍ مُتَّصِلٍ يُقَدِّمُ الْقُرْآنُ صُورَةً لِلْمُجْتَمَعِ الْفَاضِلِ الَّذِي اخْتَارَ الْحَقُّ وَتَمَسَّكَ بِهِ، ذَلِكَ الْمَجْتَمَعُ الْفَرِيدُ الْمَوْصُولُ بِاللَّهِ، وَالَّذِي ظَهَرَتْ عَلَيْهِ رَغْمَ بُشْرِيَّتِهِ الضَّاعِطَةُ كُلُّ الصِّفَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِتِلْكَ الْحَقَائِقِ الْكُبْرَى الَّتِي مَيَّزَتْ طَرِيقَ الْحَقِّ عَنِ طَرِيقِ الْبَاطِلِ، وَقَدْ أَضَافَهُمُ اللَّهُ إِلَى نَفْسِهِ فَسَمَّاهُمْ عِبَادَ الرَّحْمَنِ، تَوَدُّدًا وَتَقَرُّبًا، وَهُوَ الْوَدُودُ وَالْقَرِيبُ سُبْحَانَهُ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ هِيَ:

أولاً: اللين والطمأنينة والسكينة مع المجتمع الذي يعيشون فيه، والأرض التي يمشون عليها ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

ثانياً: العبادة الخالصة لله ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ إيماناً به وتودُّداً إليه وشكراً له، وقد أكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

ثالثًا: الخوف والمراقبة الدائمة، والتحسُّب ليوم الحساب ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (١٥) ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

رابعًا: الإنفاق المعتدل الذي ينفع الآخرين، ولا يضرُّ بالمنفقين ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

خامسًا: تجنب الدم الحرام وإزهاق الأرواح بلا وجه حقُّ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

سادسًا: الابتعاد عن الزنا ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

سابعًا: الابتعاد عن شهادة الزور وكلِّ قولٍ مُحَرَّمٍ أو لغوٍ لا فائدة منه ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

ثامنًا: التفكُّر والتدبُّر ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

تاسعًا: تحمُّل مسؤولية الأهل والأولاد والعناية بهم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

عاشرًا: الهمة العالية، والطموح المشروع في كلِّ أبواب الخير ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

حادي عشر: الاستغفار والتوبة النصوح بعد كلِّ هفوةٍ أو زلةٍ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٧٠) ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

إنَّها منظومةٌ من القيم الحاكمة والموجهة، والمعالم الهادية على طريق الخير والسعادة الدائمة؛ ولذلك استحقَّ هؤلاء الأخيار ذلك الجزاء الودود ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (٧٥) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ على خلاف أولئك المكذِّبين الضالِّين ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ

يَكُونُ لِرَآئِهَا، في مُقَارَنَةِ وَاضِحَةٍ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَالتِّي هِيَ مَحَوْرُ السُّورَةِ كُلِّهَا وَمَوْضُوعُهَا
الْأَسَاسُ.

دقائق التفسير

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ فِيهِ مُقَارَنَةٌ بِطَرِيقِ الْإِشَارَةِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّحْمَنِ، وَبَيْنَ أَوْلَئِكَ
الْبَعِيدِينَ الَّذِينَ يَتَسَاءَلُونَ بِاسْتِنكَارٍ وَاسْتِكْبَارٍ: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ؟﴾

﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ كَنَايَةٌ عَنِ التَّوَاضُّعِ وَالطَّمَأْنِينَةِ وَلِينِ الْجَانِبِ.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ أَي: قَوْلًا يُجَنِّبُهُمُ الْخُصُومَةَ وَالْمِرَاءَ الْبَاطِلَ، وَمِنْهُ
التَّغَافُلُ وَالْعَفْوُ وَغَضُّ الطَّرْفِ، أَمَّا لَفْظَةُ: ﴿سَلَامًا﴾ هَذِهِ فَقَدْ يَكُونُ قَوْلُهَا مَدْعَاةً لِلْخُصُومَةِ
خَاصَّةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ يَحْمِلُ اتِّهَامًا مَبْطُنًا بِالْجَهْلِ بِاسْتِذْكَارِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَتَكُونُ النَتِيجَةُ
بِعَكْسِ مَا أَرَادَتْهُ الْآيَةُ، وَهَذِهِ مَلْحُوظَةٌ دَقِيقَةٌ يَنْبَغِي التَّنَبُّهُ لَهَا فِي الْعِلَاقَاتِ وَالْمَجَادَلَاتِ.

﴿كَانَ غَرَامًا﴾ ثَقِيلًا وَمَدِيدًا لَا فِكَالَ مِنْهُ.

﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾ بِزِيَادَةِ الْإِنْفَاقِ فَوْقَ مَا يَنْبَغِي.

﴿وَلَمْ يَقْرَأُوا﴾ وَلَمْ يَبْخُلُوا.

﴿قَوَامًا﴾ عَدْلًا وَوَسْطًا بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالْبَخْلِ.

﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ عَذَابًا عَلَى مَا ارْتَكَبَ مِنَ الْإِثْمِ، أَطْلُقَ الْمَلْزُومَ - وَهُوَ الْإِثْمُ -، وَأَرَادَ لَا زِمَةَ

وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ - وَهُوَ الْعَذَابُ -، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يُضَعَّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلَدُ
فِيهِ مُهَكَمًا﴾.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ التَّوْبَةَ لَا يَكْفِي فِيهَا النَّدَمُ وَالْإِنْقِطَاعُ

عَنِ الذَّنْبِ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ نَابِعًا مِنَ الْإِيمَانِ، وَمَتَّبِعًا بِالتَّصْحِيحِ وَالْعَمَلِ
الصَّالِحِ، وَأَدَاءِ الْحَقُوقِ لِأَهْلِهَا.

﴿فَإِنَّهُ يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ اكْتَفَى بِالْمُوصُوفِ عَنْ صِفَتِهِ، وَالْمَقْصُودُ: الْمَتَابُ الصَّادِقُ

المقبول عند الله.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ بالسنتهم ولا بمشاركتهم.

﴿مَرْوًا كِرَامًا﴾ مُعْرِضِينَ عَنِ اللُّغُو وَكُلِّ كَلَامٍ بَاطِلٍ، فَهَم أَرْفَع مِنْ ذَلِكَ وَأَسْمَى.

﴿لَمْ يَخْرُؤْ عَلَيْهَا صُغًا وَعُغْيَانًا﴾ أي: لَا يَتَعَامَلُونَ مَعَ آيَاتِ اللَّهِ كَمَا يَتَعَامَلُ الْمُشْرِكُونَ الْجَاهِدُونَ؛ حَيْثُ يُعْمُونَ عَنْهَا عِيُونُهُمْ، وَيُصْمُونَ عَنْهَا آذَانُهُمْ، وَيَخْرُونَ عَنْهَا سَمَاعُهَا كَأَنَّهُمْ يَتَحَاشُونَ أَنْ يَرَوْا قَارِئَهَا؛ لَشِدَّةِ بُغْضِهِمْ لَهُ وَلَمَّا مَعَهُ مِنَ الذِّكْرِ.

وفيه: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْنَسُ بِالْقُرْآنِ، وَيَفْتَحُ لَهُ قَلْبُهُ وَعَيْنُهُ وَأُذُنُهُ بِإِصْغَاءٍ وَتَدْبِيرٍ هَادِيَيْنِ نَافِعَيْنِ.

﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ بَأَنْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ صَالِحِينَ يَهْنَأُ بِهِمُ الْقَلْبُ، وَتُسَرُّ بِهِمُ الْعَيْنُ.

﴿وَأَجْعَلْنَا الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قَدْوَةً حَسَنَةً، وَمَثَالًا يُحْتَذَى لِمَنْ أَرَادَ التَّقْوَى وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ جَمْعُهَا الْغُرَفَاتُ، وَهِيَ أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ.

﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ دَلَالَةٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَالْخُلَالَ الْحَمِيدَاتِ تَتَطَلَّبُ قَدْرًا كَبِيرًا مِنَ الصَّبْرِ

وَمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾ أي: لَا يُبَالِي بِكُمْ، وَلَا يَكْتَرِثُ لِحَالِكُمْ، وَأَصْلُ يَعْبَأُ: يَتَحَمَّلُ

الْعِبَاءَ.

﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: لَوْلَا دَعْوَتُكُمْ إِلَى الْحَقِّ؛ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيََاءَهُ وَرَسَلَهُ لِهَذِهِ الْغَايَةِ،

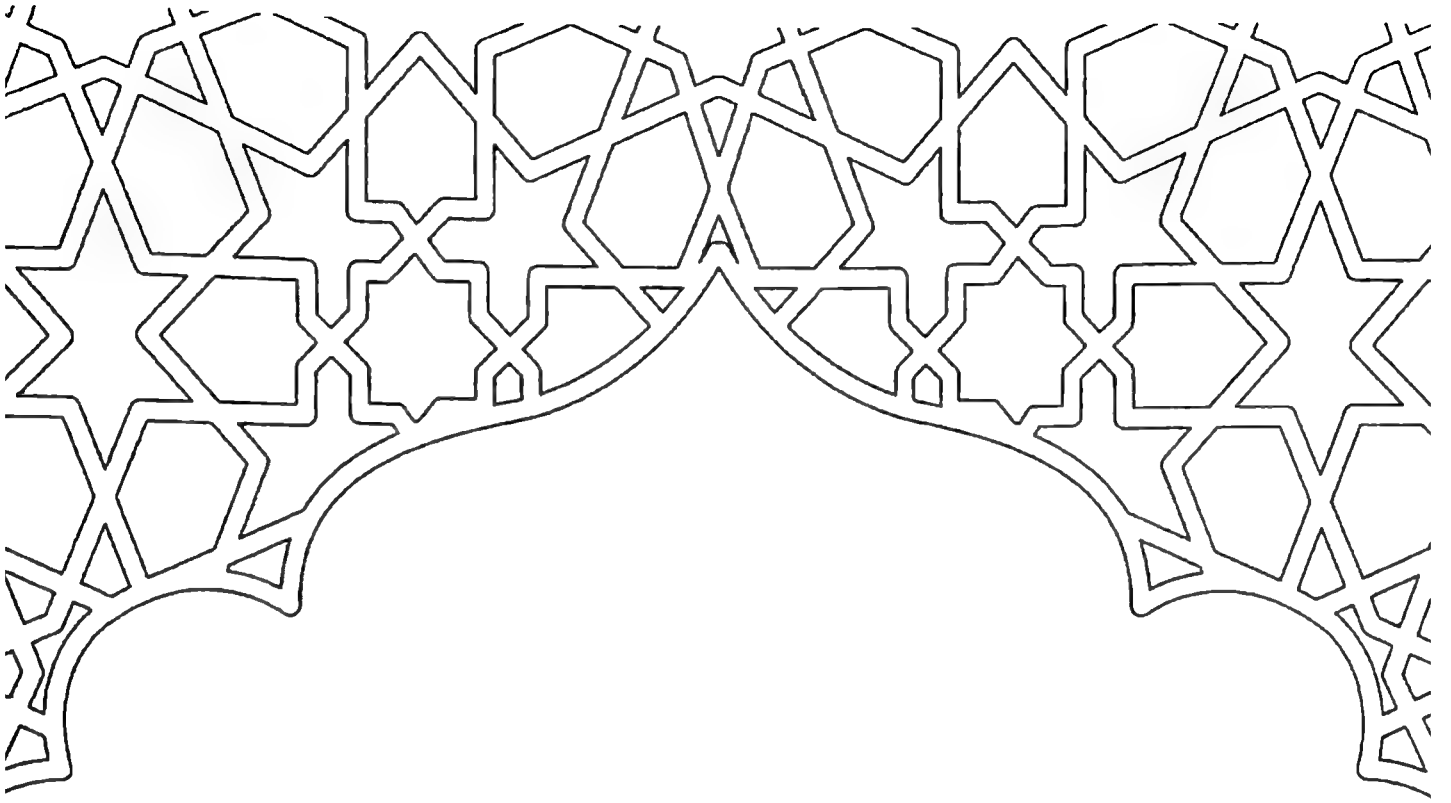
﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: لَوْلَا دَعْوَتُكُمْ إِلَى الْحَقِّ؛ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيََاءَهُ وَرَسَلَهُ لِهَذِهِ الْغَايَةِ،

فَهَذِهِ وَظِيفَتُهُمْ.

أَمَّا عِبَاءُ الْإِسْتِجَابَةِ فَيَتَحَمَّلُ مَسْئُولِيَّتَهُ الْمَدْعُوونَ، فَهَمُ الْمُتَحَنُّونَ وَالْمُخْتَبَرُونَ، فَمَنْ آمَنَ

كَانَتْ لَهُ الْغُرَفَاتُ، وَمَنْ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ كَانَ الْعَذَابُ ﴿لِزَامًا﴾ لَهُ.

اللَّهُمَّ فَاجْعَلْنَا فِي زُمَرَةِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ، وَخَلِّقْنَا بِأَخْلَاقِهِمْ، وَجَمِّلْنَا بِصِفَاتِهِمْ.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

المجلس الستون بعد المائة: مقدمة في دعوة نبينا ﷺ

المجلس الحادي والستون بعد المائة: موسى وهارون عليهما السلام

المجلس الثاني والستون بعد المائة: إبراهيم ونوح عليهما السلام

المجلس الثالث والستون بعد المائة: هود وصالح عليهما السلام

المجلس الرابع والستون بعد المائة: لوط وشعيب عليهما السلام

المجلس الخامس والستون بعد المائة: دعوة نبينا محمد ﷺ

﴿طَسَّرَ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٦ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَأْنَا بِهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٨ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩﴾

مقدمة في دعوة نبينا ﷺ

تستهلُّ سورة الشعراء بومضاتٍ سريعةٍ عن تلك الدعوة المباركة التي بدأ بها نبينا الكريم ﷺ في مكة المكرمة، وما كان يعمر قلبه الشريف من حرصٍ على الهداية ومحبة الخير والصلاح لكل الناس، ثم تحتتم السورة بهذه الدعوة أيضًا، ولكن بشيءٍ من التفصيل والتوسُّع، مع توجيهاتٍ دعويةٍ وتربويةٍ له ﷺ، وتلك الثلثة المؤمنة التي اختارها الله لنبيه في تلك المرحلة التأسيسية التي شكَّلت هويَّة الأمة، وتأريخها، وجغرافيتها.

وبين الاستهلال والختام يعرِّض القرآن لسلسلةٍ من التجارب الدعوية التي قادها النبيون السابقون على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، في تأكيدٍ مُستمرٍّ أنَّ هذه الدعوات إنما هي دعوةٌ واحدةٌ، وأنَّ هذه الرسائل إنما هي رسالةٌ واحدةٌ.

أما الومضاتُ السريعة التي جاءت في فواتح هذه السورة فهي كالآتي:

أولاً: تأكيد أن هذه الدعوة تستندُ إلى مصدرٍ موثوقٍ وواضحٍ لا لبس فيه ولا غُموض

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

ثانياً: أنَّ النبي الذي يحملُ هذه الدعوة قد بلغَ في الحرصِ والجدِّ مبلغاً لا يُدانيه فيه أحدٌ، حتى كادَ أن يُهلكَ نفسه من الحزن حينما يرى قومه ينادون بأنفسهم عن هذا الخير الذي يحمله

إليهم ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

ثالثًا: تأكيد أن الله قادرٌ على أن يُنزل من الآيات ما يُجبرُ تلك الرؤوس المعاندة على الخضوع لها ﴿إِنْ شَاءَ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ لكن هذا لا يُناسب فلسفة الاختبار والابتلاء التي أقام الله عليها هذا الخلق، والتي تستلزم الحرية في اتخاذ القرار، وعدم الجبر أو الإكراه.

رابعًا: أن المشركين قد أغلقوا منافذ المعرفة فيهم عن كل آيات الله التي تنزل تباعًا لإرشادهم وتعليمهم وتوجيههم ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾. خامسًا: أنهم قد أعموا أبصارهم عن دلائل الحق المبثوثة في هذا الكون، والتي تشهد كلها بوحدانية الخالق تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾.

سادسًا: بيان عاقبة التكذيب والعناد لعلهم يتذكرون ويرجعون ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

سابعًا: أن الله الذي هو ربُّ هذه الدعوة ومصدرها وغايتها الكبرى إنما هو العزيز الرحيم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقد تكرر هذا الوصف وبهذا اللفظ تسع مرّات في هذه السورة، في إشارة واضحة أن هذه الدعوة كلّها وفي كلّ مراحلها تجمع بين هاتين الصفتين المتلازمتين: العزّة والرحمة؛ العزّة بالحق، والرحمة بالخلق، وأنّ الداعية أيضًا المرصّل بالله، والمتخلّق بموجبات أسمائه تعالى هو عزيز لا يُذلُّ نفسه لغير خالقه، كما أنه رحيمٌ يسعى لنشر الخير والرحمة بين الناس مهما اختلف معهم أو اختلفوا معه.

دقائق التفسير

﴿لمسة﴾ تقدّم القول في الحروف المقطّعة في سورة البقرة، وفيه ما يُغني عن إن شاء الله.

﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي: هذه، وإنّما أشار لها بتلك؛ تنبيهًا لرفعتها وعلوّ شأنها، كما أشار

للقرآن كله بذلك الكتاب: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

﴿الْمُتَّقِينَ﴾ البين الواضح بنفسه، والمبين لطريق الحق عن طرق الباطل.

﴿لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مهلكها غمًا وحزنًا عليهم؛ لجحودهم وعنادهم وكفرهم بالله، و(لعل) تُفيدُ هنا الإشفاق؛ لأنها اقترنت بما يُخشى منه، فإذا اقترنت بما هو مطلوب ومرغوب أفادت الرجاء، وأما البخع فأصله الذبح، ثم استُعير بمعنى الهلاك، والله أعلم.

وفي الآية تسليّة لرسول الله ﷺ لما كان يُصيبه من الهم والضيق بسبب حرصه على هداية قومه وإنقاذهم مما هم فيه، وهم يناون عنه ويُجاربونه ويحاربون رسالته، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية وهو يحمل نور الله إلى عباد الله.

﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ بمعنى أن الله قادرٌ على أن يقهرهم على الإيمان قهرًا بأن يُنزل عليهم مُعجزة من السماء تُخوِّفهم بقرب هلاكهم إن لم يؤمنوا، لكن هذا يُخالف سنة الله في الاختبار والاختيار؛ إذ الإيمان الذي يستحقُّ صاحبه الثواب إنما هو الإيمان الناتج عن صدق التوجُّه، وحسن الاختيار، لا الإيمان الحاصل بالاضطرار والإجبار.

﴿وَمَا يَأْنِيهِمْ مِّن ذِكْرِ مَن أَرْحَمَنَ مُّحَدِّثٍ﴾ أي: جديد بالنسبة لنزوله عليهم واتصالهم به، لا بوصف القرآن نفسه، فالقرآن كلام الله، وكلامه صفة له سبحانه لا يتغيّر ولا يتجدّد.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ، بمعنى أن عذاب الآخرة الذي يكذبون به سيأتيهم وليس مصروفًا عنهم.

﴿أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من النباتات المختلفة والمتشابهة، في دورة حياتية تُقرب للناظر صورة الموت والحياة الثانية للإنسان، وذلك قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وهي دعوة لأولئك المكذّبين بالآخرة للتأمل والتدبّر قبل أن يلحقهم العذاب.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ العزيز الذي له العزّة والقوّة والمشيئة المطلقة، والرحيم
بخلقه الرحمة الشاملة التي تسبق غضبه، وقد تجلّت هاتان الصفتان الإلهيتان في كون الله
المنظور، وفي كتابه المسطور، تبارك ربُّنا وتعالى.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

من الآية

١٠ - ٦٨

﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْغَلَامُ الْغَلِيلِيُّ ۖ قَوْمُ فِرْعَوْنَ لَا يَسْمَعُونَ ۚ﴾ (١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (٣) وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِأُخْتَيْكُمَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ۖ فَاتَّبَعَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٥) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (٦) قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (٧) وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكُفًا فَفَعَلْتَ أَلْتِي فَعَلْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٨) قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِينَ (٩) فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٠) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّاهُ عَلَىٰ أَنْ عِبَدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ (١١) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٢) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (١٣) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (١٤) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٥) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (١٦) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) قَالَ لِمَنْ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ (١٨) قَالَ أُولُو حِشَّتِكَ بِشَىْءٍ مُبِينٍ (١٩) قَالَ قَاتِلْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٠) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٢١) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ (٢٢) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ (٢٣) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٢٤) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبَعٌ فِي الدَّائِنِ خَيْرِينَ (٢٥) يَا تُوتَك بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٢٦) فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٢٧) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٢٨) لَعَلَّنَا نَبْعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٢٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٣٠) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرَبِينَ (٣١) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٣٢) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٣٣) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٣٤) فَأَلْقَىٰ السَّحَرَةُ سِهْنَهُمْ (٣٥) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٣٧) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْعَاكُمْ إِنَّهُ لَكِبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ (٣٨) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٣٩) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٠) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ۖ﴾ (٤١) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَيْرِينَ (٤٢) إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٤٣) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٤٤) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَدِرُونَ (٤٥) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٦) وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ (٤٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (٤٨) فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٤٩) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُورُونَ (٥٠) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٥١) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٥٢) وَأَزْلَفْنَا نَمُ الْآخِرِينَ (٥٣) وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٥٤) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٥٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٦) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥٧) ﴿

في هذه الآيات عرضٌ لسيرة النبيين الأخوين الكريمين موسى وهارون ﷺ وما واجهاه في حياتهما الدعوية من سطوة فرعون ومكره وسحره، وكيف أنجاهما الله وقومهما بعد هلاك فرعون وجنده، ويمكن تلخيص هذه السيرة في النقاط الآتية:

أولاً: أمر الله موسى ﷺ بالتوجه إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى تقوى الله والخروج من حالة الكفر والطغيان التي يعيشونها، ولكن موسى بطبعه البشري شعر بالخوف من فرعون؛ لما يعلمه عنه من صلفٍ وجبروت، فخشي أن يضيق صدره ويتلعثم لسانه، فلا ينجح في مهمته، خاصةً أنه كان قد قتل رجلاً من قوم فرعون بعد أن استغاثه الذي من شيعته، فهرب منهم خائفاً يترقب، فكيف يرجع إليهم اليوم ناصحاً ومذكراً ومُحذراً؟

لكل ذلك وقف موسى أمام ربه العليم الحكيم، يعرض ضعفه وخوالج نفسه، ويطلب من الله المدد، وأن يُرسل معه أخاه هارون ﷺ، فاستجاب الله سُؤله، وطمأنه بالمعية الربانية والعناية الإلهية ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَنْقُورُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ١٣ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَيِّتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٥ وَأَمْرُهُمَا أَنْ يَطْلُبَا مِنْ فِرْعَوْنَ السَّمَاخَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْخُرُوجِ مَعَهُمَا بَعْدَ أَنْ سَامَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴿فَأْتِيََا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ﴾.

ثانياً: ردَّ فرعون على موسى بعد أن بلغه رسالة ربه مُتمناً عليه برعايته له في طفولته، ومذكراً له بقتله للرجل الفرعوني ﴿قَالَ أَلَمْ تُرْيِكَ فِينَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِنَّينَ ١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ﴾.

ثالثاً: اعترف موسى بفعلة واعتذر عنها بأنها كانت قبل أن يصطفيه الله بحكمته ورسالته: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ٢٠﴾ فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي

مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ رَدَّ عَلَى مِنْتِهِ فِرْعَوْنَ بِأَنَّهَا لَا تُسَوِّغُ الظَّلَمَ الَّذِي أَوْقَعَهُ فِرْعَوْنُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى جَعَلَهُمْ عِبِيدًا لَهُ ﴿١٠١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٢﴾.

رابعاً: انتقل فرعون بالحوار إلى الموضوع الأخطر والأهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فأجابه موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾، فالتفت فرعون إلى حاشيته مُسْتَنَكِرًا ومتهكِّماً بموسى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلُهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾، فأكد موسى جوابه الأول بثقة ورباطة جأش، وبما يصدد عقيدة فرعون ودعواه الكاذبة الباطلة: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

هنا حاول فرعون حرف مجرى الحوار بشتمه لموسى ﴿قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، لكن موسى لم يستجب لهذا الاستفزاز، وحافظ على الحوار في طريقه الصحيح، كأنه لم يسمع تلك الشتيمة: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

هنا لجأ فرعون إلى التهديد ليحسم الأمر بقوة السلطة لا بقوة الحجّة، كعادة الفراعنة في كل زمان ومكان ﴿قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، أمّا موسى ﷺ فقد لجأ إلى ما عنده من المعجزات والآيات الباهرات التي وعده الله بها: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾.

فلما رأى فرعون هذا الذي فوق علمه وفوق طاقته، والذي ينزع عنه رداء ألوهيته وربوبيته لجأ إلى اتِّهام موسى بالسحر: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، وهنا جاء دور الحاشية والأعوان ليثبتوا ولاءهم لفرعون، وليقتربوا لمواجهة السحر بالسحر: ﴿قَالُوا أَزِجُّهُ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ هكذا، فربُّهم المزعوم لا يقدر على مواجهة

موسى إلا بحشدٍ من السحر والسحرة!

خامسًا: جُمع السحرة من كلِّ قرية ومدينة، وحضروا أمام فرعون، هو يطمع في نصرتهم، وهم يطمعون في أجره وجائزته، وقد اجتمع الناس أيضًا لأغراضٍ شتى، لكن الحدث بعد ذاته يستهوي الجماهير، فكيف إذا كان هناك فرعون وحاشيته وسحرته ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَآئِحًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّهُ الطَّغْيَانُ فِي مُوَاجَهَةِ الْحَقِّ، والسحر في مواجهة النبوة ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ لقد بطل السحر، واكتشف السحرة عمق الضلال الذي كانوا فيه، فخرُّوا ساجدين لله وخاضعين لنور الحق الذي يُبشِّرُ به موسى ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ (٤٦) قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

سادسًا: هنا انتقل المشهد كله إلى مواجهةٍ أخرى؛ مواجهة بين فرعون وبين سحرته الذين جمعهم لنصرته ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَانَ أَيَّدِيكُمْ وَازْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا أَصْلَابِنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ إِنَّهُ الطَّغْيَانُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ حَدٌّ، لكن حلاوة الإيمان في قلوب هؤلاء السحرة بعد أن ذاقوها منذ لحظات كانت أقوى من فرعون وتهديداته ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

سابعًا: لم يُبشِّرِ القرآن إلى موقف فرعون من موسى نفسه بعد هذه المواجهة الصاخبة التي أربكت فرعون، وأدلت كبرياءه.

والظاهر أن فرعون اكتفى بمعاينة السحرة ولم يجرؤ على التعرُّض لموسى بعد أن رأى منه، ما رأى، لكنه استدرج فيما بعد لمواجهة أودت به وبمن معه؛ حيث أمر الله موسى بأن يقود

بنفسه عملية الخروج الكبرى؛ خروج بني إسرائيل من أرض مصر.

فلما علم فرعون بذلك جند جنده، وجيش جيشه وتبعهم، فأغرقه الله وأنجى موسى

وهارون ومن كان معهما من بني إسرائيل ﴿٥٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٣﴾

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ

حَدِيثُونَ ﴿٥٧﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٦٠﴾

فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَذْكُونٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي

سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾

وَأَرْزَلْنَاهُ ثَمَ الْآخِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾

دقائق التفسير

﴿إِنِ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فيه أن الحق هو الذي يأتي على الباطل ليغيره، فإن قصر أهل الحق

في هذا دهمهم الباطل وأذلهم.

﴿وَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ شرطان في الداعية الناجح: سعة الصدر، وطلاقة

اللسان؛ فإن ضيق الصدر يغلب عليه الغضب، وانسداد الأفق، ومُغْلِقُ اللسان ينقصه

البيان، فيغلبه خصمه ولو كان الحق معه.

﴿قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا شَايِنَتَانِ﴾ إنا معكم مُسْتَعِينُونَ ﴿٦٤﴾ فيه ثلاثة تطمينات؛ (كلا) المتضمنة هنا نفي

الخوف الذي أبداه موسى من ضيق الصدر، وانغلاق اللسان، ثم من بطش فرعون وقومه،

وتأييدهما بالآيات والمعجزات، والمعينة الإلهية المصاحبة لهما ﷺ.

﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أفرد الوصف لهما بإشارة إلى أن رسالتهما واحدة.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ للعودة بهم من حيث جاء آبائهم؛ يعقوب وأولاده ﷺ.

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ﴾ بقتل المصري الذي كان من قوم فرعون.

﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ لأن تلك الفعلة كانت قبل النبوة، وفيه أن الداعية ينبغي أن يعترف بخطئه مهما كان، وألا ينشغل بالدفاع عن نفسه كثيرًا، فيتحول الحوار من مسار الدعوة والإصلاح إلى حالة من المباحكات الشخصية، مع أن موسى ﷺ كان قادرًا على تسويق فعله بأنه كان دفاعًا عن المستضعفين والمظلومين، لكن هذا يحرف الحوار بعيدًا عن مساره وغايته.

﴿وَبَلَّغَ نِعْمَةً تَنْهَاهُ عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كأنه يقول له: كيف تُمْنُ عليَّ بسنوات التربية تلك، وأنت تُعَذِّبُ قومي وتتخذهم عبيدًا؟!!

﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ على سبيل التهكُّم والاستخفاف؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ويلحظ هنا أن موسى ﷺ كان يمضي في بيان الحق الذي معه ولا يلتفت لهذا التهكُّم وهذا السباب، وكأنه لم يسمعه.

﴿وَرَزَقَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أخرج يده من جيبه فإذا بها بيضاء من غير سوء.

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ تهمة باطلة؛ لأن موسى كان يطلب الخروج بقومه من أرض مصر كلها.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾ أي: أخره ريثما يجتمع السحرة.

﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ المدن والقرى والنواحي التي يعيش فيها السحرة.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْتِجُكَ بِكُفَّاتٍ﴾ إنهم لا يشترطون على فرعون، فهم دون ذلك، لكنه إظهارًا لتمكُّنهم، ورغبة بإظهار طابع من الاحتفال على هذه المباراة.

﴿تَأْتِفُ مَا يَأْكُفُونَ﴾ تبتلع ما صنعوه من الخداع والكذب، وفيه أن السحر لم تكن له

حقيقة، ولم تتغير به الأشياء، يؤكد هذا قوله تعالى في موضع آخر: ﴿يُخِيلُ إِلَهُهُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا

نَارٌ﴾ [المه: ٦٦]، وقوله: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يستنكر عليهم الإيمان بالآيات التي رأوها مع موسى قبل أن يأخذوا الإذن منه، وهذا دأبُ الفراعنة في كلِّ زمانٍ ومكان، يستعبدون الناس حتى في أفكارهم ومعتقداتهم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ تهديدٌ بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى من كل ساحر آمن بموسى وهارون.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ لا ضير أي: لا ضرر، والمقصود أنهم لا يخشون من هذا التهديد؛ لأنه ضررٌ مؤقتٌ وزائلٌ في مقابل نعيمٍ دائمٍ ينتظرهم بعد موتهم.

﴿أَنْ أَسْرِ عِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ أي: امشِ بهم في الليل؛ فإن فرعون وجنده سيتبعونكم، والمقصود أن يخرج موسى ببني إسرائيل ليلاً حتى يصلوا البحر قبل أن يلحق بهم فرعون.

﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ الشَّرْذِمَةُ: المجموعة القليلة من الناس، وقليلون تأكيد لمعنى القِلَّة.

﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَاطٌ﴾ أي: قد أغضبونا بخروجهم وأتباعهم لموسى وأخيه من دون إذن منا.

﴿وَأِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ يعني: أنه وملاؤه وجنده في حالةٍ من اليقظة والحذر، كأنه يُطمئن قومه.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي: تعقبوهم متوجهين جهة الشرق، ولا يبعد أيضاً أنه قصد الوقت، وهو وقت الشروق، بمعنى أن بني إسرائيل ساروا ليلاً، فخرج فرعون ورائهم مع شروق الشمس.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ﴾ أي: أخرجنا فرعون وجنده، من ثماكلهم وسلطانهم، وأموالهم وبساتينهم.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي: أورثنا بني إسرائيل نعيماً وملكاً بعد خروجهم، ولا

يمكن أن يكون هذا عين ما كان تحت فرعون وقومه؛ لأنَّ بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد خروجهم، فيكون الضمير في ﴿وَأَوْثَرْتَهَا﴾ يعود إلى جنس تلك النعم لا إلى أعيانها، إلا إذا كان المقصود به المال الذي كان مع فرعون وجيشه، والذي ربما سلَّبه بنو إسرائيل منهم بعد هلاكهم، وذلك قوله تعالى: ﴿حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، فيكون من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ﴾ جمع موسى ﷺ، وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ (١١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ استحضر موسى في هذا

الموقف العصيب - الذي ارتجفت فيه قلوب أصحابه - معية الله ووعدته الأكيد له.

وهذا الوعد ليس سنة ثابتة في كل صراع، كما يُردّد بعض الوُعَّاظ، وبعض القيادات الإسلامية المعاصرة؛ فموازن القوى حاكمة، وسُنن الله في الكون لا تتخلّف، وخوارق العادات ليست أصلاً في هذه الحياة، لكننا نرجو الله وندعوه، ونعدُّ العُدَّة الكافية، ونتوكّل على الله دون أن نتألّى عليه ﷺ، والله أن يبتلي عباده بالنصر أو الهزيمة وفق حكمته تعالى، وإرادته المطلقة التي لا تخضع لرغباتنا وتصوّراتنا، والله أعلم.

﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي: انحسر ماء البحر إلى الجانبين، فكان الماء في

كلّ جانب مثل الجبل العظيم، وهذه معجزة لموسى ﷺ لا يُقاس عليها، والله يفعل ما يريد.

﴿وَأَزَلْنَا ثُمَّ اتَّخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ مَتَاعًا﴾ أي: استدرجنا فرعون وجنده، فدخلوا خلف بني إسرائيل فيما بين

الطودين، ومعنى أزلنا أي: قرّبناهم من ذلك المكان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: هذا الذي حصل لفرعون فيه العبرة

الكافية لمن يبحث عن الحق، لكن الناس - ومنهم أهل مكة - لا يتعظّون ولا يعتبرون، وقد

تكرّرت هذه الآية بعد كل قصّة من القصص الواردة في هذه السورة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ﴾ فبعزّته أغرق فرعون وجنده، وبرحمته أنجى موسى وجمعه.

ابراهيم ونوح عليهما السلام

في هذه الآيات يعرض القرآن مواقف محدّدة من دعوة النبيّين الكريمين: سيدنا إبراهيم، وسيدنا نوح عليهما السلام، وربما بدأ بقصة إبراهيم؛ لأنّها الأقرب إلى قصة موسى وهارون التي تقدّمت معنا في المجلس السابق، مع التنبّه إلى أنّ القرآن لا يعتمد التسلسل التاريخي في سرد النصوص والوقائع، بل يعتمد النسق المنهجي العلمي، وبما يُعزّز المعاني التي يهدف القرآن إلى تأكيدها وتجلّيها، فلنتدبّر من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام هذه المواقف الدعويّة:

أولاً: بدأ إبراهيم ﷺ بطرح أسئلته العقلية التي تمسُّ أصل المعتقدات الوثنية التي كانت متغلغلة في مجتمعه آنذاك ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ٧١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَكْفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾. إنه يسألهم عن هذه الأشياء التي يعبدونها، وما إذا كانت تسمع دعاءهم إذ يدعونها، أو أنها قادرة على أن تنفعهم أو تضرهم، فالإله الذي لا يقدر على هذه الأشياء ليس جديرًا بالعبادة.

ثانيًا: لم تكن لدى أبيه وقومه أجوبة على تساؤلاته تلك سوى قولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ إنه التقليد الأعمى والأصم، والتمسك بالموروث ولو كان عن غير بينة ولا تفكير، وهي عادة من عادات البشر في كل جيل، وهي سبب من أسباب جهودهم، وضلال من ضلَّ منهم.

ثالثًا: لما سمع إبراهيم جوابهم هذا بادر بإنكاره وإعلان البراءة من هذه الآلهة الجامدة التي لا ترى، ولا تسمع، ولا تضر، ولا تنفع، مُعلنًا في الوقت ذاته تمسكه بعبادة الله الواحد الأحد خالق الخلق، ورازقهم، ومحييهم، ومميتهم، غافر الذنب، وقابل التوب ﷻ: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

رابعًا: لجأ إبراهيم ﷺ إلى ربه يدعو ويتضرع إليه، ويسأله الحكمة والصلاح وقول الصدق الذي يخلد ذكره الحسن، وسلامة القلب، ثم الجنة، ولم ينس إبراهيم في دعائه هذا أن يدعو لأبيه بالمغفرة: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٢﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٤﴾ وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٦﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٧﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

خامسًا: يُذَكِّرُ القرآن في ختام هذه القصة بذلك اليوم الذي ينتظر الخلائق أجمعين، ليروا أعمالهم وما قدموه لأنفسهم في هذه الدار، مُحذِّرًا من تلك العاقبة البئسة التي تنتظر أولئك المشركين الذين يُصِرُّون على عبادة أصنام لا تعي، ولا تنفع، ولا تضر ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُكُمْ أَوْ يَنْصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودٌ أَيْلَاسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝﴾.

هناك يعترفون بضلالهم، ولا فائدة من هذا الاعتراف، ويتلومون فيما بينهم، ولا فائدة من هذا التلاوم، ويتمنون أن لو يعيدهم الله مرة أخرى إلى هذه الأرض، ولا فائدة من هذا التمني، ويلتفتون لعل شفيعًا يشفع لهم، أو صديقًا يتذكّرهم، أو قريبًا يرقّ لهم، فلا يجدون غير الحسرة والندامة، أعاذنا الله من ذلك.

أما من قصة نوح ۑ، فلنقف مع هذه المواقف:

أولًا: يتوجّه نوح إلى قومه ليبلغهم رسالة ربّه، ويحذّرهم مما هم فيه من ضلالٍ ووثنيّة، ولكنهم يواجهونه بالعناد والتكذيب ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْتَقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝﴾.

ثانيًا: يؤكّد نوح ۑ لقومه أنه لا يبتغي من دعوته أجرًا ماديًا ولا معنويًا؛ لأنّ دعوته دعوة ربّانيّة خالصة لا مطّمع فيها سوى رضا الله والجنة ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ وهذه سمة من سمات الدعوة لا ينبغي أن يغفل عنها الدعاة.

ثالثًا: لم يجد قومه ما يعيونه عليه إلا تبرّمهم بمن معه من المساكين والفقراء ﴿قَالُوا اتُّزِمُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝﴾ الأرذلون بمقاييسهم الماديّة، إنه نوعٌ من التكبر الطبعي الذي

يُقَسِّمُ المجتمعات إلى شرفاء وأراذل، أو نبلاء ومنبوذين، تبعاً لما معهم من جَاهٍ ومتاعٍ، وليس على ما يملكون من دينٍ وخلقٍ، أو ما يُقدِّمونه للناس من خيرٍ وخدمةٍ.

وقد ردَّ نوحٌ عليهم هذا التصنيف وهذا الاعتراض: ﴿قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٢) **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ** (١١٣) **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** (١١٤) **إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴿﴾ هكذا يتمسك نوحٌ بمن معه من المؤمنين، ويرفض المساومة عليهم، وهذه ثابتةٌ من ثوابت الدعوة لا ينبغي الحيد عنها مهما كانت الضغوط والتحديات.

رابعاً: هنا ظهر الباطل على حقيقته، وانكشف بصلفه وظلمه وعدوانيته ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

خامساً: لم يجد نوحٌ بُدّاً بعد كلِّ تلك القرون المديدة من الصبر والمصابرة، والحلم الطويل إلا أن يلجأ إلى ربه بهذا الدعاء الممزوج بالحسرة والألم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (١١٧) **فَأَفْتَحْ يَنِّي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿﴾، فاستجاب الله له، وأنجاه ومن معه من المؤمنين بعد هلاك الكافرين الظالمين ﴿فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ (١١٩) **ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ** (١٢٠) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ** (١٢١) **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴿﴾.

دقائق التفسير

﴿فَنَظَّلْهُمَا عَنكِفِينَ﴾ مُقِيمِينَ على عبادتها.

﴿أَوْ يَنْفَعُونَكَ﴾ إِنَّ عَبْدَهُمُ.

﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ من ترك عبادتهم.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فالذي خلق هو الذي يهدي ويُشرِّعُ، ويأمرُ وينهى، كما قال في

آية أخرى: ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض لنفسه والشفاء لربه، وهذا من حسن الأدب مع الله، وإلا فإن الله يتلى عباده بما شاء من صحة ومرض، وغنى وفقير، وقوة وضعف، والعاقبة للتقوى.

﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: اجعلني منهم وفي ركبهم.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: واجعل لي لساناً صادقاً يعرفني به الناس على مرّ الأجيال، فيثنون عليّ بالصدق والحق، لا بالكذب والبهتان، ولا بالغلو والطغيان، وقد كان له ذلك؛ فلا يذكره الناس على اختلاف مللهم وأديانهم إلا بخير، ولم يشطّ به الغلاة فيؤهّونه كما ألّهُوا بعض الأنبياء والصالحين.

﴿وَأَغْفِرْ لِي إِنِّي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ﴾ وهنا مسألة دقيقة، وخلاصة القول فيها: أن استغفار المسلم لغيره إن كان بمعنى طلب الهداية له، فهذا أمر مشروع ولا غبار عليه، وإن كان بمعنى طلب العفو عنه مع بقاءه على الشرك، أو أنه قد مات على الشرك فهذا محظور؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

وعلى هذا يُحمل قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١١٣) وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿[التوبة: ١١٣-١١٤].

﴿وَأَزَلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِّبَتْ لَهُمْ، جعلنا الله منهم.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أُظْهِرَتْ لَهُمْ بِلَهِيَّهَا ودخانها، أعادنا الله منها.

﴿فَكَبَّكُرُوفِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ فَأَلْقَى بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ.

(١) تكرر هذا النص الكريم مرتين في القرآن الكريم، وكلاهما في سورة النساء: ٤٨، ١١٦.

﴿فَلَوْ أَنَّ لِلنَّكَرَةِ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتمنون العودة مرة أخرى إلى الدنيا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبعزته كبكب هؤلاء المجرمين في النار، وبرحمته أدخل أولئك المتقين في الجنة.

﴿وَإِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تلازم الرسالة والأمانة، وفيه أن الداعية ينبغي أن ينال ثقة الناس بصدقه وأمانته، فهذا من تمام الحجّة ووضوح المحجّة.

وما يتوهمه بعض الجاهلين اليوم من التهاون في أموال الناس، والاستخفاف بهم، وبالمعلومات المقدّمة لهم على أنهم كافرون أو مُبتدعون، خروج عن الجادة، وتشويه الدعوة.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ تأكيد لنزاهة الدعوة عن أي مطمع ماديّ أو دنيويّ.

﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١٢) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ قاعدة جليّة في الدعوة، فالداعية لا يُنقب عن أحوال الناس وأسرارهم، بل هو يدعوهم إلى الصراط المستقيم، فيقبل مؤمنهم، ويتلطّف بمخطئهم، ويسرّ عيوبهم، ويكلّ أمر حسابهم إلى الله، أما ما يظنّه بعض الناس من الفطنة والنباهة وهم يتتبعون الزلاّت، ويحفظون العثرات، ويُسيئون الظنّ بالنيّات، فهذا سبب في القطيعة والتباعد حتى بين العاملين للدعوة أنفسهم.

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لنرجمنك.

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾ احكم بيني وبينهم، وهو بمعنى الدعاء عليهم.

﴿الْفُلُكِ الْمَشْحُونِ﴾ السفينة المملوءة بالخلق والمتاع.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبعزته أغرق الكافرين بالطوفان، وبرحمته نجّى المؤمنين بسفينة الإيمان.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

من الآية

١٢٣ - ١٥٩

﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِالنَّعِيمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتْ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُفْرِكُونَ فِي مَا هُنَّاءٌ أَمِينٍ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

هود وصالح

بعث الله هودًا إلى قبيلة عاد، ثم بعث صالحًا إلى قبيلة ثمود، وكلتاها من القبائل المشركة التي يغلب عليها طبع البداوة والجفاء، والقرآن يذكرهما في الغالب مُقترنين ومُتعاقبين، فيذكر هودًا أولًا، ثم يُعقب بصالح، وكأنتما قصة واحدة؛ لما بينهما من التشابه، كما سنرى في هذه النقاط:

أولًا: افتتح القرآن قصة هودٍ ﷺ بقوله: ﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِالنَّعِيمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتْ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُفْرِكُونَ فِي مَا هُنَّاءٌ أَمِينٍ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

ثم افتتح قصة صالح بقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُفْرِكُونَ فِي مَا هُنَّاءٌ أَمِينٍ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

ثم افتتح قصة صالح بقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُفْرِكُونَ فِي مَا هُنَّاءٌ أَمِينٍ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنجِحُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَنَا شَرِبَ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَسْهَوْهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

ولولا اختلاف أسماء الأعلام لما فرّقنا بين القصة الأولى، والقصة الثانية.

ثانيًا: كلاهما أكد نزاهة اليد، وأن هذه الدعوة دعوة ربانية ليس فيها من مطمع سوى رضا الله والجنة، فقد قال هود لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهكذا قال صالح لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثالثًا: ثم حذر هود قومه من التجبر والظلم، والإسراف في التعالي والترف: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾، وبما يقرب من هذا أيضا حذر صالح قومه: ﴿أَتُركُونَ فِي مَا ههنا آمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٣٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَـضِيمٌ ﴿١٣٨﴾ وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَـرِهِينَ ﴿١٣٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ومن مجموع هذه الآيات يتضح أن القومين كانوا على مستوى عالٍ من الرفاهية والنعيم.

رابعًا: وقد ردت عاد على نبيها بمنطق الاستعلاء الفارغ والتكبر: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾، وبما يقرب من هذا ردت ثمود: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾.

خامسًا: اختلفت ثمود عن عاد بقصة الناقة، وهي الآية التي طلبتها ثمود من نبيهم ﴿قَاتِ بِحَايَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ ۖ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا يَسْوَمٍ ۖ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، لكنهم ظلموا بها وكفروا ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾.

سادسًا: ثم التقيا بالعاقبة البئسة؛ حيث حلَّ فيهما عذاب الله بعد كفرهما وطغيانهما، أما عاد فيقول الله فيهم: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ

الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ: ﴿١٦٠﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانُوا مُتُؤَمِّنِينَ ﴿١٦٢﴾

دقائق التفسير

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أنكر عليهم الانشغال بالدنيا، والتباهي بالأبنية الشاخصة فوق كل مكانٍ مرتفعٍ إظهاراً للقوة والمنعة، مع قسوة القلب، والغفلة عن طريق الآخرة. والعُمران بأصله مشروعٌ، لكنّه لما كان رياءً ومباهاةً وتعالياً على الحقّ والخلق، سمّاه عبثاً، والرّيع: المكان المرتفع، و﴿آيَةً﴾ هنا: البناء الشاخص.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ بما يُناسبُ ذلك العصر من أدوات الري، والزراعة، وتجميع المياه، وكذا السلاح وأدوات القتال، وربما كان عندهم غير ذلك مما لم يصلنا عنه خبر، والله أعلم. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ يحتمل أنهم يُشيرون إلى مواعظ نبيّهم لهم، وأنها من موروث الأقدمين وأساطيرهم، وهو تعليلٌ لرفض دعوته ورسالته، ويحتمل أنهم يُشيرون إلى ما عندهم من دينٍ وثنيٍّ وعاداتٍ باطلةٍ، بمعنى أن هذا من موروث آبائهم وأجدادهم، فهم مُتمسكون به ولا يرضون عنه بديلاً، وهو تعليلٌ أيضاً لرفض دعوته، فتكون النتيجة واحدة، والله أعلم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبعرّته أهلك عاداً، وبرحمته نجّى هوداً. ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ اتّظنون أنكم تحلّدون في هذا النعيم، وأنكم بمأمنٍ من الموت والعذاب؟

﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ الطَّلَع: عِذْق النخلة الذي يحمل رُطبها، والهَضِيمُ: الرُّطْبُ البانع الجاهز للأكل.

﴿وَنَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ تنحِتون بيوتاً في الجبال بمهارةٍ وإتقانٍ، ترفاً ومباهاةً.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَسْرِفِينَ﴾ والإسراف هنا: الإفراط في الكفر والطغيان، وتبذير المال.
﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: المسحورين، وفي المُسَحَّرِينَ مبالغةٌ وزيادةٌ في المعنى.
﴿فَعَقَرُوهَا﴾ تعدّوا عليها وذبحوها.
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبعزته أهلك ثمود، وبرحمته نجّى صالحًا.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلَوْ لَا لَيْنُ لَوْ تَنَبَّهَ لُوطٌ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لَعَمْرِكُمْ مِنَ الْفَالِغِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ أَعْلَمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

لُوطٌ وَشُعَيْبٌ

إذا كان هودٌ وصالحٌ ﷺ يجمع بينهما أنها أرسلا إلى قبيلتين يغلب عليهما التعصب القبلي، والتمسك بالموروث من عادات الآباء والأجداد، فإن لوطاً وشُعيباً ﷺ أرسلهما الله إلى قريتين أو مدينتين.

وفي المدن ما ليس في القبائل من المشاكل والتعقيدات والأمراض؛ ولذا نجد الفساد هو المعضلة التي جمعت بين قوم لوطٍ وقوم شعيبٍ وإن اختلفت مجالات الفساد ومظاهره، بينما لم يكن هذا وارداً في عادٍ وشمود؛ فلعادٍ وشمود مُعضلات أخرى، ومشاكل أخرى تتناسب مع طبيعتها القبليّة، أما قصّة لوطٍ مع قومه فيمكن تلخيصها كما وردت في هذه الآيات بالآتي:

أولاً: بدأ لوطٌ دعوته لقومه بما بدأ به نوحٌ وهودٌ وصالحٌ، وقد واجهَ مثل ما واجهوا من الإعراض والتكذيب ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ﴾.

ثانياً: أكد نزاهة يده، وأنه لا يرجو منهم أجراً ولا جزاءً، كما أكد الأنبياء السابقون ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثالثاً: شخّص الداء الذي أصابهم وشذّبهم عن جادة الفطرة الآدمية ﴿أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

رابعاً: إلا أن قومه ردّوا عليه كما ردّت الأقوام السابقة على أنبيائهم: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾.

خامساً: هنا أعلن براءته منهم، ثم توجه بالدعاء والضراعة إلى ربّه أن ينجّيه وأهله من هؤلاء القوم ومما سيصيبهم ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

سادساً: استجاب الله دعاء لوط، فنجّاه وأهله إلا عجوزاً كانت موالية لقومها، ثم دمر الله القرية وكلّ من فيها بمطرٍ من العذاب ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَتَجَمِعِينَ﴾ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

أما قصة شعيب مع قومه، فيمكن تلخيصها كما وردت في هذه الآيات بالآتي:
أولاً: بدأ شعيبٌ دعوته لقومه بما بدأ به نوحٌ وهودٌ وصالحٌ ولوطٌ، وقد واجهَ مثل ما واجهوا من الإعراض والتكذيب ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ نَيْكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمَلَكُمْ﴾.

ثانياً: أكد نزاهة يده وأنه لا يرجو منهم أجراً ولا جزاءً، كما أكد الأنبياء السابقون

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثالثًا: شَخَّصَ الداء الذي أصابهم - كما فعل لوط -، لكنه داءٌ مختلفٌ وإن كان مشتركًا بمعنى جامع، وهو الفساد؛ حيث كان فسادُ قوم لوطِ فسادًا أخلاقيًا ومُنافيًا للفطرة، بينما كان فساد قوم شعيبِ فسادًا اقتصاديًا مُنافيًا للحقِّ والعدل ﴿﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾﴾ (١٨١) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (١٨٢) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (١٨٣) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ﴾.

رابعًا: إلا أنَّ قومه ردُّوا عليه كما ردَّت الأقوام السابقة على أنبيائهم: ﴿﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾﴾ (١٨٥) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٨٦) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٨٧) ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

خامسًا: لقي قومه ما لقيته الأقوام الأخرى جزاء تكذيبهم وظلمهم ﴿﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾﴾ (١٨٩) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٩٠) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾﴾ أي: لنُخرجنَّك.

﴿﴿ مِّنَ الْقَالِينَ ﴾﴾ من المُبغضين الكارهين.

﴿﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ ﴾﴾ كانت تُوالي قومه فأهلكها الله مع الهالكين.

﴿﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾﴾ من الحجارة المهلكة؛ ولذلك قال: ﴿﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾﴾.

﴿﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾﴾ فبعزته أهلك قوم لوط، ونجَّى من بينهم لوطًا.

﴿أَصْحَابُ نَيْنَكَةَ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام، وأصل الأيكة الشجرة.

﴿بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الميزان العدل.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لا تنقصوهم أموالهم من حيث وزنها ومقدارها أو ثمنها.

﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ إشارة إلى أن الفساد المالي ينشر الفساد في الأرض، وهذا واقع

ملموس في كل زمان، فالرشوة مثلاً لا تُفسد المال فقط، بل تُفسد الأخلاق والعلاقات وكل

مجالات الحياة، حتى التعليم والقضاء.

﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى﴾ أي: الأمم الذين قبلكم، وأصل الجبلة الخلقة.

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ قطعاً من العذاب، يطلبونه تحدياً وعناداً ومكابرةً.

﴿يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ يوم السحاب الذي كان فيه هلاكهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فبِعزته أهلك أصحاب الأيكة، وبرحمته نجى شعيباً.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

من الآية

١٩٢ - ٢٢٧

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ يَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِيعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا نَنْزِلُ بِهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّي مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرْبِكَ حِينَ نَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَى مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ نَزَلَ عَلَى كُلِّ أَقْلٍ أُتِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

دعوة نبينا محمد ﷺ

اختتمت السورة بما استهلّت به، فالدعوة المحمدية هي المحور الأساس في هذه السورة، وما جاء بين الاستهلال والختام من تجارب النبيين السابقين مع أقوامهم، إنّما كان الغرض منه التزوّد بالخبرة، وأخذ العبرة، وتسليّة المصطفى ﷺ مما يُلاقيه من قومه في مكة من صدود وجحود، ويمكن تلخيص المعاني التي وردت في هذه الخواتيم بالآتي:

أولاً: تأكيد ما ورد في أول السورة من أنّ القرآن هو الحقّ المبين، مع توسّع في المدلول، وشرح للدليل، ومناقشة للمشكّكين والمكذّبين ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

ثانياً: إضافة معنى أنّ الكتب السابقة تشهد لهذا القرآن وتؤيّدّه ولا تُعارضه ﴿وَإِنَّهُ لَفِي

زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

ثالثًا: أنَّ هؤلاء المشركين المعاندين لن يؤمنوا بهذا القرآن، سواء كان الذي جاءهم به عربيٌّ منهم، أو أعجمي من غيرهم؛ لأن المسألة عندهم مسألة عنادٍ واستكبار، وليست مسألة نظير واعتبار، وبهذا استحقوا العذاب الأليم ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۖ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ۝٢١٩ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٢٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٢٢١ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٢٢٢ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ۝٢٢٣ أَفَعَدَّابُنَا سِتَاجِلُونَ ۝٢٢٤ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝٢٢٥ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٢٦ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ۝٢٢٧﴾.

رابعًا: تأكيد العدل الإلهي المطلق، وأنَّ الله مُنْزَرَةٌ ﷻ عن الظلم، وأنَّ ما يُصيب هؤلاء الظالمين إنما هو بما اقترفته أيديهم دون إكراه، ولا سلب اختيار ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝٢٢٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٢٩﴾.

خامسًا: تنزيه القرآن عن وساوس الشياطين، والفصل التام والحاسم بين آيات القرآن البينات، وبين ما تُوجِّهه الشياطين إلى أوليائهم من تضليلٍ وخرافاتٍ وأوهام ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢٣٠ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢٣١ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ۝٢٣٢ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ۝٢٣٣ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٣٤ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ۝٢٣٥﴾.

ثم تعرَّض القرآن لنمطٍ من الأبواق التي تشيع الباطل وترُوج له باسم الأدب أو الفن، وتُعيل من شأن الظالمين والمنافقين وكلِّ مُفسِدٍ على هذه الأرض ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ۝٢٣٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٣٧ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٣٨﴾.

ثم استثنى الذين آمنوا منهم وسخرُوا طاقتهم لنصرة الحقِّ وأهله ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۝٢٣٩﴾.

سادسًا: تأكيد معاني التوحيد الحقِّ ونقض الشرك بكلِّ صورته ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ۝٢٤٠﴾.

فَتَكُونُ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴿٢١٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَنِيِّ الرَّحِيمِ ﴿٢١٨﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢١٩﴾

سابعًا: الأمر بدعوة الأقرب فالأقرب إلى هذا الصراط المستقيم، وتخويفهم من عاقبة

الشرك والانحراف عن الهدى القويم ﴿٢٢٠﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢٢١﴾

ثامنًا: خفض الجناح للمؤمنين، والتعاون معهم على ذكر الله وعبادته وتبليغ رسالته

﴿٢٢٢﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ الَّذِي يَرْتَكِبُ حِينَ تَقُومُ ﴿٢٢٤﴾ وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢٢٥﴾

﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

دقائق التفسير

﴿٢٢٨﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢٢٩﴾ هو جبريل عليه السلام.

﴿٢٣٠﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴿٢٣١﴾ يا محمد، وفي العبارة من الودِّ والأنس واللطف، والإشارة إلى النور الذي

يعمر قلبه ﷺ والمحبة والرحمة ما لا يخفى على لبيب.

﴿٢٣٢﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٢٣٣﴾ تأكيد وبيان لما ورد في مُسْتَهْلِ السورة: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

﴿٢٣٤﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣٥﴾ بمعنى أن التبشير بهذا القرآن، والتنويه بمكانته وعلو شأنه قد

ورد في الكتب السماوية السابقة.

﴿٢٣٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣٧﴾ الظاهر أنهم العلماء العدول الذين هداهم الله

للإسلام؛ كعبد الله بن سلام، ولا يبعد أن يكون المقصود أعم من ذلك، ليشمل كل علماء

بني إسرائيل الذين تتوافق معلوماتهم مع ما ورد في القرآن من أخبار الأمم السابقة، وكذلك

بعض الذين تحاوروا مع المسلمين في بعض المسائل فأبانوا عما يشهد لهذا القرآن، سواء آمنوا

به أم لم يؤمنوا، ومن يتتبع اليوم أقوال بعض المستشرقين يجد هذا النموذج واضحًا، والله

أعلم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ فهم لم يؤمنوا بالرسول الذي يعرفونه ويعرفون نسبه وصدقه وأمانته، ويفهمون لغته وفصاحته، فكيف سيؤمنون لو جاءهم نبي أعجمي لا يعرفون نسبه، ولا يفهمون لغته؟ والمعنى: أنهم مُعاندون ومُكابرون لا غير.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: سلكنا التَكْذِيبَ في قلوبهم بسبب عنادهم وإجرامهم، فلا يُرجى إيمانهم، والكلام عن فئة من المشركين وليس عن جميعهم؛ إذ إنَّ كثيرًا منهم قد تاب وأناب، وحسَّن إسلامه.

﴿هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ يتمنون تأخير العذاب عنهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا هَا مُنْذِرُونَ﴾ أي: إلا بعد أن بلغتهم الدعوة الصحيحة، وقامت عليهم الحجة.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تأكيدٌ لعدل الله المطلق، ودفعٌ لشبهة الإكراه، وسلب الاختيار عند قوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعْزُولُونَ﴾ فهم لا يسمعون الوحي، ولا يعلمون الغيب، ولا يتصلون بخبر السماء. وفي هذا تنزيهٌ للقرآن عن كلِّ شبهة من هذا القبيل، وفيه أيضًا تصحيح التصورات الخاطئة عن عالم الجن والشیطان، والتي تصل إلى حدِّ الخرافة وإن تلبَّست بلبوس الدين.

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ كناية عن التواضع، والجناح للطائر، ونسبته للإنسان على سبيل المجاز المحض، وفيه جواز استعمال المجاز بإطلاق، سواء اتَّصف به على الحقيقة قبل المجاز أم لا.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ فيه إشارة أن الله بعزته سيُهْلِك الكافرين المعاندين، كما أهلك فرعون، وقوم نوح، وعادًا، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأنه تعالى برحمته

سينصر المؤمنين ويُنجيهم، كما نجى موسى وإبراهيم ونوحًا وهودًا وصالحًا ولوطًا وشُعيبًا، وهذا سرُّ تكرار هذه الآية العزيزة الرحيمة.

﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ بمعنى أَنَّ اللهَ معكَ برعايته ونُصرته وتأييده في جميع أحوالك؛ قائمًا في جوف الليل تُناجيه وحدك، أو بوجودك مع أصحابك المُصلِّين الراكعين الساجدين، والتقلبُ: التردُّد والذهابُ والمجيءُ، والمقصودُ صُحبَتهم، ومُشاركَتهم في أحوالهم، وشؤون دينهم ودنياهم.

﴿أَفَاكُ﴾ كثير الكذب.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ صورة من صور الكذب والدجل، فهؤلاء الكهنة والدجالون يتظاهرون كأنهم يتلقون الخبر من السماء، فيصغون أشدَّ الإصغاء، في حركة تحدع السدج والبلهاء، ثم يتكلمون بعد هذا الإصغاء والانتظار بما يشغل بال هؤلاء المساكين، فيُصدِّقونهم بما يقولون بلا بَيِّنَةٍ ولا شهودٍ.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ هم سُعراء الفتنة والإفساد، وهم مهوى قلوب الغاوين والفاستدين.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ فيمدحون بالباطل، ويهجون بالباطل، ويُفاخرون بالباطل، يبخثون عن الشهرة والمال من أين جاء؛ ولذلك فهم في كلِّ وادٍ يهيمون، أي: في كلِّ طريقٍ يجدون فيه شهوتهم وبغيتهم.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فالكذب دأبهم، والفخر الأجوف ديدَنهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء يُخرجُ الشعراء المؤمنين الذين وظَّفوا شِعْرَهم لخدمة الحقِّ وأهله، وانتفضوا ضدَّ الظلم والظالمين، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۚ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

تم الجزء الثاني،

ويليه الجزء الثالث وأوله

﴿ سورة النمل ﴾